الألف كتاب
الثاني
١٩٣

كريستيان ديروش نوبلكور

المرأة الفرعونية

ترجمة: فاطمة عبد الله محمود
مراجعة: د. محمود ماهر طه



الهيئة المصرية
العامة للكتاب

المرأة الفرعونية

تأليف

كريستيان ديروش نوبلكور

ترجمة

فاطمة عبدالله محمود

مراجعة

د. محمود ماهر طه



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٥

هذه هي الترجمة العربية الكاملة لكتاب

La Femme au Temps des Pharaons

Par

Christiane Desroches Noblecourt

الفهـــــرس

مقدمة

نشأت أرض مصر القديمة بين سلسلة جبال الصحراء الشرقية والصحراء الغربية وكانت تسمى فى العصور الغابرة « كيمت » أو الأرض السوداء · وتكونت تلك الأرض من ترسيب طبقات الطمى التى تراكمت على مدار آلاف السنين من الفيضانات السنوية التى تسببها الأمطار الموسمية فى أفريقيا · ولولا النيل الأبيض الذى يتفرع من بحيرة فيكتوريا وبحيرة ألبرت العظمى ، ولولا النيل الأزرق الذى تغذيه هضبة اثيوبيا لغدت تلك الأرض السوداء صحراء جرداء قاحلة تلفحها حرارة الشمس الحارقة ·

آمن المصريون القدماء أن كل شىء يخضع لارادة عظمى تهيمن على قدر العالم أجمع ، وأن تلك القوى العظمى تسيطر على حياة كل كائن حى ، وتنظم وترتب أموره فى كل ساعة من ساعات الليل والنهار ، التى قسمها المصريون الى أربع وعشرين ساعة · وجمعوا الأيام فى سنوات يتألف كل منها من ٣٦٥ يوما ، تبدأ بقدوم الفيضان · وكأنما كان هذا الفيضان ساعة حائط هائلة لا تتوقف أبدا أو تقويما يتكرر بدقة مذهلة·

وينقسم وادى النيل الى اقليمين هما مصر العليا أو الصعيد ، ومصر السفلى أو الدلتا حيث تخصب الأرض وتزدهر الزراعة · أما خارج أرض الوادى فلا يلقى المرء أمنا أو سلاما · ان هذه الواحة الفريدة من نوعها تحفها الرمال من الشرق والغرب ، وكأنما هى اطار يحدد مجرى الحياة الدائبة ·

ان هذا لبرهان الهى قاطع على ديمومة الحركة التى لا يجب ابدا أن تغير من توازنها ، أو أن يعاق تقدمها ، وهو المفهوم الذى تغلغل فى أذهان المصريين أكثر من غيرهم . ان جذور المصريين تضرب الى أعماق أرضهم ، ولقد آمنوا ايمانا لا يتزعزع بأن كل ما ينعمون به هو منحة من الاله الأعظم ، وأن عليهم أن يدمجوا كل شيء فى اطار هذا النظام الكونى الذى خلقه الاله . ومن ثم فعلى كل مخلوق أن يرضى بما قسمه له خالقه وكل ما أحاطه به ، ولكن عليه أن يستغل الطاقات الكامنة التى أودعها فيه وأحاطه بها هذا الخالق الأعظم استغلالا أقصى . ولقد خلق الاله الذكر والأنثى ليتكاملا وعليهما أن يقوما بدورهما المقدر والمحدد ، ولهما أن ينعما بالتقدير والاحترام اللذين هما أهل لهما .

كانت مصر تبدأ مع كل فيضان دورة جديدة فى حياتها تتعاقب فيها فصول ثلاثة كل منها يتكون من أربعة أشهر . وكل منها يحمل الى سكان وادى النيل الأمل والتفاؤل بفيض هذا النهر الخير الذى يحمل اليهم خيراته والذى تغذى مياهه أرض الوادى ودلتاه . ومع مياه النهر المتدفقة تأتى الفرحة والبهجة والأمل فى محصول وافر ، ولكنها أحيانا كانت تسبب القلق اذ كان أكثر ما يخشاه المصرى أن يأتى الفيضان ضئيلا فتعطش أرضه . لقد كانت عودة مياه الفيضان الوفير بشرى بتجدد الحياة وبرهانا على الخلود والأبدية .

وعلى مدار السنين تضافرت معجزة التعاقب المتوالى هذا مع شمس وادى النيل المشرقة المتألقة التى لا يضاهيها فى اشراقها وتألقها بلد آخر ، مما أثر على سكان مصر وعلى عقائدهم وتقاليدهم وأساليب حياتهم فى سائر طبقات المجتمع . وكان من المسلم به احترام التقاليد التليدة والرضوخ لها حتى لا يختل توازن النظام الكونى القائم ، والذى يرتبط به كل شيء فى الوجود منذ أن أوجده خالقه . وهو أمر ليس بالخفى حتى يومنا هذا لا سيما فى أقاليم وقرى مصر النائية ، حيث نرى بعضا من الملامح المميزة لحضارة الفراعنة الغابرة .

ورغم تعاقب الغزوات والحروب والصراعات وعصور الاحتلال ، صمدت الأرض السوداء وامتصت من غزاها وصبغته بصبغتها . فالمصرى لم يجنح الى تغيير نمط حياته الأساسى أو أحوال معيشته الا فى أقل القليل . وبالرغم من تحوله عن دينه مرتين على الأقل وتغيير أماكن ممارسة الشعائر والطقوس الدينية خلال عصرين ، الا أن ايمانه الراسخ بالقوة الالهية العليا لم يتزعزع ولم يضعف قط .

ولا ريب أن تجربتى الطويلة على مدار سنوات عديدة قضيتها مع الفلاحين فى القرى ، أو مع البدو فى الجبال الجرداء فى مواقع التنقيب

عن الآثار ، ثم مع سكان المدن من كافة طبقات المجتمع قد ساعدتنى على تفهم أفكار سكان وادى النيل القدماء ، ومكنتنى من أن أدنو منها كثيرا . فالمظهر الخارجى للمصريين قد تغير فى شيء أو آخر ، ولكن الجوهر التليد هو كما هو . وكم أفدت من مراقبتى لنساء الريف فى مصر العليا وهن يمارسن شئون حياتهن العادية وكم أفدت من حديثى مع سيدات الطبقة الراقية ، ولولا ذلك لما استطعت أن أتفهم المواقف والتقاليد التى تعبر عنها الرسوم والمناظر المنقوشة على الجدران فى المعابد والمقابر ، أو التعبيرات اللغوية التى وردت فى النصوص القديمة .

ان آثار مصر القديمة ترسم صورة للدولة الخالدة التى كان للمرأة المصرية فيها دور كامل تؤديه ، فهى الأم التى تحظى بالاحترام والتبجيل، والفتاة أو الزوجة التى تنصاع لقوانين أخلاقية صارمة ، ولكنها لا تمنعها من أن تعبر عن آرائها بحرية ولا تحرمها من أن تحظى بالاحترام والتقدير . فلقد تمتعت المرأة فى مصر القديمة بأهلية قضائية كاملة ، وكان لها استقلالها المالى عن الرجل وطبعت بشخصيتها القوية أثرها على الحياة العائلية . وكان لها أن تدير الممتلكات العامة أو ممتلكاتها الخاصة ، بل وأن تمسك بزمام الأمور فى البلاد . ولا يعنى هذا أنها امرأة تجردت من الأنوثة والجاذبية فهى امرأة فاتنة جذابة ، وكان هدف الفتاة الأساسى أن تختار شريك حياتها بكامل ارادتها وحريتها ، وأن تصبح زوجة وأما صالحة . ولا يعنى هذا أن النظام الأسرى كان أموميا ، أى أن الأم تخضعه لسلطانها ، بل كان الزوج والزوجة يتقاسمان المسئوليات المعتادة فى اطار حياتهما الزوجية ، حيث يتكاتفان فى السراء والضراء ، وتسير بهما الحياة سيرها العادى بخيرها وشرها . ولكن لم تخل تلك الحياة البسيطة من المؤامرات ، وكانت الخيانة الزوجية من الجرائم التى يلقى مقترفها عقابا عنيفا ، وان تخفف القانون من صرامته فى بعض الأحوال .

وكما هو الحال فى كل زمان ومكان نقرأ عن خادمات يغلظن القول لربة البيت ولا يبدين نحوها الطاعة والاحترام الواجب ، وعن كاهنات أوشكن أن ينزلقن الى هاوية الخطيئة ، وعن ملكات تآمرن على ملوكهن . وتروى لنا بعض الآثار التى حفظتها الصدفة روايات عجيبة تبرهن على المواهب الرفيعة التى تمتع بها المصريون القدماء ، ذلك الشعب الذى أبدع حضارة متقدمة فى ذات الوقت الذى كان أجدادنا فى أوروبا قابعين فى ظلمات الكهوف .

البحر المتوسط
الإسكندرية
القاهرة
حلوان
سيناء
سرابيط الخادم
وادى مغارة
البهنسا
أسيوط
أخميم
أبيدوس
قفط
طيبة الغربية
طيبة الشرقية
إسنا
أدفو
جبل السلسلة
أسوان
فيلة

خاتى (بلاد الحيثيين)
ميتانى
قبرص
كريت
البحر الأبيض
أشور
بابل
أكاد
سومر
غزة
فلسطين
بترا
مصر
طيبة
أسوان
عنيبة (ميام)
أبو سمبل
وادى حلفا
واوات
صلب
كوش (السودان)
بونت؟
صحراء الجزيرة العربية
اليمن
إثيوبيا
النيل الأبيض
بحيرة رودلف
بحيرة ألبرت
بحيرة فيكتوريا

الطريق الذى سلكته زوجة رمسيس الثانى الحيثية عندما قدمت إلى مصر

وادي الغرب
وادي بيبان القرود
مقابر وادي الملوك
الدير البحري
العساسيف
شيخ عبد القرنة
معبد تحتمس الثالث
معبد حتحور
دير المدينة
قرنة مرعي
معبد أمنوفيس
الرمسيوم
معبد مرنبتاح
كوم الحيطان
معبد أمنحتب الثالث
تمثالا ممنون
معبد رمسيس الثالث
(مدينة هابو)
ملقطة
وادي الملكات
بركة هابو
معبد إيزيس
درب وادي الملوك
ذراع أبو النجا
معبد سيتي الأول
(القرنة)
نهر النيل
الكرنك
معبد المونتو
معبد آمون رع
معبد خونسو
معبد آمون
معبد موت
طريق الكباش
مدينة الأقصر
معبد الأقصر
١٠٠٠ ٨٠٠ ٦٠٠ ٤٠٠ ٢٠٠ صفر

الجزء الأول

المرأة فى دنيا الأرباب

ايزيس .....

أنت أنت ربــة الأرض

التى جعــلت قــدرة المرأة

تتســاوى مــع قــدرة الرجــل ....

الأنوثة المقدسة



شكل (١) خلق الشمس على أيدى أرباب وربات ثامون الاشمونين

الخالق ومظاهره المختلفة

توضح لنا النصوص الأسطورية والدينية فى مصر القديمة عقيدة الخلق عند القدماء ، الذين تصوروا وجود خالق أعظم يسود الكيان المائى اللانهائى الأزلى « قبل أن تكون السماء ، وقبل أن تولد الأرض ، وقبل أن تخرج البشرية الى الوجود ، بل وقبل أن تنشأ الآلهة وأن يكتب الموت » (١) ٠

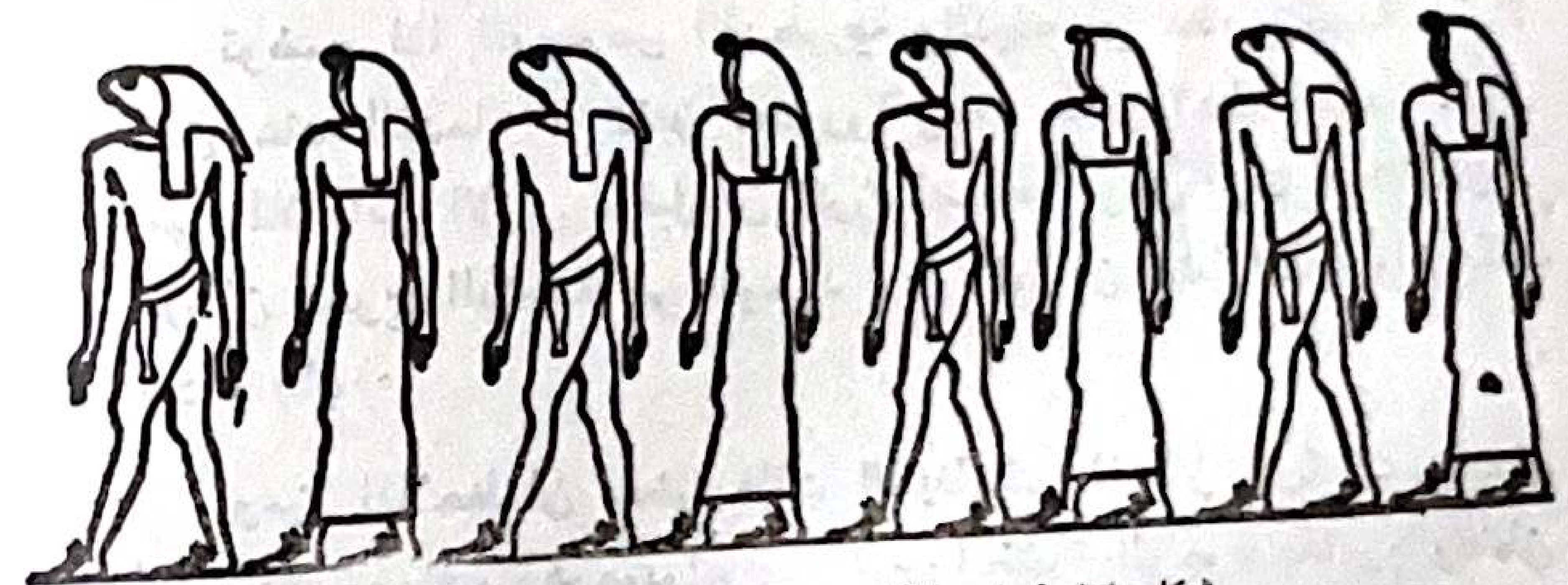
ومن الملاحظ أن بعض فئات الكهنة فى المراكز الرئيسـية مثل هليوبوليس ومنف وهرموبوليس ، فسروا نشأة الوجود بمفهوم ومنطق

خاص بهم · ومن ثم اختلفت قصة نشأة الوجود من مكان لآخر ، ولكنها تتلاقى جميعا وترتكز على مفهوم موحد ومشترك الا وهو وجود كيان مائى لا نهائى ليست له أبعاد محددة ، قال عنه المصريون انه محيط مائى كثيف ترتع فى مياهه كل نطفة وكل بذرة تنتظر لحظة الخلق والوجود · وكان « نون » هو الماء الأزلى الذى منه انحدرت جميع الآلهة ، فهو رب الأرباب القابع فى غياهب الظلمات ، وهو الجد الأول لكل كائن حى يأتى الى الوجود · ومن أعماق هذا المحيط المضطرب الذى يشمل عناصر الوجود ، ظهر الواحد الأحد ظهورا تلقائيا من ظلماته الحافلة بالأسرار ، وجاء الى الوجود دون أن تحمه أم أو تلده · ونحن نجد أن مختلف هذه النظريات الخاصة بالكون تتناول فكرة الخليقة وفق مفهومها للاله ، فمنها ما اتسم بقدر كبير من التجريد مثل النظرية المنفية المنسوبة الى الاله بتاح ، ومنها نظرية علمية وضعها كهنة هرموبوليس ، ولكن أشدها انسانية تلك النظرية التى انبثقت من لاهوت هليوبوليس · ومن هذا نرى أن الاله الواحد الأحد قد اتخذ أسماء متعددة وفقا لاختلاف الأقاليم ، ولكن الملاحظ دائما أنه له وليس الهة .

غير اننا نرى الهة كبرى فى منطقة « سايس » هى الربة « نيت » ، التى لا يجب أن نغفل ذكرها ونحن نناقش هذه النظرية الشهيرة ، فهى من أرباب الخليقة ·

والواقع أن رب الأرباب كان يشتمل فى ذاته على العناصر الأساسية للذكر والأنثى ، كما لو كان ذكرا وأنثى فى ذات الوقت . أى انه كان يجسد الأب والأم اللذين كانا معه وهو فى « نون » (٢) قبل فجر الخليقة ·

ولقد اهتم المصريون بالتعرف على العنصر الأنثوى داخل نطاق النشاط الربانى ، ومن ثم كان لكل مدينة ولكل اقليم منذ بداية العصر التاريخى ، معبود له زوجة من الربات تنجب له ابنا ليكونوا ثالوثا ، فالثالوث فكرة مصرية صميمة ·



شكل (٢) أرباب الثامون فى هيئة الضفادع والثعابين

أرباب وربات هرموبوليس

ينقسم هؤلاء الأرباب والربات الى أربعة أزواج اندمجت معا لتخلق النون ، والعنصر الأنثوى فيها واضح وسوف نلاحظ دوره فى عمليات الخلق الأخرى · ويمكننا أن نميز بين العنصرين المكونين للكيان المائى اللانهائى الأزلى وهما « نون » و « نونت » · كما ينقسم عنصر الأبدية الكونية الى ذكر وأنثى ، هما « ححو » و « ححت » وكذلك الظلام الكثيف « ككو » و « ككت » ومثلهما « آمون » و « أمونت » ، وهما يمثلان الجوهر الخفى ، وقد يستبدل بهما أحيانا « نياو » و « نياوت » وهما يرمزان الى الفراغ الكونى · وتزعم هذه النظرية أن الأقانين الثمانية الذكرية والأنثوية (٣) قد تضافرت لتخلق النور الذى انبثق من زهرة اللوتس ، تلك الزهرة التى خرجت من جوف البحيرة الكبيرة لهرموبوليس (٤) ·

نظرية هليوبوليس

تعد نظرية هليوبوليس أكثر نظريات الخلق انتشارا ، ويزعم واضعوها بأن الاله « أتوم » رأس عائلة كاملة من الآلهة تتألف من تسعة عناصر متكاملة · وترسم هذه الأرباب المنهج الذى سار عليه ملوك المصريين الفراعنة بل والبشر العاديون أيضا · فالشمس هى رأس التاسوع المقدس ، وهى الاله « أتوم » الذى خلق الكائنات الأولى على اختلافها من ذكور واناث ، سواء عن طريق الاستمناء ، أو من لعابه أو بصوته · ويتضمن هذا التاسوع تسعة أرباب ، أولها « شو » الذى يجسد الفراغ المضىء أى الهواء والنور أو أنفاس الاله الخالق ، وهو القوة الدينامية للكون الذى اكتمل بعد ذلك بأخته التوءم « تفنوت » التى كانت تمثل الرطوبة ·

وواصل هذان الزوجان « شو » ، « تفنوت » عملية الخلق لينجبا بعد ذلك رب الأرض « حب » وهو اله المعادن والمزروعات ، أما رفيقته « نوت » فهى ربة السماء ، ومنهما جاء « أوزوريس » و « ايزيس » و « ست » و « نفتيس » (٥) ، وهم أبطال الأسطورة الأوزورية الشهيرة التى سوف نتناولها فيما بعد ، وأخيرا يجىء الاله حورس العظيم ·

ان الأساطير الكونية المعروفة تصور عالم الآلهة على نحو يتفق مع مفاهيم ومدركات المصريين القدماء · والمفهوم الجوهرى لتلك الأساطير يرتكز على تكامل الذكر والأنثى · وسوف نرى كذلك أن

مفهوم المصرى لدور الأنثى كان وثيقا بتحقيق التوازن الكونى ، ومرتبطا بالتحولات والتقلبات التى تطرأ عليه فى اطار الأسطورة والأقصوصة الدينية التى سنعرض لها هنا بايجاز (٦) .

وليس العنصر الأنثوى فى دنيا الآلهة بالعنصر السلبى ، فالمرأة هى الرفيق والشريك والكفيل . وربما تسبب هذا العنصر الأنثوى فى بعض القلاقل ، أو ربما بالغ فى رقته وحنانه ، أو قد يكون اذا دعا داع عدوانيا شرسا . وقد يلجأ أحيانا الى التخابث والتحايل ، ولكن المرأة دائما أبدا هى الأم الحنون ، ومبعث السرور والمرح التى تدخل البهجة على قلب الاله اذا أصابه الكدر .

هلاك البشرية

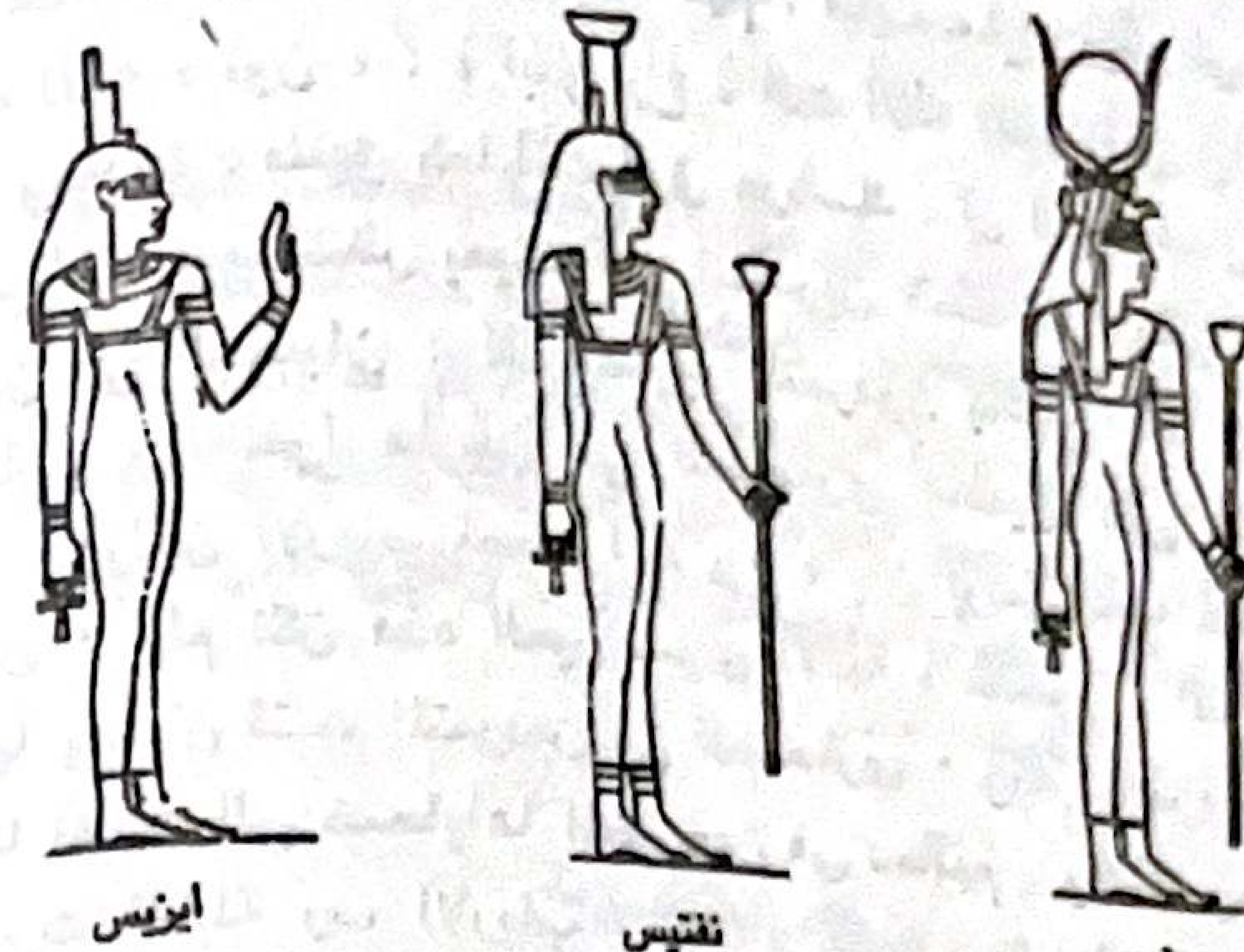
ترتكز هذه الأسطورة على مفهوم أنثوى مركب فى جوهرها ، ولقد وصلتنا بعض أحداثها التى تجعلنا نرى فيها المقابل المصرى لقصة الطوفان . وتقول القصة ان اله الشمس رع حكم الأرض بعد خلقها ، ودان له الأرباب والبشر اجمعون بالسلطة ، ولكنه مع مرور الزمن تقدم به العمر وادركته الشيخوخة وحسب عبارات الأسطورة « لقد أصبحت (عظامه) كالفضة وتحولت أعضاؤه الى ذهب (*) وبات شعره من اللازورد ... » وعندما نمى ذلك لأهل الأرض الذين كانوا يشعرون نحوه بالغيرة الشديدة ، بدءوا يحيكون ضده المكائد والمؤامرات . وكان تصرف « رع » تصرفا حكيما وحازما ، اذ نادى أحد خدمه وقال له : « احضر لى عينى ، وشو وتفنوت ، وجب ونوت ، وكذلك الآباء والأمهات الذين كانوا برفقتى عندما كنت فى المياه الأزلية « نون » . واحضر لى ايضا ، الرب « نون » نفسه . احضرهم الى بكل هدوء ، بحيث لا يراهم أحد من البشر والا انخلعت قلوبهم رعبا ، وتفرقت نفوسهم شعاعا . ولتعد الى قصرى مع هؤلاء الأرباب حتى يعرضوا على وجهة نظرهم (......) وجىء بجميع هؤلاء الأرباب الذين سجدوا أمام جلالته . (والمشهد هنا لا يختلف كثيرا عن أى مشهد يدور فى بلاط أى فرعون) . وقال الأرباب جميعا للاله الأعظم رع : « حدثنا ، نود سماعك » . ووجه « رع » كلامه لأكثرهم هيبة وجلالا ، الا وهو الاله « نون » قائلا له : « انك أقدم الأرباب عمرا ، وقد انبثقت أنا منك . وأنتم أيها الأرباب الأسلاف ، أرأيتم ماذا يفعل البشر الذين انجبتهم من عينى ، انهم يحيكون ضدى أمرا ما ، قولوا لى اذن ماذا أنتم فاعلون

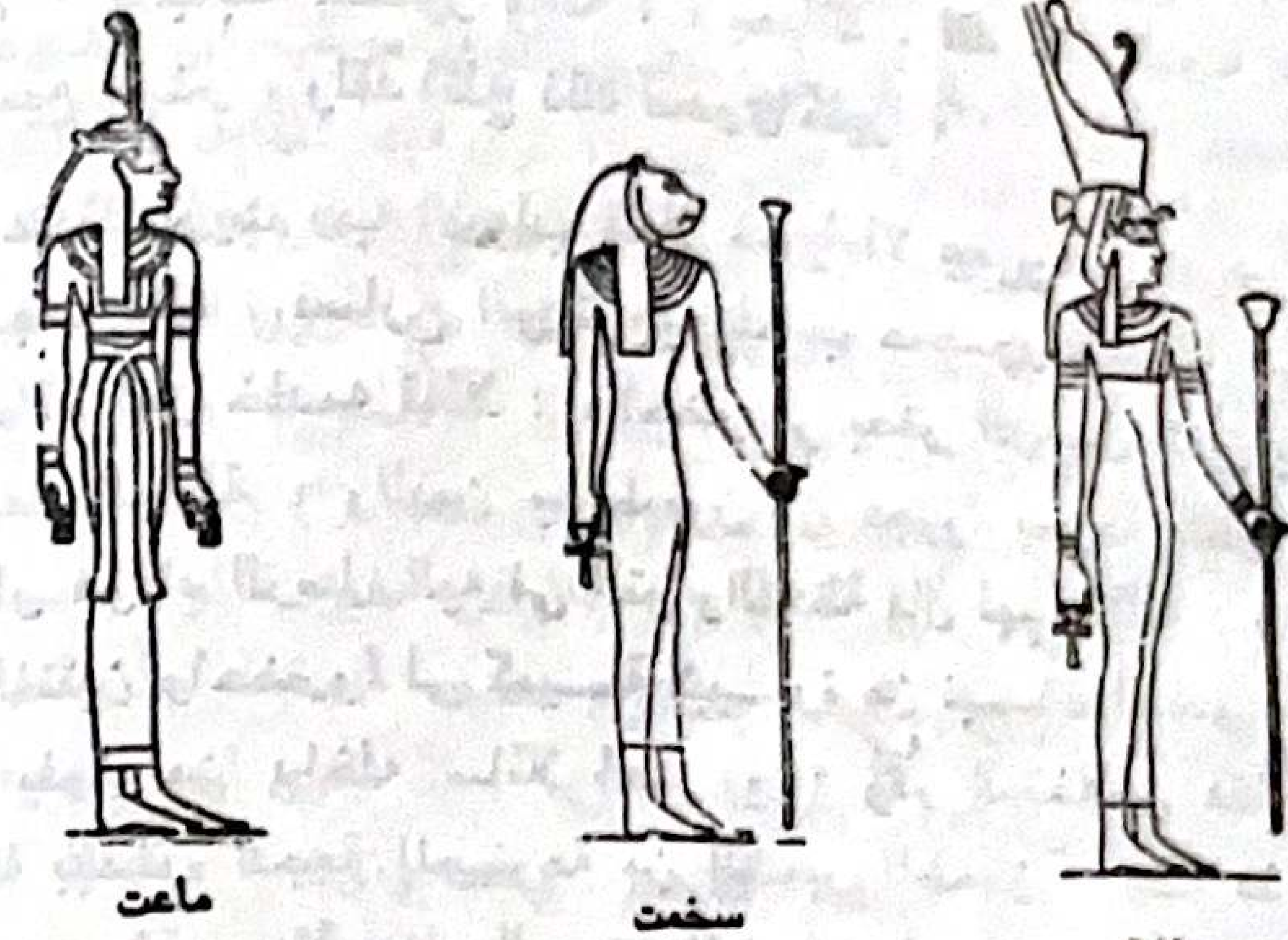
(*) أى وهنت عظامه واصفر لونه (المترجمة) .

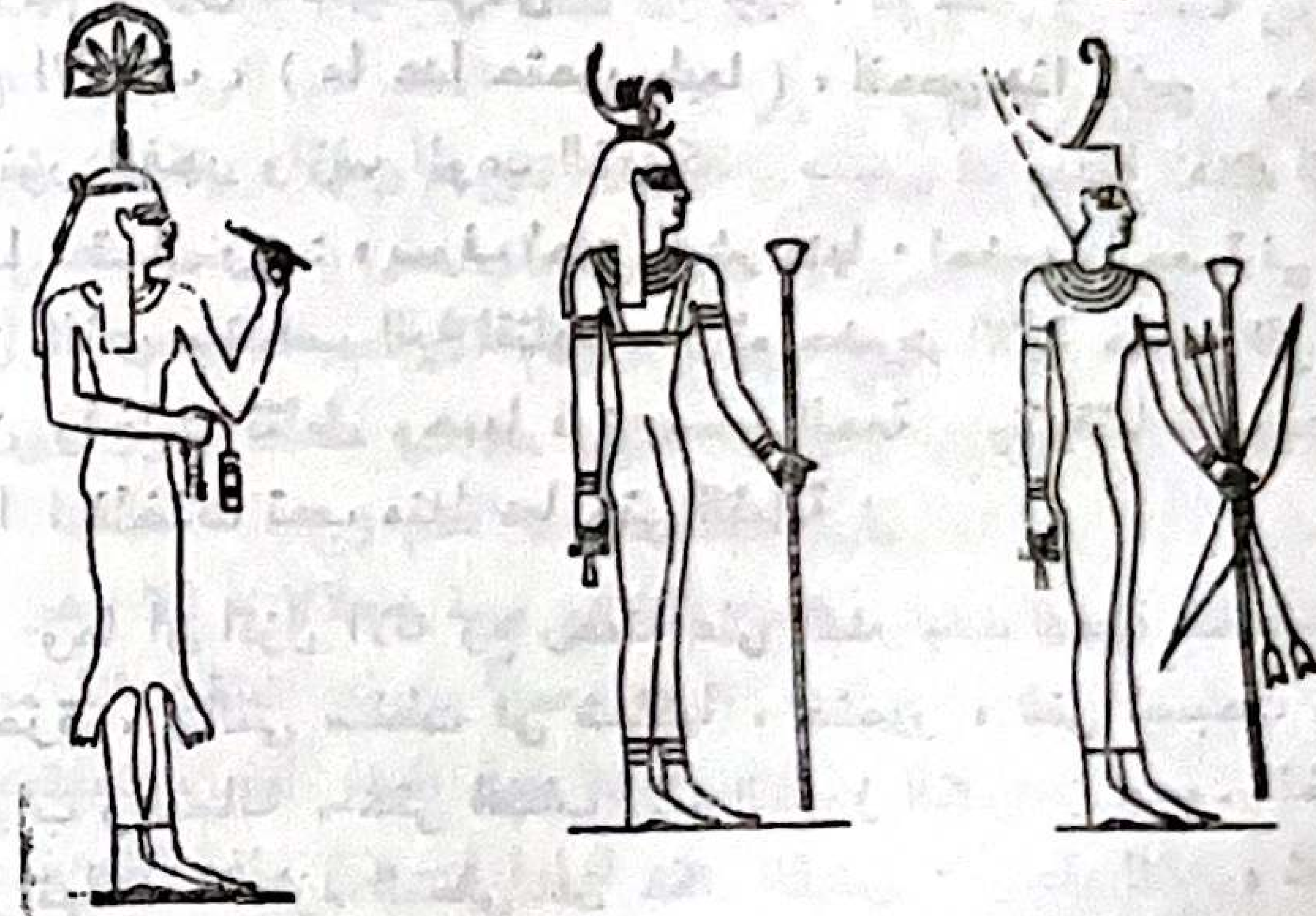
حيال هذا الأمر ؟ أنا لا أريد اهلاكهم ، قبل سماع رأيكم فى ذلك » وهنا قال له الاله « نون » : « ابنى رع ، أنت الاله الذى فاق أباه ومخلوقاته عظمة ومقدرة ، فلتبق كما أنت فوق عرشك . ان الخوف والرعب الذى تبثه لبالغ عندما تنظر بعينك الى المتآمرين ضدك » . وفى الحال ، تم ما كان فى الحسبان : لقد أصيب المتمردون بالهلع عند رؤيتهم للعين المرعبة ، وانطلقوا هاربين فى الصحارى هائمين على وجوههم دون هدف . ولكن الأرباب نصحوا « رع » بأن يرسل عينه لمطاردتهم فوق الأرض . ولم تكن هذه العين سوى الالهة « حتحور » التى رجعت من مهمتها بعد أن قتلت المتمردين فى الصحارى . وكان يغمرها سرور عارم اذا ما نظرت الى ضحاياها المضرجين فى دمائهم ، وكأنها وحش كاسر . وحضرت لمقابلة رب الأرباب « رع » الذى استقبلها بعبارات الترحيب والثناء . فأجابته حتحور قائلة : « بحياتك ، لقد كنت قوية الشكيمة بين جميع البشر ، ولقد أثلج ذلك صدرى كثيرا » .

عندئذ تريث رب الأرباب قليلا خشية ألا يبقى على الأرض انسان واحد بعد ذلك ، فسارع الى توجيه غضب حتحور وثورتها الى أمر آخر ، اذ أمر خادمه قائلا : « أحضر لى بعض الرسل الذين يتميزون بالسرعة الهائلة ، والذين يستطيعون أن يجروا بسرعة الظل » وبعد احضار هؤلاء الرسل اليه فى التو واللحظة قال لهم جلالته : « أسرعوا الى الفنتين واحضروا لى كمية كبيرة من نبات الديدى Didi الذى يفرز من داخله سائلا احمر » . وتم استخلاص هذا السائل وخلطه ببعض الجعة المصنوعة من الشعير المطحون . وبدا هذا المزيج وكأنه دم بشرى ملأ به حوالى ٧٠٠٠ جرة ، ثم حضر رع بنفسه وبرفقته جميع الأرباب ، (ما عدا حتحور طبعا) ، لفحص هذا المزيج . وعندما بزغ نور الفجر وأزف الموعد الذى كانت حتحور قد حددته لاهلاك البشر جميعا ، قال رع : « سوف أحمى البشر منها . أحضروا الجعة فى نفس المكان الذى ستذهب اليه لقتلهم » . ثم حضرت الالهة حتحور الى ذلك المكان وأخذت تتأمل وجهها فوق سطح الجعة ، وتذوقتها فأعجبت بها كثيرا ، فأخذت تعب منها عبا حتى الثمالة .

وما أن أنزل الاله رع رحمته على البشر بتلك الحيلة الخليقة بأحد السحرة ، والتى سقطت فى شباكها « حتحور » التى اصبحت ربة الشراب والثمالة ، حتى أصاب الاله العجوز الكدر من جحود المخلوقات ونكرانها ، فاعتزم التخلى عن حكم الأرض . وأحل الاله « تحوت » مكانه ، وعندئذ « خلق القمر » وطلب رع من ابنته نوت التى تجسدت فى هيئة البقرة السماوية ، أن تحمله فوق ظهرها لكى







شكل (٣)

ترفعه الى السماء ، وأصيبت نوت بالدوار خلال رحلتها عندما كانت تنظر نحو الأرض ٠ وأراد « رع » انقاذها ، فطلب من شو أبيها أن يرفعها ٠

هذه الأسطورة تبين الأوضاع المتتالية للشمس والسماء ،والهواء ، والأرض ٠ وهى تبين أيضا أن (نوت وجب) اللذين كانا متعانقين دائما منذ خلقهما قد انفصلا بعد ذلك ، وعندما قام شو برفع نوت نحو السماء ، فقد ارتفع بكل الآلهة ، ووضع كل رب فى مركبه الخاص به ، ثم قام بحصرهم وتحويلهم الى نجوم ساطعة فى السماء (٩) ٠ وبذا ، فقد رأينا من خلال بعض النقوش ، الشمس وهى تسبح فوق ظهر الالهة نوت التى تقوم فى المساء بابتلاعها ٠ وتقوم الشمس خلال ساعات الليل الاثنتى عشرة عبر جسد نوت حتى اذا ما حان الفجر قامت نوت كل صباح بولادتها من جديد ٠ وهذا هو ما يبينه الشكل الرائع الذى تبدو فيه الالهة نوت ، وهى عارية تماما ، على سقف بعض المقابر الملكية (١٠) ٠ وبداخل التابوت ، يتحول المتوفى الى أوزيريس ، بفضل التحنيط ويعتبر ابنا للالهة نوت التى تمنحه الحياة الشمسية ثانيا عندما تقوم بولادة الشمس كل صباح ٠

أسطورة الالهـــة البعيـــدة



شكل (٤) شو (الهواء) يفصل بين ابنته نوت (السماء) وزوجها جب (الأرض)

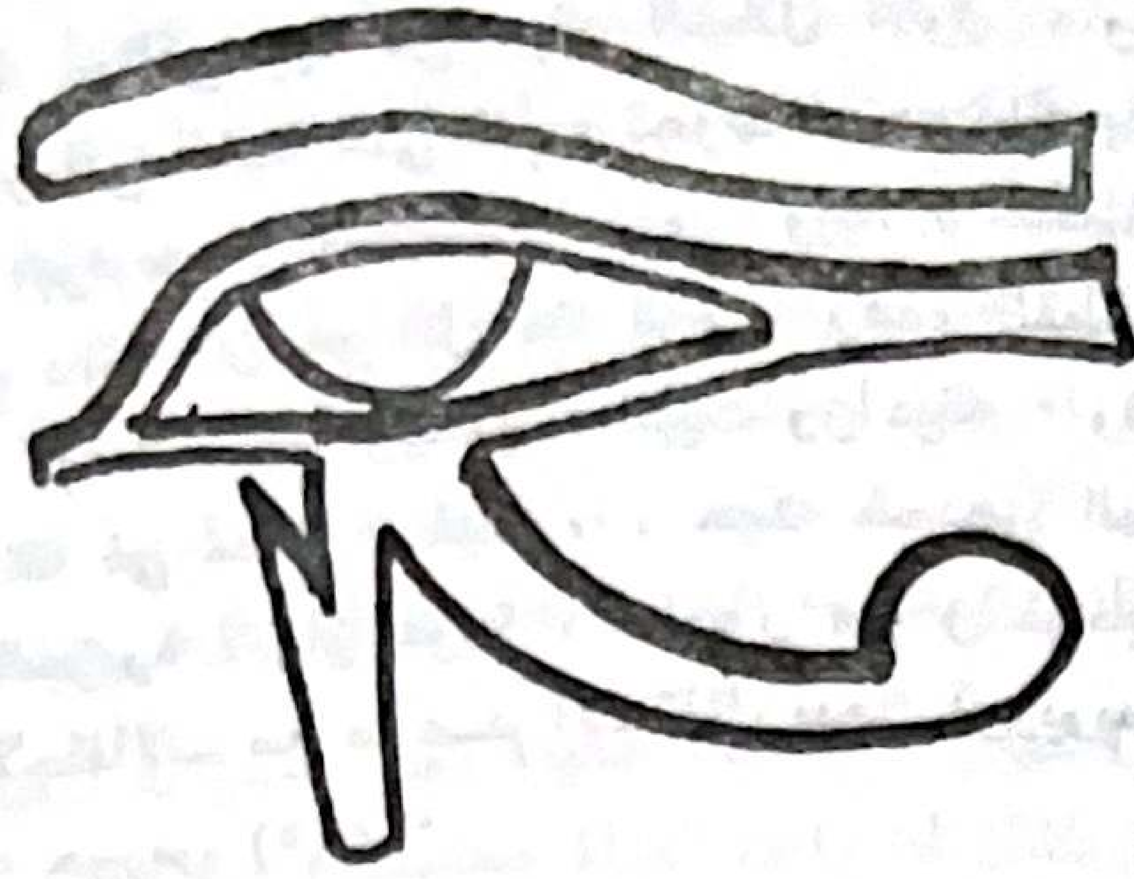
ان الهدف الأساسى لأية أسطورة هو دائما توضيح وبحث ظاهرة من الظواهر التى أثرت على الانسانية ، أو التى تتكرر بشكل دائم ٠ ولا ريب أن هذا هو ما ترمى اليه أساسا أسطورة أوزيريس والتى ارتبطت بها أيضا ايزيس ارتباطا أساسيا ٠ ولكن ، قبل أن نقوم بدراسة هذا النموذج الفريد من نوعه للزوجة المخلصة المتيقظة ، والأرملة

الحزينة الثكلى التى لا تفتقر الى الهمة والنشاط ، والأم الحانية
علينا ان نذكر أسطورة « عين الشمس » · و « عين الشمس » هذه
ليست سوى شكل آخر من أشكال الالهة « حتحور » ، ذات المظاهر
المتغيرة فهى تبدو مثلا ، فى هيئة البقرة الذهبية ، او اللبؤة الضارية ،
وملجأ لحورس ونزلا له ، وهو ما يعنيه اسمها ، حتحور · وهى زوجة
تارة وأم تارة أخرى ، ولكنها قبل كل شىء ربة الحب التى كان المصريون
القدماء يوجهون اليها ابتهالاتهم ودعواتهم حتى تستجيب لهم ، وتوفر
« عش الزوجية للعذراء ، والزوج المناسب للأرملة الشابة » · ان
الرقصات تؤدى والموسيقى تصدح من أجل استقبال هذه العاشقة
المثالية استقبالا مرحا · انها العاشقة المرتبطة ارتباطا وثيقا بالاله
« رع » ، رب الكون · فكانت حتحور تعرف أيضا كيف تزيل عن رع
مشاعر الحزن والأسى ، بأن تثير فيه مشاعر المرح والابتهاج عندما
تقوم بخلع ملابسها لتبدو أمامه عارية تماما ، ولكن « حتحور » التى
كان يطلق عليها أيضا ، « سيدة الجميزة » باقليم الجنوب ، كانت ترتبط
أيضا بالموت ، أى بالطريق المؤدى للأبدية : وهى لذلك تقيم فى جبال
الغرب حيث تقوم هناك بدور أساسى (١١) ·

عين رع « البعيدة »

تجسد « عين رع » فى اطار روايات متعددة ، الأسطورة الكونية للعودة الأبدية · ففى يوم من الأيام وجد رب الكون نفسه وقد حرم من عينه (واسمها : « أوجات audjat » ، وهو اسم أنثوى يعنى « الكاملة ») · وكلف كلا من الالهين « شو » و « تفنوت » بأن يذهبا لاحضارها ولكنهما أمضيا وقتا طويلا فى العثور عليها ، وعندما نفد صبر رع أحل مكانها عينا أخرى · فاستشاطت العين الشاردة غضبا وتملكت حتحور ثورة عارمة ، ولكى يهدىء رع من ثورتها قام بوضعها فوق جبينه · وتحولت الى شكل الكوبرا « اعرت iâret » · أو الحية الأنثى المقدسة رمز القوة والحماية ، ويبدو أنه بدءا من هذه اللحظة لقب الاله « شو » أو بمعنى آخر « العبير الالهى » باسم « أنوريس Onouris » (١٢) أى « الذى جلب البعيدة » ·

وهناك رواية أخرى أكثر شمولا وجاذبية من تلك الأسطورة ، عريقة فى القدم (١٣) (مثلها مثل اسم أنوريس نفسه) تبين لنا أن العين قد سافرت الى الجنوب البعيد ، بعد أن غادرت فى لحظة غضب قصر أبيها الفخم الذى يقع فى شمال مصر · وتجسدت هذه العين فى هيئة



شكل (٥) عين الأوجات

الالهة « حتحور » · وتقدم الأساطير المصرية أمثلة عديدة لهذه التجسدات المتعددة « لحتحور » · فهى تبين أحيانا عين رع فى هيئة الالهة « تفنوت » ، ومع مرور الأيام وتوالى السنين بدأ الحزن والأسى يعم انحاء القصر ، بل وانحاء البلاد كلها لغياب العين · وبالرغم من ذلك فقد تحولت هذه الالهة الى لبؤة ضارية ، تنفث اللهب من عينيها وفمها وهى هائجة (١٤) ، فطلب رب الكون من شو وتحوت ، الذين تجسدا فى هيئة قردين ، أن يذهبا لمقابلة تلك الغاضبة المفترسة التى هددت المبعوث « تحوت » بالقتل عند رؤيتهما ، ولم يأل هذا الرسول النشيط جهدا فى محاولة تهدئة الالهة الغاضبة ، فحاول اقناعها بكل الوسائل بالعودة الى وطنها حيث المناخ الرائع والمأكل والنبيذ الوفير · ولكى ينقذ حياته المعرضة للخطر لجأ للحجج والبراهين النفسية ، فبين لها انها سوف ترتكب خطأ فادحا بقتلها لمخلوق ضعيف مثله قد تدين له بحياتها فى يوم من الأيام · ولكى يدعم من أقواله قص عليها قصة « الأسد والفأر » هذه القصة التى وصلت الينا عبر عصور بعيدة يقتبسها (لافونتين La Fontaine) ، فى النهاية ، وهنا هدأت ثورتها لبعض الوقت · بل ان تأثرها قد بلغ مداه لدرجة أن دموعها قد انهمرت « كسيل جارف » ولكنها عادت من جديد الى ثورتها الجامحة « فبدت معرفتها وكأنها اشتعلت نارا ، وتلون ظهرها بلون الدماء ، وتألق وجهها وتأجج كقرص الشمس ، والتهبت عيناها توقدا واشتعالا · وهنا ، ساد الظلام الصحارى من كثرة الغبار عندما أخذت اللبؤة الغاضبة الثائرة تضرب الأرض بذيلها » ·

وقص عليها الرسول « تحوت » قصصا وحججا وبراهين أخرى ، محاولا اقناعها · ويبدو أن « حتحور » قد هدأت ثائرتها · وبذا استطاع « تحوت » أن يصطحبها الى مصر · ولكى يجعلها تهدأ تماما ولا تثور

بعد ذلك مطلقا ، القى بها فى مياه الشلال الأول ، وتحولت صورة حتحور فى مصر الى القطة التى قام « تحوت » بعد ذلك بانقاذها من بين فكى الثعبان « أبوفيس Apophis » . وبذا ، استطاع أن يبين لها ان المرء يحتاج دائما لمن هو اقل منه قوة ، وهذه القطة هى « باستت Bastet » ، ربة العائلة وحامية البيت وراعيته . وقد تم اللقاء بين الكون وابنته فى مدينة « فيلة » ، حيث خصص الجزء المشرق (المشمس) بالجزيرة لابراز عودة « حتحور » ، والترحيب بها . ولقد تطابقت هذه الاحتفالات مع موعد الاحتفال ببعث أوزيريس ، متجسدا فى شخص ابنه حورس (١٥) .

وقد تفسر عودة البعيدة التى تقصها علينا الأسطورة باعتبارها عودة فيضان النيل الى مصر . فى العام الجديد ، حيث تعم الفرحة انحاء البلاد لما يقدمه من رفاهية وخير وسؤدد للجميع . ولا شك أن المقارنة بين فيضان النيل وبين الهة تتصف أساسا بانها تحتضن وتحنو وترضع وتحمى ، يعتبر بمثابة تكريم عظيم وفريد من نوعه للدور العظيم المعترف به ، والذى تؤديه المرأة التى كانت رمزا لثراء البلاد ، ونبعا للسعادة . جملة القول ، انها « ايزيس » التى كانت تتجسد فى شكل « حتحور » فتنشر السرور المفرط ، والمرح والنشوة ، التى يشيعها احتساء النبيذ . وكانت اقامة الاحتفالات الخاصة بها تتفق مع الحصاد ، وموعد فيضان النيل بسبب هطول الأمطار الافريقية الغزيرة .

مظاهر « حتحور » المختلفة :

كانت تتجلى كالهة مبجلة فى معبدها الرائع « بدندرة » وهى الأم الأولى للآلهة بصفتها البقرة السماوية ، التى ولدتهم وأرضعتهم جميعا . وبذلك تتشابه كثيرا مع « ايزيس » . ومن هذا المنطلق يتم وضع الموتى تحت رعايتها ، فهى تقوم باعادة بعثهم من جديد فى الحياة الأبدية . ولكنها هى أيضا « حتحور » ربة الحب التى يشبهها الاغريق بالهتهم « افروديت » . ومن اجلها كانت تقام العديد من الاحتفالات لعل أشهرها هو الاحتفال بلقائها بزوجها فى شهر أبيب حسب التقويم المصرى القديم (القبطى) ، وكانت تصعد النهر فى مركب فاخر حتى معبد « ادفو » حيث كان استقبالها يثير مشاعر السعادة والفرح لدى الجماهير . ومن أشهر الرموز الأنثوية لهذه الالهة هو « عقد المنات Menat » ، واكثر الصلاصل شهرة تلك التى كان يمسكها ابنها الصغير « ايحى Ihy » (١٦) .

وكانت هذه الالهة تساهم فيما يقوم به رب الأرباب من أوجه النشاط ، فقد اتصفت أيضا بالقدرة على منح الآدميين الاحساس بالمحب

والعشق حتى يستمر التناسل والانجاب فى الحياة الدنيا ، ولذا ، فاننا نجد أن الاحتفال الذى كان يقام بمناسبة العام الجديد كان يتصف بالمهابة والاجلال اذ كان يبدأ فى مساء اليوم الأول من شهر « توت » ، أول شهور العام ، والذى يتفق مع عودة فيضان النيل ، حيث تتدفق مياهه من أعماق أفريقيا حيث كانت تختفى البعيدة . وكان يتجلى فى هذا العيد تمثال الالهة « حتحور » المحفوظ فى قدس أقداس المعبد ليخرج للضياء الذى يمنحه الحياة لعام كامل فيفيض بها من معبدها .

وفى موكب مهيب ، يتقدمه الكهنة نحو « خزانة المعبد » يحضرون تمثالا على هيئة طائر له رأس امرأة مصنوع من الذهب (أو البرونز المطلى ذهبا) ، طوله حوالى ٥٢ سم (ما يساوى الذراع الملكى المصرى) ويدعى « با ba » أو « باى bai » (١٧) .

ويتم وضع هذا التمثال داخل ناووس زجاجى صغير . ثم يقوم ثمانية من الكهنة بحمله حيث يبدأ الموكب فى السير ، ليتوقف فى بضعة أماكن محددة بالمعبد لوضع تيجان مختلفة ، رمزا للقوى المتعددة التى تتمتع بها « حتحور » فى بهو يطلق عليه « الوعبت ouabet » وفى النهاية يقوم الكاهن الذى يرمز لفيضان النيل بقيادة هذا الموكب . فيسكب أمامه أثناء سيره الماء المقدس الجديد ، يتبعه شخص آخر يمثل الفرعون يقوم بحرق البخور للناووس حيث يسير بظهره لكى يواجهه ، يأتى بعد ذلك دور حاملى الرموز ، وكوكبة من التماثيل المقدسة . وعند وصول هذا الموكب الى سطح المعبد حيث يتوجه نحو أحد الجواسق (الذى ما زال موجودا حتى الآن) ، لوضع الناووس به . وعندما تشرق الشمس فى الأفق فى موعدها ، فان أول شعاع لها يسقط على وجه « باى » حتحور ، داخل الناووس الذى أزيحت عنه الستائر . وهنا ، تعمل القوى والطاقة الكامنة والاشعاع الالهى على انعاش التمثال ، لتدب الحياة فى أوصاله ، وتجعل وجود الالهة « حتحور » الذهبية حقيقة فعلية . وكانت الموسيقى تصاحب هذه اللحظة الحاسمة ، ومعها أيضا تراتيل الكهنة لاعلان ذلك الحدث العظيم ، وتستمر عملية البعث حيث يعم الفرح والسرور انحاء البلاد وهذا الاحتفال بالذات يعد من الاحتفالات الدينية الفريدة من نوعها ، فهو بمثابة سر من أسرار الكون . ويمكننا مشاهدة نقوش هذه المراسيم كاملة فى معبد « دندرة » ، حيث نرى منظر الموكب الكهنوتى أثناء صعوده السلم المؤدى الى الجوسق الموجود فوق سطح المعبد ، وأثناء نزوله منه ، وكذلك يمكننا مشاهدة بعض الكتابات الموضحة لكل تلك الطقوس الفريدة من نوعها .

ولقد تمكنت منذ عدة سنوات أن اضم الى مجموعـــات متحف « اللوفر » تمثالا برونزيا يمثل طائر « با » حتحور (ولا شك انه كان مطليا بالذهب قبل ذلك) . ومن المعتقد أن هذا التمثال كان قد تلقى اشعاع النور الالهى المقدس الذى يعتبر دليلا على رجوع « البعيدة » الى أرض مصر (والتمثال محفوظ فى نهاية قاعة هنرى الرابع فى القسم الخاص بالآثار المصرية باللوفر) .

وفى معبد « دندرة » وكذلك فى جزيرة « فيلة » ، وفى كثير من المعابد الأخرى اليونانية – الرومانية نستطيع أن نرى ما يسمى « ببيت الولادة » ، وهـو عبارة عن معبد صغير ملحق بالمعبـد الكبيـر ، وكـان يخصص للرموز والمناظر الأنثوية المقدسة ، وفى هذا المكان كانت الالهة الأنثى تلد الابن الالهى فى لحظة تأكيد القوة الملكية . وهذا الأمر يعد فى كل مرة بالنسبة للملك وبالنسبة للالهة الأنثى عملية ولادة جديدة .

وفى كافة المعابد حيث تختلط المظاهر المختلفة أو التناسخـات الخاصة « بالبعيدة » يلاحظ أن الأعمدة والأساطين تعلوها رؤوس ، يسميها علمـاء الآثار المصرية « الأعمدة أو الأساطين الحتحورية » (١٨) . وخلال الأسرات الأخيرة (١٩) ، كانت هذه الرؤوس تمثل على جانب من جوانبها وجها من أوجه الالهة « حتحور » المتعددة . أما عن الجذور الأسطورية لهذه الالهة أى شكلها الأولى فتتمثل فى شـكل أذنى البقرة . ولا شك أيضا أو وجوهها الأربعة على أعمدة معابدها ، تشير الى الهيئات الأساسية التى تجلت بها هذه الالهة ، فتارة نجد أنها الهائمة الضائعة فى صحراء النوبة العليا ، وتارة أخرى ، ترى على شكل لبؤة ضارية وأحيانا تبدو على شكل « عين الشمس » الموقدة ، المشتعلة غضبا . انها « سخمت » التى تحمى الفرعون التى تستطيع أيضا نشر الطاعون خلال الأيام الأخيرة من العام (٢١) . وهى أيضا حتحور رمز العشق والحب التى تحبها النساء كثيرا . وهى التى تعطى البعث بعد الموت المؤقت ، وهى التى تأتى بالأمل ، وهى أساس كل مستقبل . هى أيضا باستت القطة الحـــامية ، والمخلوق المفضـل لدى أفراد الأسرة فى بيتهم (٢٢) . وهى أخيرا ، « العين » أوجات الصورة المتغيرة المتبدلة لايزيس ، الفتاة الجميلة الساحرة ، التى تتألق شبابا وفتنة (٢٣) .

ولعل أجمل التراتيل الموجهة للالهة حتحـــور ، هى بدون جدال الموجودة فى المعبد الصغير المقام فى الجزء الشرقى بجزيرة « فيلة » . وقد كتبت هذه التراتيل بمناسبة عودة البعيدة الى مصر ، وفيما يلى بعض مقتطفات منها :

ما أبهى محياك

حينما تتألقين فى مجدك
وانت فرحـــة !
حتحور يا سيدة « سنمن Senmen » (جزيرة بيجة) المبجلة
ان اباك رع يتهلل فرحا عندما تشرقين
ويمتدح أخوك شو جمال محياك
وتحوت القادر على أقوى المشروبات المسكرة يقول لك ،
« يالك من قـــادرة » !
ويتالق التاسوع العظيم سعادة وحبورا
وها هى القردة ترقص أمام جلالتك
وتدق قردة « الهيتز » الطبول من أجل قرينك (الكا)
وينشد البشر الأغانى من اجلك
ويتعبــدون فيــك
(.........)
والرجال والنساء يبتهلون اليك أن تغدقى عليهم الحب
ومن اجلك تقيم العذارى الاحتفالات ، ويعطينك أرواحهن
أنت سيدة الثناء ، وسيدة الرقص
ربة الحب ، وسيدة النساء والعذارى
أنت ربة النشوة فى الأعياد العديدة
سيدة البخور والطب ، وربة الأكاليل المجدولة والمضفورة
ربة المرح ، وسيدة الجذل والابتهاج
يا من تعزف الموسيقى لجلالتها
أنت ربة الصـلاصل « سخم » وسيدة « المنات » والصـلاصل « سيششت »
التى يرفع اروحها الأنخب (المتصل بعودة السنة)
أنت سيدة الرقص ، وربة الغناء ورقصة المزهر
والتى يتألق وجهها ، كل يوم ، ولا تعرف للحـزن معنى
هل تسمحين باظهار وجهك الجميـل
لملك مصر العليا والسفلى ، سيد القطرين ؟ (٢٤) .

مظاهر انثوية اخرى :

هناك معان ومفاهيم اخرى مقدسة ، منحت للمرأة لمساندتها وتعضيدها المادى · وتجدر الاشارة هنا فقط ، الى علم الوثائق والمحفوظات الذى تجسده الالهة « سشات Séchat » ربة المكتبات وهى شابة جميلة ترتدى ثوبا مصنوعا من جلد الفهد ، وتمسك دائما بالقلم فى يدها ، وهو عبارة عن قصبة ولوحة صغيرة كانت تستعمل حينئذ فى الكتابة · ولنذكر ايضا الالهة « ماعت Maat » ابنة رع ، وهى كيان فكرى لا عائلة لها ، تعلو رأسها ريشة نعام · وهى رمز للتوازن الكونى والعدالة ، والأساس الراسخ لكل الأعمال · كما انها تعمل على سير امور العالم سيرا صائبا · وبذا ، فهى تعبر عن الخطة الصائبة التى يجب أن يتعهد بها الفرعون امام الاله · وتتألق ماعت طهارة ونقاء · فلا يجب أن يشك أحد مطلقا فى ذلك ، ويبدو تمثالها الصغير وهى جالسة القرفصاء ، معلقا فى عنق الوزير والقاضى ·

ايزيس ومجدها

معابدها :

تبدو ايزيس فى كافة المظاهر الأنثوية الالهية ، فى أعيننا أكثر الربات شهرة وأبعدهن صيتا ، بل انها تجسد لنا صورة مصر نفسها ، وهى قرينة اوزيريس ، التى صاحبته وساندته · ثم قدمت بعد ذلك تنشر عقيدة هذا الزوج الذى سقط ضحية الشر ، وتولت أيضا حماية وريثه والدفاع عنه حتى وصل الى سن الرشد · لقد انتشرت شعائر ايزيس نفسها فى كافة أنحاء حوض البحر الأبيض المتوسط خلال العصر الرومانى، حيث اقيمت معابد رسمية لتمجيدها · ويرجع هذا المجد الشعبى الذى تمتعت به ايزيس الى أواخر العصور الفرعونية ، حيث أقيمت لها معابد على ضفاف النيل ، ونذكر أولا المعبد الذى اقامه الملك « بسوسنس » ، وكذلك « أمنمؤبى » فى بداية عصر الانتقال الثالث الذى يقع فى شرق هرم خوفو بالجيزة · ولنذكر أيضا بعد ذلك ، عند فجر العصر اليونانى - الرومانى ، معبد « بهبيت الحجر » ، حيث تبدو روعة تصميمه ونقوشه رغم الدمار الكبير الذى لحق به · وهناك كذلك المعبد الخاص « بمولد ايزيس » فى « دندرة » ، والذى كانت تقام فيه الاحتفالات « بليلة الطفل فى مهده » حيث كانت ايزيس تأخذ شكل امرأة سمراء ، متوردة مفعمة

بالحياة ، ناطقة بالحب · ونذكر بهذه المناسبة مجموعة المعابد الرائعة القامة فى جزيرة « فيلة » ، الفريدة من نوعها ·

الساحرة :

من الغريب أن الكيان الالهى الذى لعب دورا أساسيا وفعالا فى الأسطورة فاعية لم تخف حتى على العامة ، وكان نموذجا أصيلا للمرأة المصرية ، بصفتها زوجة ترعى بيتها ، وبصفتها أما ، لم يحتل منذ الأزمنة البعيدة مكانا متميزا فى المعابد او فى المساكن · ولكن الاشارات التى وردت عن الأسطورة فى الكتابات الدينية العتيقة (٢٥) تسمح للأسطورة الأوزيرية بالتيقن من العراقة الفائقة ، التى اضفى عليها غموض الأسرار الدينية سرية الا على من أوتى العلم ، اذ كان على البراهين الاستفاضة فى الحديث عنها · ولا شك انه من الاطلاع على البراهين المتعددة والمتفرقة (٢٦) يمكننا الجمع بين أجزاء قصة أشهر وأعرق زوجين فى تاريخ قدماء المصريين (٢٧) · ولا شك أيضا أن ايزيس كساحرة لجأت الى وسائل وأساليب لا تتماشى كثيرا مع السلوك الأنثوى ، لكى يبوح لها الاله الخالق بسر قوته ··· كان تصرفها هذا يتسم بالمكر والخداع · لقد وضعت على طريقه ثعبانا مصنوعا من الطين وبللته بلعاب « رع » الاله الخالق · وكان هذا الاله الأعظم قد أصابه الوهن والكبر ، ولذا ، استطاع الثعبان أن يهاجمه ويلدغه حتى « سرى السم فى أعضائه كسريان النيل فى بلاده » · وكانت ايزيس هى الوحيدة التى تستطيع معالجة هذا الاله ، ولكنها اشترطت لكى تفعل ذلك أن يبوح لها باسمه الحقيقى · ولما كان رب الأرباب كهلا يئن من الآلام الموجعة المبرحة ، فقد رضخ لمطلبها ، وكشف لها عن اسمه الحقيقى فاكتسبت بذلك قوته ومقدرته ·

وحالما دخلت ايزيس فى أسطورة أوزيريس ، لوحظ أنها فقدت جزءا كبيرا مما كانت تتصف به من تسام ، أو بمعنى آخر « الأرستقراطية الالهية » · واقتربت كثيرا من صفات البشر ، وبدأت فى الظهور كثيرا برفقة أختها « نفتيس » ، فى ملابس الحداد ، وهما واقفتان عند رأس وقدمى المومياوات تبكيان وتحميان المتوفى الذى كان يعتبر بعد موته كاوزيريس نفسه · ولم تظهر التماثيل التى تمثل ايزيس الأم جالسة على عرشها وهى ترضع الطفل حورس، وقد حملته على ذراعها اليسرى (٢٨)، الا فى العصور المتأخرة فقط ·

ومهما كان الأمر ، فعلينا أن نتذكر دائما أن ايزيس تمثل ليس فقط الأمومة (البيولوجية) ، ولكن أيضا الأمومة « كواقع اجتماعى معنوى »

ولم يحدث أن خلط الناس بين « ايزيس » و « حتحور » ، فان « ايزيس » تجسد فى هذه الحال ، وبكل بساطة ، احد مظاهرها المتعددة ، المنبثقة من دورها الذاتى ، ومن شخصيتها الخاصة .

ايزيس فى دورة أوزيريس :

بدأت الصعوبات تنبثق منذ بداية الأزمان . فوفقا للمرحلة الأسطورية لنظرية عين شمس (أون) قام « أتوم » الاله الخالق بخلق أول زوجين فى العالم ، هما : « شو » و « تفنوت » . وبذا نجد أن الكون قد بدأ « بواحد » ثم « تحول هذا الواحد » الى « ثالوث » (٢٩) . وأنجب هذا الزوج بدوره مولودين هما « جب ونوت » ، أى الأرض والسماء اللذين ولدا وهما متعانقان عناقا وثيقا ، ولقد حذرهما الاله الخالق ونهاهما عن أى التقاء جنسى بينهما . ولكنه مع الأسف علم أن « نوت » قد حملت من رفيقها « جب » بخمسة توائم . فأصدر الاله الأكبر أوامره الى « شو » بأن يفرق بين هذين العاشقين الجامحين المتهورين كما قرر الا تضع « نوت » حملها الثقيل فى أى يوم من أيام السنة . وهنا حاول « شو » أن يدافع عن العاشقين الشهيرين السابقين لآدم وحواء .... ولكى يساعد البائسة « نوت » على وضع حملها الثقيل ، قرر أن يضيف الى العام « خمسة أيام أخرى » . وهى نفس الأيام التى أطلق عليها الاغريق لفظ Epagomènes أى خمسة أيام النسىء . وبذلك تمكنت « نوت » من وضع أولادها الخمسة وهم : أوزيريس ، وست ، وايزيس ، ونفتيس ، وحورس العظيم الذى خلف أبيه أوزيريس فى حكم الأرض معلنا ذلك الى البشر بصوت الهى .

وقد قام أوزيريس بمساعدة أخته وزوجته ايزيس (التى كانت تقوم بحمايته وابعاد الأعداء عنه) بتعليم البشر فن الزراعة . وكانت ايزيس تقوم بقطع الأعشاب ، كما تقوم أيضا بعجن الدقيق لاعداد الخبز . أما أوزيريس فكان يقوم بعصر العنب الذى شرب أول كأس منه ، وسن القوانين للبشر ، وبين لهم كيف يتعبدون ويبجلون الآلهة . وكان أوزيريس يضع مسئولية ادارة شئون البلاد بين يدى ايزيس ، أثناء غيابه (وهى بذلك تجسد مقدما ما تقوم به بعض الملكات الأمهات خلال انشغال الملك فى ساحة الحرب) . وكان أوزيريس يجوب البلاد لكى يحصل على المؤيدين ، بعزفه للموسيقى وبدون قتال (٣٠) . ولكن لم يكن مقدرا أن تستمر الأحوال على ما كانت عليه من هناء وصفاء ، فى نطاق هذه الحياة المثالية . ولفترة ما ، « وبدون قصد » ـ وفقا لأحد النصوص ـ شغف أوزيريس حبا بأخته نفتيس زوجة « ست » ، الذى كان يعانى من العقم (٣١) . ولكن « نفتيس » حملت من « أنوبيس » الذى

تخلت عنه تماما بعد وضعه خوفا من بطش زوجها « ست » العقيم . وهنا قامت « ايزيس » (الزوجة الطيبة) بتتبع بعض الكلاب للبحث عنه وعثرت عليه ، وقامت بتربيته ، وأصبح « أنوبيس » حارسها ورفيقها . ولكنه بعد ذلك الحق بالعالم الآخر ، وأصبح مسئولا عن الموتى هناك . وكان « ست » قد ازداد اشتعالا بالغيرة من « أوزيريس » ، فأخذ يحيك له مؤامرة بمساعدة اثنين وسبعين متآمرا آخر ، وقاموا جميعا باستقباله بعد عودته من احد أسفاره ، وفى وليمة فاخرة . وكان حفل الاستقبال هذا يتضمن احدى المسابقات التى تتلخص فكرتها فيما يلى : اذا تمكن أى من المدعوين من التمدد داخل صنولق ثمين جميل الصنع ، كان قد أعد لهذا الغرض ، وأن تكون مقاييس جسمه مطابقة لنفس أطوال الصندوق فسوف يحصل عليه . ولا شك أن هذا التابوت كان قد صنع أساسا ليكون مطابقا لنفس مقاييس جسم أوزيريس ، وعبثا حاول المدعوون الرقاد داخل الصندوق الذى كان كبيرا للغاية عليهم .

ولما قام أوزيريس بالتمدد بداخله هجم عليه المتآمرون وقفلوا الصندوق بتثبيت غطائه بالمسامير . وفى مكان يسمى « نديت Nedit » القوا به فى النيل .

بحث ايزيس :

بدأت ايزيس تبحث عن زوجها المفقود ، متتبعة ما كان يقوله لها بعض الأطفال الذين شاهدوا ما حدث لأوزيريس . وتبينت ايزيس الاتجاه الذى يجب أن تسلكه فى بحثها . وبذلك وصلت الى مدينة « جبيل Byblos » ، أو كما كانت تسمى « درجات المشرق » . وكان جسد أوزيريس الممدد داخل الصندوق قد ارتطم باحدى الأشجار الصنوبرية ، فأضفى عليها حيويته ، وارتفعت ارتفاعا هائلا ، لدرجة أنها أحاطت بالصندوق من كل جانب ، ولم يعد ظاهرا للعيان . وقد استرعت نظر الملك « مالكندر Malcandre » ضخامة هذه الشجرة الهائلة فأمر باتخاذها دعامة لسقف قصره . ووجدت ايزيس نفسها أمام محنة جديدة ، فقررت الاستعانة بقوتها السحرية . ولما علمت أن خادمات الملك يذهبن دائما الى نبع لاحضار الماء الى القصر حولت نفسها الى امرأة فقيرة بائسة مما شد انتباههن ، وأخذت تتملقهن وتجاملهن ، تارة بتضفير شعورهن بكل مهارة وحذق كما تفعل المصريات ، وتارة تبعث عبيرها الالهى ذا الرائحة الزكية فيهن . أما الملكة زوجة الملك «مالكندر» فتملكها فضول شديد ، لكى تتعرف على صانعة هذه المعجزة ، واستدعتها الى قصرها . وبذا ، أصبحت ايزيس مرضعة للابن الملكى المولود حديثا ، ولما كانت ايزيس ساحرة قبل كل شىء فقد كانت تكتفى بارضاعه

من اصبعها . وفى المساء كانت تشعل نيران سحرها حول فرشه ، ثم تتحول الى طائر ، الخطاف ، لتحوم حول الأسطون ، وهى تئن وتبكى ، وناجاتها الملكة ذات ليلة ، ورأت ابنها وقد أحاطت به النيران من كل جانب ، فاطلقت صرخة مدوية تسببت فى فقدان طفلها للخلود الذى كانت ايزيس قد منحته له . وهنـا ، افصحت ايزيس عن شخصيتها فأعطوها الأسطون ، وبذلك استطاعت ان تأخذ الصـندوق الذى يحتوى على جسد أوزيريس . وتذكرنا هذه الواقعة بما كانت تقوم به الندابات النائحات فى مصر من صراخ وعويل ، يصيب سـامعيه بالهـلع والرعب . فقـد اندفعت ايزيس نحو الصندوق ، وصرخت صرخة عظيمة سقط على اثرها الابن الأكبر للملك « مالكندر » ، هلعا ورعبا ، عند سماع صوتها .

ورجعت ايزيس الى مصر بمصاحبة الابن الأوسط للملك « مالكندر » والذى قام بمساعدتها فى نقل الصندوق . وعند وصولها الى بلدهـا توقفت فى مكان ما معتقدة أنها بمفردها ، وفتحت التابوت والصقت وجهها بوجه أوزيريس ، لكى تقبله وهى تبكى ولكنها فوجئت بوجود الأمير الشاب بجـوارها . فاتقدت عيناها بالغضب ممـا أذهله حتى سقط صريع عينيها المتأججتين نارا . بعد ذلك ، قامت ايزيس بدفن الصندوق فى مستنقعات « خميس Chemmis » ، نفس المـكان الـذى قامت فيه بتربية وتنشئة ابنها حورس فيما بعد ، بعيدا عن أعين عدوهما اللدود الاله « ست » .

الطقوس الجنزيـــة :

وتضيف رواية أخرى ترجع الى عصور متأخرة بأن « ست » اكتشف خلال احدى رحلاته للصيد فى ضوء القمر المـــكان الذى خبىء فيه الصندوق . فأخفى جثة غريمه أوزيريس ليقطعها بعد ذلك الى ١٤ او ١٦ قطعة القى بها فى مناطق متفرقة من نهر النيل .

وفى رواية اخـرى اكثر تعقـلا نجـد ايزيس تحـولت الى طـائر صغير ، لكى تستطيع ان تكتشف وهى محلقة عاليا مواضع أجزاء جثمانه . وبعد أن عثرت عليها كلها ، دفنتها فى نفس الأماكن التى وجدتها بها على التوالى ، وهذا هو ما يبرر وجود عدد كبير من القبور لأوزيريس بمصر . ولكن يبدو أن هذا لم يكن سوى خدعة من ايزيس لكى تستطيع بمثل هذه الحيلة أن تضلل عـــدوها الشرس العنيـد فى الواقع ، فانها بعد أن جمعت كافة الأجزاء التى عثرت عليها ، قامت بمساعدة نفتيس وأنوبيس ، بتكوين المومياء كاملة ، وكانت هذه هى المومياء الأولى فى الوجود . واستطاعت ايزيس العثور على كافة أجزاء جسد زوجها أوزيريس ، بخلاف قطعة واحدة لم تتمكن من العثور عليها

مطلقا . الا وهى عضو ذكورته الذى ابتلعته احدى أسماك النهر المعروفة باسم « أنومة » . وانتقــل أوزيريس بفضـل تحنيطه الى مملكة الموتى ، ودفن جثمانه بين « بكاء ونحيب ايزيس ونفتيس » .

ايـــزيس :

تعال نحو بيتك ، تعال الى بيتك
انت يا من لا أعداء له
ايها الشاب الجميل الطلعة ، تعال الى بيتك لكى ترانى
فانا أختك التى تحبها ، لا تفترق عنى أبدا ، ايها الشاب بهى الطلعة
تعـال الى بيتـك
انا لا اراك ، (ومع ذلك)
فان قلبى يتطلع للقياك
وعيونى تبحث عنك
(..........)
ما اروع ان اتاملك !
(........)
تعال الى حبيبتك التى تحبك أنت يا ون نفر
تعال الى جانب أختك
تعال الى جانب زوجتك
أنت يا من توقف قلبه عن الخفقان
تعال الى ربة بيتك
انا أختك وأمنا واحدة
لاتبتعد عنى
ان الآلهة والبشر يلتفتون نحـوك
وكلهم يبكونك مثلى والدمع السخين ينهمر من عينى
اننى اناديك
ويرج صراخى أجواء السماء
ولكنك لا تسمع صوتى
اننى أختك التى أحببتها فوق الأرض
فانت لم تحب امرأة (أخرى) سواى
أى أخى ، أى أخى (٣٢) .

ويستمر النص الباكى على هذا المنوال فى صورة حوار بين الأختين النائحتين ، ايزيس ونفتيس تتخلله بعض المقاطع التى تلقيها نائحات اخريات · وسوف نلاحظ هنا ، بين مشاعر الألم والحزن ان الأسلوب والعبارات تبدو وكانها ترنيمة حب ، وعند الوصول الى المقطع الذى تلقيه نفتيس ، فان اللهجة تتغير ، انها ليست لهجة الزوجة ، بل لهجة المحبوبة ·

احضر توا يا سيدى ... يا من ذهبت بعيدا
احضر .. لكى نفعل ما كنت تحبه ، تحت الأشجار
لقد اخذت قلبى بعيدا على آلاف الأميال
معك انت فقط ، ارغب فى فعل ما أحب
اذا كنت قد ذهبت الى بلد الخلود ، فسوف أصحبك
فانا اخشى أن يقتلنى زوجى
لقد اتيت هنا من اجل حبى لك
فلتحرر جسدى من حبك (٣٣) ·

وعند قراءتنا لهذه الأنشودة الأخيرة ، نلاحظ ملامح العاطفة التى نشأت بين أوزيريس ونفتيس التى كانت تعبر صراحة عن مشاعرها نحوه امام زوجته ايزيس · ولنا أن نسأل : هل كان للرجل أن يتخذ الى جوار زوجته « ربة البيت » الوحيدة ، زوجة ثانوية « مفضلة » ؟ كان هذا الأمر واضحا للغاية فى عالم الملوك ، بل ومؤكدا ، وهذا ما سوف نراه أيضا فى عالم « الأشراف والنبلاء » ·

مولد حورس :

قامت ايزيس بتحنيط أوزيريس وفقا لطقوس جنائزية محددة سار على نهجها من تلاها ، وبذلك فقد ابتكرت الوسيلة والعلاج الذى يمنح « الأبدية والخلود » · ومع ذلك ، فقد بقى عليها أن تقوم بمعجزة أخرى ، لكى تمنح وريثا لزوجها الذى مات ثلاث مرات ، لا مرة واحدة ، اذا صح التعبير ، فى نظر المصريين فأوزيريس لم يترك وريثا له ، قبل مصرعه ، وفضلا عن ذلك ، فان سمكة « انومة » قد التهمت عضو ذكورته · وهنا حولت الساحرة نفسها ثانيا الى طائر (انثى) ، واخذت تضرب الهواء بجناحيها ، وعملت على اعادة الحياة لأخيها وزوجها أوزيريس « ولكن هذا الأمر يجب أن يظل فى طى الكتمان » · (كما ورد فى كتاب التنفس) ، « والا يسمح لرجل او امراة بان يصرح بذلك بصوت عال » · وبفضل مقدرتها وقوتها الفائقة فى السحر أعادت

اليه لبضع لحظات عضو ذكورته المفقودة ، وظلت تحلق وترفرف بجناحيها برفق فوق جسده المسجى تحتها ليتم بينهما لقاء جنسى ، والذى استعاد بذلك ذكورته · وفقا لنفس الأسطورة اخذت ايزيس تستعد فى مستنقعات « خميس » لولادة طفلهما « حورس » · ولكى تحميه صارعت من جديد قوى الشيطان ، اى ست ، ذلك الاله الذى كان « بلوتارخ » يطلق عليه اسم : « تيفون Typhon » ·

واصبح حورس شابا بمعاونة ايزيس ، التى لم تخمد ثورة غضبها من اجل تأكيد حقوق ابنها من أوزيريس الذى اقام دعوى لاسترداد ميراث ابيه من عمه ست أمام محكمة رب الأبدية « اتوم » · ومرة أخرى اشتعلت المعركة المدمرة التى لم تتوقف ابدا ، بينها وبين ست · ولكنها لم تكن لتفقد الأمل ، فهى « الأم الالهية » ، التى قيل فيها :

« كان قلبها اكثر فطنة من قلوب مليون رجل ،
وكانت اكثر سموا من مليون اله
وكانت نافذة البصيرة اكثر من مليون نبيل
لم يكن يوجد شئ فى السماء أو على الأرض الا وعرفته (٣٤) » ·

الصراع بين حورس وست :

ومع ذلك ، نجد أن أسلوب الأقاصيص الشعبية التى تسرد أحداث قصص الصراع بين حورس الذى أصبح رجلا وبين عمه ست ، يفتقر كثيرا الى رقى التعبير الواضح فى النص آنف الذكر الذى يعدد مناقب ايزيس ومزاياها · فقد لوحظ أن الأحداث العديدة ، كانت تسرد بأسلوب فج قد يصدم المشاعر بفظاظته ، ولذلك سنكتفى هنا فقط بذكر الوقائع التى اشتركت فيها ايزيس : وسنلاحظ انها كانت تقوم بدور الساحرة التى تعرف العديد من الخدع والحيل ، مما أعطاها قوة واقتدارا ، ووضعت فى يدها وسائل وسبلا جبارة ومتعددة · ويدل هذا الصراع بين « حورس وست » على بطء الاجراءات القانونية بشكل كبير ، فلا شك أن أمور الحياة لم تكن بسيطة · والآلهة هنا تبدو فى صورة آدمية ، ولذا لا يمكن اعتبارهم أشخاصا يجسدون الخير المطلق والشر المطلق · أو الصراع بين النور والظلام ·

ولكى يستحوذ « ست » على ميراث « ضحيته » ، نجده يدعى أن حورس ليس ابنا لأوزيريس · وسنجد اننا هنا أمام قضية « اثبات نسب » ، او « اثبات بنوة » : ابن ولد بعد موت ابيه · ومن ثم عقدت المحكمة المكلفة بالنظر والحكم فى هذه القضية · وكانت تتألف من كافة الهة

مصر ، الذين عقدوا جلساتهم لمدة ثمانين عاما . فالمشكلة كانت شائكة . وقام صراع ضار ، وصل لدرجة تشابك المتخاصمين بالأيدى ، واخصاء الاله « ست » كما فقدت عينا « حورس » . وفى لحظة من اللحظات وجدت المحكمة نفسها عاجزة عن اتخاذ أى قرار ، فلجأت الى الالهة « نيت » ربة « سايس » الذى جاء حكمها واضحا جليا : « ضعوا منصب ومكانة أوزيريس بين يدى ولده ، ولا ترتكبوا ظلما فادحا . والا فاننى سأثور غضبا وستنطبق السماء على الأرض » . ولكنها أضافت الى ذلك ضرورة تعويض « ست » بمنحه « عنات » و « عشتارت » ابنتى « رع » الأجنبيتين (٣٥) مما سبب مشكلة أخرى بين الآلهة ، حتى ان « رع » نفسه قد خارت قواه وظهرت عليه مظاهر الشيخوخة والقنوط . وهنا حاولت ابنته « حتحور » أن تسرى عنه فخلعت ثيابها كلها أمامه . ومع ذلك ، استمر « تحوت » (المحامى) فى مرافعته قائلا : « هل تمنح الخلافة « لست » رغم أن بيننا ابن أوزيريس من صلبه ؟ » وعندما لاحظت ايزيس أن رب الكون « رع » يضمر بعض النوايا السيئة ، استشاطت غضبا واقسمت : « بحياة أمى نيت التى ما زالت حية ترزق ، وبحياة بتاح تاتنن ذى الريش العالى ، والذى لا يزال حيا ، سوف يعرض هذا الأمر على آتوم العظيم القاطن بعين شمس ، وكذلك على خبرى المقيم فى سفينته » .

الأم الحامية :

وكانت محاولات التهديد والتخويف ، التى قام بها « ست » ذات فاعلية لدرجة أن المحكمة وافقت على طلبه بابعاد ايزيس من القضية آنذاك ، وهذا الأمر يعد فى حد ذاته انكارا لقوة ودهاء المرأة الالهة . وقرر « حور أختى » لكى يرضى « ست » أن تنتقل المحكمة بكامل هيئتها الى جزيرة « الوسيط » ، حيث لا يسمح حارس بوابتها بعبور أى امرأة . وهنا ، اضطرت ايزيس أن تتحول الى امرأة بائسة عجوز منحنية ولكنها كانت تضع فى اصبعها خاتما ذهبيا . واقتربت من النوتى قائلة : « اننى قادمة اليك ومعى قدر من الدقيق لأجل صبى صغير يرعى الماشية فى الجزيرة منذ خمسة أيام وهو يتضور جوعا » . ولما رفض النوتى السماح لها بالدخول قدمت له الخبز ، ثم قدمت له خاتمها الذهبى ، وبدا هذا الخاتم بالنسبة للنوتى وسيلة قوية للاقناع ، فسمح لايزيس بالعبور الى الجزيرة حيث تعرف عليها « ست » لدى وصولها ، فتحولت الى امرأة بارعة الجمال . واعتمدت على ما يتصف به « ست » من غفلة فحاولت « أن توقعه فى شباكها » وقالت له شاكية : « أيها

السيد العظيم ، لقد كنت زوجة لأحد الرعاة وانجبت له ولدا وقد توفى زوجى ، ويقوم ابنى برعى قطعان ابيه . ولكن ، جاء شخص غريب ومكث فى حظيرتى . وقال لابنى : « سوف أضربك وآخذ منك قطعان ابيك ، ثم ألقى بك فى الخارج » . وأنا أرجوك يا سيدى أن تحمى ابنى من هذا المغتصب » ولم يتنبه « ست » للفخ المنصوب له ، فاجاب : « أيعطى القطيع لشخص غريب ، فى حين أن ابن الرجل ما زال حيا ؟ » ، وحالما نطق « ست » بهذه العبارة تحولت ايزيس الى حداة ، وسرعان ما طارت وحطت فوق قمة شجرة سنط ، قائلة له : « لقد حكمت على نفسك بنفسك . يا له من عار ، ان فمك نفسه هو الذى نطق بالحكم عليك . ومهارتك هى التى حاكمتك . ماذا تريد اكثر من ذلك ؟ » وعلم رئيس المحكمة بهذه الواقعة فادان « ست » وتلا « رع » عليه حكم المحكمة « لقد أصدرت الحكم على نفسك » . ولكن يبدو أن « ست » الشرير قد استطاع الحصول على حكم بتأجيل فى القضية ، مع وقف التنفيذ ، لاستكمال المعلومات . أما الجزء الثانى من القصة ، فيصور استمرار المتصارعين فى قتال مرير ضار . وتحول كل منهما الى حيوان فرس النهر ، وكانت ايزيس لا تفارق ابنها ابدا خلال كل ذلك ، وجرح كلا المقاتلين حتى ان « ايزيس » نفسها شعرت بالشفقة والعطف على « ست » ، فحاولت أن تخفف عنه هذه الآلام ، ولذلك ثار ابنها «حورس» ثورة عارمة وهو فى هيئة فرس النهر ، لدرجة أنه أطاح برأس أمه . ولكن لحسن الحظ قام « تحوت » بوضع رأس بقرة مكان رأسها المقطوع (ولهذا السبب نلاحظ وجود تشابه بين رأسى كل من « ايزيس » و « حتحور ») . وتتوالى أحداث غير متوقعة من مرحلة الى اخرى ، ويلقى حورس عقابه على ما فعله بأمه . فيقوم « ست » بفقء عينيه ، (وكان العقاب بفقء العينين شائعا فى العصور القديمة) لكن «حتحور» أعادت عينيه اليه . بعد ذلك ، قطع عضو ذكورة « ست » وتتابعت الأحداث المفعمة بالشراسة والتى انزلقت الى الفجاجة الصارخة أحيانا ، طوال قرن من الزمان ، وأخيرا أصدرت المحكمة حكمها النهائى ، الذى كان يجب أن تصدره منذ البداية : وهو الرجوع الى أوزيريس نفسه الذى جاءت اجابته فى خطاب قام « تحوت » بقراءته أمام قضاة المحكمة . وكانت كلمتهم : « كل ما قاله صواب ، انه أوزيريس ، رب الغذاء والمأكل » . وكلفت ايزيس باحضار ست موثوق اليدين عقابا على رفضه لأحكام هذه الهيئة العليا . ولكنه ، فى النهاية خضع وتخلى عن مطامعه فى الاستيلاء على عرش أوزيريس ، وتولى حورس مقاليد الحكم . وبذا تحقق الانتصار النهائى لايزيس .

مملكة ايزيس :

يعد سلوك أوزيريس فى حد ذاته ، مجرد عمل مكمل لما قامت به ايزيس من أعمال ، التى بدونها ولولاها لم يكن فى الامكان أن تتم عملية البعثة الغامضة ، ولما انتقل أيضا ارث الأب بكل عدل وانصاف الى ابنه . وكان مقدرا لمثل هذا المنهاج أن يلاقى نجاحا شعبيا فريدا من نوعه اذ كان يوفر للانسان الطمأنينة وهى بغية البشر ، وشيئا فشيئا ، وخلال حكم الأسر المصرية الأخيرة ، بدأت تتلاشى مفاخر الآلهة الأخرى لتحل محلها فى أفئدة المصريين من كافة الطبقات ، آيات الاجلال والتوقير المتزايد ، لايزيس ، العظيمة . لقد أصبحت الالهة ايزيس محور المجتمع بأسره ، الذى تتركز حوله كافة الأمانى والتمنيات والتى أقيمت من أجلها المعابد ، ثم بجلها الاغريق والرومان بعد ذلك وتكاثر عبادها ، لدرجة انهـا جـذبت بصـفتها ، ايـزيس ـ حتحـور « Isis-Hathor » انظـار المتعـبدين والنسـاك ، او « ايزيس ـ سوتيس Isis-Sothis » وابتداء من « فيلة » ، حتى الاسكندرية ، ومن بومبى الى جميع انحـاء أوربا الجنوبية ، انتشرت طقوس وأسرار ايزيس ، وأصبحت الصورة المثالية للأم على هيئة امرأة جالسة تضع الطفل حورس على ركبتيها . وهناك أيضا « Isis Lactans » عند الرومان والغـالبين ، و « ايزيس الفنـار Isis Pfaria » بالاسكندرية ربة البحـارة . وكانت السـفينة التى تمثل فوقها الربة العظيمة رمز المرأة التى تحافظ على استمرارية الجنس البشرى تعبر النهر كل عشرة أيام ، لكى تسـكب الألبان اكراما للآلهة على المذابح الجنازية الخاصة بأوزيريس ، فى جزيرة « بيجـة Biggeh » ، فى مواجهـة « فيـلة » فى المكـان المسمى بـ « أباتـون Abaton » . والحـق بهـذه السـفينة صـار وشـراع بعد ذلك ، ونزلت النيل لكى تصل الى الاسكندرية . حيث يمكننا أن نرى « ايزيس الفنار » ، وهى تمسك بدفة ، أو بهلب بحرى ، وهى التى مازالت تمثلها لنا « عذارى الهلب » فى جنوب أوربا على سبيل المثال ، وأحيانا نجد أن صارى السفينة قد حل مكانه تمثال هذه الربة ، التى تكن جوانحها عطفا لا حدود له ورعاية عميقة ، والتى عانت من آلام مريرة ومرت بكافة الاختبارات والمحن .

وبتنقلها من ملاحة الى أخرى ، شدت انتباه ملاحى لوتيس Lutèse لدرجة أن القارب ذا الشراع المنتفخ الخـاص بتلك الالهة ، التى صـارت أكثر ربات العصور القديمة عالمية ، والزوجة والأم المثالية مازال باقيا حتى أيامنا هذه ، كرمز ـ من آلاف السنين ـ لمدينة باريس .

وفى الوقت الذى طغت فيـه الطقـوس الخاصة بايزيس على كـل ما عداها ظهـرت التراتيم التى تترنم باسـمها وتتغنى بهـا . ومن خلال تلك الصلوات الفعلية ، نجد بعض آيات المديح التالية :

« (..........)

انهـا الالهة ذات الدهاء والحيـلة

فخر الجنس النسائى

(..........)

هى العاشقة التى تنشر مشاعر الحب بين الناس

(....) فهى تمقت الحقد والكراهية (.......) .

(......) انك تتربعين على عرش السمو والأبدية

انك تتفوقين بسهولة ويسر على الطغاة ، بفضل أفكارك الخلصة

(.....) يا من استطعت الرجوع بأخيك ، وأنت التى عرفت كيف تقودين المركب ، وأعددت من أجله لحدا لائقا به .

(....) انك تبغين أن تحضر النساء (اللاتى فى سن الانجاب) مع الرجال الى المرفأ .

ويقـدم لك جميـع المسـنين ، قرابينهم

(.......)

واقرارا واعترافا بما قامت به الالهة :

« انك سـيدة الأرض (........) .

التى جعلت سلطة النساء متساوية مع سلطة الرجال (٣٦) » .



شكل (٦) ايزيس ترضع طفلها

الجزء الثانى

المرأة فى إطار الملكية

- ١ -

الملكـــة ودورهـــا

مكانتهـــــا

من ملاحظتنا للمكانة التى كانت تحتلهـا الالهات فى أحداث مختلف الأساطير المصرية ، نستطيع أن نستشف الدور الرفيع ، الذى كانت تقوم به الملكة زوجة الفرعون ، أو « الزوجة الملكية الكبرى » ، تلك التى يجب أن تلد وريثا للعرش . وسوف نجد بعد ذلك أن هناك نساء أخريات يكملن هذه الامبراطورية النسائية الساحرة التي يتبوأ عرشها ملك مصر ، ولكن الأمر يتعلق هنا قبل كل شيء « بمجموعة نساء التاج » .

ونلاحظ منذ الأسرة الأولى سواء من حيث عدد مقابر الملكات (١)، من ناحية ، أو من حيث ما تدل عليه مظاهر فخامتها (٢) المتبقية ، من ناحية أخـــرى ، أهمية الدور الذى كانت تقــوم به الملكة على مر حقب التاريخ المصرى القديم ، وازدياد مكانتها وســوخا ومتانة .

ومما لا شك فيه أن وراثة العرش كانت تتم من خلال الملكة . فهى التى كانت « تنقل الجوهر المقدس الى الطفل الملكى » . ومن هذا المنطلق ايضا كانت الضرورة تستلزم أن تكون الملكة نفســها ابنة لأحد الفراعنـة وكان يترتب على اقترانها أحيانا بأحد المطالبين بالعرش أو الطامعين فيه ، أى كوريث غير مباشر ، أن تنقل الدماء الملكية الشمسية الى أبنائه . اذن ، فحقوق الأم أو الابنة الملكية كانت من الأولويات ، وهذا ما أكده وأثبته منذ أكثر من ألفى عام ، المؤرخ « مانيتون » الذى ذكر أن ملوك الأسرة الثانية قد أقروا بشرعية اعتــلاء المرأة للعرش ، شرعية مطلقــة ، ويعتبر المؤرخ « تيودور » المتخصص فى دراسة القوانين الفرعونية ، أن نفس هذا القانون المدون كتابة معروف منذ الدولة القديمة .

الزواج بين المحـــارم فى البلاط الملكى

بين الاخـــوة والأخـــوات :

والتطبيق « المثالى » هو بدون شك الزواج الملكى بين الأخ وأخته المنحدرين من نســل الفرعون ، وهــذا يعتبر تقليدا فعليا لمــا كانت تفعله

الآلهة ، وبصفة خاصة فى احداث اساطير الخلـــق (ففى اســـاطير هيرموبوليس ، الاشمونين ، لم تكن العناصر الذكرية والأنثوية الخالقة ازواجا كاملة التكوين ، ولكنها كانت مشتقة من الجوهر الالهى ، الثنائى الجنس ») . ولنرجع بذاكرتنا الى الآلهة الاخوة الأزواج : « شو » و « تفنوت » ، و « جب » و « نوت » ، وكذلك الأخوين الزوجين «أوزيريس» و « ايزيس » .

وعلى مدى التاريخ نجد ان الأسرة المالكة ـ تلك المؤسسة المقدسة ، التى كانت الضرورة تحتم الابقاء عليها ـ كانت تلجأ الى ذلك السلوك فى نطاق فروعها الأساسية ، وكلما امكن ذلك للابقاء على قداسة الوراثة الفرعونية . فمثلا ، فى الأسرة الرابعة ، نجد أن الملك « ددف رع » قد تزوج من اخته « حتب حرس » الثانية ، ذات الشعر الذهبى المستعار . اما احمس محرر مصر ، فقد دون على لوحته القائمة فى ابيدوس ، ان واخته / زوجته « احمس نفرتارى » ، ينحدران من اب واحد وام واحدة ، هما : « اعح حتب » و « سقننرع » .

وقد طبقت مصر فى عصرى الاغريق والرومان هـذه القاعدة تطبيقا كاملا . ويتضح ذلك فى زيجات آخر ملوك البطالمة ، وبصفة خاصة زيجات الملكات السبع اللاتى حملن على التوالى اسم « كليوباترة » .

ولكى تضفى ابنة الملك على قرينها السلطة والنفوذ الفرعونى كانت تتزوج اخيها غير الشقيق . كما فعلت حتشبسوت ، أو تتزوج أيضـا بقريب اكثر بعدا عن الأسرة الملكية ، كما فعلت « حتب حرس » ، التى تزوجت « سنفرو » ، ومهدت له بذلك الطريق الى العرش . ولكن ، علينا ان نعرف ان نفس القاعدة قد لاقت على مر العصور الفرعونية بعض الاستثناءات التى يعرفها الكثيرون . وهناك البعض الآخر ما زلنا نجهله حتى الآن .

لقد عرفنا ان الملك « ببى الأول » ـ فى الأسرة السادسة ـ قد تزوج شقيقتين او ربما نصف شقيقتين وكانتا تحملان نفس الاسم : « مرت رع عنخ ان اس » ، وهما ابنتا احد وجهـاء مدينة « ابيدوس » ، ويدعى « خوى » (٣) وفى أوائل الأسرة الثامنة عشرة ، كان الملك احمس يفتخر بان اباه وامه اخوان من الأسرة المالكة . وأن جدتهما المشتركة هى السيدة « تيتى شيرى » ، التى توجت ملكة ، ومع ذلك ، فان الآثار التى عثر عليها بمقبرة «تيتى شيرى» (٤) هذه ، تبين انها كانت تنحدر من أصل متوسط الحال . ولاشك ان تاريخ مصر يزخر بكثير من الاستثناءات فى هذه القاعدة . فالقائد «حور محب» قد استطاع بكل سهولة الاستيلاء على مقاليد الحكم ـ فى اواخر عصر العمارنة ـ ، ورغم من شرعية استيلائه

على الحكم بزواجه الثانى من الأميرة « موت نجمت » ، التى يعتقد أنها شقيقة للملكة « نفرتيتى » . فاذا كان هـذا صحيحا ، أى انها كـانت فعلا شقيقة ملكة « تل العمارنة » الرائعة ، فهل كانت « نفرتيتى » أميرة ملكية فعلا قبل أن تتزوج من « امنحتب الرابع » ؟ . اننا ، حتى يومنا هذا لا نعرف من هم أجداد أو والدا نفـرتيتى أشـهر ملكات قـدماء المصريين .

ويمكننا التوصل الى بعض الاستنتاجات المماثلة ، فيما يختص بمؤسسى الأسرة التاسعة عشرة ، أى مجموعة الملوك الرعامسة ، الذين عرفت هوية زوجاتهم المعظمات . فالملكان الأولان ، « رمسيس وسيتى » ، كانا يشغلا وظيفتين كبيرتين ، ثم قام « حور محب » بتعيينهما فى منصب وزارى كبير ، وتوفى دون أن يترك وريثا للعرش .

وبذلك استطاع كل من « رمسيس الأول » و « سيتى الأول » ، ان يتقلدا الملك على التوالى ، تصاحب كل منهما زوجته . وكانت زوجة « رمسيس » ، تدعى « سات رع » ، أما زوجة « سيتى » ، فكانت تدعى « توى » . وهاتان الزوجتان انحدرتا من سلالة أبوين عسكريين . وهما من سيدات المجتمع اللاتى ساهمن فى ممارسة طقوس عبادة آمون . فاين هى الدماء الملكية عند هؤلاء « القوم » ؟ .

ولدينا مثال نموذجى ـ وأكثر توضيحا ـ لهذه الظاهرة ، ونعنى به زواج « تى » من « امنحتب الثالث » الذى لم يكتف بخلع أرفع الألقاب فى البلاط الملكى عليها ، أى « الزوجة الملكية الكبرى » ، وتمادى فى تحديه الواضح ، ففرض هذا القرار وذكر انه لن يسمح لأحد بمناقشته . ثم اصدر سلسلة من الجعــارين التاريخية الضخمة (٥) التى سـجل عليها تذكار زواجه من هذه الفتاة التى تنتمى الى عامة الشعب ، « تى » ابنة أحد الكهنة ، واحدى الكاهنات بمدينة « أخميم » ، فى مصر العليا . وكانا يدعيان « تويا ويويا » ، ويبدو انهما اصلاً من بلاد النوبة السفلى .

بين الآباء والبنـــات :

علينا أن نعـرف دون شك الوسيلة الملتوية التى كان يتم بها التوصل لنقل الدم الملكى المقدس بالرغم أن الزواج المحرم بين الاخوة والأخوات ، لم يكن دائما . ففى أجواء البلاط الملكى ، لوحظ وجود زواج محرم آخر ، ـ ولكن لأغراض عقائدية بحتة ـ ألا وهو الزواج بين الأب وابنته . فلو ان مصادرنا كانت أكثر شمولا ، لاستطعنا ان نلم بواقعة وردت الينا من مصادر العصر المتاخر ، تحكى اسطورة غرامية بين « منكاو رع » وابنته (٦) ، من الدولة القديمة . أما فى الدولة الوسطى ، فان الأحداث تؤكد زواج الملك « امنمحات الثالث » من ابنته « نفرو بتاح » (٧) .

اما عن الحالات الأكثر تأكيدا ، فهى ترجع الى الدولة الحديثة ، خاصة وأن الوثائق التاريخية الخاصة بتلك الفترة حفظت لنا كاملة . لنجد ، أمنحتب الثالث ، الذى كانت ترافقه دائما الجميلة الرائعة « تى » ، والتى يقال عنها لفتنتها الفـائقة انهـا كانت « بومبادور » الأسرة الثامنة عشرة ، (الكونتيسة دى بومبادور كانت من أجمل جميلات فرنسا فى القرن الثامن عشر) ، وبالرغم من ذلك تزوج من ابنته « سات آمون » ، وجعل منها زوجته الملكية الكبرى الثانية . ولم يكتف « أمنحتب » بهذه الوريثة ، بل تزوج كذلك من واحدة أخرى من بناته ، وهى ايزيس ، وربما قد تزوج أيضا من بعض شقيقاتها الأخريات .

وأشهر هؤلاء « الآباء – الأزواج » من الفراعنة المرمـوقين فى الدولة الحديثة هم : امنحتب الرابع ، ورمسيس الثانى ، ورمسيس الثالث . وبالنسبة لأمنحتب الرابع ، فقد « تشرفت » ثلاث من بناتـه بالزواج به ، وهن : « مريت آتون » كبراهن التى انجب منها ابنته (٨) « مكت – آتون » . اما ابنته وزوجته الثانية ، فقد توفيت غالبا أثناء عملية الولادة . والابنة الثالثة التى تزوجها هى « عنخ اس ان با آتون » التى انجبت له وريثه (٩) وبعد ان توفى أمنحتب تزوجت ابنته هـذه من « توت عنخ آمون » (١٠) . والى يومنا هذا فان أسباب مثل هذه الزيجات غير مؤكدة تماما ، فهل كان الملك بعمله هذا يحـاول انجاب وريث للعرش؟ وخاصة ان « نفرتيتى » لم تنجب له سوى ست بنات ؟ وكان عليه مع ذلك ، ان يظل وفيا لعنصر وسلالة زوجته الكبرى ؟ ... على أية حال فان كل هذا غير مؤكد :

وعموما فاننا لا نستطيع أن نجزم أن هذا هو الدافع الذى جعل رمسيس الثانى – « شمس مصر » – الذى انجب ذكورا عديدين ، يتزوج من كبرى بنـاته التى انجبهـا من « ايزيس – نفرت » ، و « نفـرتارى » ، الزوجتين الملكيتين الكبيرتين (١١) . كمـا تزوج بأخريات غيرهن أيضا . ولعلنا لا ننسى أيضا زواجه من صغرى بناته ، وتدعى « حنوت – مى – رع » (١٢) . هذا بالاضافة الى أن الملك الذى عاش لسنوات عديدة ، وامتد حكمه طوال ٧٦ عاما ، سار على نفس نهج « أمنحتب الرابع » ، وانجب ابنا من كبرى بناته وهى أميرة ما زالت مجهولة صورت فى مقبرة « بنت عنات » ، على أنها ابنة وحفيدة ملك .. ترى ، ما هو الدافع الذى كان يدفع بهؤلاء الملوك المحاطين بأجمل نساء مصر ، بل بنسـاء العالم المعروف فى تلك الحقبة التاريخية ، لأن يتزوجوا بناتهم ؟

لا شك أن هذه الدواعى والأسباب ، كانت ترجع قبل كل شىء الى الطقوس والمعتقدات الخاصة بمفهوم المجتمع الالهى ، الذى يرتكز على ضرورة الوجود الدائم للعنصر المقدس فى السـلالة الملكيـة .

فالفرعون ، قبل كل شىء ، هـو تجسـيد للاله « الخـالق » « آتوم » ، واحيانا أيضا « رع » . أما زوجته ، فهى اما « موت » ، او « ايزيس » ، او « حتحور » ، وهى أيضا « تفنوت » ابنته وزوجته ...... بل هى « يده » . وهنا ، نجد انفسنا أمام أكثر النظريات واقعية ، فى مجال الخلق ، حيث تسمى رفيقة « رع » « نبت – حتب » (وترجمتها : سيدة المتعة) ، بعـد أن اتخـذت مظهـر الالهة « يوسعـاس Toussâas » أى التى تبين حيوية ونشاط الخالق . و « يوسعاس » تعنى : انهـا تتقدم ، انها تنمو » .

و « تفنوت » الذى نراها فى أسطورة « الالهة البعيدة » ابنة « رع » وعينه المرعبة الملطفة فى ان واحد ، هى نفسها الالهة « ماعت » . التى تعمل على انعاش حيويه الاله الأعظم اللازمة لأجل حياة مصر ، ويتجسد هذا الاله نفسه فى جسد الفرعون فوق الأرض . اذن ، فالفرعون سواء كان ينحدر من أصل ملكى أو من طبقـة اقـل سموا ، فهـو يتمتع بطاقة الهية كامنة ، وبمجرد أن يعتلى العـرش ، تستلزم الضرورة تأكيد هـذه الطاقة ورعايتها وتجديدها بالطقوس الواسعة المدى . ونفس هذه القوى المستمدة من العالم الالهى اكتسبها الفرعون ، فى نهاية الأمر من أمه الملكة ابنة الملك ، وسليلة الأمراء أو نبيلة من النبلاء ، ولكنها فى نفس الحين ، مرت بتجربة « المعاشرة الالهية » . أو بمعنى آخـر ، انها استقبلت الاله الأعظم فى فراشها ، ليلة زفافها ، الذى تجسد فى هيئة زوجهـا الفرعون . ولذا ، فان الملك « عن طريق أمه » التى شرفها الرب قد توج من قبله ، ووريثا للاله الخـالق . ومما هو جدير بالذكر ، أن الآثار القليلة الموجـودة فى معـابد العصـور الأولى لم تحتفظ لنا بشىء يذكـر عن هـذا النوع الخاص بالطقوس الأساسية . ولكننا نستطيع أن نرى مثل هذه المناظر الخاصة بفراعنة الدولة الحديثة بالدير البحـرى مثل الملكـة « أحموسى » ، أم « حتشبسوت » ، وبالأقصر نجد مناظـر خاصة بالملكة « موت ام أويا » أم « أمنحتب الثالث » . ونشـاهد فى أطلال معبـد « الرمسيوم » المناظر الخاصة بالملكة « توى » والدة « رمسيس الثانى » . واذا رجعنا الى بردية « وستكار » ، وقرأنا النصوص التى تسرد بعض أحداث الدولة القديمة ، فاننا نطالع فى احدى قصصها الرائعة ، حكاية زوجة أحد كهنة « رع » ، التى تشرفت بزيارة الاله الخالق ، وبذا استطاعت أن تنجب الملوك الثلاثة الأوائل الذين تولوا الحكم فى الأسرة الخامسة .

« ...... وذات يوم شـعرت « ردد جدت » بآلام (الوضع) ، وكانت الولادة عسرة . ولذا ، قال الاله « رع » رب ساخيو للالهات ايزيس ، ونفتيس ، وسخمت ، وحكات ، والاله خنوم : « اذهبـوا

وسـاعدوا « ردد جدت » فى وضـع الأجنة الثـلاثة الموجودين فى احشائها ، والذين سيقومون بعد ذلك باعمال طيبه ، فى انحاء هذه البلاد. وسوف يقومون بتشـييد معـابدكم ، وسـيقدمون القـرابين والهبـات لهياكلكم ، وبفضلهم سوف تزدهر الموائد التى يقدم عليها النبيذ . وسوف يعملون على زيادة قرابينـكم » . ورحلت هـؤلاء الالهـات بعد أن تحولن الى راقصات وموسيقيات ، يصحبهن الاله « خنوم » حـاملا أمتعتهن ، ووصلن الى بيت « رع أوسر » (.....) الذى قال لهن : « سيداتى ، انظرن ، ان سيدة هذا البيت تعانى من آلام الوضع ، وولادتها متعسرة ». فاجبنه : « هل تسـمح لنا برؤيتها ؟ .... فنحن نسـتطيع مساعدتها فى عملية الوضـع » (١٣) .

وبعد أن عملت الربات على وضع الأطفال الثلاثة « وكان يبـلغ طول كل واحد منهم حوالى ذراع ، وكانت أعضاؤهم موشـاة بالذهب ، ورءوسهم محلاة باكاليل من اللازورد » توجهن الى الاله الأعظـم « رع » والدهم وطلبن منه أن يقـوم بمعجزة من أجـل هؤلاء الأطفال ، وصنعن من اجلهم ثلاثة تيجـان ملكية » .

وربما كان الفراعنة يرغبون بزواجهم من زوجات غير منحدرات من اصل ملكى ، وبزواجهم من بناتهم أيضا ، أن ينقلوا اليهن جزءا من هـذا الاشعاع المقدس الذى جعل منهم آلهة مجسدة فوق الأرض .

لقد كان هؤلاء الملوك مؤلهين فوق الأرض (مثل حالة الملك أمنحتب الثالث ، وأمنحتب الرابع ، ورمسيس الثانى) وبهذا ، كانوا يحولون بناتهم الى ملكات مؤلهات بزواجهم منهن ، وكذلك الأمر بالنسبة لأى وريث او وريثة ينجبون منهن ، وبذلك كانت تحمل وتنقل الدماء الالهية .

وأخيرا فمن المعروف ابان حكم رمسيس الثالث ، أن بنـاته كن وفقا للطقوس الدينية السائدة يقمن بدور « الأيدى المقدسة » خـلال احتفالات الأعيـاد اليوبيلية (١٤) .

زواج الفرعون

ليس هناك دليل قاطع يؤكد لنا أن بعض « الزوجات الملكيـات العظيمات » كن أصلا أميرات أجنبيات . ومع ذلك فالتاريخ القديم يبين لنا ان بعض الأميرات الاجنبيات قد اصبحن زوجات من الدرجة الثانية لبعض الملوك . ففى خلال عصر الأسرة الخامسة يبدو أن الملك « ساحورع» قد استقبل فى بلاطه أميرة وافدة من مدينة « جبيـل » . كذلك فان بنـات الفرعون كن يستطعن الزواج من أمراء « جبيل » خلال عصر الدولة الوسطى . وفى اواخر عصر سيطرة « الهكسوس » على مصر ، يبدو ان الأميرة « مريت » والتى تزوجت من أحـد الغـزاة ، ويدعى «أبو فيس» كانت هى احدى جدات الملك « أمنحتب الاول » .

وبالنسبة لملوك الأسرة الثامنة عشرة فقد كانوا يملكون ضـمن حريمهم نسـاء شرقيات عريقـات النسب والمنبت . مثـل الأميرات الثلاث السوريات اللاتى كن ضمن حريم تحتمس الثالث ، واللاتى دفن معا فى جنوب « وادى الملكات » . وكذلك الحال بالنسبة لأميرات « ميتانى » اللاتى أرسلن الى بلاط الفرعون . ومما هو جدير بالذكر أن تحتمس الرابع لاقى صعوبات جمة لكى يتمم زواجه من ابنة حاكم « ميتانى » (١٦) الملك « أرتا ــ تا ــ ما » فى نفس الوقت الذى تمت فيه المعاهدة بين الملكين ، لكى يتمكنا من النضال معا ، ضد الحيثيين ، عدوهما المشترك حينئذ .

وقد قام الملك « أمنحتب الثالث » ابن « تحتمس الرابع » فى العام العاشر من حكمه بعقد زواجه على ابنـة « شوتارنا الثانى » امير نهارينا . وهناك مجموعة من الجعارين تحدد الاحتفال بقدوم الأميرة «جيلوكيبا» الى مصر برفقة حاشية مكونة من ٣١٧ من السيدات والخدم . ولكن لم يعثر على اى أثر لهذه الأميرة ، بصفتها الزوجة الملكية الكبرى . ولم يعثر أيضا على ما يفيد ذلك من خلال الكتابات الموجودة على ظهـر الجعران الذى صدر لاعلان نبأ هذا الزواج . أما الملكة « تى » التى كان نبل وعراقة عائلتها يحف بها ، فقد كانت تحتل دائما مكان الشرف والصدارة . وهناك أيضا أميرة أخـرى من نفس العـائلة تدعى « تادوخيبا » والتى وصلت الى البلاط الملكى بعد وفاة « أمنحتب الثالث » بفترة قصيرة ، ودخلت ضمن حريم « أمنحتب الرابع » الذى كان قد تزوج ايضا خلال فترة حكمه من احدى بنات أمير « آرزاوا » المعروفة باسم « تارخوندارادو » . وقبل أن تغادر هذه الأميرة بلدها الأصلى الى مصر ، سكب على رأسها الزيت المعطر علامة على ارتباطها بالفرعون ومن المعروف أيضا أن حريم « أمنحتب الرابع » ، قد استقبل فى رحابه

أميرة بابلية وهى ابنة الملك « بورنابورياش الثانى » . ومما هو جدير بالذكر أيضا أن هذا الملك كان قد أظهر امتعاضه وضيقه الشديد ، لأن مصر لم تبعث الا بخمس عربات ، لصاحبة وحراسة ابنته الأميرة الخطوية .

وفى الواقع فان الأجنبية الوحيدة التى أصبحت فعلا زوجة ملكية كبرى ، ولأسباب دبلوماسية استثنائية هى ابنة « خاتوشيليش » ملك الحيثيين ، والتى عمدت وفقا للطقوس الدينية المصرية عندما تقابلت مع « رمسيس الثانى » وعند وصولها الى حدود مصر ، أطلق عليها اسما جديدا (مصريا) هو « مات حور نفرو رع » أى « تلك التى ترى حورس هى قوة رع الخلاقة » ثم تزوج رمسيس أيضا وبعد فترة وجيزة باحدى شقيقات زوجته الحيثية هذه ، والتى قدمت اليه بجهاز لا يقل فخامة عن الذى قدمت به اليه اختها الكبرى . وصورت لنا « لوحة الزواج » التى أمر الملك « رمسيس الثانى » بنقشها على الحائط الجانبى الجنوبى لمعبد أبو سمبل الكبير ، قران الأميرة الحيثية الأولى ، ويعد هذا هو المنظر الوحيد للاحتفالات التى كانت تقام بمناسبة الزواج الفرعونى بمصر . والمنظر العام المنقوش فى جزئها العلوى يمثل الفرعون جالسا تحت مظلة يحيط به الاله « ست » – رب أسرته – والاله « بتاح تاتنن » المهيمن على خلق الكون وتجدده . وأمام الفرعون تتقدم الأميرة الحيثية مرفوعة الرأس والذراعين كدليل على التعبد يتبعها أبوها « خاتو شيليش » فى نفس الوضع . وهذا هو منظر وصول الزوجة الجديدة الى قصر الفرعون برفقة أبيها ، الذى اصطحبها الى مصر (١٧) .

ويمكننا ان نتبين أن هذا الحفل أقيم داخل قاعة التشريفات بقصر الفرعون ، الذى كانت الزوجة الملكية الكبرى الجديدة ستدخله بالتأكيد . ومع ذلك ، فليست هناك أية تفاصيل أخرى تبين لنا بقية المنظر . وعموما ، فلا بد أن حفل الاستقبال الذى أعد لقدوم الزوجة الجديدة ، كان فخما ورائعا . ولا شك أن رمسيس الثانى ، كغيره أيضا ، قد استقبل فى حريمه أميرات عديدات بابليات ومن شمال سوريا .

وفى نهاية الدولة الحديثة ، أصبح اختيار الزوجات الملكيات المعظمات أقل صرامة ، وذلك لأن معظم من تبوأ العرش بعد ذلك كان ينتمى الى حد ما الى جذور أجنبية . ألم يكن الملك « سبتاح » ابنا للملكة « سوتيلجا » الأسيوية الأصل ؟ ويلاحظ كذلك أن بعض الزيجات الدبلوماسية كانت تتم أحيانا بين بعض الأميرات المصريات وبعض الملوك الأجانب . فلقد تزوج الملك سليمان ، غالبا ، باحدى بنات الملك سآمون، آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين . وكان المهر « غزة » تلك المدينة التى تكالبت القوى على امتلاكها دوما .

الأم الملكية

وصية على العرش منذ الدولة القديمة :

كانت الملكة الوصية على العرش تقوم بدور بالغ الأهمية بجوار ابنها ، فكانت تمارس سيطرتها وتأثيرها عليه بصورة مؤكدة منذ البداية خلال فترة شبابه الأولى . وكانت اذا فقد ولى العهد أبيه ، تقوم بدور الوصاية الفعلية ، وهو دور يختلف وفقا للظروف ولم يتم تحديده قانونيا . وهذا هو عين ما حدث فى عهد الملكة « مرى رع عنخ ان اس » ارملة الملك « بيبى الأول » الذى توفى خلال فترة طفولة ابنها (١٨) .

وبذا ، كان الملوك الفراعنة يقدمون لرعاياهم البسطاء المثال الواضح لاجلالهم وتبجيلهم لأمهاتهم ، وبعد وفاة هؤلاء الأمهات ، كن يدفن فى قبور خاصة أعدت وفقا للطقوس المعتادة . وكانت الأثاثات والمتعلقات الجنازية التى تمثل الأدوات الخاصة بهن فى حياتهن على درجة كبيرة من الأهمية . وهذا هو ما يدل عليه ما تبقى من اثاث ومجوهرات الملكة « حتب حرس » ، زوجة الملك « سنفرو » وأم الملك « خوفو » . فقد عثر على أثاثها ومجوهراتها بعد موتها ، فى أعماق بئر بشرق الهرم الأكبر الخاص بوريث العرش ، وهى تبين ما كان يحيطها به ابنها من اهتمام ورعاية ، وكان أثاثها الجنازى عبارة عن مقاعد فخمة مطعمة بالذهب ، وسرير على مستوى صناعى وفنى رفيع من خشب الأبنوس ، وهناك أيضا كرسى المحفة المزين بشرائط من الأبنوس والمحلى بالكتابات الهيروغليفية المذهبة والتى تتحدث عن هذه السيدة الجليلة ، الوصية على العرش ، وكذلك عثرنا على مظلة سريرها الخاص بحجرة نومها ، والصندوق الكبير دقيق الصنع الذى يحتوى على متعلقاتها وأدواتها ، وصدرية صغيرة مرصعة بالأحجار الكريمة والذهب ، وأساور مزينة بأشكال جميلة على هيئة أجنحة الفراش المزركشة بالأحجار نصف الكريمة ، وعثر كذلك ضمن حاجياتها وأدوات تجميلها على شفرات من الذهب .

ونفس هذا التبجيل والاحترام ، قدمه لأمه أيضا ، الملك « أحمس » محرر مصر من احتلال الهكسوس ، عند وفاة « اعح حتب » العظيمة الوصية على العرش فى عمر متقدم للغاية ، ربما كان يناهز أربعة وثمانين عاما · وكانت هذه الملكة أرملة الملك « سقننرع ناعا الثانى » الذى استشهد فى احدى معاركه الحربية · ولا شك أنها قد مرت بأوقات عصيبة عند استشهاد زوجها والذى تلاه بعد وقت قصير استشهاد ابنها الأكبر « كامس » ·

بعد ذلك ، تولت الوصاية على « أحمس » ابنها الوريث الثانى للعرش والذى كان حينئذ صغير السن · ولقد حلت مكانه بالعاصمة عند ذهابه الى ساحة القتال ، ليقوم أخيرا بتحرير مصر فى العام الخامس من حكمه · ولقد اقام أحمس لوحة كبيرة بالكرنك تبين لنا الى أى مدى تمكنت هذه الأم والملكة المثالية من تحقيق استمرارية الأسرة بفضل نشاطها وانجازاتها فى مختلف قطاعات شعبها · واستطاعت بذلك ان تقوى وتدعم الأسرة التى يرتكز عليها العرش · وتمكنت من اقناع واستمالة المعارضين ، بعد أن عملت على توحيد الأغلبية العظمى فى انحاء البلاد ·

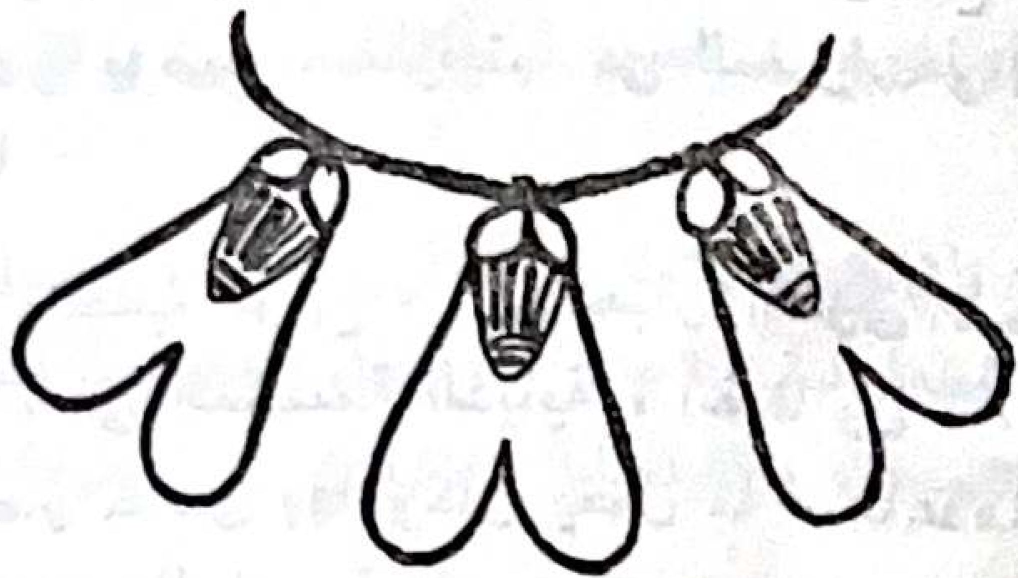
ولكن تختلف آراء علماء المصريات حول أمر واحد فقط بخصوصها : فلقد كانت هذه الملكة الأم متوقدة حماسا ، ودبلوماسية قديرة وتتمتع بتفكير منظم ، ولكن هل وصلت مهارتها لدرجة أنها تمكنت من التوحيد بين جيوش مصر ، واستكمال مهمة تحرير الوطن ، النهائى ؟ (١٩) وبالرغم من ذلك ، فاننا نستطيع الوثوق من هذا عند قراءة عبارات المديح والثناء التى وجهها « أحمس » لأمه ، وفيها يهيب بجميع رعاياه ، بأن يدينوا لها بالولاء والطاعة :

« اثنوا على سيدة البلاد ، وملكة شواطىء المناطق النائية ·
ان اسمها يرفرف على كافة البلاد الجبلية ،
وهى التى تتخذ القرارات الخاصة بشعبها ،
انها زوجة الملك ، وأخت الملك ، فليمتعها الاله
بالحياة ، والصحة ، والقوة ·
انها ابنة ملك ، وام الملك المبجلة ·
وهى على بينة بكل الشئون التى توجد فى انحاء مصر ·
لقد جمعت بين نبلاء مصر ، وعملت على تضامنهم معا ·

لقد اعادت الفارين ، وجمعت المنشقين ،
لقد جعلت السلام يسود مصر العليا ،
ودحرت المتمردين ·
اعح حتب ، زوجة الملك ، فلتتمتع بالحياة (٢٠) » ·

انها الملكة الوصية على العرش ، التى تحلت بالحزم والارادة عندما أرغمها القدر قسرا على أن تعاصر ، على التوالى ، تعاقب ثلاثة فراعنة ، وهى بدون شك أول امرأة فى التاريخ تنال وساما عسكريا (٢١)·

ولقد وجد « أحمس » أن التصرف الطبيعى والعادل يلزمه بأن يرفق مع مومياء أمه المبجلة بعض التذكارات المرتبطة فعلا بشجاعتها الأسطورية، مثل قلادة على شكل ذبابات ذهبية كبيرة كوسام عسكرى ، وخنجر صغير منقوش عليه اشكال لبعض الحيوانات رمزا لطرد الهكسوس من مصر بفضل الجيوش المصرية الباسلة ·



شكل (٧) وسام الذبابة العسكرى

اذن ، لا ريب مطلقا انه فى بداية الأسرة الثامنة عشرة ، كانت توجد سيدات فريدات من نوعهن : لعل أولهن الملكة « تيتى شيرى » التى وجه اليها أيضا حفيدها الملك ، أحمس » (٢٢) ثناءه ومديحه ، وعندما قام بتنصيب « أحمس نفرتارى » كزوجة ملكية عظمى حالما تخطت اعتاب الشباب اليافع ، ووفقا للمراسيم (٢٣) أصبحت بلا شك السيدة الأولى فى البلاط ، واحتلت المكانة التى كانت تحتلها « اعح حتب » (٢٤) ·

وفى هذه الفترة لم يكن ابنها « أمنحتب » قد تعدى العاشرة من عمره · ولا ريب انها ، مثل من سبقتها من ملكات باسلات ، قد تولت الوصاية عليه · وتمثلها الكثير من المناظر فى صحبة ابنها « امنحتب الأول » فى عدة حالات دنيوية ، بل وبعد الممات أيضا · فهما قد عبدا كشخصيتين مقدستين ، بل والهين من آلهة عمال « الجبانة الملكية » ·

ومن الملكات الأمهات الأخريات ذوات الشخصية الفذة القوية ، واللاتى تتوفر لدينا معلومات صحيحة عنهن ، يمكننا أن نذكر الملكة

« تى Tiye » ، من الأسرة الثامنة عشرة ، والملكة « توى Touy » من الأسرة التاسعة عشرة ، واللتين احتلتا مكانا مرموقا بارزا فى اطار اسرتيهما .

« تى » أم الملك امنحتب الرابع :

قامت الملكة « تى » (٢٥) المصرية المنبت والتى لا تنتمى الى أصل ملكى ، بدور فائق الأهمية بجوار ابنها « أمنحتب الرابع » · ويتفق معظم الكتاب بمسئوليتها (٢٦) فى مجال التعديل والاصلاح الدينى ، الذى قام به ابنها · وان لم تكن هناك فى الواقع أية كتابات توضح لنا آراء وافكار الملكة الأم · ومع ذلك ، فان « أمنحتب » كان يعانى من ضعف جسمانى واضح ، فى مقتبل سنوات حكمه ، يضاف الى ذلك أهمية الدور الذى كانت تقوم به الملكة بجوار ابنها مثل قيامها بزيارته بمفردها فترات عديدة ، فى العاصمة الجديدة وأعمال أخرى نستوضحها من المناظر المنقوشة على جدران مقابر العمارنة · كل ذلك يسمح لنا بأن نقبل مثل هذا الافتراض الذى يوضح مسئوليتها فى التغيرات والاصلاحات الدينية التى قام بها ابنها ·

ولقد قام « أمنحتب الرابع » ، أو بعبارة أخرى أخناتون ، بتخصيص معبد خاص بأمه ، فى العاصمة الدينية « أخيتاتون » ، « تل العمارنة » حاليا ، وكذلك قصر خاص بها وكان يعمل به مساعدها ونائبها المدعو « حوى » ، الذى دفن بالعاصمة الجديدة بناء على رغبته · والمناظر المنقوشة بمقبرته توضح لنا موقف الملكة الأم الفعلى ، حيال ما قام به ابنها وزوجة ابنها « نفرتيتى » وموقفها هى تجاه تلك العقيدة · ويبدو أنها بصفة عامة كانت تفهم وتستوعب هذه العقيدة الجديدة وتشجعها · بل من المحتمل انها كانت توحى بضرورة تبسيط وتوضيح معانى تلك الديانة المتخمة بالكثير من « النقد » الذى يناقش ويعلق على العديد من المظاهر الالهية ·

وكانت الملكة تقيم غالبا فى المقر الملكى الجديد الذى يعرف باسم « الملقطة » ، والمواجه لطيبة فى أوائل الحكم ، والذى يحمل اسم الاله « آتون » ، مما يبين مدى مؤازرتها للدين الجديد · وبالفعل ، أطلق على هذه المدينة اسم « نب ماعت رع » « بهاء آتون » و (نب ماعت رع هو اسم التتويج للملك امنحتب الثالث) · كما أن المركب الملكية التى كانت تمخر عباب النهر ، كان يطلق عليها أيضا : « جلال آتون » ·

ولا شك ان تلك المرأة فائقة الذكاء والفطنة وجدت نفسها مضطرة ان تكبح جماح بعض « المبالغات » التى أوشكت أحيانا ان تؤدى الى

تدمير كل ما فعلـه .... ويتضح لنا الدليل على ذلك فى مقبرة « حوى » حيث نجد منظرين فريدين من نوعهما ، يمثلان احدى المآدب التى اقامها الزوجان « اخناتون ونفرتيتى » للملكة « تى » والتى نراها بمفردها دون زوجها · ومن الواضح ان النقوش تبدو فى شكل مبتكر فعلا ، بل ومثيرة للانتباه ومستفزة الى حد ما ، سواء بسبب أسلوب النقش الواقعى ، أو بسبب طريقة رسم الأشخاص · فنحن نرى مرحلتين للوليمتين : الأولى ، يبدو فيها الملك وزوجته وامه وهم يتناولون شرابهم ، حيث نجد الملكة « تى » وهى تهم مثل ابنها وزوجته برفع كاسها الى شفتيها · والمنظر هنا ، يتطابق مع أصول القواعد التى كانت سائدة قبل الاصلاح الدينى · ويبدو أيضا أن الملكة « تى » كانت راضية تماما بان تكون مظاهر البيئة المحيطة بها على شىء من التحديث : فمثلا ، نرى فى نفس المنظر الملكة « تى » وحفيداتها وهن يشتركن فى هذا الحفل · فوجود هؤلاء الحفيدات الصغيرات يضفى لمسة أسرية رفيعة على مثل هذا المنظر الذى يمثل مناسبة رسمية بالقصر · بل ان نفس الأسلوب الفنى قد طرا عليه تغيير واضح · فصورة الملكة « تى » نقشت على النمط الفنى الحديث ·

اما فى المنظر الثانى ، فاننا نرى الزوجين « المصلحين » وهما يلتهمان بنهم شديد قطعا من اللحم · وتحت أقدامهما نجد اثنتين من بناتهما الصغيرات تقومان بتقليدهما وتقربان من فمهما أيضا بطتين صغيرتين محمرتين ·

ونرى فى هذا المنظر كذلك ، الجدة « تى » وقد حضرت هذه المأدبة وشاركت فيها ، ولكنها لم تقبل أن تبدو وهى تشترك مع بقية أفراد أسرتها فى هذه المأدبة الجماعية · فهى هنا لا تقرب أى طعام من شفتيها واكتفت فقط برفع يدها نحو فمها · لقد أطاح ابنها بكافة المعتقدات الدينية القديمة · وتجرأ على تحدى التقاليد المقدسة · ويبدو أن الملكة « تى » توافق على ما يحدث حولها · وانحازت الى جانب الاصلاح بصفة عامة ، ولكنها تتصف أيضا بالحكمة والتعقل وتخشى بدون شك ما قد يحمله المستقبل من ويلات ، فلم تحاول الملكة الأم أن تصدم البعض بقطع أواصر الصلة تماما مع بعض العادات والتقاليد التليدة المتوارثة من أعماق الماضى ·

الملكة « توى » والدة رمسيس الثانى :

أما عن « توى » والتى كانوا يلقبونها أيضا فى حياتها بـ « موت توى » ، أو يدعونها ببساطة « موتى » فهى والدة رمسيس الثانى · وكانت تحتل مكانة مرموقة بجوار ابنها (٢٧) · ونستطيع أن نراها

ممثلة فى منظرين على واجهة معبد « ابو سنبل » الكبير ، بجوار الزوجة المفضلة للملك العظيم واولاده من زوجتيه الاوليين الرسميين . ولا شك ان الملكة « توى » قد شاركت ابنها فى اللعبة التى كان يقوم بها ، الا وهى محاولته العودة الى الاصلاح الدينى بصورة مستترة حاذقة ، لان « رمسيس الثانى » لم يكتف فقط بمجرد الادعاء بأنه قد انبثق من الاله ، ولكنه اكد صراحة الوهيته فوق الأرض . فأمه قد استقبلت الاله آمون متجسدا فى شكل زوجها الملك ، كما سبقت الاشارة اليه فى موضوع الزواج الالهى (٢٨) . بل ان « رمسيس الثانى » قد اضاف على اسم أمه ، ابان حياتها ، اسم الالهة « موت » وبذلك قربها من مرتبة الآلهة بادماجها مع تلك الربة زوجة الاله « آمون » . ولقد خصص لها « رمسيس » مقبرة فى وادى الملكات على قدر كبير من الفخامة والعظمة . ومع كل ذلك وبعيدا عن المجال الدنيوى ، وعند أعتاب عالم الآلهة فان « رمسيس » لم يجازف بخداع الآلهة . ففى داخل المقبرة الخاصة بأمه ، خلع عليها صفاتها الدنيوية الحقيقية فقط . فعلى كافة الجدران المتبقية بالمقبرة لم تدع الأم الا باسمها « توى » . أما اسم « موت » الالهة التى كان « رمسيس » يقرن اسم امه به فلم نجده .

وخلال الفترة التى تولى فيها ابنها الحكم ، لم يكن مستغربا ان تقوم هذه الأم الملكة ، كما ورد من قبل بشأن « اعج حتب » الجدة العظمى للدولة الحديثة بالعمل على رفاهية البلاد وسؤددها ، فى حين كان « رمسيس » يواصل ، طوال العشرين عاما الأولى من حكمه ، بذل مساعيه لإقرار السلام فى الشرق الأوسط . ولن تصيبنا الدهشة عندما يطالعنا اسمها الذى كان يكتب تحت عبارة « تيى » ، قبيل السنة الثانية والعشرين من حكم « رمسيس » ، فى المراسلات الرسمية التى تبادلها بلاط « رمسيس » مع بلاط ملك الحيثيين « خاتوشيليش » . كما راسلت « توى » ملكة الحيثيين « بودوخيبا » ، لتبدى ارتياحها بصدد معاهدة الصلح التى أبرمت بين البلدين ، بل انها اشارت فى مراسلاتها الى هؤلاء الذين يعيشون فى بلاد الأناضول البعيدة والى هداياها العديدة اليهم من المصنوعات الذهبية والفضية ، والأوانى المصنوعة من معادن ثمينة والأقمشة المزركشة التى صنعت خصيصا تحت اشراف جلالتها فى « حريم » مقاطعة الفيوم .

- ٢ -

الزوجة الملكية العظمى

الدور الذى كانت تقوم به

قد تنحدر زوجة الملك من أسرة ملكية فعلا ، أو تكون نبيلة من النبيلات وتشترك فى بناء أسرة جديدة . وقد تكون واحدة من عديدات يختار الأمير من بينهن « الزوجة الملكية العظمى » التى ترافقه عند اعتلائه للعرش . وفى كافة الأحوال فقد احتلت على عرش مصر مكانة من الدرجة الأولى من الأهمية ، وأدمجت دائما فى المنبت الالهى الذى انبثق منه زوجها الفرعون . ولكن وثائق الدولتين الأوليين العظميين (الدولة القديمة والوسطى) لا تسمح لنا أن نؤكد بشكل قاطع وجود هذه الظاهرة فيهما تأكيدا قاطعا . ومع ذلك ، فان هناك من يرى أن بعض ملكات الأسرة الأولى مثل « مرنيت » و « نيت حتب » ، ثم بعد ذلك بفترة طويلة « حتب حرس » زوجة الملك « سنفرو » ، مؤسس الأسرة الرابعة ، كن أول من قمن بدور مستشارة العرش .

وقد سبق أن علمنا أن ورثة العرش يجب أن يكونوا أبناء « للزوجة الملكية الكبرى » . أما اذا كانوا ينحدرون من صلب الملك فحسب ، وأمهم « زوجة ثانوية » ، ففى هذه الحالة يجب ، لكى تدعم « طاقتهم الخارقة » ، أن يتزوجوا من أخت لهم غير شقيقة ، تنحدر من الأبوين الفرعونيين ، أى الفرعون و « الزوجة الملكية الكبرى » معا ، واذا كان الأمر خلاف ذلك فقد كانت الضرورة تحتم الالتجاء لبعض الحيل التقليدية التى كان يقوم بها الكهنة عن طيب خاطر . فمثلا ، خلال موكب فى معبد « آمون » يقوم وسيط الاله بالاعتراف بشخصية الأمير الوراثى واثبات شرعيته (وهذا هو عين ما حدث بالنسبة للملك تحتمس الثالث) . ولا شك أن تكرار مثل تلك الأساليب والحيل كان سببا ، فى قيام الملك « أمنحتب الرابع » بثورة هائلة .

اذن ، كانت بنات الأسرة المالكة يقمن بدور ذى أهمية كبيرة . ولقد تزوجت احدى بنات « خوفو » ، وتدعى « حتب حرس » الثانية من « ددف – رع » وبذا أعطت هذا الأمير شرعية تولى السلطة رغم أنه كان

اصغر من أخيه . كما أصبحت ابنة أخت « خفـرع » ، وكانت « مرسى عنخ الثالثة » زوجة كبرى للملك « خفرع » . وهناك ملكيات صغيرات غيرهن استطعن الزواج من بعض كبار رجال الدولة

واذا تأملنا التمثالين الرائعين المصنوعين من حجـر الشـ وبالحجم الطبيعى (١) للملك « منكاو رع » وزوجتـه « خع مرو نبتى الثانية ، وهما يقفان متجاوران وحجمهما متساو تماما ، ويتطلعان الى الأبدية لأدركنا المساواة بين هذين الشخصين الذين يقـوم كل منهما بالدور المخصص له . وبالاضافة لذلك فان الآثار القليلة التى عثر عليها فى معابد الدولتين القديمة والوسطى تبدو فيها « الزوجة الملكية الكبرى » وهى تقف بجوار الفرعون ، مما يوضح لنا أنها كانت تشارك ممارسة الطقوس الدينية ، ليس بصفتها كاهنة تقوم بممارسة الطقوس فحسب ، ولكن بصفتها الملكة المكملة الأسرية للفرعون .

وخلاف ذلك ، فان ضخامة ونوعية بعض تماثيل الملكات بالدولة الوسطى تبين أن الزوجات الرئيسيات للفرعون ، فى تلك الفترة ، لم يفقدن أبدا هيبتهن وأهميتهن ولا الدور الذى كان مقررا لهن القيام به .

والدور الأساسى الذى كانت تقوم به « الزوجة الرئيسية » للملك ، يرتكز خاصة على اسداء النصح والمشورة له . مما ساعدها على اكتساب خبرة كبيرة لكى تصبح – اذا دعت الظروف لذلك – وصية على العرش او وكيلة للوريث القاصر باعتبارها الملكة الأم لوريث العرش .

سيدات الأسرة الملكة الوطنيات :

وفى ظل هذه الأوضاع ظهرت فى فترة مبـكرة من بداية الدولة الحديثة الزوجة الملكية العظمى « اعح حتب » تلك الملكة التى جعلتها الظروف تقوم بدور سياسى على درجة قصـوى من الأهمية . والذى أقر ابنها أحمس بأهميته وكان من أشد المعجبين به . وكانت الملكة « أحمس نفرتارى » (٢) زوجته وأخته غير الشقيقة ، تتحاور معه على قدم المساواة فى شئون الحياة اليومية وتناقشـه فى مشـاريعه ، فنـرى « أحمس » وهو يتحدث معها عن آيات الاحترام والتقدير الذى يكنه لجدته ، فأجابته أخته قائلة : « لماذا تتذكر ذلك الآن ؟ ماذا يجيش بقلبك ؟ » فأجابهـا الملك : « لقد استعدت (ذكرى) والدة أبى ، ووالدة أمى الزوجة الملكية المعظمة ، والأم الملكية المتوفاة « تيتى شيرى » . وحقيقة انه يوجد الآن مقصورة خاصة بها ، بالاضافة الى مقبرتيها فى اقليمى طيبة وأبيدوس ، ولكنى أقول لك ذلك لأن جـلالتى يرغب فى بنـاء هرم ومعبـد من أجلهـا فى الأرض المقدسة ، وبجوار النصب الخاص بجلالتى » (......) ولقد أقيم كل ذلك فى أسرع وقت .

ولا ريب مطلقا ، ان هؤلاء الملكات العظيمات الأوائل قمن بدور مهم للغاية ، ولا شك ايضا أن هذا الدور كان مثالا احتذت به وسارت على نهجه كافة النساء وفقا لظروف كل منهن وطبيعتها ، ولعل أكثر الأمثلة وضوحا هو الملكة « حتشبسوت » . تلك الملكة التى أكـدت أحـدث البحوث (٢) الخاصة بها أنها لم تكن وريثة للملك ، ومع ذلك فقد استطاعت ان ترتقى وتعتلى عرش « حورس العظيم » .

ملكـات الثورة الدينية :

وحينما نصل الى عصر الملك « أمنحتب الثالث » نقترب من الحقبة – (بداية من هذا العهد حتى عهد رمسيس الثانى) – التى تقدم لنا أكبر قدر ممكن من المعلومات عن هذا الموضوع . وكان « أمنحتب » الشاب هو ثالث ملك حمل هذا الاسم . ولقد أراد أن يفرض فكـرة اختياره لزوجته الملكية المعظمة « تى » التى تنحـدر أصلا من بيئة كهنوتية ريفيـة بأسلوب مثير ، لذا أعلن المرسوم الملكى الرسمى الخاص بارتباطه بهـا مستهلا فى وصف هذا الاختيار بالمديح والتفاخر ، بل وأسلوب التحدى الواضح . ولقد أوضح فيه بكل صراحة وجلاء المنبت البسيط الذى تنحدر منه زوجتـه الملكية الـكبرى المقبلة . كما بين أن ملكه سوف يمتد على كافة أنحاء الدولة المصرية ، التى حكمها الأسلاف الفراعنة بداية من أقاصى الشرق الأدنى حتى اقليم « نباتا » بالسـودان . وبعـد أن ذكـر اسم « تى » ، واسم أبويها « تويا » و « يويا » أضاف أمنحتب الثالث قائلا : « لقد أصبحت الآن زوجة ملكية كبرى لملك عظيم السطوة ، قوى الشكيمة ، تمتـد جـذور ملكه جنـوبا من منطقـة « كـاروى Karoy » حتى اقليم « نهارينا » شمالا . وكان تأثـير « تى » – تلك الحسـناء – فيما يبدو شديدا ومؤثرا على مليكها وزوجها .

ترك الفرعون مقر حكمه فى الضفة الشرقية لمدينة طيبة وأقام قصره وملحقاته المترامية الأطراف فى غربها ، عند المنطقة التى تعرف حاليـا باسم « اللقطـة » . وحسب ما ذكره أحـد النقـوش التى كتبت عـلى ظهر بعض الجعـارين فى العـام التاسـع من حكمـه ، أمـر أمنحتب بحفر بحيرة شاسعة للهو والترفيه فى الصحراء من أجل محبوبته « تى » يبلغ طولها حـوالى ٣٧٠٠ ذراع ، وعرضـها ٧٠٠ ذراع (أى ما يقـرب طولها من ١٩٢٤ مترا وعرضها ٣٦٤ مترا) . وهـذه هى «بركة هـابو» القائمة عند أطراف الخط الفاصل ما بين الأراضى الزراعية والصحراوية . (ولكى ينتهى حفر هذه البحيرة فى خلال ١٥ يوما ، كما ذكرت بعض النصوص ، يرى عالم المصريات الأمريكى « هيز Hayes » أن الضرورة كانت تستلزم الاستعانة بحوالى ¼ مليون عامل) . ولا ريب أن مصر

في تلك الفترة كانت تعيش أكثر حقبها ازدهارا وتالقا ، لا سيما بعد فتوحاتها الشاسعة فى الشرق الاوسط والتى ازدادت خلالها على ضفاف النيل مختلف مظاهر الرفاهية وتدفقت عليها الثروات ، واقتضى الامر انذاك التحكم فى الذوق الفنى والمقاييس حتى لا تنزلق الى المغالاة او الافراط فى التفاصيل الزائدة ، وحتى يستطيع الفنان التمييز بين الغث والثمين ، ويستلهم فى آن واحد الاشكال التى يبدعها او يعالجها بتفسيره ، وشجع ذلك على العمل على ايجاد درجات جديدة من الالوان بدءا من الاصفر « الكبريتى » الى الأحمر القانى بكافة درجاته ، واستعمال اللون الأزرق بل وانتاج الزجاج الفائق الشفافية . ومن الواضح أن كل هذه المظاهر لم تكن تشاهد الا فى أجواء البلاط الملكى .

كل ذلك كان يوحى بأن الملكة « تى » الملهمة الاساسية الأولى له . فقد كان يسرها صناعه الادوات والتماثيل الصغيرة التى تمثلها أحيانا بمصاحبة الملك . وكانت هذه التماثيل تصنع من الحجر المطلى بالميناء الذى يبدو لونه فريدا ورائعا يضاهى فى جماله اللون الأخضر الزمردى . وكانت تصنع من اجل الزوجين الملكيين بعض الأدوات المصدوعة من الطين المحروق والمطلية والمنقوش عليها بالوان مختلفة أسماء وألقاب الملكين . وقد ظهرت على تلك الأدوات أيضا أسماء والقاب ابنتهما الكبرى « سات آمون » ، والتى أصبحت الزوجة الملكية الكبرى الثانية للملك . وكانت الملكة « تى » تزهو بارتداء الملابس الفاخرة ذات الثنيات العديدة ، التى قلدتها فيها كل نساء البلاط بعد ذلك . كما كانت ترتدى الشعر المستعار الكثيف والمنسق على هيئة ضفائر ، والذى كان يسترسل على كتفيها ويغطى صدرها عند مفرق الثديين . وكانت وجوه النساء عندئذ تبدو فى جمال محبب جذاب ، واتسمت ملامحهن بالرقة والنعومة ، وكل شىء حولهن كان يترنم بأنشودة بديعة عذبة تمس شغاف القلوب ، ويكاد يحلق فى آفاق الخيال: وهذا ما توضحه النقوش فى مقبرة « رعموزا » توضيحا رائعا .

وبدت واضحة تلك اللمسة الرقيقة الراقية التى كانت تضعها أنامل « سيدة القصر » على كل شىء يحيط بها . هذه الملكة التى كانت تتمتع بجمال ساحر أخاذ ، ساعد على اطلاق العنان لانتاج القطع الفنية الرائعة . ومما يؤسف له حقا قلة الآثار الخاصة بالمكتبات والمعابد والقصور والمدن الكبرى فى مصر القديمة . ومع ذلك ، فقد وجدت بعض المقتنيات الثمينة التى تبين بعض عناوين الكتب الخاصة بالمعابد والكتب الأدبية والقصص الكلاسيكية والشعبية . ولكن ، لا شك أن أكثر ما يثير الدهشة هو ذلك الغطاء الصغير المصنوع من الطين المحروق المطلى الذى

يبدو انه كان يستعان به لتغطية علبة تحتوى على بعض اوراق البردى بمكتبة الملكة « تى » . وهذا الغطاء يحمل اسم والقاب الملكة ، كما يتضمن ايضا عنوان أوراق البردى الملفوفة بشكل اسطوانى والمحفوظة بداخل العلبة والعنوان المدون على الغطاء هو : « كتاب الجميزة الرقيقة» . وربما تضمن هذا الكتاب ترانيم الحب التى وصلنا بعض بقاياها ، وربما كان يتضمن بعض الدراسات فى علم النبات ، ولكن مما لا شك فيه أن هذا الغطاء المحورى الصغير يعد فى حد ذاته ، كأول مكتبة وجدت فى العالم كله . ومما لا شك فيه أيضا أن هذا الاثبات والدليل « الثقافى » النادر الثمين قد وصلنا من نفس الجناح الخاص بزوجة « امنحتب الثالث » الحبيبة ، المقربة الى قلبه .

ولقد وصلنا من اقسام « المحفوظات » الخاصة بقصور كل من امنحتب الثالث ، وأمنحتب الرابع (أخناتون) مجموعات من اللوحات المنقوش عليها بالخط المسمارى . ويعد منظمها دليلا على الكم الهائل من المراسلات الدبلوماسية التى كانت تتبادل بين بلاط الفرعون ووزرائه ، وبين حكام بلاد الشرق الأوسط ، بالاضافة الى حكام المناطق الواقعة تحت سيطرة ملك مصر . ومن المعروف أن الملكة « تى » وقتئذ ، كانت تساهم هى الأخرى مساهمة كبيرة فى مجال السياسة الخارجية . فمثلا ، كانت تسدى النصح أحيانا لمليكها عندما يقوم بمراسلة « توشراتا » ملك الميتانيين . كما أنها كانت أحيانا تتراسل مباشرة مع الوزراء الأجانب . والأكثر من ذلك أن دور الدبلوماسى لم يتوقف عند موت « أمنحتب الثالث » ، وتولى « اخناتون » العرش بعد أن شارك أباه فى الحكم قبل وفاته بعدة سنوات . اذن ، لم تكن « تى » مكلفة بدور الكفيلة أو الوصية على ابنها عند وفاة زوجها « أمنحتب » ومع ذلك ، فقد كان « توشراتا » يخاطبها هى فى رسائله مطالبا اياها الحفاظ على العلاقات بين البلدين خلال حكم ابنها .

ولا شك مطلقا أن « تى » قد استطاعت تدريجيا أن توقع « أمنحتب الثالث » تحت تأثيرها ونفوذها القوى ، ولكن هذا لم يمنع الملك من أن يختار الكثيرات من بناته ليجعل منهن زوجات مقدسات . وبدأ ذلك بكبرى بناته الأميرة « سات آمون » التى كانت تمتلك قصرا خاصا بالزوجة الملكية المعظمة (٤) . فى منطقة الملقطة ، ومع ذلك فان هذا لم يمنع أبدا « تى » من أن تبدو دائما فى المناظر والنقوش بجوار الملك فى كافة المناسبات . الاحتفالات الرسمية ، وأهمها بطبيعة الحال احتفالات ذكرى التتويج العظمى . وكان الاحتفال بهذه المناسبة يبدأ فى العام الثلاثين من حكم الفرعون . وترى الملكة « تى » فى هذا الاحتفال بجوار زوجها

فى هيئة مزدوجة متمثلة فى شكل الالهتين « سوتيس » و « حتحور »(٥).
وفى منظر آخر نستطيع أن نراها فى هيئة الالهة « ماعت » المرافقة



شكل (٨) امنحتب الثالث وزوجته تى

للاله « رع » ، ونشاهدها فى هذه الهيئة كذلك فى المقصورة الجنازية الخاصة بـ « رعموزا » وزير النطقة الجنـوبية المعاصر لأمنحتب الثالث » و « أمنحتب الرابع » . نهذه هى الفترة التى بلغت فيها الدعوة الدينية التى أطلقها الملك الشاب أعنف درجاتها . انها تلك الحقبة التى ادت فيها مظاهر المغالاة الى تحرير التعبير الفنى من قيوده القديمـة التقليدية ، لدرجـة جعلت هـذا التعبير على وشك أن ينحـدر الى الأسلوب الدارج (٦) الشائع .

أما عن الملكة « نفرتيتى » فلا يعرف أصلها ولا جذورها ، ولكن نعرف أن جمالها قد تحول الى أسطورة بفضل تمثالها النصفى الشهير الذى نحت فى ورشة التماثيل الخاصة بالفنان « تحتمس » (٧) ، ولقد أثير الكثير من التكهنات بشانها . ولكن ، هذه التـكهنات والاعتقـادات لم تمط اللثام عن أصلها المجهول ، وان كنا لا نشك فى أنها تنحدر من أصل مصرى ، ولكننا حتى الآن لا نعرف شيئا عن أسرتها سوى أن لها أختا تدعى « موت نجمت » . وأن اسم مرضعتها هو « تى » زوجة قائد فرسان الملك المدعو « آى » الذى تقلد الوزير بعد ذلك ، ثم اعتـلى العرش عند وفاة « توت عنخ آمون » وكانت الملكة تظهر دائما فى صحبة

الملك ومعها بناتها الست تبعا لتدرج أعمـارهن . ولم نجـد مطلقـا على الآثار الخاصة بالدولة الحديثة منذ بداية الأسرة الثامنة عشرة ، مثل ما وجدناه من تكرار ظهور الملكين وهما يزاولان كافة شئون حياتهما اليومية فى أوضاع مالوفة رفعت فيها الكلفة ، وحيث العاطفة والمودة الواضحة تفيض بمظاهر حب قوى دائم .

وقد يستنتج فى شىء من التسرع أن ابن « تى » لكى يكسر من حدة الموقف الرسمى بين الزوجين الملكيين بصفة خاصة ، قد ركز الاهتمام عن قصد على توضيح مشاعر الحب والحنان بين أفراد أسرة العمـارنـة . وقد تباينت مظاهر هذا الحب ابتداء من الحركات الرقيقة الحانية بين الزوجين حتى حرية التعبير فى الرسم والتشكيل ، بل ان الأمر قد وصل الى درجة تصوير الملكين وهما يتبادلان قبلة حارة أثنـاء وقوفهما فى عربتهما الحربية وهما يجـوبان المدينة معا ، بل وهما متعانقان معا عناقا طويلا . وقد كتب البعض قائلين ان هـذه المشاهد يجب أن تؤول باعتبارها تعبيرا رمزيا قويا .



شكل (٩) اخناتون ونفرتيتى

علينا اذن أن نلاحظ المكانة المرموقة الرفيعة ، بل الجوهرية والأساسية التى كانت تحتلها بنات الأسرة الملكة ابتداء من عصر « أمنحتب الثالث » . فلا نرى فى المناظر وفى النقوش البارزة التى تبدو فيها الملكة « تى » وزوجها الملك سوى الأميرات (٨) . أما عن الشاب « أمنحتب » الذى حمل لواء البدعة الدينية فقد كان يشغل مكانا ومهمة هامة داخل القصر . ففى خلال فترة حكمه لم يظهر فى أى وقت من الأوقات بين بنات الملك

أو بجوار اخته الأميرة الصغيرة « باكت ـ آتون » اى ولد صغير ٠ ومع ذلك ، فقد عاش « توت عنخ آمون » سنواته الأولى فى منطقة العمارنة تحت اسم « توت عنخ آتون » (٩) ٠

وليست لدينا وثائق تبين مصير « نفرتيتى » فى النهاية ٠ فهل وقع فعلا بينها وبين « اخناتون » خلاف كما اعتقد البعض بناء على العديد من الدلائل الأثرية التى أوضحتها اقامة الملكة بدون زوجها ، فى الجزء الشرقى من تل العمارنة ؟ أم تراها اكملت حياتها بجوار الملك بصفتها شريكة له فى الملك فى بداية الأمر ، لتزداد رسوخا وسيادة فى المملكة ، وليخلع عليها شيئا فشيئا الاختصاصات التى كان من الممكن ان تمنح لأحد الأمراء ؟ ولقد لاحظنا أنها كانت تمثل دائما فى كافة المناسبات بجوار الملك (تحيط بهما الأميرات) لممارسة الطقوس الخاصة بالشمس ، أو بمناسبة توزيع الجوائز والمكافآت من شرفة التجلى بالمعبد ، أو بمناسبة الاحتفال براس السنة ، أو فى احتفالات المراسم بالقصر ، محتلة بذلك مكانة نديم الملك ٠ اى أنها كانت تتقاسم معه كافة مسئوليات العرش بشكل يكاد يكون كاملا ٠ وفى منظر فريد من نوعه نراها تقف على مقدمة سفينتها الخاصة ، فى هيئة الملك حامى حمى المملكة وهو يقاتل اى معتد تسول له نفسه الاعتداء على مصر ٠

وبالاضافة لذلك ، فاننا نلاحظ أن التاج الذى تضعه « نفرتيتى » فوق رأسها ، هو اقرب شبها مع شىء من الاستطالة وبدون أية زيادات بالتاج الأحمر اللون ، الذى كان يضعه ملوك مصر السفلى على رؤوسهم.

ولقد عرفنا الملكة الصغيرة « عنخ اس ان آمون » من خلال معرفتنا بكنوز زوجها « توت عنخ آمون » ولكنها لم تترك لنا ما يدل على شئون حياتها الخاصة ٠ ومع ذلك فاننا نستطيع أن نراها فى كثير من المناظر والشاهد وبالتالى نستطيع أن نتبين بوضوح أكثر الدور الذى كانت تقوم به الملكات فى بعض مراحل الطقوس الجنازية ٠

ومع ذلك ، فان المراسلات المتبادلة بين ملك الحيثيين « شوبيلوليوما» وبين بلاط العمارنة ، توضح لنا أن هناك ملكة ـ أرملة (نفرتيتى) أم « مريت ـ آتون » أم « عنخ اس ان آمون » سوف تعلو العرش بعد وفاة زوجها ، وهذه الأرملة قد تجرأت وطلبت من ملك الحيثيين أن يمنحها ابنه لكى يتقاسم معها عرش مصر ٠٠٠ وفى نهاية الأمر ، وبعد أن وقع الاختيار على الأمير المطلوب ، وكان يدعى « زانانزا Zana nza » اغتيل وهو فى طريقه الى مصر ٠ ويبدو انه لم يكن من المعقول مطلقا فى تلك الحقبة من الزمان ، أن يعتلى أحد الأجانب عرش الفراعنة بجوار الملكة الوريثة ٠

ملكات رمسيس الثانى المصريات :

كانت الملكة « نفرتارى » الرائعة الجمال الزوجة الرئيسية للملك « رمسيس الثانى » من أكثر سيدات الأسرة الملكة اللاتى تتابعن بعد ذلك جمالا ، والتى تبين الآثار أنها كانت تتمتع بقوام جميل متناسق للغاية. وبالرغم من جمالها الأخاذ الذى يشع من خلال الرسوم الملونة والمنقوشة على جدران مقبرتها فى وادى الملكات ، فان الآثار القليلة المتبقية التى تصور حياتها ليست كافية لتوضيح تاريخها ٠ ويبدو أنها تزوجت الملك وهى صغيرة السن جدا ٠ وكان الملك فى نفس الوقت متزوجا بزوجة ملكية أولى تدعى « ايزيس نفرة » أنجب منها الأميرة « بنت عنات » ابنتهما الاولى ، ولكن نفرتارى كانت المفضلة لدى رمسيس للظهور بجواره أثناء الاحتفالات والمناسبات الخاصة بتتويجه ٠ وكانت بجواره ايضا عندما قام فى نفس العام بتنصيب كاهن كبير جديد يدعى « نبوننف » فى اقليم أبيدوس ٠ وفى مناسبات المديح والاطراء كانت نفرتارى تصاحب دائما رمسيس ، بل انها صاحبته خلال الاحتفالات الخاصة بالاله « مين » لأداء بعض الطقوس الدينية ٠

وفى العام الخامس من حكم زوجها الفرعون يبدو أنها قد صاحبته ومعها كبار أولادها الى ضفاف نهر العاصى حتى بداية معركة قادش ٠ وهذا ما نهجت عليه بعد ذلك بعض ملكات الغرب عندما كن يصاحبن أزواجهن الملوك الى الحرب ٠

وقد أقيم أعظم وأجمل معبد محفور فى الجبل بمصر من أجل نفرتارى الذى يقع شمال المعبد الكبير الخاص برمسيس الثانى فى منطقة أبو سمبل ٠ ويبدو أن الدور الذى كانت تقوم به زوجة الملك العظمى فى المجال الدينى بهذا المعبد يعد من مستلزمات التقاليد والطقوس الملكية ٠ ولكن يبدو أن نفرتارى قد استحوذت طوال عشرين عاما تقريبا على قلب الملك العظيم وشغفه بها فعلا ، وتبين بعض المراسلات التى كانت تتبادلها مع ملوك الحيثيين أنها مثل من سبقنها من ملكات عظيمات قد شاركت فى الأحداث السياسية الكبرى فى المملكة مع ملك مصر والملكة الأم وولى العهد ، وكذلك الوزير المدعو « باسر » ٠

ومما هو مؤكد فعلا أن الملك « أمنحتب الثالث » كانت له ملكتان عظيمتان ٠ وبالنسبة لرمسيس فقد لوحظ بفضل وقائع عديدة أنه كان يفضل كثيرا « نفرتارى » أم أولاده الذين توفوا جميعا قبل أن يعتلوا العرش ٠ ولقد شاهدنا دليلا بينا على التناقض الواضح فيما كان يحتمل أن يفضله الملك ، فلقد اختار « مرنبتاح » (١٠) ابن « ايزيس نفرة » زوجته التى كان قد نبذها لفترة طويلة ، لكى يخلفه على العرش ٠

ومع ذلك فقد بدأ رمسيس الثانى يحدد لنفسه مرة أخرى زوجات عظيمات جديدات . ففى المعبد الجنوبى بأبى سمبل تبدو الأميرة « بنت عنات » وهى كبرى وريثاته ، وابنته من « ايزيس نفرة » تتقدم جميع أخواتها فى عرض للأميرات الصغيرات . فى الوقت الذى يتم فيه الانتهاء من تشييد المعبد ، كانت واجهة أعمدة البهو الكبير الخارجى قد زينت بصورة كبيرة كاملة لنفس هذه الأميرة . وقد بلغت حينئذ سن الرشد وذكر اسمها فى خرطوش ملكى مسبوقا بلقب « الزوجة الملكية العظمى » .

وبعد مرور الوقت تمتعت أيضا « مريت آمون » الابنة الكبرى لـ « نفرتارى » بلقب الزوجة الملكية العظمى . ونجد الأميرة فى احدى المناظر المنقوشة على احدى اللوحات المحفورة فى الصخور المجاورة لمعبد أبى سمبل الكبير وهى تمارس الطقوس الدينية بجوار والدها . وفى الجزء الأسفل من نفس المنظر تبدو الملكة « نفرتارى » وهى جالسة بحيث لا تقدر على القيام بدورها التقليدى ، وهناك ابنة ثالثة لرمسيس تدعى « بنت تاوى » ، وبنات غيرها من المحتمل أنهن قد حظين أيضا بهذا اللقب الرفيع وهو : « الزوجة الملكية العظمى » . وآخرهن كانت أصغرهن سنا وتدعى « حنوت مى رع » .



شكل (١٠) بنت عنات وابنتها من رمسيس الثانى

وها هى ظاهرة مستحدثة للغاية فى اطار حكم هذا الفرعون ، فقد عمل أكثر من غيره من الملوك ، على زيادة عدد بناته الزوجات ، كما أدمج داخل دائرة نساء الأسرة المالكة ، بالرغم من أنها كانت دائرة

مغلقة للغاية ، سيدة أجنبية ليست من خارج نطاق البلاط الملكى فحسب ، بل أجنبية عن البلاد نفسها . ولقد سبق أن ذكرنا أن ابنة ملك الحيثيين توجت زوجة ملكية عظمى . وبهذا العمل يكون هذا الفرعون قد أبرم أول وأكبر معاهدة دولية تهدف استتباب السلام المنشود بين القوتين العظميين فى الشرق الأوسط فى ذلك العهد طوال ما يقرب من أربعين عاما . ولكنه خصص لحبيبة فؤاده « نفرتارى » ، أروع وأجمل الآثار التى أقيمت لتمجيد وتعظيم امرأة . كما أن خصائص ونوعية النقوش البارزة الملونة على جدران المعبد الصغير بأبى سمبل تبرز شباب وجمال هذه الملكة حيث تبدو هيئتها بشكل مجسم على الواجهة ككائن يشع جمالا وضياء . وحتى أواخر أيامها كان شكلها المائل قليلا للامتلاء المنقوش بمقبرتها يبين مدى تأثير السحر والجاذبية التى كانت هذه الجميلة المجهولة الأصل تملكهما ، على ملك سئم كل ما يحيط به من مظاهر لارضائه ونيل اعجابه .

كانت نفرتارى تبدو دائما بتاجها المزين بريشتى الصقر يتوسطهما قرص الشمس وقرنا « سوتيس » . وبهذا ، كانت تستحق فعلا دون من سبقنها من الملكات هذا الوصف الذى كان يصاحب صورها دائما : « الصوت الدافىء الرخيم ، واليدان الجميلتان الرشيقتان ، مليحة الوجه ، الرشيقة الأنيقة ، ذات الريشتين العاليتين .. » .

الدور العقائدى للزوجة الملكية العظمى

تجاه الاله :

لم تكتف الملكة بمساندة الفرعون ومساعدته ومرافقته خلال الطقوس الدينية الرسمية منذ بداية الدولة القديمة ، ولكن تمتعت زوجة الملك العظمى ابتداء من الأسرة الثامنة عشرة ، بلقب ووظيفة « حمت ـ نثر » ، أى « زوجة الاله » . وهذا ما يطابق تماما الممارسة الفعالة لطقوس آمون التى كانت تقوم بها الملكات والأميرات . ولقد وجدت بعض الأمثلة القليلة لهذه المرتبة الرفيعة التى منحت لسيدات الطبقة الراقية فى المجتمع خلال الدولة الوسطى . وأوضح مثال على ذلك تمثال « اى مرت نبس » الذى يجسم بشكل فريد خاص جمالها الأنثوى الأخاذ (١١) . وحقيقة أننا لا نلاحظ وجود اسم الاله الذى « تزوجته » ، ولكن لا شك أنه أحد مظاهر الاله الخالق المتعددة : ان دور « زوجة الاله » يتركز قبل كل شىء فى تجسيد المبدأ الأنثوى الذى يعمل على تأجيج الحيوية

الخلاقة لاله العالم الأعظم والابقاء عليها . كما تقوم هذه الكاهنة أيضا بوظيفة مكملة أخرى ، هى « جرت ـ نتر » ، أى « يد الاله » والتى سبق الاشارة الى ما ترمز اليه (١٢) .

كانت الملكة « أحمس نفرتارى » هى أول من حملت لقب ووظيفة « زوجة الاله » قبل أمها « اعح حتب » (١٣) ففى هذه الفترة كانت أخت وزوجة المحرر « أحمس » ، التى كانت تشغل من قبل وظيفة « الكاهنة الثانية » للاله آمون ، قد تركت هذه الوظيفة للحصول على هبة منحت لها عندما أصبحت « زوجة للاله » : خمسة أرورات من الأراضى المزروعة أى حوالى هكتار ونصف ، (تقل قليلا عن مائة فدان ونصف) ، وقد ألحق بهذه الأراضى الشاسعة كافة المستخدمين اللازمين للقيام بالعمل بها ، واستثمارها . وكما كانت ضمن الكثير من المخازن المؤن الضخمة والمعادن الثمينة ، فضلا عن كميات ضخمة من الأدهنة العطرية اللازمة لاقامة الطقوس وكذلك الشعور المستعارة والتيجان والأكاليل التى كانت الملكة ترتديها على رأسها أثناء تأدية الطقوس .

وكانت الملكة تعول أيضا فى ضيعتها « الخاصة » مجموعة هائلة من الكاهنات ، وأصبحت هذه الضيعة تزداد مع الوقت أهمية وخطورة ، بالرغم من بعض فترات الضعف التى مرت بها . ولا شك أن « أحمس نفرتارى » و « حتشبسوت » عندما كانت مجرد زوجة ملكية ، وكذلك ابنتها « نفرو ـ رع » ، ثم زوجة تحتمس الثالث «حتشبسوت مريت رع» قد حصلن على لقب « يد الاله » ، بجوار كونهن « زوجات الاله » .

أما عن وظيفة « زوجة الاله » هذه التى كانت تشغلها الملكة والتى ذكرت على مسلة « حتشبسوت » بالكرنك السابق ذكرها ، فان الضرورة أصبحت تستلزم أن تنتقل مع أملاك الضيعة من « وريثة » الى « وريثة » أخرى . ففى معظم الأحيان كانت الوريثات المباشرات للزوجة الأولى يقمن بهذه الوظيفة (مثل أحمس ، ومريت آمون « الزوجة الرئيسية لأمنحتب الأول » ، وسات آمون ، وسات كا ، وموسى) ، وفى بعض الأحيان كانت تنفصم عروة هذا التسلسل فى الاختيار ، أو بمعنى آخر توقف عملية تنصيب صاحبة الحق فى تلك الوظيفة . وفى مثل هذه الأحوال كانت تقوم احدى الكاهنات بممارسة الطقوس ، مثل الدور الذى كانت تقوم به « حوى » « عابدة الاله » فلم تكن هذه الكاهنة من سيدات الأسرة المالكة ، ولكنها كانت مع ذلك تقوم بوظيفة الكاهنة زوجة الاله ، وتمارس عمليا اقامة الطقوس بدلا من الملكة ، وكانت هذه السيدة هى أول من حمل هذا اللقب الجديد « رئيسة كاهنات آمون » وهناك ظاهرة مهمة يجب الاشارة اليها ، وهى أن « حوى » كانت من أقوى أفراد

الكهنوت النسائى للاله « آمون » واستطاعت ان تعمل على منح ابنتها « حتشبسوت مريت رع » التى أصبحت « الزوجة الملكية العظمى » لتحتمس الثالث لقب « زوجة الاله » وخاصة ان هذا اللقب لم يكن قد سبق منحه لأحد فى تلك الفترة .

اما عن آخر ملكات الأسرة الثامنة عشرة التى اعتبرت آخر وريثة لهذه المهنة « زوجة الاله » فكانت تدعى « تى عا » وهى احدى زوجات « امنحتب الثانى » ، وأم « تحتمس الرابع » . كما منحت بالاضافة لذلك لقب « يد الاله » ، ثم بدأ التسلسل ثانية بالملكة « سات رع » زوجة « رمسيس الأول » مؤسس الأسرة التاسعة عشرة وأم « سيتى الأول » . واستمر بعد ذلك عن طريق « توى » زوجة « سيتى اول » وأم « رمسيس الثانى » . ومما يلاحظ فعلا حتى هذه الحقبة أن هذا اللقب لم يكن مرتبطا بالضرورة مع تسلسل الوراثة الأسرية الملكية .

وكانت هؤلاء الملكات الكاهنات ، أو « زوجات آمون فوق الأرض » بالكرنك ، يجسدن الى حد ما الالهة « موت » زوجة الاله المقدسة ، وكن يضعن فوق شعورهن المستعارة تاجا على هيئة طائر الرخمة رمز الالهة « موت » ، أو « الأم الراعية » ، وكن يضعن كمثبت على رؤوسهن أيضا اطارا سميكا يحيط به شكل « الكوبرا » منتصبة الرأس بين الريشتين العاليتين ، اللتين تمثلان ريشة الرخمة (١٤) . وأمام هاتين الريشتين الكبيرتين ينتصب قرنان عاليان يختلفان تماما عن قرنى « البقرة المقدسة » . ويلتقى هذان القرنان عند القاعدة ليضما بينهما شكلا لقرص الشمس .

وفى أوائل الأسرة الثامنة عشرة كانت الملكات « زوجات الاله » ، عندما يقمن بممارسة مهام وظيفتهن ، يرتدين رداء بسيطا تقليديا يضم عند الوسط بجديلة رفيعة . ويضعن على رؤوسهن شعرا قصيرا مستعارا يحيط به تاج معدنى صغير يتدلى منه جزءان مسترسلان يغطيان الرقبة ، وتبين لنا النصوص أنهن كن يتمتعن بسحر وسطوة لا يماثلهما سوى جمالهن وجاذبيتهن . فهن مكلفات قبل كل شىء بادخال « السرور والبهجة » على قلب الاله وامتاع عينيه وسحرهما ، ولقد قيل بصددهن هذه العبارات التى قد لا يكون هدفها مجرد المديح ولكنها تعطى أيضا الكثير من الايحاءات والتلميحات عنهن : « عامرات بالحب » ، « فائقات السحر والجاذبية » « جمالهن يرضى الاله كثيرا » ، « قديرات على فعل العجائب فى بيت أبيهن » .

وهؤلاء الكاهنات الحقيقيات اللاتى كن يتمتعن بالسيطرة والقوة الفائقة كملكات زوجات الاله كن يحتفظن بضياعهن الخاصة التى تحيط

بالمعبد الجنازى الخاص بـ « أحمس نفرتارى » أول من حملت هذا اللقب ضمن الزوجات الملكيات العظيمات ورائدتهن فى هذا المجال . ويلاحظ أن هذه الضيعة كانت تزداد ضخامة وثراء مع الوقت . فكانت تضم مدرسة كبيرة لتعليم الكاهنات المعاونات فى ممارسة الطقوس . وكان يقوم بادارتها كبير المشرفين ، تحيط به مجموعة من الكتبة والمحاسبين وتضم الضيعة أيضا رؤساء للأقسام الخاصة بقطعان الماشية ومخازن الغلال . ومثلها كأية منشأة من المنشآت كانت تضم أيضا العمال الحرفيين ، والمزارعين والفلاحين ، وبعض الموظفين المسئولين عن السفن والقوارب التى لا يمكن بدونها الانتقال من الضفة اليسرى حيث توجد الضيعة الى الضفة اليمنى بطيبة التى كان يحدها معبد « الأقصر » فى الجهة الجنوبية ، ومملكة « آمون » الشاسعة بالكرنك من الشمال .

أما عن ممارسة الطقوس ، فلا شك أن عابدة الاله لم تكن تكتفى بالعزف على الصلاصل بيديها الجميلتين وهى تقدم قلادة « المنات » احدى الأدوات الخاصة بعابدات الالهة « حتحور » ، وهى تترنم بالترانيم الخاصة « بمغنيات آمون » . وكان على زوجة الاله أن تتطهر قبل أن تدخل المحراب . وبمصاحبة الكهنة المتخصصين ، كانت تمارس بعض الطقوس التى يتم خلالها اتلاف تماثيل عدو الاله ، ويتم أيضا تقديم النسيج الخاص بتهدئة الالهة « واجيت » . وكانت تقوم كذلك بالمساعدة فى اقناع الاله بقبول ولائم المساء . ولا شك أن دورها كان يعتمد أساسا على فتنتها وسحرها وقدرتها على التهدئة والتلطيف ، وان كانت فى بعض الأحيان تبدو للحظات مثيرة للخوف والرعب . وهذا الدور الذى تقوم به زوجة الاله يجعلنا نعتقد أنها فى هذه المناسبات كانت تحتل قبل كل شىء مكانة ابنة « آتوم » أى الالهة « تفنوت » أو « ماعت » وهى الالهة التى كان يطلق عليها لقب « البعيدة » أو « عين رع » . ولذلك فان « زوجة الاله » كانتتمثل رضاء هذا الاله ، وتعبر فى نفس الوقت عن جبروته وقوته . وكل ذلك يعد فى حد ذاته من الشعائر التقليدية التى تعمل على استتباب النظام الكونى (١٥) .

فى مواجهـــة الملك الحى :

فى الوقت الذى بدأت تبزغ فيه أولى مظاهر البدعة الدينية العمارنية واهمال الديانة القائمة شيئا فشيئا، وابتعادها عن الوجدان العام لتلقى فى غياهب النسيان حينذاك ، لم يكن يعقل مطلقا أن يقوم القائمون بالتعديل الدينى بالغاء الدور الكهنوتى المهم الذى كانت تقوم به الملكة الغاء تاما . بل على العكس تماما ففى هذه الفترة بالذات كانت الملكة تحتل مكانة مهمة . ولذلك ، فاننا لا نكاد نشاهد فى المناظر الخاصة بالشعائر الدينية ، وأيضا على الآثار الملكية بجوار الزوجين الفرعونيين ،

« امنحتب الثالث » و « تى » سوى الأميرات بنات الفرعون . كما ان « تى » نفسها كانت تحتل فى كل مكان منزلة فريدة وغير عادية . ان مكانتها بجوار الفرعون كما سبق أن ذكرنا ، تتشابه مع مكانة الالهة « ماعت » بجوار الاله « رع » .

ومن الملاحظ ظهور ظاهرة جديدة فى النوبة السودانية ففى مدينة « صولب » شمال المعبد الرائع الذى يمجد ذكرى « أمنحتب الثالث » اقام الملك لزوجته الكبرى « تى » معبدا خاصا لتخليدها فى منطقة « سدينجا » . ولذلك ، فان هذه المنشآت المزدوجة تعبر لأول مرة عن تخليد عنصرى الذكر والأنثى معا من خلال الملك والملكة ، وبشكل أوضح يلاحظ تاكيد الدور العقائدى الذى تقوم به الملكة ، على جدران المقصورة الجنازية بطيبة لـ « خرواف » أحد كبار موظفى البلاط الملكى فى ذاك العصر ، حيث تبين لنا النقوش الاحتفالات الفريدة من نوعها للعيد اليوبيلى الملكى العظيم . فعندما يظهر « أمنحتب الثالث » فى عظمته وجلاله ، وبعد أن أتم كافة الخطوات الخاصة بالتجديد الكونى يشاهد هنا على غير المعتاد بدون مرافقة « تى » له .

انه مجال مختلف تماما هـذا الذى يوجد فيه الزوجان الملكيان . تتحقق من خلاله فاعلية الطقوس ، واستمدت نفس هذه الطقوس قوتها من دور الملكة نفسها ليس بصفتها كاهنة كبرى ولكن بصفتها تجسيدا الهيا مزدوجا .

ويشاهد فى بداية المنظر ، وبجوار الملك الجالس على عرشه صورة الالهة « حتحور » الهة السر العظيم للموت والحب والعشق أيضا ، وهى تستعد لتلقى المتوفى فى أحضانها ، وتمهد بذلك لبعثه فى الأبدية والخلود . ونفس هذا الشكل الأول الذى تندمج فيه الملكة بشكل الالهة « سوتيس » ، وقد حملت على رأسها ريشتين عاليتين وقرنين فارعين يحيطان بقرص الشمس . فهذا هو غطاء الرأس الذى تلبسه الملكات باعتبارهن « زوجات الاله » . أما « سوتيس » فان ظهورها « الشمسى » يعلن عن القدوم الوشيك للشمس المتجددة . وبذا ، نستطيع أن نستنبط من خلال ظهور هاتين الالهتين ، المرحلتين التابعتين من المجهول واللتين يخضع لهما الفرعون لكى يستمد منهما قوته وحيويته الالهية . ولذلك فقد كان دور الملكة أساسيا وجوهريا ، وكذلك وجودها المزدوج على جانبى الملك يعد على درجة كبيرة من الأهمية .

ولنحاول الآن أن نوجه تساؤلنا للآثار الخاصة بالفترة المعروفة باسم « مرحلة البدعة الدينية » فى مدينة « الأرض » « أخيتاتون » (١٦) لكى نستطيع أن نحلل أفعال وتصرفات الزوجين « أمنحتب الرابع » أى

«اخناتون» وزوجته «نفرتيتى» . فكم من المرات ، قرأنا أن «المصلح الدينى» قد حاول فى كافة المناسبات أن يعبر عن الواقع الفعلى للوجود دون الالتجاء الى الاساليب القديمة المعتادة أو الصور المندثرة الخالية من اى معنى بسبب بعدها تماما عن رسالتها الجوهرية والاساسية . ولا شك مطلقا أن المتأمل فى نقوش وتماثيل «المدرسة الحديثة» يجدها تتسم بالتلقائية والطبيعية ، وتمثل الواقع الفعلى الى درجة مبالغ فيها احيانا . ومع ذلك سوف نجد أن مثل هذا الحكم لا ينطبق عامة على بعض المناظر المعروفة تماما ، كذلك اللوحات التى تصور الحياة الخاصة للزوجين الفرعونيين ، نجد الملكة والملك وهما متواجهان معا تحيط بهما الأميرات الصغيرات ، ففى أحد المناظر نرى «نفرتيتى» جالسة فوق ركبتى زوجها وقد حملت هى الأخرى بعض الأميرات الصغيرات على ركبتيها واخذتهن فى احضانها . وفى منظر آخر نقشه أحد الرعايا المتملقين على جدران مقبرته ، يمثل عائلة الفرعون وقد احتشدت فى شرفة «الأشراق» فى الاحتفالات لتوزيع الجوائز والمكافآت . واخيرا ، نجد اللوحة التى تثير العجب والدهشة فعلا ، حيث نرى الملك والملكة وهما فى ابهى زينتهما الرسمية ، وقد وقفا معا فى عربتهما الخاصة التى تجرها الجياد وهى تعدو مسرعة فى شوارع العاصمة ، وقد احتضن الملك مليكته فى حنان واضح والصق وجهه بوجهها . ولا شك أن عدم معقولية بعض الأوضاع تجعلنا نمعن التفكير وتتملكنا الدهشة خاصة أننا نعرف مدى نقاء وعفة التعبير فى التشكيلات الفنية المصرية ، ونرى كذلك هذا المنظر لاحدى تماثيل الملك : وهو يجلس فوق ركبتيه امرأة ، (هل هى نفرتيتى ؟) ، ويتبادل معها قبلة حارة للغاية .

وقد يتضح لنا الغرض من وراء كل ذلك ، لو أننا عرفنا رغبة القائم بالتغيير الدينى : أن يبين بواسطة لغة تصويرية مباشرة الدور الذى يقوم به الزوجان المتلاصقان تماما ، كعنصرى التاج المكملين لبعضهما : أى المبدأ الخلاق الذكرى والأنثى المقابلة له ، أى الفرعون والملكة «أخناتون ونفرتيتى» . أما عن المناظر التى يرى فيها البعض رغبة «أخناتون» فى ادماج واقعية مظاهر الحياة اليومية ، فليست فى الواقع سوى معالجة نظرية لمفهوم جوهرى أساسى كان لزاما على الجميع فهمه واستيعابه ، وهذا ما يحاول أن يؤكده أيضا من خلال معنى الوجود المطلق القائم بذاته ، والغموض والأسرار فى أعماق القبور : منظر الزوجين الملكيين (وقد أحاطت بهما ـ مكملاتهما ـ الأميرات الصغيرات) يعد فى حد ذاته تجسيدا للألوهية ، أو بمعنى آخر ضمانا لاستمرار القوى الخلاقة الذى يمثلها هو تمثيلا محسوسا ملموسا . ومع توالى وتعاقب تلك المناظر الخلاقة أمام البشر ، سوف تبقى أجيال النساء

والرجال الذين يتوالدون ويتعاقبون ، وسوف تتناسل الطبيعة والحيوانات ، بل ان المعادن نفسها سوف تعيش وتبقى . لقد تغير الاسلوب واختفت اللغة ولكن لم يتغير ابدا الهدف الذى كان يعمل فى الماضى للوصول اليه ، والوسيلة الى ذلك كانت أن يوكل الى الملكة فى اطار الشعائر السرية فى المعابد التى يكتنفها الغموض مهمة التصرف كزوجة للاله .

وهناك مناظر أخرى أكثر استفزازا وتخدم نفس الأغراض التى يهدف اليها الملك فى شىء من المغالاة والتطرف المقصود . واعتمادا على مثل هذه المناظر ، رأى بعض العلماء المختصين بدراسة التاريخ المصرى القديم الذين قدموا نظريات قد تكون متطرفة الى حد ما ، انه ربما كان هناك نوع من أنواع الاشتراك فى الحكم بين الزوجين .... اى ان نفرتيتى ، هى أيضا فرعونة .. فياله من برهان يدلل على فكرة المساواة فى الحقوق بين كل منهما ! .

ترى ، ماذا عساه كان يفعل «رمسيس» العظيم ، حيال هذه النقطة الأساسية ، هذا الفرعون الذى عرف عنه انه لمس الأساسيات الطيبة للاصلاح الدينى «العمارنى» ، وأراد استغلاله واستثماره ، مع محاولة اخفاء ما كان يتضمنه هذا الاصلاح الدينى من استفزاز ؟ ومن المعروف ان أمه «توى» ، وجدته «سات رع» ، قد حملت كل منهما لقب «زوجة الاله» . واذاكانت «نفرتارى» ، التى استمرت لفترة طويلة رفيقة للملك وابنة ملكية «لتوى» الملكة الأم ، فلا شك أنها كانت سترث عمليا وبدون ادنى صعوبة ، هذا اللقب الرفيع . ولكن يبدو أن هذا الشرف لم يكن من حظها ، ولم تكلف لهذه الوظيفة . ولكنها مع ذلك تقلدت لقب كبيرة الكاهنات القائمات بالطقوس الدينية الخاصة بالملك المؤله رمسيس ، الذى كان لا يألو جهدا هو الآخر فى السير فى نفس الطريق الذى سار فيه من قبله «أمنحتب الثالث» لكى يضفى الهالة الالهية على كيانها الملكى . فلم يرغب أن يمكث دون هذا «الارتقاء» . فلماذا اذن يخلع اجباريا لقب «زوجة الاله» على «نفرتارى» ما دام يستطيع هو أن يفعل ما يريده بكل وضوح ؟ .. انه لم يسند الى زوجته الملكية وحبيبته دور الكاهنة الملكية المؤلهة . ولكنه استطاع ابتكار نظام جديد يمكن من خلاله خلق التوافق مع القوى الكونية ، ليستطيع بمعاونة زوجته الحبيبة التى أصبحت الهة مكملة أساسية لشخصيته هو أداء دور «البعيدة» ، «حتحور» ، وبشكل متواز تتجدد قوته الالهية الملكية التى يدعمها فيضان النيل :

ولتحقيق هذا الغرض ، استوحى أفكاره من الصرحين اللذين اقامهما «أمنحتب الثالث» بالنوبة السودانية : معبد «صولب» بالجنوب من أجل العنصر الذكرى ، والآخر بالشمال هو معبد «سيدنجا» من أجل

« تى » ونفس هذه الاتجاهات والغايات انتهجها الكثير من هؤلاء الملوك الآخرين . فقد أراد رمسيس نفسه أن يرتقى بالطقوس الدينية الى المرتبة الالهية واختار عند مكان انحدار الشلال الثانى « بوادى حلفا » (١٨) صخرتين بارزتين عند حافة النيل ، وأمر بحفرهما على هيئة كهفين يختلف الواحد منهما عن الآخر فى حجمه (١٩) . وهذا هو نفس الموقع الذى نعرفه حاليا باسم « ابو سمبل » . والمعبد الذى يشد الانتباه من هذين المعبدين اى الذى اقامه الفرعون لتمجيد وتاليه نفسه يتكون من واجهة عريضة يتقدمها اربعـة تماثيل عملاقة تمثـله وهو جالس ينحت فى نفس صخور الجبل . ويبـلغ ارتفاع كل تمثـال عشرين مترا . وعلى شمال هذا المعبد يوجد كهف أصغر حجما مخصص فى آن واحد للملكة وللالهتين « حتحور » و « سوتيس » . ويبدو تمثال الملكة نفرتارى منحوتا على جانب الشاطىء الصخرى يحيط به تمثالا الملك ، يبلغ ارتفاعه سبعة امتار : وعندما يلمسه اول شعاع للشمس عند فجر كل صباح يتألق بحيوية بشرية مذهلة ومثيرة للعجب !! ..

وهناك ملاحظة اخرى فى هذا الصدد . هى أن المحورين الخاصين بالمعبدين القامين على الضفة الغربية من اجـل العنصرين ، ليسا متوازيين . بل يلتقيان معا من أجل زواج شعائرى فى منتصف مياه النيل .. ولا شك أن السر العظيم كان يتم داخل المعبدين الموجودين بالكهفين ولكن نتائج هذا السر تفصح عنها التماثيل العملاقة المنحوتة على الواجهة الصخرية : رمسيس الشمس المشرقة ، ونفرتارى سوتيس الالهة المتالقة والمشعة بالحيوية والحياة .

وفى هذه الأماكن ، كان ابن « سيتى الأول » يقوم كل عام بتجديد طاقته الالهية ، ويؤكد للعالم تطابقه وتجانسه مع الشمس الجديدة التى يجسد صورتها . وتبدو صورته هكذا فوق باب الدخول فى هيئة رجل ضخم البنيان ، رأسه على شكل رأس الصقر الشمسى . وترتكز يـداه فوق كتابات هيروغليفية عملاقة ، تحوى اسمه الخاص بالتتويج وهـو « وسر ـ ماعت ـ رع » ، ومعناه « قادرة وجبارة هى ماعت رع » .

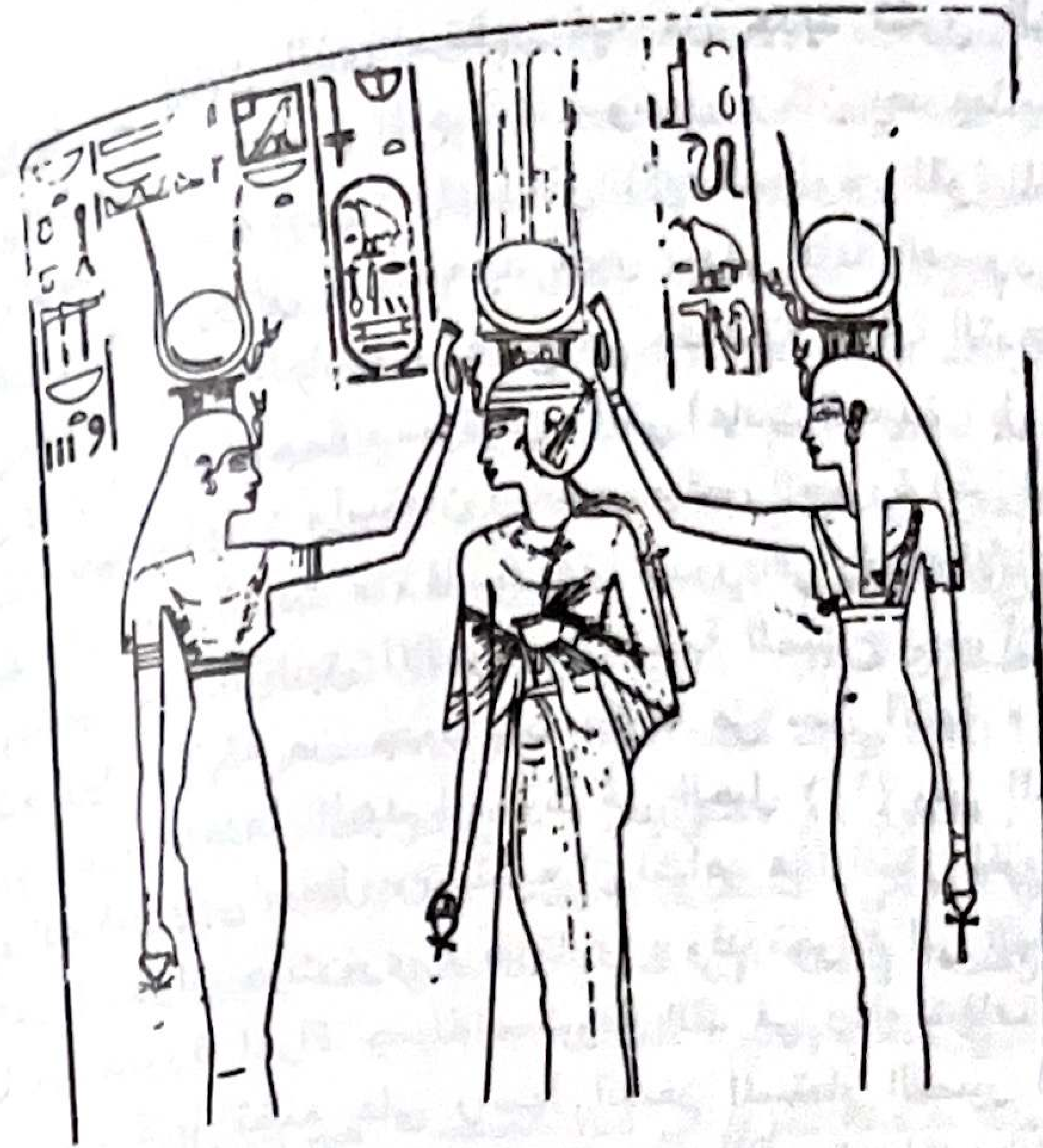
ونفس هذا التجديد السنوى الذى يحدث للشمس والفرعون ، كان يتم فى نفس وقت رجوع الفيضان ـ أو « البعيـدة » التى رجعت من احضان قارة أفريقيا ـ فى التاسع عشر من يوليو . وهذا الحدث ، الذى يعتبره المصريون القدماء بمثابة حدث كـونى ، وأيضا بمثابة « رأس السنة الجديدة » والذى بفضله تفيض الحياة والحيوية والخير على كافة أنحاء البلاد من جديد ، هذا الحدث كانت تسبقه ظاهرة فلكية محددة . فعلى مدى خمسة وسبعين يوما تختفى النجمة « سوتيس » من السماء ،

وعلى مقربة من المكان الذى ستظهر فيه من جديد تشرق الشمس . ونفس هذا الظهور الشمسى للنجمة « سوتيس » كان يعد بمثابة معجزة دائمة ومتجددة بالنسبة لمصر . ولهذا فان تأكيد السطوة والقوة الملكية لمصر الذى كان يحتفـل به فى كافة معابد مصر ، وفى كافة القصور الملكية ، بل وفى كافة المساكن العادية ، أصبح فى حد ذاته بمثابة التدعيم الالهى للفرعون مصر بفضل النجمة « سوتيس » التى أعادت البعيدة ، بل واندمجت واختلطت معها تماما . واستعان رمسيس بنفس الصورة التى لجـا اليها قبل ذلك « امنحتب الثالث » ، فأسند هذا الدور الى رفيقته الأنثى المطابقة له . ومنحها هذا التطابق الالهى . ان نجمة الصباح يجب أن تقوم كل عام شعائريا بولادته من جديد بعد مكوثه فى بطن الالهة « حتحور » العظيمة الذى يجسدها المعبد المنحوت فى الجبل (٢٠) وفى الممر الملحق بالمعبد الصغير بأبى سمبل ، نستطيع أن نشاهد هذا المنظر الفريد المنحوت على أحد الجدران حيث نرى « نفرتارى » وقد تحولت الى الهة . فتبدو امامنا فى صورة امرأة جميلة ممشوقة القد فى رداء شفاف من التيل الأبيض ، ولكنها تضع على رأسها الشعر المستعار القصير المجعد ، وهى تتلقى من « حتحور » ومن « ايزيس » اللتين تحيطان بها تاج الالهة « سوتيس » العالى وتبدو « نفرتارى » وهى ما زالت ممسكة باحدى يديها صولجان الملكة ، وباليد الأخرى يتدلى رمز الحياة « عنخ » الذى لا يملكه سوى الآلهة فقط . ولاكمال فاعلية هذه المراسيم التى تتم فى قدس الأقداس ، نجد أن الزخرفة الشعائرية توحى بعودة ظهـور الفرعون الذى تم تاليهه هو أيضا ، وخرج الى الوجود بمصاحبة الفيضان المختلط مع الالهتين « نفرتارى ـ سوتيس » . ولا شك أن هذا هو أحد التأثيرات العديدة الخارقة للطبيعة ، والتى استطاع رمسيس أن يلعب بها ليدعم من الوهيته ، ولكنه لم يستطع أن يفعل كل ذلك بدون معاونة رفيقته الأنثى المفضلة حينئذ « زوجته المفضلة » ، الملكة « نفرتارى » .

فى صحبة الملك المتـوفى :

ان الدور الذى يقوم به البشر من أجل انقاذ ـ أو حتى مساعدة ـ الملك المتوفى خلال رحلته نحو الأبدية هو دور يكاد يكون محسوسا فى النصوص الدينية ، بل لا يكاد يشعر به على الجدران الخاصة بالقبور الملكية الفخمة . وكانت هذه الجدران تغطى بالعبارات والمناظر الشعائرية ولا تتضمن مطلقا اى ذكر لما قد يقوم به أفراد عائلة الملك المتوفى من أعمال من أجله بعد الموت :

ومع ذلك فان مجموعة الأثاث الجنائزى للفرعون التى عثر عليها سليمة الى حد ما والخاصة بـ « توت عنخ آمون » تبين لنا فى عدة



شكل (١١) تتويج نفرتارى

مراحل وجود « الزوجة الملكية العظمى » فى حياتها الخاصة مع الملك الشاب ، وهى تغدق عليه من حنانها ورعايتها · وبذا ، فان أية عملية من عمليات السحر التى تتولد عنها نتائج ذات نفع وفائدة للملك المتوفى كان يجب التعبير عنها بشكل رمزى وكانها أمر من الأمور المعتادة الطريفة ، أو من أمور الحياة اليومية · وبذا ، فنحن مثلا نرى مشهدا تبـدو فيه أرملة « توت عنخ آمون » الشابة وهى مصورة على ظهر كرسى يعرفه علماء الآثار المصرية بدون تحديد باسم « عرش الملك » · وفى هذا المنظر نراها مهتمة غاية الاهتمام بدهن كتفى الفرعون بدهـان معطر – الغرض منه اعادة تكوين لحم مومياء الملك الشاب – ويرى الملك الذى أحاط رأسه باكليل الشمس المشرقة · أما الملكة فتضع على رأسها تاج الالهة « سوتيس » المرتفع · وعلى أحد أوجه صـندوق كبير من العاج : نشاهد صورة الملكة وهى راكعة عند قدمى الملك وقد وضعت على رأسها تاجا شعائريا ثقيلا ، واخذت تشير للملك الى أسماك ضخمة (أسماك البعث) التى يجب عليه أن يصطادها عند اطلاق السهام من قوسه الواقية الحامية من الشرور والسيئات · وفى منظر آخر نشاهدها وهى تقدم له زهرة اللوتس رمز الاستمرارية والبعث ·

ولا شك أن كل هذه الأعمال التى نشاهدها فى مثل تلك المناظر تبين لنا بوضوح تام أن « عنخ – اس – ان آمون » تلك الأرملة الملكيـة

والملكة المعظمة ، كانت تكن لزوجها الملك المتوفى حبا عظيما جارفـا بالاضافة لذلك فهى تشعر نحوه باهتمام بالغ ورعاية عقائدية · وسوف يتلاشى الشك تماما عندما نقف أمام المعبد الصغير الذى زينت ونقشت جدرانه الخارجية برقائق ذهبية · حيث نجد المناظر الدقيقة المتنوعة التى تبين لنا مشاهد متتالية يدركها تماما من استطاع التعمق فى علم الرموز المصرية ، فهنا يتضح الدور الأساسى المنتظر أن تقوم به الملكة بعد وفاة زوجها الفرعون الذى كان يتم أثناء المراسم التى كانت تقام خلال فترة التحنيط · ثم بعد ذلك بدون شك خلال تشييع الجنازة · بل ان نشاطها هـذا كان يمتـد الى داخـل المقبرة نفسـها ، وفقـا لما تبينه لنـا المنـاظر ·

ففى هذه المناظر نرى كافة المراسيم التى يجب أن تقوم بها زوجة الملك المتوفى فى اطار البلاط الملكى الفخم، حيث تقوم بنفس الدور المأساوى الذى قامت به قبل ذلك الالهة « ايزيس » بتجميع أجزاء جسد زوجها – الذى مات لبعض الوقت – ثم وهى توقظ فيه فحولته وذكورته النائمة لكى يتم اللقاء بينهما ، ولتنجب منه وريثا ولكى يبعث زوجها المتوفى من جديد فى عالم الخلود والأبدية · انها العاشقة ، انها الأم ، فها هى الأرملة والملكة ، الكاهنة ، وهى تقتـرب من كيـان الملك الجـالس دون حراك ، تقدم اليه مختلف الرموز التى تعمل على الوقاية والحفظ : أدمنة عطرية ، وزهور ، وحلى شعائرية · فخلال خمس لحظات أساسية وحرجة تقوم الملكة فى البداية برعاية وتأليه الجسد « الرمزى » لزوجها المتوفى ، بجميع أنواع الأدوات والحلى · وبعد ذلك ، تقـدم له « عظيمة السحر » · وهى تتكون من الأدوات التى تكسبه ألوهيته وهى : القلادة ذات الكرات ، المعروفة باسم « منات » ، وشكل لجسم الالهة « حتحور » الذى سيدمج فيه تحول الملك الأبدى ، وكذلك « الصلاصل » المشكلة على هيئة « الناووس » التى تساعد بعد ذلك على ظهور الوليد الشمسى الذى سيبزغ الملك فى هيئته ، وهناك منظر آخر يؤكد لنا العمل الذى تساهم به الملكة : فهى تبدو جالسة القرفصاء ، عارية أمام الملك الجالس على مقعده فى كامل زينته · وترى الملكة وهى تتلقى فى انفعال واضح ، السائل الذى يسكبه الفرعون من زجاجة صـغيرة يمسكها بيـده ، فى راحة يدها : وهذا يعد رمزا وتعبيـرا عفيفا عن علاقتهمـا الزوجيـة الحميمة · وفى لحظة ذلك اللقاء العاطفى الحميم بين الزوجين الملكيين ، والذى عبر عنه فى عفة ونقاء واضح ، نشاهد الملكة وقد وضعت فوق رأسها تاج الالهة « سوتيس » · أما المنظر الرابع فيبين لنا مرحلة العمل حيث نرى فى أعماق الملكة الكاهنة البذرة الجـديدة التى ستعيش الى الأبد وهى تتحول رويدا رويدا · وهنا ، نرى الملكة الشابة الجالسة

القرفصاء أمام توت عنخ آمون ، على مقعد منخفض صغير وقد انهمكت فى تصويب سهامها نحو بط برى فى أحراش البردى · وحتى تصيب محاولات هجوم الشر المحتملة غير ذات أثر نشاهد الملكة وهى توجه سهام زوجها الفرعون ، التى يجب أن تخترق جسم أى طائر مؤذ وضار فى المستنقع الذى ينبغى عبوره قبل بلوغ مرحلة البعث · أما عن المرحلة الخامسة أو الأخيرة فنراها من خلال دخول الفرعون الوشيك الى عالم الأبدية ، اذ يبين الملك وهو واقف على قدميه ولكن خطواته لا تزال غير ثابتة وهو يتوجه بمساعدة الملكة نحو باب غير مرئى للخروج ، وقد احاطته الملكة بكل رعايتها واهتمامها · فهى تبدى نحوه غاية الحنان والرعاية وتسانده وقد تابطت ذراعه وكأنه قد استيقظ لتوه من سبات طويل · وتجذبه فى نفس الوقت جذبا قويا لا يتعارض فيه أحد .

وبذا ، نجد أن الفرعون حتى وفاته ، وبعد أن يغادر كيانه الشخصى العالم الدنيوى ، تقوم الزوجة الملكية المعظمة التى اختارها الملك لتكون شريكته فى هذه المناسبات بوظيفتها العقائدية المتعددة الأوجه .



شكل (١٢) توت عنخ آمون وزوجته

- ٣ -

حريم التاج

فكرة الحريم

ظهرت فكرة مؤسسة الحريم الملكى متوازية تماما مع النظام الادارى الملكى ، منذ فجر التاريخ المصرى القديم وان كانت مستقلة عنه ، وكلمة « ابيت – نسوت » تعنى باللغة المصرية القديمة المقر الذى تقيم فيه الملكة . والذى يتم فيه تعليم الأطفال الملكيين · وهو أيضا نفس المكان الذى تقيم فيه الزوجات الثانويات ، أو من يعرفن « بزينة الملك » أو بمعنى آخر « خكروت نسوت » ، أو « النفروت » ، أى الجمال الحى الخاص بالبلاط الملكى · وهـذا الجمال الحى كان يهدف بكل أغانيه وألحانه ورقصاته وكل أوجه نشاطه الأخرى الى ارضاء الملك واسعاده وامتاعه · ونجد أن قصة « الفتيات المجدفات » والتى يرجع أصلها الى الدولة القـديمة ، والتى وردت فى « بردية وستكار » تشير قطعا الى هذه النوعية من الفتيات اللاتى كان يزخر بهن الحريم الملكى :

« ذات يوم من الأيام ، أخذ الملك « سنفرو » يجوب جميع حجرات قصره ، بحثا (عما يسرى عنه) ، ولكنه لم يجد شيئا من هذا القبيل ، وهنا قال : « فليحضر الى رئيس القراء والكتاب جاجا ام عنخ » · وسرعان ما أحضر جاجا ام عنخ ، ومثل أمامه ، وقال له جلالته : (« لقد جبت جميع حجرات) القصر (·····) بحثا عما يسرى عن نفسى ، ولم أجد (بغيتى) مطلقـا » · فأجابه جاجا ام عنخ قائلا : فلتتوجه جلالتك الى بحيرة القصر (······) ، وليعد من أجل جلالتك مركب مليئة بكل فتيات قصرك الجميلات وسوف يسعد قلب جلالتك ويبتهج ، وهو يراهن أثناء تجديفهن لنزول النهر ، ثم صعوده · وسوف تشاهد جلالتك المناطق المشجرة الجميلة المحيطة بنهرك والمزارع التى تجاورها ، وشواطئه الجميلة الرائعة · ولا شك أن قلب جلالتك ستغمره السعادة أمام هذا المنظر » · (فقال الملك) : « أجل سوف أعطى أوامرى بالاعداد لرحلة نيلية · « فليؤت الى بعشرين مجدافا مصنوعا من خشب الأبنوس ، المكسو بالذهب ، مقابضها من الخشب المعطر ، المطعم بالذهب النقى · فليؤت الى بعشرين فتاة ممن لهن أجمل الاعضاء وصدورهن رشـيقة

وشعورهن مجدولة ممن لم يلدن بعد ، وفوق ذلك احضروا لى عشرين شبكة وأعدوها للنساء بدلا من ملابسهن » . وتم تنفيذ كل ما امر به جلالته تنفيذا كاملا .

وقامت النساء الجميلات بالتجديف جيئة وروحة ، وبذا ، امتلأ قلب جلالته سعادة وسرورا ، حينما رأى كيف يجدفن » (١) .

وتستمر القصة فى سياقها من خلال المعجزة التى حدثت عندما سقطت من احدى الفتيات حلية من الفيروز الجديد فى الماء .....

تنظيم الحريم

ولا شك أن هذه الأقصوصة ، تبين بعض الجوانب الساحرة ، ولكن الثانوية ، ولهذه المؤسسة الضخمة المعروفة باسم « الحريم » ، والتى كانت منظمة تنظيما دقيقا . ويقوم بادارتها « رئيس ادارة » ، يعاونه فى مهمته مساعد له ، ويشرفان على عدد كبير من الكتبة العاملين بالحريم، والمفتشين ، والموظفين المرؤوسين الذين يحملون لقب « كتبة أبواب الحريم » أو « حرس الأبواب » . ولا شك أن مثل هذا التجمع الضخم يحتم توافر خدمات العديد من الحرفيين والخدم بخلاف من يقومون بتنمية واستثمار ثروات الضياع الشاسعة الملحقة بتلك المؤسسة والتى ربما كانت تدر خيرات وفيرة . فهناك قطعان الماشية والمزارع والاستثمارات الزراعية . وهناك أيضا مصايد الأسماك والانتاج الخاص بالمصانع الملحقة بمؤسسة الحريم ، بالاضافة الى الضرائب التى كانت تجمعها ادارة هذه المؤسسة . وفى اطار هذا المجتمع الضخم من الموظفين، لم يكن هناك أى مجال للخصيان الذين يبدو أنهم لم يوجدوا بتاتا ، فى مصر الفرعونية ، ولم يكن هناك ما يدعو لوجودهم .

ومهمة الحريم الذى كانت تهيمن عليه الزوجة الملكية العظمى كانت تتركز فى استقبال الأميرات اللاتى يتزوجهن الفرعون تحت ألقاب مختلفة، واللاتى كن يحضرن بمصاحبة حاشيتهن . وبذا ، كانت الضرورة تحتم تجهيز مجموعة كبيرة من المساكن حيث تقيم هؤلاء السيدات يحيط بهن أبناؤهن الذين أنجبوا بزواجهن من الفرعون . ولذا ، نجد أن الزوجة الملكية الثانية المعظمة للفرعون تحتمس الثالث وهى الملكة « حتشبسوت – مريت رع » قد حملت ألقابا من ضمنها « تلك التى تحب سيد الأرضين»، « صاحبة الامتيازات فى قصر الملك » ، « والوصية على الزوجات الملكيات » ، « والتى لم تبتعد مطلقا عن سيد القطرين » . وفى هذا الاطار كانت « رئيسة الحريم » تقوم بمساعدة الملكة مثل أخت « حوى »

نائب الملك فى النوبة خلال حكم الملك « توت عنخ آمون » . وقد عرف عنه انه كان أول من أدخل فى حريم مليكه ضمن الكثيرات أميرة رائعة الجمال ، استحضرها من بلاد « واوات » (أى النوبة المصرية) .

وبذا ، أصبح الحريم سريعا ، بمثابة المركز الرئيسى لادارة شئون الزواج الخاصة بالفرعون . كما ساعد وجود الأميرات الأجنبيات الأجواء الملكية ، على تطعيم البلاط الملكى بدماء جديدة فى مجال طبقات المجتمع العليا خاصة منذ بداية الأسرة الثامنة عشرة . ونحن نعرف أن « امنحتب الثالث » كان قد أصدر جعرانا يؤرخ به زواجه فى العام العاشر من حكمه من الأميرة « جيلوكيبا » ، ابنة « شوتارنا الثانى » ملك نهارينا (٢) . وقد حضرت هذه الأميرة الى مصر ، وبصحبتها حوالى ٣١٧ امرأة من حاشيتها . واذا استطعنا أن نضيف الى هذا الرهط الهائل من الشابات الجميلات ، حوالى (٤٠) امرأة شابة ، تم احضارهن من غزة ، وذلك لارسالهن أيضا الى حريم « أمنحتب الثالث » ، كما تذكر احدى اللوحات ذات الكتابة المسمارية فى محفوظات « تل العمارنة » ، فان هذين المصدرين بمفردهما يرفعان عدد الأجنبيات القادمات الى حريم « أمنحتب الثالث » الى حوالى ٣٥٧ فتاة على الأقل .

أنواع الحريم المختلفة

كانت « مؤسسة الحريم » تتضمن ما يسمى « ببيت السيدات » . وكان يوجد حريم فى منف وحريم فى طيبة . أما فى « تل العمارنة » حيث ظهرت البدعة الدينية الجديدة ، فقد كان يوجد حريم الشمال وحريم الجنوب . وكان يوجد أيضا ما يسمى « بحريم المصاحبة » داخل البلاط الملكى نفسه لكى يستطيع أن يرافق الفرعون خلال تنقلاته . وبذا ، نستطيع أن نتفهم مغزى هذا الأمر الذى أصدره « رمسيس الثانى» لابنه الأكبر عند اقتراب بدء معركة قادش الشهيرة ، على ضفاف نهر « العاصى » حيث قال له : يجب ابعاد النساء والأطفال .

ولا شك أن أكثر أنواع الحريم شهرة وأهمية ، كان الحريم القائم فى مدينة « أبو غراب » (تى ور) (٣) عند مدخل الفيوم ، الذى كان يعتبر بالفعل مدينة صغيرة ، وفى هذا المكان بالذات ، كان فراعنة الدولة الوسطى والدولة الحديثة يسعدون بتمضية الوقت فى صيد الطيور والأسماك على ضفاف بحيرة « قارون » ، وفى الصحراء المتاخمة لها . وكانت الخضرة والمزروعات الكثيفة ، تكسوا بغزارة تلك المنطقة الواقعة ما بين البحيرة والمجرى الموازى للنيل ، المسمى حاليا « بنهر يوسف » (٤)

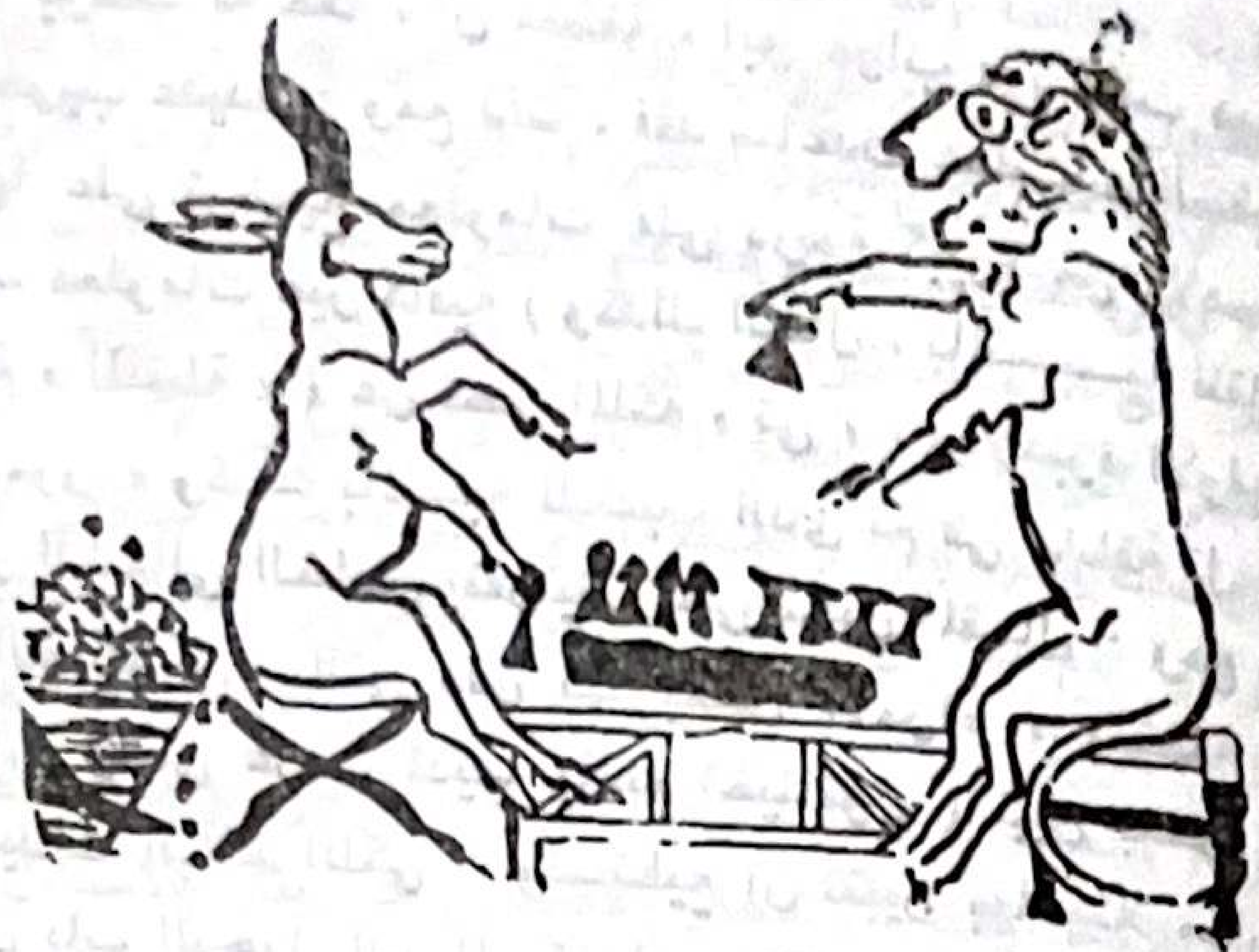
أو بحر يوسف . وكانت المياه تتدفق بغزارة بين الشطآن ذات المناظر الشاعرية التى تزدهر باللون الأخضر البديع فى تلك المنطقـة التى استحقت عن جدارة أن يسميها البعض حاليا « سويسرا الصغيرا » . ولا شك أن عمليات التنقيب الأولى فى تلك المنطقة ، قد بينت آثارا فعلية للفترات التى قضاها كل من الفراعنة « أمنحتب الثالث » ، « الرابع » و « توت عنخ آمون » بها . وهناك آثار أخرى تبين احتمال أن الملكة « تى » قد قضت أيامها الأخيرة فى تلك المنطقة ، لا فى عاصمة ملكها التى كانت تعرف باسم « الملقطة » والمواجهة لطيبة . وتمثالها الشهير الذى ينطق بواقعية واضحة ، والمنحوت من الخشب الداكن اللون قد عثر عليه ضمن آثار تلك المنطقة (٥) . كما وجدت أيضا فى تلك المنطقة بعض الآثار الخاصة بسيدات من عصر « رمسيس الثانى » . وهذا يوحى بأن زوجة الملك الحيثية التى تدعى « مآت حور نفرو رع » كانت هى الأخرى تقيم هناك . وعموما ، فلا شك أن الكثير من قريبات الأسرة المالكة المسنات كن يقمن هناك بصفة مستديمة ، ويتبادلن المراسلات المتوالية مع الفـرعون لكى يحطنـه علما بكل ما كان يدور هنـاك فى أجواء الحريم .

ومما لا شك فيه أيضا أن فنون المرح واللهو كانت تمارس وتستغل الى أقصى درجة فى مثل هذه الأماكن الأنثوية التى كان يميزها خاصة انتشار أوجه الثقافة الرفيعة والأذواق العالية . وكانت الموسيقى والرقص والشعر وكل عناصر السـحر والغـواية ضـمن جـدول الأعمـال اليومى فى الحـــريم .

ومع ذلك فان الحريم كان يعتبر أيضا مكانا للانتاج . ومن ضمن أوجه النشاط التى كان على رئيسات الحريم أن يقمن بها حرفة النسيج ، أو أن يكن قادرات على الأقل على الاشراف على مشـغل النسيج . وهذه المشاغل كانت تعد ضمن الأملاك الملكية الشهير فى أنحاء المملكة ، بل وخارج الحدود أيضا ، فانتاج هذه المشاغل كان يورد الى البلاط الملكى بل وأيضا الى بعض القصور الملكية الصديقة لمصر . ومن المعروف أيضا أن العاملات الخادمات غير المتمتعات بكامل حريتهن واللاتى كن يستجلبن من خارج مصر ، ومن الشرق الأدنى خاصـة ، كن يقمن بالعمل فى المشاغل الملحقـة به .

ومن المعتقد أيضا أن مؤسسة الحريم كانت تتضمن كذلك بعض المصانع والورش الـتى تصنع بها الأدوات المستعملة فى تجميل النسـاء واللازمة للعناية بجمالهن : مثل القوارير والأوعية الخاصة بالعطور والدهانات المعطرة المختلفة ، والكحل ، والزيوت ذات الرائحة الزكية .

وكان يتم هناك أيضا تصنيع المشغولات الخشبية والمساحيق المزججة والعاج وخاصة الزجاج الملون الذى كان يتميز بشفافية فريدة من نوعها . وكل هذه الأشياء الدقيقة النادرة ، كانت بمثابة صدى وانعكاس للحياة المرفهة الناعمة التى كانت تعيشها السيدات الجميلات المقربات جدا من الفرعون .



شكل (١٣) كاريكاتير مصرى قديم يصور أسدا يلعب الضامة مع وعل

سيدات الحـــريم

كان هذا الحريم يزخر بفئات متنوعة من النسـاء . وتحت لواء الزوجة الملكية العظمى التى كانت تلزم بالمكوث به فى أغلب الأحيان مع بناتها الصغار ، وكانت تقيم أيضا النساء أو الزوجات الملكيات الثانويات سواء المصريات منهن أو الأجنبيات ، ومعهن أبناؤهن . وكانت توجد به أيضا أماكن « للمحظيات » ، أو « الزينة الملكية » (٦) وهؤلاء « المحظيات » اللاتى لم يكن يتمتعن الا بمجرد لحظات مضيئة خاطفة من اعجاب الملك ، كن يتزين بتاج خاص بهن تزينه الزهور المستقيمة الساق المثبتة فى اكليل يحيط برؤوسهن (أما السوريات منهن ، فكن يضفن الى هـذا التاج ، حلية صغيرة أو اثنتين على شكل رأس غزالة صغيرة ، يتدلى على الجبهة) (٧) . ونفس هذا التاج كانت تلبس مثله بنات الملك أيضا عندما يصـبحن زوجات له ، ويبقى على رؤوسـهن كعـلامة من علامات التـكريم الملكى لهـن . وسرعـان ما أطـلق عـلى « محظيـات الملك » لقب سيدات الحريم (٨) . وكان البعض منهن يزوجن لبعض كبار موظفى الادارة الملكية . وبعد ذلك ، وشيئا فشيئا أخذت عبارة « الزينة الملكية » التى كانت تطلق عليهن تفقد معناها الأصلى . وأصبحت تطلق على سيدات البلاط الملكى المختلفات تماما عن سيدات الحريم ، الا من حيث

كونهن فى خدمة الزوجة الملكية المعظمة . وكان الفرعون يهيم كثيرا بتزويجهن أيضا لمعاونيه المقربين جـدا . وبالتـــالى يدعم من مراكزهم ووظائفهم .

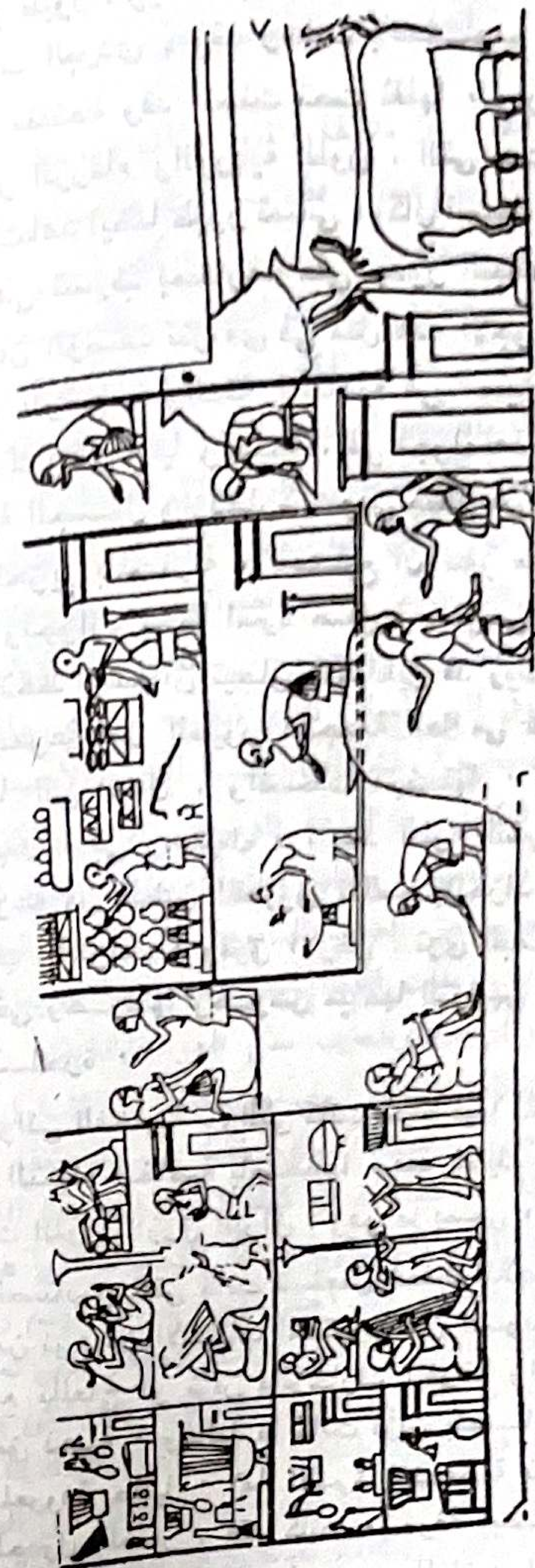
السـكن الخـاص

مما يؤسف له حقا ، أن منطقة « أبو غراب » ، كانت هدفا لعمليات تدمير وتخريب عديدة . ومع ذلك ، فقد ساعدت عمليات التنقيب الحديثة فى اطلالها على توضيح معلومات على درجة كبيرة من الأهمية . ولكن مع الأسف معلومات غير كافية (وكذلك الحال ، بالنسبة لنتائج التنقيب فى منطقة « الملقطة ») عن قصر الملكة « تى » ، والأميرة الأولى المفضلة « سات آمون » ، وكذلك بالنسبة للتنقيب الذى تم فى منطقة تل العمارنة ، فى القصر الشمالى الخاص بنفرتيتى على سبيل المثـال . ومع ذلك ، فان الكهوف الجنائزية ، التى دفن بها بعض الأمراء ، بمنطقة الأرض ، بالعمارنة (والتى عرفت قديما باسم اخيتاتون) تبين بعض مناظرها مسكن سيدات البلاط الملكى . ونستطيع أن نتبين بها مثلا مكان السقيفة التى تظلل باب الدخول الى المسكن الذى تتقدمه أسوار عالية يقف عليها بعض الحراس . ونستطيع أن نشاهد أيضـا الجزء الأساسى من المسكن ذى المدخل والبهو الكبير ، والقاعة الوسطى التى يرتكز سقفها على أعمدة فخمة جميلة التصميم ، تكللها اطارات علوية على شكل زهور . ويلحق بذلك كله العديد من الغرف الثانوية التى كانت تخصص للملكة ولبناتها . وترى أيضا بنات الملكة وهن بمصاحبة مربياتهن ، يتعلمن منهن فنون الغناء والرقص والعزف على العود والقيثار . وفى ناحية أخرى نستطيع أن نشاهد البعض وهن منهمكات فى تناول غـذائهن . ويلاحظ أن المبنى ملىء بالخدم الذكور فقط ، وهم يتنقلون للعنايـة بنظافة المكان ورونقه ، والمساعدة فى كافة شئون الحيـاة اليومية . ومن الملاحظ أيضا أن المرأة لم تكن تقوم مطلقا بالخـدمة فى هـذه الأماكن حيث يقوم الرجال ـ متمتعين بكل احترامهم ـ بالتنظيم وبالخـدمة ، وكان هذا أمرا طبيعيا للغاية . ولقد بينت لنا الحفائر التى تمت فى هاتين العاصمتين ، رسوما ملونة فوق بعض الجدران ، تدل على مـدى فخامة الزخرف الذى تعيش فى أجوائه الملكات والأميرات . فهناك منـاظر لأماكن مليئة بزهور البردى ذات اللون الأخضر الجميل المائل الى الزرقة ، حيث ترفرف طيور البط البرى . وكذلك نستطيع أن نرى الايكات الحـافلة بالزهور ، والتى يرتع فى جنباتها صغار الماعز ، وأحيانا توجد عـلى الأرض نفسها بعض المناظر التى تصور مسطحات مائية تطفو عليها زهور

اللوتس المتفتحة التى تكاد تلامسها أثناء سباحتها فى الماء الأسماك اللؤلؤية اللون . ومن روائع اللوحات الملونة لقدماء المصريين ، هـذا الرسم الذى نستطيع من خلاله أن نشاهد الزخرفة التى تمثل بيتا من بيوت الطيور (طيور الزينة) بالقصر الشمالى الخاص بنفرتيتى ، وسوف ترى ايكات نبات البردى ، وقد رسمت بأسـلوب « تاثيرى » حيث بدت رؤوسها ثقيلة متفتحة وقد انحنت تحت ثقلها ، وازدانت هذه المزروعات الكثيفة بالطيور الزرقاء والوردية اللون ، التى بدت وكأنها تتأرجح فوق الأغصان . وتشاهد أيضا طيور تسمى « أكال السمك » ذات اللونين الأسود والأبيض ، وهى تضرب بمنقارها على جذور النباتات المائيـة . انهـا شاعرية تجل عن الوصف تتراءى فى مثل هذه الأجواء المهيأة : الرفاهية ، والذوق الفنى الرفيع ، والدقة المتناهية فى اختيار الألوان المتدرجـة ، كل ذلك يبدو جليا واضحا ، فى أجواء هذه المساكن التى أقيمت من أجل رعاية الجمـال وازدهاره . وفى منظر من المناظـر الجدارية فى أحد مساكن الحريم بالعمارنة ، نستطيع أن نميز منظـرا لحجرة بهـا سرير كبير ، وبجواره ثلاثة أسرة صغيرة ، توحى بوجود ثلاث أميرات ملكيات . ونلاحظ أيضا أن تيجان الأساطين قد زينت بأشكال تشبه فى تكوينها ، مجموعة من الطيور المتجمعة معا فى شكل عنقودى ، وقد تدلت رؤوسها الى أسفل ، وانبسطت أجنحتها . وبمكان آخر ـ مثل عاصمة رمسيس « بى رمسيس » ، عند الفرع الشرقى للدلتا ـ نشاهد لوحات مصنوعة من الطين المحروق المكسو بالخزف الأزرق الفيروزى ، تحيط بالأبواب والنوافذ . وفوق الأرض ، ترى البلاطات البراقة اللامعة وهى تبـدو فى زخـرفتها وحـوض مياهها الترفيهى ، وكأنهـا حـديقة مدهشـة ســاحرة .

أما الأوانى الفخارية ، والتى كانت تحفظ فيها المأكولات والمشروبات، أو المتعلقات الثمينة الخاصة بأصحابها ، فقد غطيت برسوم تمثل أكاليل الزهور ، ذات اللون الأزرق البراق ، وهو ما يسمى « بالأزرق الطبيعى» .

وأما الصناديق التى كانت تستعمل لحفظ الملابس أو المجوهرات ، فقد صنعت من نوع من الأخشاب المستوردة من السودان والشرق الأدنى، وكانت ترصع بالعاج أو تزين بالزخارف المفرغة والمذهبة ، أو تكسى وتلبس برقائق ذهبية . وغالبا ما كانت تزين بتمـاثيل دقيقة شـبيهة بالمنمنمات المعروفة حاليا . أما الأسرة المنخفضة ذات الملة المصنوعة من التيل المجدول المضفر ، فقد كانت مزخرفة أيضا ، ويكمل التأثيث بعض المقاعد والكراسى ذات الذراعين ، والمناضد الصغيرة التى يمكن طيها . وكانت الوسائد الصغيرة المصنوعة من جلد الغزلان تحشى بزغب الحمام وهو ما كانت تفضله الأميرة « سات ـ آمون » غالبا .



شكل (١٤) الحريم الملكى

ومن الطبيعى أن يبعدنا هذا الوصف عن ملاحظة الفن المعمارى الذى يتجلى فى تصميم برج البوابة الشهير ، ذى الفتحات بمعبد رمسيس الثالث بمدينة « هابو » . فان منظر مجموعة النساء الجميلات الساحرات وهن فى صحبة الملك وكأنه يتغزل فيهن ، قد أوحى لفترة طويلة الى البعض ، بأن هذا المكان ربما كان حريم الملك . ولكن الواقع يؤكد عكس ذلك ، اذ نحن أردنا استرجاع وصف القصور التى أشرنا اليها آنفا . ففى الواقع أن برج مدينـــة « هابو » الذى كان يطــلق عليه اسم « المكان السامى الكبير » ، قد شيد فعلا على النمط الكهنوتى ، مثله مثل المعبد نفسه . أما عن الفتيات الجميلات اللاتى تزين رؤوسهن الأكاليل العالية المجدولة من الزهور والخاصة « بمحظيات الملك » ، فلسن – وفقـــا لما توضحه لنا الكتابات – سوى بنات الفرعون . اذن ، فالأمر يتعلق بمكان كانت تمارس فيه بعض المراسم العقائدية السحرية ، المتعلقة بتجديد حيوية الملك . وتصاحب تلك المشاهد احدى قصـــائد الحب القصيرة ، والتى تتغنى « بسحر » المحبوب .

الأبناء الملكيون وكيفية تعليمهم

اقتضت الضرورة وجود « بيوت الأطفال الملكيين » داخل نطاق الحريم حيث تقوم بزعايتهم « المرضعات والمربيات » اللاتى كان يتم اختيارهن من سيدات الأسر النبيلة ، ويقوم أيضا المربون وهم من قادة الجيش ، الذين أوشكوا على الانتهاء من مدة خدمتهم برعاية الأمراء والأميرات الصغار تحت اشراف الملكة الأم . وربما كانت الزوجة الرئيسية » تحضر الى الحريم كذلك ، لكى تضع أبناءها ، حيث تقام الاحتفالات الكبيرة بمناسبة الوضع ، وتبقى الملكة منعزلة لفترة ما ، حتى تتطهر بعد عملية الوضع .

وكان القصر يتضمن ايضا مدرسة يتلقى فيها النبلاء الصغار نفس التعليم المقرر على الأمراء . فهذا ، على الأقل ما يبينه لنا أحد وجهاء القوم ، ويدعى « بتاح شبسس » ، الذى ولد فى عهد الفرعون « منكاو رع » وتلقى العلم مع الأبناء الملكيين فى القصر الكبير الخاص بالملك فى مقر حريمه . وكان الملك يحبه ويعزه أكثر من أى ابن (آخر) . وبذا ، الحق بالقصر ، وعندما وصل الى سن الزواج ، تزوج الابنة الكبرى للملك ، وتدعى « خع ماعت » لأن جلالة الملك أراد لها أن تشاطره حياته ، دون أى شخص (آخر) .

ومنذ الدولة الوسطى ، استمر الأبناء الملكيـون فى تلقى تعليمهم بجوار أبناء النبلاء ، ولكن فى نطاق مدرسة خاصة يستطيع أبناء بعض الزعماء الأجانب الالتحاق بها أيضا ، ليستفيدوا من المستوى الدراسى الرفيع والتعـاليم الأخـلاقية وأسـلوب الحياة بمصر الفـرعونية . وكان يطلق على مثل هذه المؤسسة اسم « كب Kep » . أمـا زمـلاء الأمـراء فى الدراسة ، فيطلق عليهم اسم « أبناء كب » (١٠) وهو تكريم وتشريف كان يصاحبهم طول حياتهم . ومن الصعب اثبات أن « كب » كانت تستقبل فعلا أبناء الأسيويين ، أو أبناء الساميين . ولكن من المؤكد فعلا أنه كان من ضمنهم عدد كبير من الأمراء النوبيين . وبعض هؤلاء الأمراء كانوا يلحقون بالعمل فى الجيش ، وبذلك يصبحون من أفضل ضباط أبناء الملك الذين زاملوهم فى تربيتهم وتعليمهم بمعهد « كب » . أمـا البعض الآخـر مثـل المدعـو « حـكا ـ نفـر Héka Néfer » أمير « ميعام » فى عهد « توت عنخ آمون » ، فكانوا يرجعون الى أقاليمهم الجنوبية النائية ، ويبقون دائما أبدا من أكثر حلفاء وموالى الفرعون اخلاصا .

تلميذ عـــارف بالجميـل من تلاميـذ « كب »

من حسن الحظ ، أن مقصورة « حوى » الجنائزية بطيبة ، وهـو نائب الملك فى النوبة ، وكان معاصرا للملك توت عنخ آمون ، قد احتفظت لنا باحدى اللوحات الجدارية الملونة ، كصورة ناطقة لحظية ، تنقلنـا ـ اذا سمح التعبير ـ الى أجواء طيبة ، منذ حوالى ٣٣٠٠ سنة ، مـع احد تلاميذ « كب » القدماء ، والذى بقى على وفائه واخلاصه لتعاليم الحريم ، التى تربى عليها وتعلمها . والأمر يتعلق بالتحديد بالمدعـو « حكا نفر » أمير مقاطعة « ميعام » ، والمعروفة باسم « عنيبة » حاليا . وكانت تقع فى النوبة شمال أبى سمبل (١١) .

تخرج الأمير من « كب » ورجع الى بلاده الدافئة النوبية . وبالرغم من انه قد تشبع أثنـاء وجـوده فى الحـريم ، بمصر بمختلف المعارف والتقاليد التى كان لا يرفضها أبدا ، فانه مع ذلك سـار على نهج العادات والتقاليد السائدة فى وطنه . واللوحة تمثله على رأس موكب كبير ، يقوده نحو البـلاط الفرعونى نائب الملك ، وقد خـر ساجدا أمام جـلالة الفرعون ضمن عظماء بلاد واوات Ouaouat (أمراء النوبة السفلى) ، فى وضع يتسم بالتبجيل والخضوع . وليس هناك أى مجال للشك ، فالكتابات توضح لنا بوضوح اسمه ولقبه : « حـاكم ميعـام » ، « حكا نفر » كما نلاحظ أيضا ، علامات تشريط البشرة المميزة لأهـالى النوبة ، الظاهرة ما بين الأنف والخدين ، واضحة على وجوه هؤلاء الوجهاء ذوى القلنسوة المستديرة والشعور المجعدة ، التى تربط بشريط ، ويثبت بها على أحـد جانبى الرأس ريشتا نعـام ، كما تدلت من آذانهم حلقات ذهبية . أما أعناقهم فيحيط بها عقد صغير يشبه « أطواق الكلاب » ، من اللآلىء المتعددة الألوان ، وتغطى ظهورهم وأكتافهم جلود النمـور والفهود . ومع ذلك نلاحظ أن المئزر الذى يرتدونه ، والمصـنوع من الكتان ، المتميز بكسراته المتعددة ، وفقا للطراز المصرى ، والـذى يتزين بحزام ينتهى بما يشبه الأهداب الطويلة من خيوط متعددة الألوان على الطريقة النوبية ، وهـم حفاة الأقدام . أما من يتبعونهم ، أى أبنـاء عظماء رجال كل هذه الأقاليم الأجنبية ، فقد كانوا يرتدون نعالا بيضاء خفيفة (Sandales) من النوع السائد فى مصر .

ها نحن اذن ، أمام أحد تلاميذ الحريم القدامى ، أثناء تقديمـه للفرعون دليلا على عرفانه بالجميل ، فيقدم له أجمل ما لديه : أميرة رائعة الجمال ، بصحبتها حاشية بأكملها ، مكونة من نساء جميلات ونبيلات لتزيينها وتجميلها ، وخادمات صغيرات ، وغلمان ، وخدم

اقوياء شجعان . ولا شك ان كل هذا الجمع قد تم تشتت وعاداته ، التقاليد المصرية . على يد « حكا - نفر » ، وتدل على ذلك ، وفقا واوضاعهم . وتبدو الأميرة وقد ارتدت ثوبا رائعا من الكتان ، ثيابهم ذو الثنيات المتعددة ، وعقدا ثمينا ، عريضا ، يغطى صدرها وكتفيها الأبيض اما شعرها فمثل بقية نساء موكبها فهو مكون من شعر مستعار قصير يعتليه ما يشبه التاج الصغير . ووفقا للأسلوب الذى كان سائدا حينئذ كان ابناء الزعماء الوجيهون بحاشيتها يتحلون بنفس الزينة ويلبسون ايضا ازيية مصنوعة من الكتان الأبيض المتعددة الثنيات . ولا يكسو الصلبة وعضرهم سوى ما يرشونه من اقراط تتدلى منها كرات صغيرة وذيل القطط البرية المعلقة بالترعهم .

ويبدو ان الأميرة التى ستنضم الى حريم الفرعون كانت تتمتع ببشرة لونها افتح من بقية النوبيات المحيطات بها . كما ان منبتها العريق كان يسمح لها ، بطبيعة الحال ، بان تتجول وفقا للعرف وهى واقفة بعربتها ، التى تقودها شابة صغيرة عارية الجزع ، وشعرها الطويل المترهل يتصل بكل عربة فوق كتفيها . ولم تكن هذه العربة تجرها الجياد كما هو الحال فى مصر ، ولكن مجموعة من الثيران المرقطة . اقتيدت من منزل اليها حتى السفينة ، لكى تقلها عبر النهر الى شقاق طيبة . وبعد ذلك ، كان الأمر يستلزم ان تقوم الثيران بتوصيل الشابة الجميلة الى ابواب القصر . وهناك كان عليها ان تترجل ، عند مثولها بين يدى الفرعون .

ويبدو لنا ، عند تدقيق النظر فى هذا الرسم المتميز للغاية ، ان الأمر يتعلق بتتويج « زوجة ثانوية » للفرعون . ان الجمع والحشد المكون من القبائل المصبقة - والقريبة قطعا - موجود هنا ، ويشغل منطقة الوسط باكملها الركب الذى يمثل صداق الأميرة التى توشك على التحول الى حريم الملك . وهناك ايضا العديد من الأسلحة المكسوة مثل : الهراوات الحديدية ، والأقواس والرماح ، وكذلك الدروع المكسوة بجلود الحيوانات التى انتجتها ايدى احسن الحرفيين واكثرهم مهارة . ولا شك اذن ، ان حرس الأميرة كان معدا ومجهزا تجهيزا كاملا . ويجوار ذلك ، عرض الكنز والأثاث : فهناك الصناديق والمقاعد ذات المتكاين التحتين والمساند الأنيقة ، والكراسى المتناسقة معها ، والمناضد الصغيرة القابلة للطى ، التى تشبه ارجلها عنق البط ، بالاضافة الى الأسرة ومساند الراس والوسائد ، وعربة ثانية ، ويبين لنا ذلك مدى مهارة الصناع النوبيين الذين كانوا يجيدون فن صناعة المشغولات من الخشب الصلب الوارد من افريقيا ، فى مهارة فائقة ، وترصيعه بالنقوش العاجية ، ويغلفون بعض الأجزاء بالجلود الملونة تلوينا متقنا رائعا . ويستعملون



شكل (١٤) موكب الجزية

ريش النعام من اجل صناعة المراوح الكبيرة ، وجميع انواع المراوح الأخرى .

والى جانب هذا الأثاث الذى يتضمنه موكب الزوجة المقبلة نرى الأنياب العاجية المأخوذة من الفيلة ، وجلود الفهود ، والحقائب ، والحلقات المصنوعة من الذهب ، والتى اشتهرت بها بلاد النوبة . ونستطيع ان نتبين من خلال مشاهدتنا لهذه اللوحة ، ما ابدعه الصياغ النوبيون من تحف نادرة . ومنها القطع الفنية المصنوعة من الذهب والالكتروم (١٢) (خليط الذهب مع الفضة) ، وقد نقش عليها منظر الريف على ضفاف النيل ، حيث نرى نخيل ، الدوم ، التى تتأرجح على جذوعها احيانا القرود الرشيقة الصغيرة ، الطويلة الذيل (١٣) . والنوبيون مولعون بهذه الأشجار ، ونراهم هنا وهم واقفون أو راكعون ، وشعورهم مزينة بريشة نعام . وغالبا ما كانت تصور ايضا بعض الزرافات أمام هذه الأشجار ، وكان ضمن الهدايا بعض من حيوانات الزراف الحية . وعلى رأس الموكب نرى قطعان البقر السمين اللازمة لاحياء عيد « الأوبت » خلال شهر العام الجديد .

هذا ، مجرد ملخص بسيط وفكرة عما كان يجب أن يتم ، عندما تصل اية اميرة اجنبية الى البلاط الملكى حيث تعقد زيجات دبلوماسية . والأمر هنا يتعلق ببلاد النوبة ، التى كانت متحدة مع مصر ، وسكانها

قليلو العدد . وعلينا أن نتخيل روعة وعظمة وطول الموكب الذى يوصل أميرة من أميرات بلاد « نهارينا » أو « الحيثيين » هذا الموكب الذى يضم مئات الفتيات الشابات ، وكذلك قطعان الحيوانات ، التى لا تحصى ولا تعد ، وحولهم الحرس لتوفير الحماية للقافلة ولحاملى الأثاث الثمين المنمق المكون من عربات خفيفة ، ومن أجمل الآلات الموسيقية الموروثة عن الأسيويين (باستثناء القيثار ، فأصلها مصرى صميم) ، بالاضافة أيضا للصناديق المليئة بالأقمشة الملونة والمجوهرات ، والمعادن الثمينة سبائك الذهب والفضة ، والأسلحة الحديدية التى تتلألأ كالفضة . يضاف الى ذلك الأحجار الكريمة ، مثل حجر اللازورد ، الذى كان يجلب من باكتريان ، وكذلك أوانى العطور . حقا أن كلمة « أسطورى » ـ التى تستعمل عادة فى شىء من التطرف فى أيامنا هذه ـ ستجد مكانها هنا فعلا ، لوصف هذا التجمع الذى لا يتصوره عقل ، وهذا العرض الخيالى من الكنوز .

مؤامرات الحريم

يمكننا أن نتصور مدى الأهمية التى تتمتع بها هذه « المؤسسة » الفعلية ، أى الحريم ، وعدد الزوجات الرئيسيات والثانويات اللاتى يستطيع أن ينعم بهن الملك ـ ومن ضمنهن المحظيات ـ ويتبع كل سيدة من هؤلاء السيدات أفراد عائلتها ومستشاروها ، وكاتمو السر الطموحون الذين يحدوهم الطموح ، والكثير من الأفراد المناهضين أو الموالين لهن ، ويضاف الى ذلك الأطفال والأبناء الذين ينتظمون فى مستويات مختلفة . وكانت الصراعات تقوم ، وتتجسد غالبا فى هيئة مؤامرات ودسائس على النفوذ فيما بين المحظيات . ولكن أكثر هذه المكائد جرما وفداحة هى التى كانت تدبر بغرض التآمر على حياة الملك نفسه ، لصالح ابن واحدة أو أخرى من الزوجات الثانويات المصريات ـ أو أجنبيات الأصل ـ لأن مولده لا يسمح له بأن يقف فى مضمار التنافس مع أبناء الملك من « الزوجة الملكية العظمى » .

فى الدولة القديمة :

وهذه الأحداث التى كان أغلبها على درجة كبيرة من الخطورة ، كان يجب أن تظل دائما فى طى الكتمان الشديد ، ولا يصرح بها مطلقا ، ما دامت تتعلق بشخص الفرعون المؤله . وهذا ما كان يحدث فعلا فى العصور القديمة جدا ، ومع ذلك ، ففى احدى السير الذاتية والتى ترجع الى الأسرة السادسة ، والخاصة بأحد كبار الموظفين واسمه « أونى Ouni » نقرأ وصفا واقعيا لأول مؤامرة من مؤامرات الحريم بمصر .

ويلاحظ أن « أونى » فى هذه القصة ، يتفاخر خاصة بما يتميز به هو شخصيا من جدارة وأهلية فائقة ، ولكنه يبدى الكثير من التحفظ والحذر ، عند ذكره مرتين أنه قد استدعى هو شخصيا و « بمفرده » ، حتى دون حضور الوزير الأول لمحاكمة « الملكة الرئيسية » والمفضلة « زوجة الملك ببى الأول » (مع الأسف احتفظ باسم الملكة سرا) : « لقد خلع على جلالته منصب « ملحق الدولة » (قاضى) بمدينة أهناسيا . فقد كانت ثقته فى تفوق ثقته فى أى فرد آخر من رعاياه . كنت أستمع لكافة الشاحنات والخلافات ، أنا « بمفردى » ، مع وزير الدولة ، فى كافة الأمور السرية (وكل حدث يخص) اسم الملك . لأن قلب جلالته كان يثق فى أكثر من ثقته فى أى من مستشاريه ، أو من كبار موظفيه ، أو خدمه . (.....) وفى سرية تامة ، اقيمت محاكمة فى نطاق الحريم الملكى ، ضد « الزوجة الملكية » والمفضلة الكبرى . وقد استدعانى جلالته ، لكى أستمع الى (الشهادة) ، ولم يحضر خلال ذلك أى وزير من وزرائه ، أو أى قاض من قضاته . ولم يحضى أحد سواى فقط . ويرجع ذلك ، الى مقدرتى وأهليتى ، ولمكانتى فى قلب جلالته ، لأن جلالته يثق بى . وأنا الذى قمت بكتابة صورة الدعوى . الخاصة بهذه المحاكمة بمفردى مع أحد القضاة ، بالرغم من أن منصبى (ليس سوى) منصب كبير موظفى القصر الكبير . ولم يحدث مطلقا أن اطلع شخص من أمثالى من قبل على سر من أسرار « الحريم الملكى » .

تتسم لهجة هذا النص فى وضوح بالاطناب والمباهاة من قبل الموظف الكبير « أونى » فى نفس الحين الذى يلاحظ الايجاز الشديد ، فى سرد الوقائع والأحداث يتبين منه وقوع جرم خطير ، اقترفته « الملكة المعظمة المفضلة » . ويبدو جليا أيضا أن الملك كان لا يثق مطلقا فى بقية كبار موظفيه . ولذا ، عين « أوانى » فقط ، بصفته « قاضى فوق العادة » ، لكى يرأس « محكمة استثنائية » ، لتلقى اعترافات ، من اقترفت جرما لا يحب أن يحيط به سوى القليلين جدا من الناس . كما يلاحظ أيضا أن اسم الملكة لم يذكر مطلقا . وهذا يبين أنها كانت مغضوبا عليها للغاية . مما حتم اغفال اسمها حتى يندثر . ويبدو أيضا أن الملك كان يشك فى كبار موظفيه ولا يثق فيهم ، ولقد ذكر المؤرخ « مانيتون » فى العصور المتأخرة ، واقعة اغتيال والد « ببى » الأول بيد حرسه الخاص . وهذا يدعو الى الاعتقاد بأن مصر كانت قد بدأت تمر فعلا بفترة اضطرابات وقلاقل . ولقد تم اكتشاف المؤامرة اذن ، واختفت الملكة بعد ذلك (قد تكون نفيت أو أرغمت على الانتحار) . وبعد ذلك تزوج الملك بزوجتين ملكيتين معظمتين ، على التوالى وهما : شقيقتان

تحملان نفس الاسم « مرى رع عنخ ان اس » . وقد انجبت له كل واحدة منهما وريثا للعرش وهما : مرن رع ، ثم بيبى الثانى .

وقد تتطلع بعض العقول المتشككة الى شخصيات هذه القصة الحقيقية التى تذكرنا بالروايات البوليسية وفقا لمنطق هـذا النوع من الروايات ، من المستفيد من الجريمة ؟ وسوف تلاحظ هذه العقول المتشككة أن كل شىء ينتهى نهاية طيبة فى هذا العالم الطيب ، فيما يخص بطلنا الوفى وجميع أفراد عائلته : فقد نشأ « أونى البطل » فى « أبيدوس » حيث وجدنا ذلك النص (١٤) منقوشا ، وكان من أقربائه سيدة تدعى « نبت Nebet » كانت تعمل بالحريم الملكى ، ولا شك أنها قد ساعدت فى كشف القناع عن المؤامرة . وكان هذا بمثابة دليل للملك على الوفاء والاخلاص ، مما أقنعه بعد ذلك بقليل ، بأن يتزوج من ابنتى تلك السيدة المنحدرة من أسرة من صغار النبلاء الريفيين . وبخلاف ذلك ، قد لا يعتقد قارىء آخر أكثر ترددا ومجاملة ، أن الوزير « رع ور » ، الذى تم خلعه قبل ذلك لأنه شارك فى مؤامرة أخرى ، تعرض الى الاضطهاد من أفراد عائلة « أونى » ، الأخطبوطية الأطراف . ولن يعتقد أيضا بوجود توافق عجيب مقلق ومحير بين ازاحة الملكة الأولى الى منطقة الظل وبين زواج الملك من ابنتى السيدة « نبت » . بل انه لن يتعجب ويندهش ، عندما يعرف أن أخاهما « جاو Djaou » ، قد أصبح بعد ذلك بفترة قصيرة وزيرا للملك . وفى النهاية ، سوف يستخلص بكل بساطة أن هذا المناخ المشحون بالدسائس والمؤامرات ضد العرش ، كان يتضمن عائلة كبيرة ، أصلها من مصر العليا ، من أبيدوس ، تدين بالحب والولاء للملك دون أى شك .

فى الدولـــة الوسطى :

بعد فترة مشئومة سادت فيها القلاقل والغزوات ، استعادت مصر ألقها وانطلاقها ، تحت قيادة أمير شجاع مقدام ، من طيبة . وكان اسم هذا الأمير « منتوحتب » . وقد اعتلى العرش ، وأسس الأسرة الحـادية عشرة . أما الأسرة التالية ، فقد رأسها « أمنمحات الأول » . وكان ذلك فى بداية القرن العشرين قبل عصرنا الحالى ، ففى اليوم السابع من الشهر الثالث من الآخت Akhet ، فى السنة الثلاثين من حكمه ، تم اغتيال « أمنمحات » ، مؤسس الأسرة الثانية عشرة . وبعد عمليات حسابيـة حاذقة ودقيقة قام بها خبراء علوم الفلك والرياضيات ، تبين أن هـــذا التاريخ يتطابق تماما مع ١٥ فبراير عام ١٩٦٢ ق . م .

كان الزمن غير الزمان ، فبعد أن انقضى بعض الوقت على الحادث المشئوم ، وبعد أن قضى على المؤامرة ، سرد فى قصة روائية أن بطلهـا

انجرف رغما عنه فى هذه المؤامرة . كما استثمر هذه المأساة ولى العهد فى نص عرف تحت عنوان : « تعاليم امنمحات الأول » . وهو عبارة عن وصية ، املاها الملك نفسه من اجل ابنه . وفيها يحكى له انه بعد أن رأى كابوسا فى منامه ، تم اغتياله ، واجمالا للقول ، فقد بين لابنه سنوسرت ، وريثه الشرعى ، بانه يجب أن يحتاط ويحترس من الجميع . وهذه هى الأحوال التى قام فيهـا المتآمرون ، ومن بعض نسـاء القصر بتنفيذ جريمتهن ، كما سيوضح لنا النص الخاص باغتيال الملك المسن أثناء الليل :

« بعد الانتهاء من وجبة المساء ، وعندما أسدل الليل ستاره ، حصلت على ساعة من الراحة ، فاستلقيت فى فراشى وكنت مرهقا ، وبدا قلبى يطاوع النعاس . وفجاة ، ترامى الى مسامعى صوت قعقعة أسلحة ، وسمعت كلمات تتناولنى بالحديث . ومكثت فى مكانى كمثل ثعبان فى صحراء قاحلة ، قمت متأهبا للصراع ، (لكنى) كنت بمفردى ، وكان المهاجمون هم حرسى الخاص . ولو أننى كنت قد بذلت مجهودا (لصدهم) ومعى سلاحى بيدى ، فلربما كنت استطعت ردع وطرد المتآمرين . ولكن لا يستطيع الانسان أن يكون قويا أثناء الليل ، ولا يستطيع انسان أن يقاتل بمفرده . ولا يمكن أن يوجد مخرج للص بدون حماية (.....) . فهل رأى أحد من قبل نساء يقمن باثارة ودفع العصابات ؟ وهل يمكن أن يربى المحرضون للقلاقل بداخل القصر ؟ » .

وترد بقية الأحداث فى رواية « سنوهى » . وهى نص من نصوص الشجاعة والاقدام فى الأدب المصرى (١٥) . وتقول : عقب حملة تأديبية على البلاد الليبية ، تقابل الابن الأكبر لأمنمحات وشريكه فى الحـــكم سنوسرت الأول فى طريق عودته مع بعض الرســل الذين جاءوا ليعلموه على وجه الأهمية ، وبغاية من السرية ، بما حدث بداخل القصر الملكى . وعلى الفور اندفع الأمير ، وبدون أن يخبر أحدا مطلقا بالأمر نحـو العاصمة . ولكن بعض المبعوثين الآخرين الموالين لفئة القتلة المتآمرين ، كانوا قد جاءوا هم أيضـا لابلاغ ابن من أبناء الملك الآخرين ، كان قـد رافق الحملة التى يرأسها شريك الملك فى العرش ، أخيه غير الشقيق ، ومن أجله دبرت عملية الاغتيال . وسمعهم « سنوهى » مصادفة وهم يتحادثون معا . ولكن ، لنسمعه هو :

« كان جلالته قد أمر بارسال حملة حربية ، الى بلاد « التمحو » ، بقيادة ابنه الأكبر ، وها هو الآن يعود منها ، وقد اصطحب بعض الأسرى (.....) . وقام أصدقاء القصر بارسال (مبعوثين) نحو غـرب (الدلتا) ، لكى يخبروا ابن الملك بالأحداث التى وقعت بالبلاط الملكى .

وتقابلوا معه على الطريق ، ولحقوا به اثناء الليل . ولم يتأخر الامير لحظة واحدة ، وطار الصقر (أى « حورس » وريث العرش) مع اتباعه دون أن يخبر الجيش بذلك ، ولكن البعض كانوا قد ارسلوا (ايضا) (شخصا ما) لاخبار الأبناء الملكيين الذين كانوا يتبعونه ضمن هذا الجيش . ووجه نداء الى واحد منهم . وكنت قد تواجدت فى ذلك المكان وسمعت صوته وهو يتكلم بعيدا عن (الجميع) فى حين اننى كنت (بجواره) . واضطرب قلبى ، وخذلت ذراعاى عن جسدى ، واجتاحت قشعريرة كل أجزاء جسمى . وكنت حينئذ مختبئا بين دغلين كبيرين ، حتى أكون بمنأى عن أى سائر فى الطريق . واتجهت ناحية الجنوب ، فلم أرغب مطلقا فى التوجه الى هذا البلاط الملكى . فقد كنت أعتقد بوجود صراعات فى أجـــوائه . واعتقـدت أننى لا يمكننى العيش بـه (بعد ذلك) (١٦) .

لقد أحيط الشريك فى العرش ، الأمير ولى العـهد ، علما بالمأساة ، وأحيط بها كذلك أحد اخوته الصغار ، لا شك انه ابن احدى الزوجات الثانويات ، ولصالحه تم تدبير المؤامرة . وبمحض الصدفة ، سمع « سنوهى » هذا السر . ولا شك أنه كان يجهل أن أميره قد انطلق فعلا الى موقع الجريمة . ولذا فقد كان يخشى أن تقوم ثورة وتمرد فى القصر . وبصفته شاهدا مزعجا ، فلا شك أنه سيقتل حتما ، لو اكتشف أمره . والواقع يبين أن مدبرى جريمة الاغتيال ، هم من المحيطين مباشرة بالملك ، كما أن نساء الحريم قد لعبن دورا مهما فى هذه المؤامرة . ويبدو أن بعض أسلاف ملوك الأسرة الحادية عشرة الذين خلعوا من على العرش كانوا يعتبرون أمنمحات الأول « مغتصبا » للملك ، واذا كان موقف سنوهى يفصح عن انفعال شديد (وهذا الانفعال يلاحظ فعلا ، لدى معظم أبناء النيل حتى يومنا هـذا) عنـد علمه بأحـد أسرار الدولة ، فانه ربما لم يكن فائق الشجاعة (ربما كان يخاف من اشتعال حـرب أهلية) . وهذا يجعلنا ايضا نتشكك فى ولائه واخلاصه لأميره الذى كان يتحتم عليه اللحاق به . وعموما ، فنحن غير ملمين بكل عناصر المشكلة . لقد كان سنوهى ، فى ذلك الحين حديث السن جدا . ولكنه مع ذلك ، كان الرفيق الذى يصاحب « سيده » وبصفة خاصة كان خادم « السيدة الأولى » فى الحريم الملكى ، « المفضـــلة الكبرى » ، « الزوجة الملكية » لسنوسرت ، والابنة الملكية « لأمنمحات » (.... نفرو . « الجليلة المبجلة » .

وبصفته من المقربين من القصر ، فلابد انه قد تعرف على صوت الأمير الذى يناصب سيده العداء ، وكان من المحتمل ان يتهم بالاشتراك فى المؤامرة .

ولقد بينت لنا المصادر الأدبية بوضوح تام ، فى حوالى العـــام ٢٠٠٠ ق.م ، الدور السياسى الخطير ، الذى كانت تقوم به بعض نســاء الحريم الملكى ، وهو سلوك وتصرف استمر فى كل العصور ، بسبب العرف والتقاليد المتعلقة بمفهوم « زواج » الفراعنة .

فى الدولـــة الحـــديثة :

ان العصر الذى ساد فيه حكم الرعامسة قد قدم لنا الاثباتات التاريخية المسهبة والمفصلة ، التى من خلالها يمكننا أن نتفهم الكثير من الشواهد المستمدة من مصادر متعددة ومتباينة ، عن مؤامرة كبرى قام بها الحريم فى عصر رمسيس الثالث ، وبالمحاكمة الهائلة التى أعيدت مرة أخرى ، فالأمر لا يتعلق اذن بمجـرد تلميحات مستترة الى اقتراف الزوجة الكبرى خطأ ما . كما انه ليس مجرد قصة مشوقة عن جريمة قتل أحد الملوك ، يحيطها الغموض الشديد . ان الأمر يتعلق الآن بسرد وقائع محددة وبمراحل التحقيق وبالمفاجآت التى اكتنفت المحاكمة (١٧) . ان هذه البردية قد عثر عليها فى مكتبة معبد الاحتفالات اليوبيلية الخاص برمسيس الثالث « بمدينة هابو » . فلو أن محاولة الاغتيال كانت قد كللت بالنجاح ، فلا شك أننا ما كنا لنعثر على أية تفاصيل أو معلومات عنها ، وكان علماء الآثار لفترة طويلة يظنون أن الملك قد لقى حتفه فى هذه المؤامرة . ولكن ، عندما نحلل بدقة النص القضـائى لبردية تورين فسيبدو أن الوثيقة قد كتبت بأمر الأمير ولى العهد رمسيس الرابع ، حتى يلقى على كامل أبيه المسئولية من قسوة وشراسة الحكم الصادر فى تلك القضية ، وخاصة أن انعكاسات هذا الحكم تعود بالضرر البالغ على العرش . والواقع أن الملك فيما يبدو لم يلق مصرعه فى هذه المؤامرة كما حدث – بكل وضوح – لأمنمحات الأول . (فان مومياء رمسيس الثالث لا تحمل أية آثار تدل على الاغتيال) ، بل لا يبدو أن المؤامرة قد نجحت (١٨) ولو جزئيا ، وأنها لم تحدث فى أواخر حكمه ، كما يعتقد البعض (١٩) .

وقبل كل شىء ، علينا أن نتبين أن الحريم الذى دبرت فى أجوائه المؤامرة ، والذى يسمى « بحريم المرافقة » ، وهو نوع من أنواع حـريم القصر (٢٠) ، لم يكن له موضع محدد ، مثـل حريم « منف » أو « أبو غراب » ولكنه كان يتبع رمسيس الثالث فى تنقلاته الى « مدينة هابو » على سبيل المثال ، فقد كان من المقرر أن تضرب المؤامرة ضربتها خلال « عيد الوادى الجميل » ، فى نطاق الضفة اليسرى لطيبة . وعندما كان ينادى على المتهمين الرئيسيين كانت تطلق عليهم أسماء مهينة . فوفقا للتقاليد ، كان يتم « تغيير أسمائهم » ، حتى يمحى هويتهم . وقد تبين

ان الزوجات الثانويات المعروفات باسم الـ « رنرت Rhénéret ،
اى « المعتكفات » كن على علاقة دائمة ومستمرة بأفراد من خارج نطاق
القصر ، مثل الأصدقاء ، والعسكريين ، وأفراد عائلاتهن وكن يستعن
بالكثير من الوسطاء من الرجال والنساء .

ومما أتاح الفرصة لوقوع مثل هذه المؤامرات ، أن رمسيس الثالث ،
على ما يبدو ، لم يحدد من بين «زوجاته الكبيرات الملكيات » أما لوريث
العرش الأول . وذكرت الوثائق أن اسم زوجته فى وقت المحاكمة ، كان
« ايزيس » وهى احدى اخواته غير الشقيقات ، أو ربما احدى بناته .
ولقد انجب منها ومن نساء حريمه العديد من الأبناء . توفى منهم الأربعة
الأوائل وهم فى ريعان الصبا ، أما الخامس فقد قدم الى المحاكمة .
ولكن ، الوثائق ذكرته فيما يبدو تحت اسم مزيف ، غير اسمه الحقيقى
هو « بنتاؤور Pentaour » . أما الابن السادس ، فيبدو انه خلفه
فى الحكم ، تحت اسم رمسيس الرابع .

ويبدو أن عدم الدقة فيما يمنحه لزوجاته من حظوة صائبة ، قد
دفع واحدة من أكثرهن خداعا وأقدمهن عهدا ، وهى « تى » أن تعمل
على أن يتولى ابنها « بنتاؤور » ـ كما سمى فى المحاكمة ـ مقاليد
الحكم . وتفتق ذهنها عن تدبير حركة تمرد فعلى ، كانت ستنتهى باغتيال
رمسيس الثالث . ويبدو ان مؤامرة كهذه ، لا يمكن أن تجد بؤرة اكثر
ملاءمة للنمو من الحريم .

وهذه هى الوقائع : اتفقت تى « الزوجة الملكية » مع سيدة أخرى ،
ذات سطوة وسيطرة كبيرة من سيدات الحريم ، ومع ست من الوصيفات
الخلصات لها ، واللاتى كن يقمن بدور حلقة الوصل بينها وبين من فى
الخارج ، كما ضمت الى قضيتها ايضـا ، بعض الموظفين العـاملين
بالحريم ، وبالادارة ، مثل « بلوكا » و « امنى » وهما حاجبان (٢١)
للملك ، وكذلك رئيس الخدم « باى باك كامن » (الخادم الأعمى) ، وحاجب
الملك « مسد ـ سو ـ رع » (رع يمقته) ، وهو رجل على درجة كبيرة
من الأهمية ، لأنه كان يقوم بالاتصالات الأساسية بالخارج . وكان يقوم
« بنقل العبارات والأقوال » (......) ، « ويذيع التعليمات على أمهاتهن
واخوتهن خارج الحريم » وبذا ، كلفت كل اسرة من اسر هؤلاء السيدات
باثارة أفراد الشعب للاعداد لمظاهر المعاداة للملك . وفى المقابل كانت
هناك امرأة اخرى ، من نساء الحريم ، جاءت من بلاد « واوات Ouaouat »
ـ النوبة المصرية ـ تدفع اخاها المدعو « بنام واست Binemouaset »
ومعناه : (الشرير فى طيبة) ، للخيانة . فكانت تكتب له قائلة : « اجمع
حولك أفراد الشعب واجعلهم يكرهون سيدنا ، وشجع الأعـداء على

الثورة (عليه) وعصيانه » ، وقد وصل الى الدرجة التى جعلت قائد
الجيش المدعو « باى اس » يتورط فى هذه القضية . وليس من السهل
ان يقاس بدقة مدى اتساع تلك المؤامرة . ولكن المستندات الباقية ،
تتيح الفرصة لمعرفة أسماء حوالى ثمانية وعشرين رجلا ، ومجموعة
محددة من النساء . وكانت « تى » هى الوحيدة ضمنهم التى لم يطمس
اسمها الحقيقى (مما يذكر أن المذنبين كانوا يذكرون بأسماء مخزية
ومهينة خلعت عليهم أثناء محاكمتهم) .

وقد لجأ المتآمرون الى كافة السبل والوسائل حتى انهم لم ينسوا
الالتجاء الى السحر والشعوذة . وبذا ، قام « بنحوروبين » (أحـد
رؤساء القطعان) بامدادهم بلفة من الكتابات السحرية ، من مكتبة
الابن الملكى ، سرقت بمعاونة الكتبة العاملين « ببيت الحياة » . وتبعـا
لتعليمات هذا المجلد الفعال . صنعت تماثيل صغيرة من الشمع ، وأعدت
بعض تعاويذ الحب ، لادخالها سرا الى القصر بواسطة « باى باك
كامن » ، حتى تعمل على اصابة الأشخاص المراد تجريدهم من الفاعلية
بالشلل والعمى ، وبالفعل ، كخطوة تجريبية ، أصبح الكثير من الموظفين
بالقصر ، مفتقرين تماما لأية كفاءة ومقدرة ؛ وتم الالتجاء أيضـا الى
بعض « الأحبار » المتخصصين فى مثل هذه الأعمال ، ومنهم أحـد كهنة
« سخمت Sekhmet » . فهـذه القـوة السحرية الفائقة يمكنها بواسطة
« مبعوثيها » ، خلال الأيام الخمسة من العام المعروفة باسم أيام النسىء ،
أن تنزل بمصر ... وبالعـرش أشـد أنـواع المصـائب أو الويـلات ،
كالطاعون .

وعندما اكتشفت المؤامرة لم يبـد الفرعون أية رحمـة أو شفقة .
وأمر بأن تتشكل فورا محكمة استثنائية ، لا تشبه مطلقا « المحكمـة
العليـا » التقليدية التى كانت تنظر غالبـا فى القضـايا المهمة ، والتى
كانت تكتفى بمحاكمة المتهمين لتترك للفرعون مهمة اصـدار الحـكم
المناسب . أما هذه المحكمة « الخاصة » فقد تكونت من اثنى عشر موظفا
من القصر ، وبعض ضباط الجيش ، وبعض الأعضاء التقليديين بالمحكمة
المركزية « القنبت » . وكان الوزير غائبا . وكانت مهمة هؤلاء الكبـار
المجتمعين هى تلقى أوامر الفرعون . ولكن ، كان عليهم هـم بصفـة
استثنائية أن يصوروا حكمهم كمحلفين وأن يقوموا بالبت فى العقوبات ،
وتنفيذها . ولقد أعلن الفرعون عند اكتشاف تلك المؤامرة أنه لا يريد أن
يسمع شيئا بشأنها . وأنه لا يرغب الا فى معرفة الحقيقة كاملة وأن
يدان المذنبون ، مع مراعاة عدم ادانة الأبرياء على وجه الخصوص .
ولأن بعض المتهمين كانوا ينتمون الى أصل غير مصرى ، فقد أمر الفرعون

أن يشترك مع القضاة اثنان من حجابه يحملان اسمين أجنبيين أحدهما آسيوى .

وبدات المحكمة تصنف المتهمين فى شكل فئات . ويعتقد انها استهلت أعمالها أمام ستة من المحلفين ، ذكر اسمهم لمرة واحدة . وبدات المحاكمة على ما يبدو ، على درجة كبيرة من البساطة ، تقدم المتهمون نساء ورجالا معا فى فئات ، وفقا لنوع الجريمة المتهمين بها . ويذكر كل منهم حالته المدنية ، ثم يقرأ على كل منم نص التهم المنسوبة اليه . ويبدو أن المحكمة بعد فترة وجيزة من الوقت ، قد اقتنعت بصحة الوقائع ، وأصدرت الحكم .

وأثناء اجراءات المحاكمة ونظر القضية لوحظ أن بعض المتآمرين الذين لم يتم اعتقالهم ، كانوا يبذلون قصارى جهدهم لتأخير المرافعات أو لتغييرها . ولذا ، ففى أحد الأيام ، تبين أن خمسة من الاثنى عشر قاضيا ، ومن بينهم ثلاثة مستشارين ، وضابطا شرطة ، قد انضموا الى الفئة المتآمرة . وكانوا يجتمعون فى حفلات ماجنة فى بيت أحد القضاة مع أحد المتهمين الرئيسيين ، وبعض السيدات المتهمات ، أو بعض زوجات المتآمرين ، ولكنهم اعتقلوا بدورهم ، وتم النظر فى قضيتهم .

وتضمنت المجموعة الأولى سبعة عشر متهما أثبتت ادانتهم ، منهم « باى باك كامن » و « مسد سو رع » ، وأحد رؤساء الخزائن الملكية ، وكاتبان يعملان فى « بيت الحياة » ، وأحد كبار الكهنة يعمل رئيسا للمرتلين ، وكاهن الالهة سخمت : لقد قاموا جميعا ، مباشرة ، بمساعدة الملكة تى بمحاولة اثارة القلاقل بين أفراد الشعب . ومن المعتقد انه قد صدر الحكم عليهم بالاعدام . أما عن المجموعتين الثانية ، والثالثة ، فكانت تضم بعض كبار الشخصيات الفاسدة وكذلك الأمير « بنتاؤور » الذى حكم عليه بقتل نفسه . أما القضاة الثلاثة والضابطان ، ومنهما القائد « بابيس » الذين اشتركوا فى الحفلات الماجنة مع نساء الحريم ، فى منزل أحدهم ، فقد حكم على واحد منهم فقط بالبراءة : وهو القاضى « حورى » ، الذى لم تثبت ادانته فى اية تهمة ، أما باقى المتهمين ، فقد حكم على أحدهم بأن ينتحر بعد تركه بمفرده فى قاعة المحكمة . أما الثلاثة الآخرون فحكم عليهم حكما مهينا ، ألا وهو : أن تجدع أنوفهم وآذانهم . وبذا ، يحملون وصمة العار طوال حياتهم .

ويبدو أن « تى » لم تحل الى هذه المحكمة . ومن المرجح أن الملك قد قام بنفسه « بالنظر فى أمرها » .

وها نحن ، قد استطعنا أن نعايش فى اطار الأسرة العشرين ، واحدة من أشهر قضايا الحريم ، بفضل بعض بقايا وثائق المحفوظات ،

التى بقيت سليمة حتى الآن عن طريق الصدفة البحتة . وكان من الممكن الا نحاط علما بهذه المؤامرة الدرامية ، لو اننا اكتفينا بالتطلع للآثار الهيبة ،التى اقامها رمسيس الثالث مثل قصوره فى « بر رمسيس » ، او فى تل اليهودية (٢٣) فى شرق الدلتا ، أو معبده اليوبيلى على الضفة اليسرى لطيبة ،ومقبرته التى تعد من أعظم آثار وادى الملوك .

ومثل هذا المثال الذى انتقل كلية بنا الى أجواء الحريم ، فى وقت تشوبه الأزمات ، يسمح لنا بأن نتبين مدى النقص والتشتت فى معلوماتنا عن هذا المجال ، وفى غيره من المجالات الأخرى اللازمة لتكوين صورة عن الحياة الحقيقية ـ واليومية ـ للمرأة فى مصر القديمة . ألم يكن هذا الحدث على درجة كبيرة من الخطورة ، ابان حكم ملك عظيم ، استطاع أن يدمر شعوب البحر ، التى كانت تهدد مصر بأكملها بغزوها ؟ وتمكن بعد جهد جهيد من قهر الليبيين والسيطرة عليهم ، لدرجة أنه اضطر أن يقتل « مششر » ابن زعيمهم « كاعبر » بالرغم من التماسات واسترحام الأخير بألا يفعل ذلك . ولا ريب أن بعض الأميرات الليبيات قد دخلن بعد انتهاء القتال فى الحريم الملكى . ولا شك أيضا أن الحقد والكراهية الدفينة ، التى كانت تتراءى من خلال تأليبهن للناس على التمرد ضد رمسيس ما زالت تعتمل بداخلهن . وبذا ، فليس من المستحيل التصور بأن المؤامرة اذا كانت قد نجحت ، فان انتقام الملكة « تى » كان سيصبح انتقاما كاملا ، خاصة اذا سلمنا بأنها قد دخلت فى نطاق الحريم الملكى ضمن أفراد القبائل التى هزمها الفرعون .

- ٤ -

الجبانات ، والملكة المؤلهة ، والفرعونات

أضرحة الملكات

ان أهمية « الزوجة الملكية المعظمة » ، « والدة » ولى العهد كانت تبرز وتتبلور بشكل طبيعى فى المكان الدنيوى الذى تعيش فيه ، أى قصرها ، والحريم الذى يخضع لسيطرتها وسلطانها . وهى تتميز عن بقية النساء اللاتى يعشن بهذا المكان ، بأنها يجب أن تنعم « بمأوى أبدى » يتناسب مع مكانتها ومركزها · لم يكن الأمر يتعلق اذن بمجرد تخصيص مكان ثانوى لها فى مدفن زوجها الملك · حقيقة قد وجدت بعض الاستثناءات ، فى فترة العمارنة ، لأسباب دينية واضحة ، وأيضا عندما اتسم البلاط الملكى بمظاهر التقشف ، مما اضطر الفرعون الى مراعاة البساطة وعدم المغالاة فى بناء قبوره الملكية · وبذا ، فاننا نلاحظ أن قبر الملك « بسوسنس Psousennès » فى تانيس ، من الأسرة الحادية والعشرين ، لم يكن يتضمن سوى حجرتين فقط ، كسيتا بكتل من الرخام ، احداهما للملك والأخرى خصصت لمليكته « موت نجمت Moutnédjèmet » .

العصر المبكر والدولـة القديمـة :

منذ الأسرة الأولى ، فى « أبيدوس » نجد أن البقايا التى عثر عليها فى منطقة القبور العتيقة ، قد بنيت تجمع الأبنية الجنائزية الخاصة بسيدات القصر ، تجمعا مميزا · وفى قلب هذا التجمع ـ كما ذكرنا آنفا ـ يلاحظ أن بقايا « المساكن » الجنائزية الخاصة بالملكات ، تشير الى أنها كانت عبارة عن « قصور العالم الآخر » فعلية ، بل ومتجمعة فى مكان محدد تماما .

أما فى عصر الأهرامات الضخمة ، فكان المبنى المدرج الخاص بالملك « جسر (زوسر) » بسقارة ، أعظم ملوك الأسرة الثالثة ، يعلو مجموعة من الردهات والممرات القائمة تحت الأرض · ومن المحتمل جدا

انها كانت ، بالاضافة الى جثمان الملك وكنوزه ، تضم بعض أفراد عائلته ، ولكن منذ بداية الأسرة الرابعة ، لوحظ أن مدن الموتى الخاصة بفراعنة الدولة القديمة ، كانت تعج بأبنية ضخمة كرست للشعائر الملكية ، تحيط بالهرم المهيب ، والهـرم ذاته يطـوى فى احشائه ردهات وغرفا ترقـد فيها مومياء الفرعون · وفى المناطق المجاورة سواء فى « دهشور » أو « ميدوم » ، أو « الجيزة » ، أو « أبو غراب » ، أو « أبو رواش » ، أو « سقارة » ...... الخ · وفى الصحراء المجاورة لعاصمة منف القديمة ، شيدت من أجل الملكات أيضا مجموعات هرمية ، لا شك أنها أقل حجما من أهرامات الملوك ، ولكنها على قدر كبير من الأهمية ·

وبذا ، نجد أن هرم خوفو قد شيد فى منطقة قبور الجيزة ، ناحية الغرب ، تجـاوره بعض القبور المخصصة لأفراد عائلته · فى حين أن الناحية الشرقية ، قد خصصت لمقابر أولاده المميزين الذين دفنوا غالبا فى أبنية تشبه « المصطبة » ، وعلى مقربة من أمهاتهم الملكات علـى التوالى ، واللاتى دفن تحت ثلاثة أهرامات صغيرة ، كرست لها ضياع للانفاق عليها ، ومجموعة كاملة من المستخدمين المتخصصين · وأحيانا ، كانت الطقوس الدينية للمقاصير التى تضمها المجموعة الهرمية يقوم بها الوكلاء الملحقون بالمبنى الخاص بالملك · وكانت الحجـارة تستعمـل فى أبنية الفرعون ، فى حين أن منازل الأحياء ، كانت تصنع من الطوب اللبن ، وحوالى العام الخمسين من حكم الملك خوفو اكتشفت عمليات السلب والنهب والتخريب الفادحة والتى وقعت فى منطة قبور دهشور ، الواقعة قرب هرم أبيه « سنفرو » ومقبرة أمه « حتب حرس » · فأمر بأن ينقل بجوار هرمه ، كل ما خلفه اللصوص ، بالاضافة الى التابـوت المصنوع من المرمر الأبيض ···· ولم يوجد بداخله اى أثر لجثمان الملكة · ولكن الذى تبقى من قطع الأثاث الجنائزى ، يسمح لنا ، مع ذلك ، بأن نتصور مدى الروائع التى كانت تحيط ببقية الملكات بعد وفاتهن والتى لم يتبق منها لنا شىء الآن مع الأسف · وفى تلك الحقبة التاريخية ، لم يكن من المحتم أن تكون مقبرة الملكة على شكل هرمى · ويبدو أن البناء المقام فى منطقة الجيزة ، والذى سمى خطأ « بالهـرم الرابع غيـر المكتمل » ، والواقع فيما بين المكان المؤدى الى هرمى خفرع ومنكاورع لم يكن فى الواقع سوى بناء ضخم على هيئة تابوت ، مقام فوق صخرة طبيعية بمثابة قاعدة له ، وغطيت جدرانه بطبقة جيرية · وكان يخص الملكة « خنتكاوس Khenty Kaus » ، وهذه الملكة هى ابنة الملك منكاورع والتى تعـد بمثابة « حلقة الوصل » بين الأسرتين الرابعـة والخامسة · وبزواجها من « أوسركاف Ouserkaf » الذى كان من خارج الأسرة المالكة ، تيسر له اعتلاء العرش ·

ولم يبن خوفو لزوجاته الأخريات ولا لأبنائه أهرامات لتغطية قبورهم ، بل حفرت قبورهم فى الصخور الشرقية للجبانة حيث يمكننا رؤية مقصوراتها المزينة بنقوش بارزة ورسومات ملونة ، ومن الملاحظ ان التنوع والتغيير فى الفن المعمارى الجنائزى الخاص بالملوك ، قد استمر حتى نهاية الدولة القديمة ، وبذا ، نجد أن الملكة « نبت » ، وهى من زوجات الملك « أوناس » ، آخر ملوك الأسرة الخامسة ، قد دفنت مع زوجة ملكية أخرى ، تحت « مصطبة » أو مقصورة من الحجر الجيرى . ومع ذلك ، فقد ظهر ثانية الشكل الهرمى كمقابر للملكات : « نيت » كبرى بنات الملك ببى الأول ، و « ابوت » ، و « أوجبتن » ، من الأسرة السادسة . وقد تمتعت تلك الملكات بامتيازات فائقة حيث غطيت جدران قبورهن فى صحراء سقارة ، بنصوص الاهرام « العريقة التى كانت ، فيما يبدو ، من الامتيازات الخاصة بالفرعون عندما ظهرت لأول مرة فى عصر الملك أوناس . وكذلك الحال بالنسبة للملكة « خنتكاوس » التى دفنت فى الجيزة ، فقد كان لها هرم فى « أبو صير » ، فى أوائل حكم الأسرة الخامسة ، أما الملكة « ابوت » ، والدة « ببى الأول » ، من الأسرة السادسة ، فقد شيد من أجلها ، قبر خاص تخليدا لذكراها بمنطقة « قفط » ، ولكنها دفنت فى مكان آخر . ومن المعروف انه قد شيد من أجل بعض الملكات ، مثلهن مثل الفراعنة ، قبور تذكارية ، بمنطقة ضياع أوزيريس « بأبيدوس » ، بالرغم من دفنهن فى أماكن أخـــرى .

فى الدولـــة الوســطى :

عندما بدأت الدولة الوسطى ، مع بداية الأسرة الحـادية عشـرة الطيبية ، بعد حقبة شابتها القلاقل والاضطرابات ، وساد البلاد خلالها القحط وعانت من شظف العيش ، تم تجميع مومياوات الأسرة المالكة ، والملكات الزوجات الثانويات ، بداخل المجموعة الجنائزية الخاصـة بالملوك المعروفين باسم « منتوحتب » المحفورة فى جبل « الدير البحرى » ، ومع ذلك ، فبعد أن تم تأسيس واقامة العاصمة الجديدة ، للأسرة الثانية عشرة ، فى اقليم الفيوم ، سرعان ما استرجعت السيدات الملكيات « استقلالهن الذاتى فى العالم الآخر بعد الموت » (١) . وتتابع بناء الأهرامات الخاصة بالملكات والأميرات ، حقيقة أنها كانت أصغر حجما من الأهرامات الخاصة بالملوك الفراعنة ، ولكنها ، وفقا للأسلوب الجديد فى البناء ، كانت تبنى بالطوب اللبن ، وتكسى ببلاطات من الجير . ولقد بينت بعض الآثار المتبقية من سلب اللصوص ، عن وجود بعض المجوهرات الدقيقة الصنع ، والتيجان والأكاليل ، والقلنسوات ، والعقود ،

والجواهر التى تعلق بسلاسل فى العنق ، والأحزمة المصنوعـة من اللؤلـؤ ، والمصـوغات (٢) .

ففى تلك الفترة ، كانت تضاف الى الفيـروز واللازورد والعقيق الأحمر ، احجار كريمة أخرى ، مثل الأماتيت الذى كان يستخرج من وادى الهودى ، بجوار أسوان . ومن هذه الروائع الفريدة فى رقتها ودقة صنعها ، حلية الرأس الشهيرة الخاصة بالأميرة « خنوميت » ، التى على شكل تاج من زهور المروج ، فوق عدة صفـوف من الخيوط الذهبية المتتالية والمتعانقة ، رصعت بحبات صغيرة من الأحجـار الكريمة، وجمعت فيما بينها بكل دقة ، بواسطة أجـزاء على شكل ما يسمى «بصليب مالطة Croix de Malt » ، محلاة بزهور اللوتس المتقابلة (٣) .

الأسرة الثامنـــة عشرة :

فى فجر الدولة الحديثة ، بدأت مصر ، تخرج من غياهب حقبة قاتمة ، قام خلالها الهكسوس (ربما قبائل من بدو آسيا) ، بالاستيلاء على خيرات البلاد ، وعندئذ ، برز الدور الذى كانت تقوم به زوجـات الأمراء الذين قادوا حركة التحرير ، وما كن يتمتعن بـه من تقـدير واعتبار . ومثل غيرها من القبور الملكية ، فى كافة العصور ، تعرضت قبورهن التى تحتوى على كنوز لا يخفى أمرها الى الانتهـاك والسـلب والتخريب ، وشاءت الصدفة وحدها ، أن يعثـر على بعض الأشياء المتبقية منها مدفونة داخل مخابىء بسيطة متواضعة لا تسترعى النظر ، أعدت على عجل أو خبئت بواسطة الكهنة بعد تجميعها ، بداخل بعض القبور التى لم يتم التوصل اليها أو النيل منها ، وأشهرها « خبيئة الدير البحرى » . ومنذ أوائل الأسرة الثامنة عشرة ، كـان الملوك والملكات يدفنون فى صخور المرتفعات المشرفة على أرض الوادى فى طيبة بالقرب من معابدهم المعروفة باسم معبد « المليون عام » اليوبيلى . ويبدو هذا واضحا جدا ، بالنسبة للمجمع الخـاص بالملـكة « أحمس نفرتارى » (٤) . ولكن ، على أثر الفترة التى قام فيها ابنها « أمنحتب الأول » معها باعادة تنظيم الشعائر الدينية ، أخذ جميع من خلف الملك مباشرة فى الملك ، بداية من تحتمس الأول ، يشيدون مقابرهم فى الوادى الذى كان يسمى حينئذ باسم « المرج الكبير » ، ونعرفه حاليا باسم « وادى الملوك » ، والذى كان قد أصبح بمثابة « مدينة الموتى » للملوك الفراعنة حتى نهاية الدولة الحديثة . ولكن ، يبدو أن الأمر كان مختلفا بالنسبة للملكات : الزوجات الملكيات العظيمات ، والأميـرات ، والزوجـات الثانويات للفرعون . وفى أماكن متفرقة عثر أمام الجرف الطيبى ، على بعض الآثار التى أعيد دفنها ، والخاصة بقبور لسيدات هذه الأسرة

المالكة والتى سلبت ونهبت فى أوائل عهـدها . ولكن ، يبـدو ان الوديان الجافة الواقعة جنوب « وادى الملوك » قد اختيرت لاستقبال مومياوات نساء أسرة الفرعون ، وهذا المكان يعرف حاليا باسم « وادى الملكات » وكان يعرف فى عصر الأسرة الثامنة عشرة باسم « تا انت عات » . اى « الوادى الفسيح » ولقد تم استغلال الجزء الأوسط منه : حفرت الآبار ، فى أرضه الصخرية ، وهيئت قبور صغيرة ، على عمق حوالى ٦ و ٧ امتار لكى تدفن بها الأميرات (البنات الملكيات) .

ولكن ، أين دفنت الزوجات العظيمات لهذه الأسرة ، واللاتى لم يوجد لهن اى أثر حتى الآن . وربما قد جمعتهن جبانة بجوار هذا المكان . ولكن الأمر الوحيد المؤكد حاليا هو : وجود الحفرة الجنائزية التى حفـرت من أجل حتشبسوت ، عندما كانت مجرد زوجة ملكيـة عظمى لتحتمس الثالث ، ولقد اختير موقعها فى واد آخر ، على جانب الجبـل ، جنوب « وادى الملكات » . ولا شك أن الأمر كان يستدعى قوة هائلة للقيام برفع التابوت الجنائزى الثقيل الضخم المصنوع من حجر الجرانيت الأحمر اللون ، المستطيل الشكل . وفى النهاية ، لم يستقر به مطلقـا جثمان تلك التى تبوأت عرش الملوك الفراعنة بعد ذلك ، والتى كان يجب أن تدفن فى « وادى الملوك » . وهناك أيضا ، فى أعمـاق الجرف الصخرى بوادى « جبانة القرود » ، وعلى مقربة من نفس المكان ، وجنوب « وادى الملكات » ، أعدت مقبرة من أجل ابنة «حتشبسوت» ، نفرو رع Néféroure وعلى مسافة أبعد من ذلك ، توجد مقبرة أخرى منحوتة فى الصخر ، تضم أجساد ثلاث زوجات سوريات لتحتمس الثالث عثر عليها مصادفة ، فى الثلث الأول من القرن العشرين . وكذلك وجدت المجوهرات التى أمكن استرجاعها من البدو بالمنطقة التى كانوا يتجـرون بها ، وخلال « المسح » النهائى للمقبرة الذى قام به عالم الآثار « ونلوك » ، أمكن التعرف على بعض القطع ذات الأشكال الفائقة النقاء ، كأوانى الطعام الجنائزية ، وبعض المصنوعات ، والكؤوس والأقداح وأوعية الأدهنة ، والأساور والخواتم على النمط المصرى ، وطرز من أغطية الرأس والشعور المستعارة ، المزينة بالحلى والمرصعة بزهور من عجائن الزجاج علـى النمط الشرقى ، وعلى ظهرها نقوش هيروغليفيـة ذات علامات مميزة تبين أنها ربما من أصل سـورى . كما وجدت عصابة للرأس محـلاة بحليتين على شكل رأس غزال صغير (٥) من الذهب ، شبيهة بالتى ترتديها المحظيات ـ وكانت لبعضهن ـ بقصر الفرعون ، ترجع أيضا الى الأصل السورى (٦) .

وابتداء من حكم أمنحتب الثالث ، لم تعد طيبة الواقعة على الضفة اليمنى عاصمة للبلاد . وحلت محلها « الملقطة » الواقعة على الضفة

اليسرى . لقد تغير كل شىء على ما يبدو لأسباب عقائدية وسياسية ، وقام الملك باختيار واد صحراوى جديد لكى يحفر فيه كهفا عميقا ، كان على ما يبدو يعد بداخله ، مقبرة من أجل زوجته العظمى المفضلة « تى » ، وأخرى من أجل « زوجته العظمى » الأخرى وابنته الكبرى « ســات آمون Sat-Amon » وهذا هو الوادى الغـربى . وجــاء خليفته « اخناتون » ، وأسس عاصمته ، مركز عبادته الدينية بالعمارنة . وأقام هو الآخر على نفس الضفة الشرقية ، فى قلب الشاطىء الصخرى ، بمنطقة « درب الملك » ، مدفنا تحت الأرض لاستقبال موميائه ، وكذلك مومياء نفرتيتى ، ومومياء ابنتهما الكبرى « مريت آتون » . وقد توفى توت عنخ آمون بعد اعتلائه العرش فى طيبة بعشر سـنوات ، ودفن فى « وادى الملوك » . ولكن لوحظ أن حجرات قبره القليلة العدد ، لم يخصص بها مكان للملكة ، مما يعنى أن الملك قد عاد ثانية الى التقاليد القديمة التى كانت سائدة فى أوائل الأسرة . فهل يا ترى سيعرف أحد ، أين دفنت الصغيرة « عنخ اس ان آمون » ؟ . ومع ذلك ، فان المدعو « آى » الذى قام بتنظيم جنازة الملك ، والذى كان يدين بالولاء لآخر الملوك الذين حملوا اسم « أمنحتب » ، قد أقام لنفسه ، فى أعماق الوادى الغربى ، غرفة دفن فسيحة الأرجاء ، حيث رقدت بجوار موميائه ، مومياء زوجته ، مرضعة ومربية نفرتيتى قبل أن تصبح ملكة لفترة قصيرة .

ويبدو أن كل شىء قد رجع الى نصابه ، فى عهد « حور محب » ، والذى حكم فى الفترة الوسيطة ما بين الأسرة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة . ويعتبر قبره من روائع « وادى الملوك » . وقد دفنت أولى زوجاته فى المجمع الجنازى الفخم ، الذى كان قد شيده لنفسه بسقارة ، عندما كان يشغل منصب القـائد الأعلى لجيش الفرعون (٧) . ولكن ، لم يتم العثور بعد على مقبرة زوجته العظمى « موت نجمت » .

الأسرة التاسعـة عشرة ووادى الملكـات :

ولكن ما هى الأسرة التاسعة عشرة ، تقدم ابتكارا جديدا ، وبدعة حديثة . فقد أراد رمسيس الأول ، وخلفاؤه المباشرون ، أن يعيدوا تجميع « الزوجات الملكيات العظيمات » ، وبعض الزوجات الثانويات . فى « وادى الملكات » ـ الذى أطلق عليه فيما بعد ،اسم « تاست نفرو » . وتعنى « مكان الوهج الحيوى » (أو الابداع الالهى) ، حيث دفن الكثير من بنات رمسيس الثانى ، وكان قد جعل أغلبيتهن ، زوجـات ملكيـات عظيمات له . واذا كانت زوجة رمسيس الأول (الذى لم يمكث كفرعون أكثر من ثمانية عشر شهرا تقريبا) ، قد دفنت فى مقبرة صغيرة ، فان مقبرة زوجة سيتى الأول ، « توى » ، أم رمسيس الثانى ، تبـدو فى

تصميمها واتساعها على درجة رائعة من الفخامة . ولكن مما يؤسف له ، انه لم يتبق من زخرفتها شىء تقريبا ، وفى الواقـع انه لم يتم بعد اكتشاف كافة القبور ، فى مدينة الموتى هذه ، حيث تقوم حاليا البعثات بالبحث والتنقيب . وهناك قبور أخرى كانت هدفا للسلب والنهب ، ثم اعيد استعمالها من جديد ، لعدة مرات على مدى العصور القديمة ، ولم تفصح بعد عن أسماء سكانها الأوائل ، ولكننا نعرف اكثرها جمالا وروعة ، وهى مقبرة الزوجة المحبوبة المفضلة لرمسيس الثانى ، الملكة نفرتارى ، وهى تعد فى زخرفتها من أوضح وأبرز مظاهر فن الرسم والزخرفة الرسمية ، فى عصر الملوك الفراعنة . وعلينا ان نشير ايضا الى المقاييس الضخمة التى يبدو عليها المدفن المقام تحت سطح الأرض ، للابنة الكبرى و « الزوجة الملكية العظمى » « بنت عنات « Bentaat » بل ان مقاييس الأشكال المقدسة وتماثيل الملكة التى شكلت على الجدران المغطاة بطبقة ملاطية ، هذه المقاييس تفوق فى ضخامتها ، ما عداها من الأشكال على جدران المقابر السابقة .

وهناك ظاهرة تطور أخرى نراها فى مقابر سيدات الرعامسة (٨) ، فلم يعد الدخول الى سراديب الدفن عن طريق بئر مربعة ضيقة عميقة يصعب ولوجها ، بل أصبح النزول اليها عن طريق منحدر ، ويزداد يسرا وسهولة ، كلما تقدم المرء فيه بواسطة سلم منحوت فى الصخور . كما أن تنوع وتعدد المواضيع الدينية على الجدران ، والتى تبدو أقل صرامة وجفافا من الموجودة بمقابر الملوك ، تجعلنا نعتقد أن الملكات كن يقمن باختيار الزخرفة وفقا لشخصيتهن . وعموما ، فهناك أيضا ملحوظـة جديرة بالذكر : فمن أكثر المقابر ضآلة ، يبدو أن بعضها قد أعد واكتملت نقوشه ، باستثناء الاسم الذى كان يترك مكانه خاويا داخل الخرطوش ، انتظارا لمعرفة هوية التى يحتمل أن تشغله .

ملكـة مـؤلهـة

على غرار الملوك ، أحيطت ملكاتهن بهالات من القداسة الخارقة ، وهن يؤدين ، خـلال بعض الاحتفـالات الملكيـة أو الشـعائر والطقوس الدينية ، دور الآلهة . والأكثر من ذلك ، أن احداهن قد اكتسبت فى قلوب الشعب حظوة غير عادية ، لدرجة أنها قد أصبحت تبجل وتوقر . وبذا ، فبداية من الحقبة التى عاشت أثناءها من الأسرة الثامنة عشرة وحتى نهاية عصر الرعامسة ، ظلت تعـامل معاملة الأرباب ، وحظيت بشهرة - خاصة فى العاصمة طيبة - لم يستطع أحد النيل منها .

انها أحمس نفرتارى ، احدى « السيدات قويات البأس » بأسرة محررى مصر ، وهى ابنة « سقننرع تاعا » ، وزوجة وشقيقة أحمس ،

ووالدة أمنحتب الأول . وهى لم تعش بجوار هؤلاء الملـوك الثلاثة فحسب . ولكنها عاصرت أيضا فرعونين آخـرين من أفـراد عائلتها المباشرة : كاموس ، أخيها الأكبر ، وأخيرا خليفة أمنحتب الأول ، أى تحتمس الأول ، وماتت خلال فترة حكمه .

كانت أحمس نفرتارى مستشارة حميمة لزوجهـا - ولقـد خـلع عليها ، مؤقتا ، لقب « الرسول الثانى لآمون » الذى لم يخلع على أية امرأة من قبل ، حتى لو كانت من الملكات - وتوجت ، بصفتها زوجـة للاله ، ومتمتعة بكل ما يصحب ذلك من امتيازات . ويبدو أنها أيضا ، كانت أولى الملكات التى يخلع عليها هذا اللقب ، والتى تصبح الوسـيطة المفضلة بجوار آمون ، اله الأسرة .

ومن خلال الآثار المتبقية من فترة حكمه ، نرى أنها قـد قامت بجدارة من أجل بلدها ، بدور عقائدى يوضحه كم ونوعيـة الهبات والقرابين المقدمة الى مختلف معابد مصر ، والانجاز الاقتصادى الواضح المعالم مثل المساهمة فى اعادة تشغيل عمليات المحاجر . ولا ريب أنها مارست تأثيرا قويا على ابنها أمنحتب الأول ، الذى ساعدته فى انجازات من أجل بلدها ، حيث كانت الضرورة تستلزم الامسـاك بزمام الكثير من المؤسسات والأعمال ، بل وانشاء العديد منها ، بعد فترة الانهيار واختلال النظام ، التى « خرج » منها . وكبداية وقبل كل شىء لا يسـتبعد مطلقـا ، أنهما قد تعاونا مع بعض العلماء - الكهنة ، الذين ظلوا فى طيبة لاعداد واصدار نص « شعائر العبادة الالهية اليومية » (٩) ، واعترفوا بنسبته اليهما . ولا ريب أن الاهتمام الذى أولته أحمس نفرتارى لهذا العمل الأساسى ، والذى أسفر عن « اعادة مسيرة » الشعائر فى معابد مصر ، كان من الأسباب التى جعلتها تتمتع بشهرة غير عادية فى قـلوب من - قال عنهم هيرودوت - « انهم أكثر الناس تدينا » .

وهناك عامل ثان ، ربما كان له تأثير أكثر على حال الشعب . فقد كانت الملكة ، تعمل دائما مع ابنها للحد من الفوضى السائدة فى الجبانة الملكية . وكان المشروع يرمى الى تجميع كافة المقابر المعدة لاستقبال الموتى العظام مستقبلا . ولأجل ذلك ، كانت الضرورة تستلزم تكوين هيئة عمالية ، يرتبط أعضاؤها خاصة ، بتنفيذ هذا النمط الجديد من المقابر ، التى يجرى حفرها واعدادها فى صخور واد صـحراوى فسـيح الأرجاء - وادى الملوك - عند نهاية المرتفعات الصخرية بطيبة ، ويطل عليه جبل فى هيئة هرم طبيعى . ولقد تمت هذه العملية على يد تحتمس الأول . ولكن عمال المقبرة الملكية اعتبروا أمنحتب الأول وأمه المؤسسين الحقيقيين لجماعتهم . وكان هؤلاء العمال يخضعون مباشرة للوزير ،

وعاشوا فى قرية خاصة بهم فى منطقة تعرف باسم « دير المدينة » (مابين وادى الملكات ووادى الملوك) .

ولذلك نرى فوق بعض المسلات ، وعلى جدران المقاصير الخاصة بنبلاء طيبة أو فوق جدران أى محراب خاص ، الملكة وابنها فى صورة الهين يحملان فى موكب احتفالا « بالعيد الجميل للوادى » . وكانت التماثيل تقوم بزيارة المعابد الجنائزية – اليوبيلية الخاصة بالملوك الفراعنة – وتقف طويلا فى المعبد الجنائزى الخاص بالملكة ، أى الـ « من ست » ، وتنهى « جولتها » بالدير البحرى (فى مقصورة حتحور) . ومع ذلك ، فهذه الشعائر لم تبدأ فعلا ، الا بعد موت « أحمس نفرتارى » . وكان تمثالها المصنوع من الخشب ، المكسو بطبقة من مادة « القار » والذى زينت رأسه ريشتان عاليتان محفوظا فى قدس الأقداس ، بمعبدها الجنائزى الذى يقع عند سفح تل ذراع أبو النجا ، قبالة معبد الكرنك ، وقد قام تحتمس الأول بالاهتمام بتجميله وأصبح خلال حكم الرعامسة مزارا للحجيج . ومثلت أحمس نفرتارى ، وقد أمسكت بيدها صولجان الملوك الفراعنة : السوط والخطاف . وفى أواخر حكم رمسيس الرابع ، أضفى على تماثيل الملكة ، التى تعرض على العامة ، لون البشرة الأزرق المائل للسواد ، وهو لون تمثالها الخاص بالشعائر الدينية ، وفى عصر الرعامسة استبدل تماما باللون الوردى أو الأصفر الذهبى الخاص بتماثيلها الأولى . وليس من المستغرب أن تطلى بلون الأرباب الذين يعيشون فى غياهب الظلمات ، ويرعون الموتى ، وكان هذا أيضا هو الدور الأساسى للكلب الأسود « انوبيس » ، أو لأوزيريس بعد موته ، وهو يتحول من اجل البعث الجديد والخلود . وكانت « أحمس نفرتارى » من أكثر المقربات من « أمون – مين » الاله الخلاق ، ذى الاشعاع الذى يبزغ من ظلمات الكون .

وكانت مركبها ، على غرار مركب الآلهة تحمل اسم « أوتس نفرو Outes-Niferou » ، وكانت مقدمتها ومؤخرتها تبدو أحيانا على شكل تمثال نصفى لها ، زين بعقد عريض ، يسمح لها وهى بداخل الناووس الذى يحتوى على تمثالها المقدس بأن تظهر ، مرات متعددة أمام أفراد الشعب . وكانت تستطيع عن طريق النيل أيضا أن تتوجه الى معبد أمنحتب الأول . حيث كان تمثاله الموضوع داخل هودجه ، ينتظر موكب الملكة الأم ، أمام بوابة الهيكل عند الشاطىء . وكان ذلك يعرف باسم « الخروج النهرى لأحمس نفرتارى » .... وبفضل ذلك ، كان العاملون بمدينة المقابر يكافأون بيومى عطلة ، هما يوما ١٤ و ١٥ من شهر « الشمو » (١٠) . وكان تمثال الشعائر الدينية يساهم أيضا فى الاحتفالات الخاصة بعيد أمنحتب الأول .

واخلص سكان القرية القديمة « دير المدينة » العبادة لزوجة أحمس القديرة الماهرة ، وان لم يكن لها وحى الهى كابنها امنحتب الأول . ومع ذلك ، كان شعب الضفة اليسرى لطيبة يتوجه اليها بصفتها الراعية والحامية ، التى تستجيب لدعواته ، كما أن علامات تبجيلها وتوقيرها واضحة فى أبيدوس وفى اهناسيا .



شكل (١٦) تمثال احمس نفرتارى فى زورقها الجنائزى

وهكذا ظهرت هيئتها على جدران معبد القرنة ، وفى الكرنك ، أولاها رمسيس الثانى تعظيمه وتبجيله ، ونقشت صورها ورسومها على جدران المقابر بطيبة بالأسرة التاسعة عشرة ، ضمن صور الملوك الأجداد والمعاصرين . وصنعت تماثيل صغيرة لعبادتها من الخشب المكسو بطبقة ذهبية أو الملون ، واستمرت عبادتها حتى أواخر عصر الرعامسة . ومع ذلك ، فان هذه الشعائر لم تتعد نطاق المحلية ، ولم يكن لها حظ مثل بعض التماثيل الكبرى الخاصة ببعض « القديسين » ، مثل : ايمحوتب وامنحتب بن حابو العالمين المبجلين والمهندسين المعماريين اللذين عاشا فى عصرى الملك زوسر (جسر) وأمنحتب الثالث ، واستمر تقديسهما حتى العصر المتاخر .

الملكــة فرعـــونا

لا ريب أن بعض علماء المصريات قد خدعوا بمظاهر الحياة المعاصرة ، وظنوا أن الماضى كالحاضر ، فزعموا أن قدماء المصريين ،

لم يتقبلوا فكرة أن يكون « حورس الحى » ـ أى الفرعون ـ امرأة ، بالرغم من أن العديد من ملكات مصر ، قد حاولن اغتصاب امتيازات الرجل ·

وهناك من عاب على هؤلاء الملكات محاولتهن للامساك بمقاليد السلطة ، وينم هذا القول عن ازدراء كامل للاحترام الذى كان سكان وادى النيل يكنونه لنساء بلادهم ، ولهذه المساواة بين الجنسين ، التى سلم بها الجميع ·

ولذا ، فان الأمر لا يقتضى ، ونحن نعالج الفصل الخاص بالفرعونة ، أن نبرز بعد انقضاء آلاف السنين ما يزعم من عمليات الاغتصاب التى حاولت القيام بها بعض « المغامرات الخطرات ، (بالرغم من كونهن وريثات حقيقيات للملوك الفراعنة) اللاتى كان يحيط بهن بعض المتآمرين ، أى عصبة فعلية ، يحركون الدمية الجالسة على العرش ·

علينا اذن أن نعود الى الزمان والمكان اللذين ندرس فيهما وضع المرأة ، ونتخلى عن المزاعم الباطلة التى ما زالت تهيمن على أذهان بعض المعاصرين تحت تأثير قوانين الفرنجة القديمة ·

لقد كانت المساواة الكاملة بين المرأة والرجل قائمة · ومن ثم فلم يشكل ارتقاء المرأة للعرش مشكلة فى معظم الأحوال · ولذا فعلينا أن ندرك وجهة النظر الفرعونية المصرية للدور الذى تقوم به · فالملك يحكم وكثيرا ما يلتمس المشورة من رفيقته أى الزوجة الملكية العظمى ، التى تشاركه حياته الخاصة ، وتعرفه أكثر من أى شخص آخر · ألم تحمل منذ القدم ، هذا اللقب الذى يوحى بالكثير « التى ترى حورس وست » (أى التى تفهمت جملة خصال ونقائص مليكها) · ان هذه الملكة تكفل للقصر وللمعبد أوجه نشاط مكملة وأساسية ، وضرورية لا غنى عنها بجوار الفرعون ، وللأولاد الملكيين ، ولبعض مظاهر الشعائر الدينية · فلماذا اذن ، تحاول الأميرة ، أن تحتل مكان الأمير المفروض أنه سيحكم مصر ، ما دام العمل الذى تقوم به يختلف عن عمله هو ، ولكنه تقديريا لا يقل عنه أهمية وخطورة ،بل وضرورى ولا يمكن أن يحل مكانه آخر ؟ ان تسلسل تاريخ مصر ، هو أوضح وأروع تأكيد وبرهان على ذلك ، كما أن اعتلاء النساء كرسى الحكم بالبلاد ، ليس بالأمر المدهش ، مثله كمثل الملكة اليزابيث بانجلترا ، وكاترين بروسيا ، أو ملكتى هولندا والدانمارك فى الوقت الحالى ·

فأين هى حالات « اغتصاب السلطة » بالنسبة لكل من « نيتوكريس ، ونفروسبك ، وحتشبسوت ، أو تاوسرت اللاتى اعتلين العرش ، لقد

كان ذلك فى أغلب الأحوال فى عصور الاضطراب ، وغالبا ما كانت الملكة تحل محل فرعون صغير السن أو واهن القوى ، وهو ما حدث مع نيتوكريس ونفروسبك ، وربما نفرتيتى (؟) ، أو تاوسرت · لقد اعتلت كل منهن العرش ، بعد انقضاء عصر أسرة مجيدة عظيمة ، عندما فقدت فيه سلالة الملوك سطوتها وسلطتها وأفل نجمها ، وبدأت تدخل مرحلة من الاضطرابات والقلاقل واكبت ضعف واضمحلال السلطة · أما بالنسبة لحتشبسوت ، فالحال يختلف لأن مصر فى ذلك الوقت بالذات ، بدلا من الانحدار الى الفوضى والقلاقل كانت تتواثب الى عهد من المجد والازدهار بعد فترة طويلة من الضعف والتخاذل · كما أن الأميرة كانت تتمتع بكافة الشروط الشرعية التى تؤهلها للعرش · فان وراثة العرش ـ على حد اعتقادنا بالعرف الفرعونى ـ كانت قاصرة على ابنة تحتمس الأول · ومن المستحسن اذن أن ندرس كبداية ، ووفقا للتسلسل التاريخى ، موضوع الفرعونات اللاتى قضين فترة خاطفة فى الحكم : نيتوكريس ، ونفرو سبك ، ونفرتيتى (؟) ، وتاوسرت · وكنوع من التحديد الزمنى ، سنذكر أيضا الملكة حتشبسوت دون أية اضافة · وسوف يخصص لها بعد ذلك تفصيل خاص ، يتفق مع المكانة الاستثنائية التى احتلتها هذه الملكة فى تاريخ مصر القديمة ·

نيتوكريس :

انها الوحيدة من ملكات مصر التى تعد تقريبا ملكة أسطورية · ولقد قال عنها المؤرخ مانيتون الذى لم يتحدث عن أية فرعونة أخرى غيرها ، انها تولت الحكم فى أواخر الأسرة السادسة ، بعد حكم مرنرع الثانى (ربما حكمت لمدة اثنى عشر عاما) · وقال اراتوستين عنها ، انها أمضت ست سنوات فى الحكم · أما المحفوظات المصرية فلم تذكر منها سوى اسمها : نيت اقرت ، وقد ورد فى حوليات الرعامسة (١١) ، أنها حكمت مدة سنتين ، وشهر ، ويوم واحد ·· والواقع أن «المعلومات» الوحيدة التى لدينا عنها ، لا تتعدى ما ذكره كل من اراتوستين وهيرودوت ، وهى ترتكز على بعض الروايات والأخبار الأدبية ، التى ترجع الى العصور المتأخرة جدا ، والتى أدمجت بها بعض الأخبار ، عن الغانية الاغريقية ردوبيس Rhodopis ، عشيقة « ايسوب » · ويحكى هيرودوت قائلا : ان نيتوكريس ، بعد أن ارتقت عرش أخيها الذى مات مقتولا ، قامت بالانتقام من القتلة ، عن طريق حيلة بارعة ، تسببت فى موت الكثير من المصريين · وبعدها ماتت منتحرة · أما « مانيتون »

فانه يؤكد بدوره (وفقا لنسخة عمارنية لايوسيب) : « لقد تولت الحكم امرأة تدعى نيتوكريس • وكانت تفوق جميع رجال عصرها شجاعة واقداما • وكانت تفوق كل نساء عصرها جمالا وحسنا وبهاء • كانت شقراء ، ذات وجنتين ورديتين • ويقال انها هى التى قامت ببناء الهرم الثالث » • ومن هذه العناصر المختلطة ، نستطيع عموما ، ان نستخلص ان هذه الملكة ، التى لم تمكث طويلا فوق العرش ، فى أواخر الأسرة السادسة ، ربما قد ساهمت فى بعض الأعمال المتعلقة بالهرم الناقص، الخاص بالملك منكاورع (١٢) بالجيزة • اما عن أسطورة جمالها ، فربما تناقلتها العصور مع شيء من الالتباس مـع أسطورة رودوبيس (ذات اللون الوردى) • ولكن لون شعرها الأشقر ، الذى يثير الدهشة بالنسبة لاحدى بنات النيل ، والذى كان مثار أحاديث حتى عصر الاغريق، يرجع بدون شك الى طراز مصرى ، ثبت وجوده حاليا من الناحية الأثرية من بعض الرسوم التى شوهدت فى مقابر الأسرة الخامسة بجوار الاهرامات : الأميرات يملن الى التزين بالشعور المستعارة الفاتحة اللـون •

كانت هذه الملكة على قدر واضح من الشجاعة والاقدام ، كما كانت على قدر لا يضاهى من الجمال : فهذا هو الثناء « الأنثوى » ، الذى ذكره « مانيتون » المؤرخ المصرى الوحيد عن تلك الفرعونة التى لم يطل بهـا المقام على عرش دولة قديمة كانت على وشـك الانحدار الى هاوية الحـرب الأهلية •

نفـــرو ســـبك :

فى أواخر حقبة مزدهرة ، من فترات تاريخ مصر ، التى بدأ تألقها يخبو ويضعف ، ظهرت الفرعونة الثانية المعروفة الملكة نفروسبك (١٣) التى يبدو أنها ختمت الأسرة الثانية عشرة ، فى الدولة الوسطى • وهى ابنة الملك أمنمحات الثالث ، واخت أمنمحات الرابع • ولا ريب أنهـا ارتقت العرش بين فترتى حكم هذين الملكين ، لوقت قصير للغاية •

تبين بردية « تورين » ان حكمها استمر ثلاث سنوات ، وعشرة شهور ، واربعة وعشرين يوما ، ولم تصل الينا أية تفاصيل عن حياتها • ولكن هناك دليلا قاطعا ، بانها كانت فعـلا تحكم كفرعونة ، اذ عثرنا على الجزء العلوى لأحد تماثيلها ، وهو الآن بمتحف « اللوفر » ويمثل الملكة وهى ترتدى ملابسها باسلوب فريد غير مألوف ، ففوق ردائها الأنثوى ، وضعت الازار الرجالى ذا الصدر القوى مثـل الفراعنة ، وفى

عنقها علقت « الختـم » المزدوج الخـاص بمـلوك الدولة الوسـطى • ولقد دفنت « نفرو سبك » بجوار أمنمحات الرابع فى هرمه •

نفــــرتيتى :

هناك بعض المناظر التى تبين غرابة أوجه نشاط هذه الزوجـة الملكية العظمى التى دفعت بعض علمـاء المصريات (هاريس Harris خاصة ، ثم من بعـده سامسون Samson) الى الاعتقاد بانه كان هناك نوع من المشاركة فى الحكم بين نفرتيتى وأخناتون ، وأن هذه المشاركة بينهما ، قد انتهت ، بحكمها هى حكما مطلقا بعد موت زوجها • ومن المحتمل أن تكون هذه الملكة قد اتخذت اسم سمنخ كا رع ، الذى كان يعتقد حتى الآن انه اسم أحد أشقاء الملك الذى خلفه لمدة سنتين أو ثلاث سنوات • ومثل هـذه النظـرية ، بالرغم من أنهـا مغرية وجـذابة ، فهى مازالت تفتقر الى الأدلة المقنعة فعلا (١٤) •

تـــا وسرت :

أما رابع الملكات التى توجت « فرعونة » ، لسنوات قليلة ، فهى « تاوسرت » التى قام الكاتب الفرنسى « تيوفيل جوتييه » باقتباس اسمها ، وحوله لـ « تا أوسر » وهـو الاسم الذى سماها شامبليون به • واعطى « تيوفيل جوتييه » اسم « تا أوسر » هـذا ، لبطلة روايته المعروفة باسم « قصة المومياء » • وكانت « تا أوسرت » هى آخر مظهر للفرعونة ــ المرأة بمصر ، قبل ان يغزوها الاسـكندر الأكبر ، وقبل حكم البطـلة الذى انتهى بالعمل البطولى والمأساوى لكليوباترة السابعـة فرعـونة الاسكندرية •

تبدو « تا أوسرت » السيئة الحظ ، امرأة فائقة الرقة متناهيـة الرشاقة فى صورتها المنحوتة على ركيزة أحد الأبواب بمعبد « عمدا » بالنوبة ، ولم تعش حياة هادئة هانئة تماما ، فى أواخر تلك الأسرة التاسعة عشرة ، والتى اشتهر فيهـا رمسيس الثـانى بصـوره وتماثيـله العديدة • فالأسرة المالكة ، كان ورثتها يبـدون متهالكين وضـعفاء ، يتشبثون بأذيال عرش يرغبه ويشتهيه « أمون مس » الذى يرجح أنه كان ابنا لأحد أحفاد رمسيس ، ولم يعرف بالضبط ، أين توضع فترة حكمه القصيرة ، ويبدو أن « باى » كبير المستشارين ، والذى كان من دعائم السلطة ، قد لعب دورا حاسما بجوار الملكة فى تلك الفترة •

واخيرا ، قام احد السوريين ويدعى « يارسو » ، بالاستيلاء على مقاليد الحكم ، خلال تلك الفترة التى سادت فيها الفوضى والقلاقل ، وحكم البلاد الطغاة المستبدون · ولكن ، فى نهـاية الأمر ، قام الأمير « ست نخب » بطرده من الحكم · والأمير « ست نخت » هو مؤسس الأسرة العشرين · وعلى هـذا المسرح السياسى تتابع ثلاثة ملوك ما زال ترتيب ولايتهم للعرش موضع خلاف للرأى حتى الآن ، وقاموا بعقد اتفاقيات ومعاهدات متتالية ، واختلف مصيرهم وهم : سيتى الثانى ، وتاوسرت ، وسبتاح (١٥) · وآثارهم المتبقية وبصفة خاصة مقابرهم – فى وادى الملوك – تشير الى وجود صراعات داخلية ، وتنافس وعداء ، تعبر عنه اسماء الملوك التى هشمت ، ووضعت اسماء أخرى بدلا منها .



شكل (١٧) تاوسرت

وبعد وفاة الملك مرنبتاح (الابن الثالث عشر لرمسيس الثانى وخليفته على العرش) خلفه سيتى الثانى ، وهو ثانى ملك يحمل هذا الاسم ، ويبدو أنه قد تزوج من الأميرة الملكية « تا وسرت » كى يدعم من شرعيته . ولكنه لم يستمر على العرش سوى ست سنوات · وكان من المفروض أن يخلفه ابنه « سبتاح » على العرش عند وفاته ولسـنا نعرف اسم والدة « سبتاح » ، ولكنها بالتأكيد لم تكن « تا وسرت » ، الزوجة العظمى التى نستطيع رؤية صورتها منقوشة على سوار من الفضة (١٦) وهى تسكب النبيـذ فى كأس يمدها اليها الملك · وفى تلك الآونة ظهـر « آمون مس » ، الذى طالب بحقه فى وراثة العرش ، لكن عهده لم يطل ، ويبدو أن « باى » (كبير المستشارين للأرض قاطبة) كان يتربص به ، وعلى حد قوله : « وضع الملك فوق عرش أبيه » · وكان الملك سبتاح وقتئذ مازال طفلا يافعا · ولا شك ان « تا وسرت » لم تكن لتستطيع مطلقا ، بـدون مساعدة المستشار الأكبر أن تصل بمفردها الى ذلك الغرض ، وخاصة أن الخلافة فى الملك كانت موضع نزاع · ووقف « باى » مساندا للفئة الحاكمة : ترى هل اضطرت الملكة ان ترضخ أمام خطط « باى » ؟ أم أنها

تعاونت معه ؟ · ومهما كان الأمر ، فقد قامت « تا وسرت » بالوصاية خلال السنوات الست التى قضاها « سبتاح » فى الحكم · ثم مات مبكرا ودفن فى « وادى الملوك » · فتبوأت « تا وسرت » عرش مصر ، وتوجت تحت اسم « ابنة الشمس » · وخلال فترة وصايتها ، كانت قد أمرت بان يشيد من اجلها – شانها شان أى فرعون – مقبرة خاصة بها فى وادى الملوك ولذا ، تشاهد ممثلة فى النقوش البارزة عـلى الجدران بجوار سبتاح · وعندما أصبحت ملكة ، رغبت فى أن تجدد فى مقبرتهـا ذكرى زوجها « سيتى » الثانى · وبذا ، ففى المنظـر الذى تبدو فيه بجوار سبتاح وهى تقدم القرابين للاله « جب » · قامت بمحو أسماء الملك الشاب على ما يعتقد ، وأحلت محلها أسماء سيتى الثانى ، ولكننا لا نعرف سوى القدر اليسير من الأمور ، لكى نتمكن من معرفة الأحـداث بالفعـل .

حكمت « تا وسرت » حتى العام الثامن (١٨) · فهل بقيت على العرش طوال هذه الفترة ؟ أم انها تضمنتها السنوات الست التى قضتها كوصية على العرش ؟ فلو كان الأمر كذلك فهى اذن لم تستطع أن تقاوم طموحات وتطلعات السورى المدعو « يارسو » سـوى سنتين فقط · ومقبرتها (رقم ١٤ بوادى الملكات) تعد دليلا على مدى ما تعرضت له الملكة من اعتداءات ، اذ كان من المقرر أن تكتمل بمعبد ، وضعت خطوطه الأولى فقط ، بجنوب الرمسيوم ، وكان من المفروض أن يكون قصرها فى مدينة «برمسيس» ، حيث كانت تقيم بقصر جـدها العظيم رمسيس · كما أن النوبة وسيناء ، قد احتفظت ببعض أوجه نشاطها الملكى السلمى · ولكن ، ترى كيف اختفت هذه الملكة ؟ لا أحد يعرف ذلك · ولكن يرجح انها لاقت حتفها خلال تلك الحقبة التى سادتها عوامل الفوضى ، وهو أمر غير مستبعد · ولكن ، من المؤكد أن « يارســو » لم يهتم باحياء ذكراها ، وأن « ست نخت » قد قام بالاستيلاء على مقبـرتها ، ويحتمـل جدا أنه قد دمر مومياءها ، ومع ذلك فقد كان هناك بعض « الأوفياء المخلصين » الذين كانوا يراقبون الوضع باهتمام ، واستطاعوا اخفاء بعض المجوهرات من الكنز الخاص بالملكة المتوفاة ودفنها بمقبرة لا اسم لها كمخبأ سرى ، عثر عليها (١٩) بنفس منطقة وادى الملوك · وضمن هذه المجموعة حفظ السواران المصـاغان من الفضة المنقوش عليهـا صورة « تا وسرت » وهى مازالت زوجة ملكية عظمى ، بكل ما تتمتع به من رقة ورشاقة وهى واقفـة أمام « سيتى الثانى » · وضمن مجموعة الملكة وجدت مجوهرات أخرى خاصة بزوجها الأول : أقراط رائعـة من الذهب ، كبيرة الحجم ، ولكنها لحسن الحظ خفيفة الوزن ، تزينهـا زخارف رشيقة مستطيلة على شـكل ثمـرة الرمان ، وكان يتحـلى بهـا

الأمراء والأميرات فى مرحلة الشباب . وفى خبيئة اخـرى بالدلتا الشرقية بالزقازيق ، وضمن بعض المجوهرات الرائعة الخاصة بالرعامسة منها « الوعاء ذو الماعز الصغيرة » ، وسوارا « رمسيس الثانى » المنقوش عليهما اشكال للبط . وكان يوجد أيضا باسم الملكة « تا وسرت » كـاس من الذهب على شكل زهرة اللوتس المفتوحة . وبذا ، علينا أن ندين لآخر أميرات العصور الفرعونية التى ارتقت عرش مصر ، بهذا النموذج الفريد من نوعه ، الملموس ، لكأس استعملها الملوك لشرابهم . ويمكننا ملاحظة هذا الاناء الملكى فى المناظر التعبيرية التى تشير الى الحياة الخاصة بداخل القصر ، وتسترجع المنظر الذى يمثل « تا وسرت » وهى تسخو فى تقديم نبيذ النشوة الى « سيتى الثانى » ، مليكها وفرعونها ، وربما حبيبها .

آمـــون والزوجات الالهيات

ملكات طيبة العذارى

يختتم عصر الدولة الحديثة العظيم بأفول نجم أسرة الرعامسة التى هيأ انحدارها ، لمجىء عهد تشوبه القلاقل والاضطرابات ، أطلق عليه علماء المصريات اسم : « عصر الانتقال الثالث » . وخلال تلك الفترة ، اصبح العرش – بعد أن اعتلاه بعض الفراعنة المنحدرين من نسل وزير سابق من الشـمال ، توج ملـكا تحت اسم « سـمندس « Smendès (الأسرة الواحدة والعشرون) الألف الأولى قبل الميلاد – فريسة لأسرة اجنبية الأصل . وانتهت هذه الحقبة ، بالأسرة الخامسة والعشرين ، أى الملوك النوبيين – السودانيين الذين أطلق عليهم المؤرخون الاغريق لقب « الأثيوبيين » (أواسط القرن السابع قبل الميلاد) .

آمـــون – ملكـــا

هجر الفراعنة آنذاك العاصمة القديمة ، طيبة ، ومدينة « بر – رمسيس » ، التى كان الرعامسة يفضلونها واستقروا فى « تانيس » ، فى الشمال الشرقى ، ونقلوا اليهـا الكنـوز والنفائس التى كانت فى العاصمة السابقة . ولكن ، قبل كل شىء ، نلاحظ ظاهرة تساعد على توضيح الكثير من الأمور الغامضة : لقد تلاشت صور الآلهة وخاصة التى ازدهرت فى مدينة الرعامسة القديمة ، ومنها الالـه « ست » الرهيب ، وبعض الربات الأجنبيات ، وحل محلها آمون الأوحد . ان ديانة التوحيد (١) التى ترسخت دعائمها ، قد امتدت فى كافة انحـاء البلاد ومن طيبة حتى « تانيس » ، كان آمون الكرنك (٢) هو الملك كما أن الاشارة الى مدينة (طيبة) ، أو اسمه (آمون) ، قد دخل ضمن

تكوين أسماء بعض ملوك « تانيس » ، بداية من اسم ابن سمندس يدعى بسوسنس Psousennès (ويعنى باللغة المصريـــة القديمة : « با سبا خع ان نيوت » أى : « النجم الذى سطع فى المدينة » ، أى طيبة ، وكذلك امنمؤبى Amènèmopé ويعنى : « آمون فى الأقصر » ، وكذلك سيامون Siamon : ويعنى : « ابن آمون ... » ، خالق كل شىء ، القمــر ، والشمس ، (وفحــواها : « الأبدية انه الخـــالق الأول ، ذو الطبيعة التى لا يسبر لها غــور ») ، ان « آمون » ، كما يدل عليه اسمه ، هو « المستتر » . وقد توصل علم اللاهوت بطيبة ، الى مفهوم وحدوى يعمل على محاباة رجال الدين والقصر على حد سواء : كما ساعدت مكانة الاله السامية الرفيعة على خدمة ومساعدة الملكية فى تلك الحقبة التى سادتها القلاقل السياسية . وفى تانيس كان الملوك الفراعنة يديرون شئون الدولة بقدر ما تسمح به امكاناتهم المتواضعة خلال تلك الحقبة غير المستقرة . أما فى طيبة ، فقد كان كبـار الكهنـة ، الذين يطالبون بحقهم فى العرش ، يحـكمون بواسـطة وحى « آمون » الذى كانت تعرض عليه كافة النزاعـات والخصـــومات ... حتى العائلية منها .

نحســـــى خونســـو

تكشف لنا احدى البرديات التى وجدت مع مومياء سيدة من طبقة النبلاء تدعى « نحسى خونسو » لمحة مفاجئة عن العالم الخاص لكبار الكهنـة وزوجاتهم فى عصر كانت شمس حضـــارة مصر توشـك على الأفـــول .

ونقرأ بين السطور وقائع قصة غامضة توحى بمؤامـــرة كانت تديرها « نحسى خونســو » للخلاص من زوجها الذى لم يكن الا كبيـــر كهنة آمون « باى نجم الثانى » . لكن الدافع مجهول ، هل هو انحراف من الزوجة أم غيرة قاتلة أم مؤامرة سياسية من قبل الفرعون ؟ اذ كانت الزوجة ابنة للفرعون سمندس من زوجته الثانية « تاحنجيحوتى » وكان عليها بالتالى أن ترعى مصالح أبيها فى طيبة . أيا كان الأمر ، كان كبير الكهنـــة يخشى شيئا من زوجته ، وعند وفاة زوجتـــه لجأ الى أحد كهنة آمون ليوفر له برقية وتعاويذ الحماية من شبح زوجته الرهيب .

وها هو ملخص لهـذا القرار : « هكذا تكلم آمون رع ، ملك الآلهة جميعا ، الاله الأعظم القوى القدير ، الذى كان أول من ظهر فى الوجود» . وتتتابع بعد ذلك العبارات ، دبلوماسية مهذبة ، تشوبها الرقة والثناء على السيدة المذكورة . ثم تتبعها عبارات التحذير والتنبيه : « سوف

ارشد واقود قلب نحسى خونســو ، ابنه تاحنجيحـوتى ، بحيث لا تلحق اى اذى بـ يا نجم ابن اس ام خب .

سوف أرشد قلبها ،

ولن أسمح لها بأن تنهى حياته (بانجم) .

سوف ارشد واقود قلبها ،

ولن أسمح لها بأن تسبب أى شىء ، يمكن أن يؤذى قلب رجل حى (.......) .

سوف ارشد قلبها ،

حتى تتمنى له الخير ، طوال حياته (.....) » .

هناك اذن همزة وصل ، (قد تكون على درجة كبيرة من الخطورة ، كما شاهدنا هنـا) ، تجمع جمعـا وثيقـا ما بين القــوتين ، الملكيـة والكهنوتية ، فى اطار السلطة : لقد ازداد نفوذ نساء الأسرة المالكـة السياسى ، بفضل زوجة كبير كهنة آمون ، « وزوجة الاله المقدس » . وبالاضافة لذلك ، يلاحظ أن جميع كبار كهنة طيبة ، الذين جاءوا بعد رائدهم « حريحور » ، انحدروا جميعا من صلب ملوك تانيس عن طريق الأم . فمثلا ، فى أوائل الأسرة الواحدة والعشرين ، نجد أن الكاهن الأكبر « بيعنخى » ، هو ابن اميرة « تنات آمون » والملك « سمندس » . وقد تزوج هذا الكاهن من احدى بنات « سمندس » ، وتدعى « حنـوت تاوى » ، ثم تزوج ابنها « با نجم » الأول من « اس ام خب » ، ابنة « بسوسنس » الأول ، أحد ملوك تانيس والملكة « موت نجمت » .

وقد كلفت زوجاتهم بأداء مهام ووظائف كهنوتية متعددة . ولكن كلفن قبل كل شىء بالمهمة الأساسية الدائمة التى كانت قد خولت قبل ذلك للأميرة « موت نجمت » ، زوجة « حريحور » : « أن تكون كبرى رفيقات آمون رع » . ويتعلق الأمر هنـا بحريم « آمون رع » بمعبـد الكرنك . وقد قامت بهذا الدور قبل ذلك ، خلال الدولة الحديثة احدى الكاهنات التى كانت تقوم غالبا بدور البديلة « لزوجة الاله » ، وتقوم بمهامها ، عندما تكون الملكة غير مكلفة بذلك .

زوجـــات الالـــه الجديـدات

تمت عنـدئذ ، عملية نقـل كاملة لهـذه المؤسسة الخطيرة المهمـة ، الفائقة الغموض ، المكونة من « زوجات الاله » . ومنذ ذلك الحين ، لم

تعد وظيفة « زوجة الاله » تخلع الا على « ابنة الملك » فى مدينة طيبة ، حيث كانت تمنح ضيعة شاسعة ، وبلاطا خاصا وموظفين وعمالا . وكانت تنذر حياتها للذات الالهية . ومن ثم ، كان لزاما عليها أن تعمل دائما ابدا على تأجيج حيويته وقواه حتى يستكمل العالم مسيرته . وكانت تكرس وتوقف نفسها كلية من اجل ذلك وتبقى دائما عذراء ، لا تقرب الرجال ، حتى لا يدنس آدمى بذرة الاله .

لذلك لم يعد هذا الشرف العظيم يخلع على الملكة ، وكانت هذه المهمة ، ضمن الكثير غيرها ، قد اوكلت اليها فى بداية الأمر ، ولكنها خلعت بعد ذلك على ابنة الملك ، التى استطاعت فى الفترات السابقة وفقا للشعائر ان تكون « زوجة ملكية كبرى » ، وتكون ، بدون أى وسيط أو مبتهل ، على اتصال مباشر بالاله . وخلافا لذلك ، أضيف الى لقبها اسم الاله محددا وواضحا بدون أى غموض أو ابهام ، وأصبحت منذ ذلك الوقت : « زوجة آمون » استبعادا لأى اله آخر . وبهذا ، نجد هنا ، ثلاث سلطات (الفرعون ، وكبير الكهنة بطيبة ، وابنة الملك ـ « زوجة آمون ») . وكل واحدة من هذه السلطات تتمتع بنفوذها فى دائرة اختصاصاتها وامتيازاتها ، وتنازعت هذه السلطات بالاقليمين الكبيرين بالمملكة ، وهما : الشمال حيث العاصمة الجديدة تانيس ، والجنوب حيث مدينة آمون طيبة . وكانت هناك سلطة أخرى وسيطة ، تتمركز أيضا فى طيبة تعمل على كبح جماح « الكهنة والملوك » بالجنوب ازاء ملوك الشمال . وكانت ابنة الملك ، أى زوجة آمون وملهمته الشخصية هى الممثلة لهذه السلطة الوسيطة .

ويبدو أن أولى « زوجات الاله » الجديدات ، كانت الأميرة « ماعكارع » ابنة الملك « بسوسنس » الأول ، والملكة « حنوت تاوى » ، والتى عثر على جثمانها بداخل الخبيئة الملكية بالدير البحرى ، وبجوارها مومياء صغيرة ، واعتقد البعض عند اكتشافها أنها تخص طفلا رضيعا ، وكان ذلك مثارا لأقوال خبيثة عن الأميرة . وقال البعض عنها ، انها أخلت بعهد الطهارة والنقاء ، الذى أخذته على نفسها . بل تمادت هذه الأقاويل لدرجة ذكر ان الغضب الالهى قد حق عليها عند الولادة ، وأن « طفل الخطيئة » قد لقى حتفه ، وكان من الممكن أن ينمحى تماما من الوجود .... ولكن ، منذ حوالى عشر سنوات ، أبطلت تماما كل هذه النظريات السيئة الظن ، فقد تم تصوير المومياء الصغيرة ، موضع الخلاف بالأشعة ، وتبين أنها مومياء قرد الأميرة المدلل . وبذا ، انقذت سمعة العذارى المقدسات من وصمة عار خطيرة ، كادت أن تلحق بهن .

وهناك أيضا الأميرة « كاروماما » ، وهى احدى الزوجات الخمس الأخريات المعروفات ، لآمون ، قبل الأسرة الخامسة والعشرين ، وهما

لا ريب فيه أنها احدى حفيدات « أوسركون » الأول ، أحد ملوك الأسرة الثانية والعشرين . وتمثالها القيم الثمين ، المصنوع من البرونز والمغطى بطبقة من الذهب ومادة الالكتروم (مزيج من الذهب والفضة) ، المعروض فى متحف « اللوفر » باريس والذى يمثلها وهى تهز صلاصلها ، يعد من أروع التحف التى جلبها شامبليون من طيبة . وهو يستحق عن جدارة ذاك النعت الذى وصفت به هذه السيدة : « ذات المشية الرشيقة الساحرة ، فى بيت آمون » .

الأسرة الكوشية

فى أواخر حكم أوسركون الثالث ، ازدادت سلطة زوجات آمون ، أكثر من ذى قبل ، وذلك مع تدخل الملوك « الاثيوبيين » الطامعين فى العرش ، الذى الحق ضررا بكبار كهنة آمون . وتسبب فى ضياع ثرواتهم الهائلة وبالفعل ، عندما قام حاكم اقليم « نباتا » بالسودان ويدعى « كاشتا » بفرض سلطته وحكمه على طيبة ، قدم فورا ابنته « آمون اردیس » الأولى ، الى « زوجة الاله » المدعوة « شابنبيت » الأولى ، ابنة الملك المتوفى أوسركون ، لكى تتبناها ، وفرضت سلطتها خلال حكم كل من الملكين « شاباكا » ، وشاباتاكا » بصفتها وريثة لا ينازعها أحد فى سلطتها . ومنذ ذاك الحين تتابعت « زوجات آمون المقدسات » عن طريق التبنى ، وكون بذلك أسرة خاصة بهن . وقامت آمون اردیس الأولى ثم شابنبيت الثانية ابنة « باعنخى » (٤) ، التى فرضت سلطتها على طيبة ، خلال حكم الملوك شباكا ، وطهارقا ، وتانوت آمون .

وتتضمن المجموعات المصرية باللوفر وعاء ثمينا من البرونز الكفت بالذهب والفضة ، نقشت عليه صورة وألقاب شابنبيت الثانية وهى تتعبد أمام ثالوث طيبة المقدس . وتحتوى هذه التحفة المعدنية على لوحة صغيرة من العاج ، الذى التصق بالمعدن بسبب الرطوبة . ومن المرجح أن المتخصصين اذا نجحوا باستخدام التصوير الطبقى (Tomographie) فى قراءة النص المحفور على اللوح العاجى ، فلا شك اننا سنطلع على معلومات قيمة نادرة ، لا سيما ميثاق تنصيب هذه الملكة الشعائرية .

العصر الصاوى

كانت « آمون اردیس » ابنة طهارقا ، آخر الأميرات الكوشيات اللاتى تقلدن منصب « زوجة الاله » . ولقد عمل الملك الصاوى

« بسماتيك الأول » آنذاك ، على ارغام هذه الأميرة هى والعـــابدة السابقة « شابن ابت » على تبنى ابنته « نيتوكريس » (أواسط القرن السابع قبل الميلاد) ، كما أن نص الاتفاق الذى تم (بعد سلسلة طويلة من المساومات) مع ابنة طهارقا ، وحاكم طيبة « منتومحات » قد روى خبر التبنى نفسه بالتفصيل على « لوحة التبنى » (٥) ومعها ، بطبيعة الحال ، اشارة بالقائمة النادرة ، الالزامية ، عن المخصصات التى تؤول اليها من العابدة « شابن ابت » ، وكذلك من عائلة منتومحات ، وكهنة آمون ، وعدد كبير من المعـابد المهمة ، والأراضى الواقعـــة فى احد عشر اقليما ـ أو مقاطعة ـ مصر العليا والدلتا .

ويمكننا ملاحظة مدى اتساع رقعة أملاك « زوجة الاله » ، حقيقة أنها لم تكن تعادل فى ثرائها ما كانت تتميز به أملاك المعابد الكبرى . فقد تلقت الأميرة « نيتوكـريس » من « شـــابن ابت » ما يوازى ٢٢٠٠ « ارورا » (أى ٩٠٠ هكتار) من الأراضى ، ولكن يلاحظ أن أراضى المناطق الزراعية فى مصر تعد أكثر انتاجا مما هى عليه فى اوربا . وخلاف ذلك ، كانت الأميرة تتلقى يوميا ، مخصصات عينية من أجل تموين « منزلها » : احد عشر مكيالا من النبيذ (خمسة لترات ونصف) ، كميات كبيرة من الفطائر والكعك ، ثلاث حزم من الخضروات ، ومائة وتسعين رغيفا من الخبز ، وكانت تتلقى كل شهر أيضا ثلاثة ثيران وخمس أوزات، وكميات من الفطائر والكعك ، والخضروات ، وعشرين جرة من الجعة .

وكانت تتلقى هذه الحصص العينية ، من كهان آمـــون (الأول والثالث والرابع) ، كذلك) ، وكذلك من زوجة كبير الكهنة الرابع ، والمشرف والمنظم لشئون كبار الكهنة .

وكانت عملية التبنى التى تتم حينئذ ، بداية من الخالة والعمـة ، الى ابنة الأخت أو ابنة الأخ ، تذكر دائما النسب المزدوج للأم الروحيـة (العابدة السابقة) ، والأم الدنيوية (الزوجة الملكية المعظمة) . وفى متحف « اللوفر » نستطيع أن نشاهد أحد النقوش التى تبين يوم تبنى آمون لنيتوكريس . ومنها يبدو آمون ، أثناء هذا الاحتفال ، وهو جالس على عرشه ، وكأنه يتوج ، وفقا للطقوس ، ملكا جديدا . ويبـــدو الملك راكعا على ركبتية أمام رب الأرباب ، مديرا له ظهره . ويتلقى من الاله عندئذ ، لباس الرأس والذى يسمى بالخبرش ، فى حين أن حاميه وراعيه الالهى ، يضع يديه على رأسه لمنحه البركة . اذن، فالمرشحة الجديدة للقيام بدور « زوجة الاله » ، قد صورت هنا ، تماما ، فى نفس وضع ولى العهد ، وبذلك أصبحت كملكة لحظة تتويجها : ويلاحظ أن الأم المتبنية والعابدة المتبناة تستطيعان فى بعض الأحوال أن تقوما بمهمتهما فى

صورة متشاركة مثل بعض الفراعنة الذين كانوا يشركون أبناءهم على العرش فى العصر المتأخر .

بعد نيتوكريس الصاوية ، جاءت الأميرة « عنخ ان اس نفر ايب رع » ابنة « بسماتيك الثانى » من الملكة « تاكلوت » ، وشغلت منصب الكاهنة الأولى التى يحتفظ المتحف البريطانى بتابوتها الرائع ، وقامت هذه الأميرة بدورها بتبنى « نيتوكريس الثانية » ابنة « أمازيس » ، وحكمت هاتان الأميرتان على التوالى طيبة حتى مجىء الفرس ، وفى هذا العصر حافظت كاهنات آمون على تقليد الزوجة الالهية . ومن ثم بمتابعة ما سمعه هيرودوت ، عندما قدم الى طيبة عن المرأة التى تبيت فى معبد زيوس ، ولا يجب أن تتصل مطلقا بأى رجل من الرجال (الفصل الأول ـ ١٨٢) . وهو ما يرتبط بالأميرة التى ارتضت الاقتران بآمون ، وتحيط بها مجموعة من الغذارى (المتبتلات) بالمعبد . وكما نرى ، فالأمر لا يتشابه مطلقـا مع عذارى أثينـا Pallacides (نسبة الى « بالاس » الهة الحكمة عند الاغريق) أو جوارى المعبد ، اللاتى كن يتصفن بالتسيب الخلقى ، وربما كن يزاولن نوعا من البغاء داخل المعابد اليونانية ، واللاتى تحدث عنهن سترابو ، بل وديودور الصقلى أيضا .

وظيفة زوجـــات الالـــه

اننا نستمد أكثر معلوماتنا عن زوجات آمون من آثار الأميرات « الأثيوبيات » التى تكمل لحسن الحظ ، آثار الفترات السابقة . لقد كن بالفعل حاكمات لطيبة ، وبذا ، فقد كن يتمتعن بكافة الامتيازات والحقـوق الملكية . وكان لكل واحدة منهن اسمان يكتبان داخل خرطوش . وكان من حقهن تدشين المنشآت (وخاصة المقاصير) وممارسة الشـعائر الخاصة بتأسيس المنشآت . ومع ذلك لم يشاركن فى اقامة المنشـآت الخاصـة بملوك الأسرة الخامسة والعشرين . وكانت زوجات آمون مثل الملك يقمن بالشعائر الدينية والطقوس ، وتقديم القرابين ، وتأدية طقوس العبادة ، ويقمن كذلك بتقديم القربان الأعظم ـ لتمثال الالهة ماعت ، (التوازن الكونى) . وكن يتنقلن محمولات فوق محفات الاحتفـال اليـوبيلى (أعياد الحب سد) التى كانت تقام من أجلهن ، ومن أجل الفرعون ، على حـد سواء ، ويتمتعن بمعظم الامتيازات ، باستثناء ميزة واحدة وهى أن السنوات كانت تؤرخ بتتـابع سـنوات حكم الفرعون فقط . وهذا يبين الصلة الوطيدة ، الفريدة التى تربط بدن الملك ، وعودة العام الجديد ، وفيضان النيل الذى يحدد التجدد الجوهرى . ومع ذلك ، فان مقـاصير « العابدات » من الممكن أن تنقش على جدرانها المناظر الملكيـة التى تمثل

موكب آلهة الفيضان (٦) . وعلى بعض الآثار نرى اسم « زوجة الاله » يشارك اسم الملك فى اللقب ، بل احيانا كانت زوجة آمون فى العصر الأثيوبى تمثل وهى متوازية تماما مع الفرعون . وكانت تعامل مثله تماما، فنراها احيانا على شكل « أبى الهول » . وهذا ما لوحظ فعلا بالنسبة لبعض الأميرات منذ الدولة الوسطى . وكان من حقها مثل الفرعون ان تمارس « مراسيم السلطة » ، فتقذف بالكرات السحرية ، وتصوب سهامها على الأهداف فى الجهات الأربع الأصلية ، وتساهم أيضا فى تبجيل العقد المرتبطة بهذه الجهات اصـــلية .

اذن ، ما هى الوظيفة الأساسية لهذه الملكة الاقليمية ؟ لا ريب أن دورها قريب مما كانت تقوم به فى الماضى ملكـات الدولة الحديثة ، وكان عليها باعتبارها زوجة لرب الأرباب أن تعمل على الابقاء على طاقته العظمى وتأجيج نشاطه الخلاق ،وبذا يشعر « الاله » دائما بالرضـا و « الاكتفــاء » . ويتجلى فى صــورها المنقوشــة أو المنحوتة على هيئة تماثيل كبيرة أو صغيرة الجمال الأنثوى صريحا دفاقا . فلا تباريها امرأة أخرى فى جمالها وحيويتها وجاذبيتها . وقد صورت الزوجات الالهيات خلال الحكم الأثيوبى ، وهن برفقة آمون الذى يظهر غالبا وهو واقف أمام « زوجته » ، ويماثلها فى الحجم تماما ، ويقدم علامة العنخ رمز الحياة لمن تملأ المعبد بعبقها ، وهو يعبر لها عن رضائه وارتياحه « ان قلبى لراض كل الرضا » . كما تذكر العبارة التى يمكن قراءتها بجوار صورتهما . وفى شمال معبد الكرنك الكبير ، بالمنطقـــة التى خصصت لاقامة مقاصير صغيرة لآمون وهو غاف كاوزيريس ، نــرى مشهدا عامرا بالايحاءات : الزوجة الالهية تحتضن ربها الأعظم ، وقد التصقت به تماما ، وصدرها ملتصق بصدره وقد امسكت باحدى كتفيه . وفى منظر آخر ، نراها وقد احاطت عنق الاله بذراعيها ، ولامس فخذها فى جراة فخذ آمون . بل اننا نرى على بعض الآثار المحفوظة فى المتحف المصرى مناظر تجسد « اللقاء الشعائرى » بين هــذين الزوجين ، حيث تجلس الزوجة الالهيــة « آمون ارديس » على ركبتى « آمون » الذى يحيطها بذراعيه . وهو مشهد شديد الحرارة اذا قورن بغيره من النقوش المصرية ، التى تتميز بالعفاف وشفافية التعبير ، وهذا النموذج مستمد فى الأصل من فن العمارنة . وظلت النعوت الرقيقة التى أضفيت على زوجة الاله مستخدمة ، واضيف الى هذه المنــاظر الغزلية العاطفية ما يطابقها من الألقاب التى كانت تحملها الكاهنات المعروفات باسم « يد الاله » مثـل : « من تنعش وتثير شهوة الاله » . « من تلتحم وتلتصق بالاله » . و « من ترتوى برؤية آمون » . واحيانا كان يخلط بينها وبين ابنة آمون : « ابنة آمون ، من جسده هو ، الذى يحبها » .

وغالبا ، كانت « الزوجة » تمثـل وهى مرتدية ثوبا طـويلا ، مستقيم الخطوط ، على هيئة الجلباب الضيق . وأحيانا كانت ترتدى معطفا ينسدل على الظهر ، ويغطى احدى كتفيها . وتضع فـوق رأسها الشـعر المستعار القصير . ولكن فى أغلب الأحيان ، نراها بشـعرها الطـويل المسترسل ، الذى تعلوه ريشتان طويلتان ، وقرنا الالهـة « سوتيس » ، ايماء الى شـارات وعلامات بداية الوظيفـة . وكان يقف بجـوارها كبير خدمها ، وهو شخص قوى الشكيمة ويتبعها كظلها ، ويحل محل القرين (الكا) الملكية ، خلال المواكب والاحتفالات . وكان يحيط بهـا أيضـا مجموعة من الموظفين المرتبطين بالعمل فى بيتها ، مثل : الحاجب الأكبر وهيئة متدرجة كاملة من الكتبة ، والخدم ، ووصيفات الشرف من مراتب مختلفة .

ولا نستطيع فى يومنا هذا ، أن نحدد بدقة المكان الذى دفنت فيه جميع « زوجات آمون » . ولكن من المعتقد أن قبورهن ، خلال عصر الانتقال الثالث ، قد أعدت فى المعبد الجنائزى الخاص برمسيس الثانى ، فى الرمسيوم ، حيث أقيمت ــ على ما يبدو ــ مقصورات « للمتعبدات » . أما الزوجات الكوشيات فيمكن زيارة مقصوراتهن القائمة حتى الآن فى المنطقة الواقعة جنوب ــ شرق معبد « مدينة هابو العظيم » ، وان لم نعثر على مقابرهن حتى الآن .

ومن ثم فقد تأكد فى تلك الحقبة التى بدأ فيها أفـول نجم مصر ، الدور السياسى ، بل والملكى الذى تقوم به الأميرة ، والزوجة الدنيوية للاله . ومن ثم فقد كبير كهنة آمون بالكرنك منزلته .

- ٦ -

حتشبسوت

زوجة الملك المعظمة المتوجة والوصية على العرش

أسطورة الملكة

لو تطلعنا الى القائمة المجيدة ، التى ترجع الى آلاف السنين التى تضم أسماء الملوك الفراعنة ، نجـد منهـا شخصيتين ما زالتـا حتى الآن تثيران الاهتمام من أوجه شتى ، وتعتبران من أكثر شخصيات الأسرة الثامنة عشرة ، غرابة وفرادة وتميزا ٠ وبالرغم من ذلك ، فـان من تبوءوا من بعدهما ، « عرش حورس » ، قـد بذلوا كل ما فى وسعهم لكى يمحوا تماما كل علامات وآثار عهدهما وذكراهما فى أفئدة البشر ٠ ونعنى بهما ، الملكة حتشبسوت (١٤٨٣ ـ ١٥٠٤) ، والملك أمنحتب الرابع أو اخناتون ، انهما موضوعان مثاليان وخصبان يثيران مخيلة الكتاب فى عصرنا الحديث ويزخران برومانسيـة صارخـة فى بعض الأحيان ٠

ان الحكم الجماعى الذى أصدره القدماء ، ضد الملكة كان حكما جائرا ٠ وفى الواقع ان الفضل يرجع الى أبى علم المصريات الفذ ، شامبليون الذى اكتشف عند وصوله الى مصر أولى العلامات التى تشير الى وجود « ملك ـ ملكة » اذ كذب ، بعد أن زار فى عام ١٨٢٨ الأطلال القديمة فى الدير البحرى ـ معبدها اليوبيلى ـ الذى كان مطمورا تحت الركام ٠ وبالرغم مما أصاب الخراطيش الملكية من تدمير واتلاف ، فقد تبين لشامبليون علامة التأنيث للأسماء التى تتضمنها ٠ ومنذ ذلك الحين وعلماء الآثار يساهمون عبر الأجيال ـ بقصد وبغير قصد ـ فى اعادة ترتيب وتركيب الاكتشافات الضخمة المهمة ، أو حتى الضئيل منها ، ولكن الأساسية غالبا ٠ وبدا الأمر وكأنه « لعبة مكعبات » ضخمة ، ضخامة الآثار والبقايا الهائلة الخاصة بالملكة ، التى أراد البعض محوها تماما من الوجود ٠ وبدأت شخصية « الفرعون حتشبسوت » تتجسد وتتبلور فى صفحات التاريخ ، ففى عام ١٨٥٨ اكتشف « أوجست

ماريت » فى معبد « الدير البحرى » صف الأعمدة الجنوبى ، والذى ما زالت توجد حتى الآن فى نهايته اللوحات التى تبين رغم التهشم الذى لحق بها ، نقوش حملة بلاد بونت ٠

واذا كانت آثار هذه الفرعونة ، قد أصبحت شيئا محسوسـا وملموسا ، فاننا نجد مع ذلك أن معاصريها قد تجاهلوا ذكرها ، اذ حذفت جميع القوائم الملكية التى تركوها ، والتى عثر عليها خلال عمليات التنقيب، من أية اشارة الى الملكة ، بل وتبين لنا وجود أدلة عن تدمير منظم ، استهدف أيضا بعض الأفراد المحيطين بها ٠ ولـكن ، ومع ذلك ، فقد أدرج حكمها وسجل ضمن أسرار « بيت الحياة » بمعابد مصر ، حيث كان الكتبة يحتفظون بانتظام ودقة بأرشيف بالمحفوظات لكل أسرة من الأسر الحاكمة ، ولولا هذه المستندات التى استطاع مانيتون الاطلاع عليها ، مكلفا من قبل الملك « بطليموس الثانى ـ فيلادلفيوس » لاعادة تنظيم تسلسل الفراعنة ، لما استطاع هذا المؤرخ تحـديد وجود ملكـة فى الأسرة الثامنة عشرة ، التى قال : « انها حكمت مصر لمدة واحد وعشرين عاما ، وتسعة أشهر » ، ويبدو أن هذا هو الواقع فعلا ٠

ولقد اختلفت الآراء وتباينت بخصوص هذه المرأة التى تعد رغم كل شىء سيدة فذة وفريدة من نوعها ٠ ويبدو أن أغلب هذه الآراء التى قيلت عنها ، كانت لا تخلو من الافتراء ، اذ نجد بعض علماء المصريات ، ذوى الشهرة العالمية ، ينعتونها بصفات قاسية قد يكون أخفها ما يلى : « حتشبسوت الرهيبة » ، أو « أن مجـرد اعتلائها العـرش كان كبيرة الكبائر » أو « انها مغتصبة ، لأن أية امرأة لا يمكن أن تشـغل وظيفـة ملكة ، ولا أن تجابه متطلبات مصر » ٠ والبعض الآخـر قد بين : « انهـا كانت ستعجز عن تحقيق أى شىء كان ، لو لم يكن يرافقها ويقف بجوارها أحد الرجال » ٠ والرجل المعنى هنـا هو « سننموت » ، أقـرب معاونيها اليها : « ليس من المعقول ، أن تصل امرأة ، الى مثل هذه القمة ، حتى لو كانت تتصف بأخلاق الرجال ، دون أن يساعدها ، ويساندها رجل ما » ٠ بل أشير أيضا الى : « الحظى القوى ، الذى لا يعدم وجوده فى اطار مثل هذا الحكم الأنثوى » ٠ وعلى النقيض من هذا ، نجد أن نفس هؤلاء الكتاب رأوا أنه من الطبيعى ، بل من الضرورى وجود رجـل قوى يساندها مثل « ريشيليو » بجوار لويس الثالث عشر ، و « كولبرت» مع لويس الرابع عشر ، و « دزرائيلى » الذى استطاعت أن تلجأ اليه « جدة أوربا » (الملكة فيكتوريا) ٠

وهناك أيضا من يركزون على سطوة وسيطرة رجال الدين ٠ وهم يلمحون بأن الملكة كانت مجـرد لعبة يلهو بهـا الكاهن الأول لآمون ،

« حابو سنب » ، الذى كان يتمتع بالسلطة الفعلية ، ولا « سننموت » الكاهن الثانى لآمون ، وربما عشيقها ، بل انهم يرون أن صعود الملكة على العرش هو نتيجة للدور الحيوى ، شبه المطلق لسننموت . وجملة القول ، ان حتشبسوت تبدو فى نظرهم مغتصبة للحكم ، استولى على السلطة بدون وجه حق ، وكان شغلها الشاغل ، هو الخلافات التى أوجدتها هى نفسها ، بالخوض فى شئون آسيا . فهى بالتأكيد التى أعاقت تحتمس الثالث عن الظهور حتى اختفائها . ولكنها فى الواقع أمسكت بزمام الأمور فى البلاد ، فى الوقت الذى لم يكن تحتمس الثالث قد بلغ ، على أكثر تقدير ، الرابعة او الخامسة من عمره .

ولا شك أن لكل اتهام اجابة تدحضه من الوثائق ، ولكن علينا حتى لا يخرج القارىء بانطباع سيىء عن أسلوب تفكير بعض علماء المصريات أن نشير الى علماء الآثار ممن اتصفوا بالحصافة مثل : بدج ، نافيل ، لاكو ، جاردنر ، دوما . فقد أجمعوا جميعا على أن عصر هذه الملكة ، ذات الحزم والقوة ، قد عم فيه السلم والازدهار (......) فهى لم تخض حروبا فعلية خارج حدود بلادها . ولم تعمل على اثارة اى قلاقل داخلية كما خلفت العديد من المنشآت المهمـة فى نفس الوقت الذى أرسلت فيه العديد من البعثات الى المناجم . ويرى بعض المؤرخين الأكثر حرصا وحذرا ، أن استحواذ الملكة على السلطة كان مغامرة ، ويقرون بأن حكمها لم يكن تافها ، لأنها عرفت كيف تحيط نفسها بالمعاونين والمساعدين البارعين (كما قال فيركوتيـه) . أما البعض الآخر فلا يستطيعون ، فى نهاية الأمر ، اخفاء نبرة الاعجاب عند حديثهم عنها : « هذه المرأة الرائعة » ، ويقرون « بمواهبها السياسية والفنية ، وأعمالها ، ومشاريعها السلمية » ، ويضيفون قائلين : « هذه المرأة عرفت كيف تحقق عهدا يسوده السلام والازدهـار » . ويضيف أيضا « شتيندورف » انها بلا ريب كانت امرأة رائعة الجمال ، موهوبة حقا ، وهبت سحر الأنوثة كاملا . كما كانت تتمتع بذكاء فريد من نوعه ، وشخصية وارادة قوية . ومن حظها الحسن أيضا ، أنها وجدت فى سننموت مستشارا ووزيرا قادرا على ارواء ظمئها للسلطة وتحقيق مشاريعها . وبذا ، فان تاريخ هذه الملكة قد حظى باهتمام اى شاهد على العصور ، سواء القديمة منها او فى وقتنا الحالى .

ويرجع الفضل الى الدكتورة « سوزان راتييه » فى جمع معظم الوثائق الخاصة بتلك الملكة فى الآونة الأخيرة وان كان عملها قد تعرض للكثير من النقد ، وسوف أحاول سد بعض أوجه النقص ، وتقديم بعض الاضافات ، ولكن لا شك أن عملها يعد بمثابة قاعدة جادة للبحث ،

لا يستهان بها ابدا ، الا عند المغرضين ، الذين ربما استثارتهم نبرة التعاطف الواضح مع الملكة التى لم ينصفها التاريخ .

والآن ، وقد مهدنا الأرض للدراسة ، علينا أن نحكم على موضوعية المصادر التى فى حوزتنا ، حتى نرجع بعقولنا الى عصر هذه الملكة العظيمة ، ان معظمها مستمد من نصوص وروايات تركتها الملكة نفسها، او أوحت بكتابتها : وسوف يرى المتحاملون عليها أن هذه النصوص مبتورة ناقصة . واذا كان هذا كذلك ، فلنا أن ننظر بنفس التشكك والريبة للوثائق التى تركها تحتمس الثالث ، وأمنحتب الثالث ، وحور محب ، وسيتى الأول ، ورمسيس الثانى ..... ، وهلم جرا ، أى أن نبتر الكثير من مصادرنا التاريخية . ولكن علينا أن ننتبه الى الطنطنة التى تحفل بها لغة التعبير فى الشرق .

أولى سنوات الأميـــرة

يبدو أن الفرعون أمنحتب الأول ابن الملكة أحمس نفرتارى ، قد توفى دون أن يترك وريثا للعرش . ولكى يعاد تنظيم الوراثة ، تم تنصيب تحتمس والذى كانت أمه تنتسب للعائلة المالكة بشكـل غير مباشر . وتدعى « سنيسنب » وكان متزوجا حينـذاك من الأمير « أحمـوسى » التى كانت ربما شقيقة الملك المتوفى . ويبدو انه لم يستمر فى الحـكم أكثر من عشر سنوات . وقد أنجب هذا الفـرعون تحتمس الأول ، أربعة أبناء ، من زوجته المعظمة « أحمس نبت تا » ، منهم ثلاثة على الأقـل جاءوا الى العالم قبل أن يعتلى أبوهم العرش . وهؤلاء الأبناء هم : آمون مس Aménmès وأحمس ، والأميرة نفـروبيتى أو أخبيت نفـرو ، اذن هل ولدت حتشبسوت أيضا ، قبل أن يعتلى والدها عـرش مصر ؟ على أية حال ، هذا لا يهم : فعلى الجدران بجانب صف الأعمدة الشمالية بالدور الثانى من معبدها بالدير البحرى تركت حتشبسوت للأجيـال التى تليها ، السيرة الخاصة بمولدها ، فبينت بالتفصيل ، المراحـل الأساسية « للحمل الالهى » التى سنتناولها بعد ذلك ، بالنسبة لكل من أمنحتب الثالث ، ورمسيس الثانى . والتى لجأت اليها الأديان القديمة .

وتقول القصة ان آمون رغب فى أن يضع وريثا من صلبه على عرش مصر ، فتجسد فى هيئة الفرعون الآدمية ، وكان قد أرسل قبل ذلك رسوله الخاص تحوت ليستطلع الأمر ، وقال الاله : « هذه المرأة التى ذكرت أنها تتألق وتسطع بين النبيلات ، انها أحمس ـ نفرتارى ، أجمل جميلات البلاد قاطبة ، الزوجة المعظمة للملك عا خبو رع (تحتمس الأول) ، وجلالته ما زال شابا يافعا » .

« هنا تحول الاله الأعظم آمون ، رب عروش القطرين ، واتخذ هيئة جلالة الملك (٠٠٠٠٠٠) ، زوج الملكة ، ووجدها وهى نائمة ، فى روعة وجمال فى قصرها » ·



شكل (١٧)

خنوم يشكل جسد امنحتب الثالث وقرينته (كا) على عجلة الفخرانى

شكل (١٩)

مولد امنحتب الثالث

« وأيقظها عبق عطر الاله ، فتبسمت لجلالته · وعلى الفور اقترب منها ، مترعا بالشوق الذى أجج فؤاده · وعمد آمون الى التجلى فى صورته الالهية · ودنا منها فهزتها النشوة ، وتغلغل لب آمون فى جسدها فامتلأ القصر بالعبق الالهى ، كما لو كان قد تضمخ بجميع عطور بونت · وكان للاله ما شاء ، فامتلأت احمس نفرتارى بالنشوة والبهجة وقبلته ٠٠٠٠ » ·

بعد ذلك ، تحدثت « زوجة الملك » ، والملكة الأم « أحمس نفرتارى » ، وقالت للاله : « ما أعظم قوتك ، كم هى مبعث للبهجة والسرور ، هاك جسدك يحتوينى ، وعاودت الاله الرغبة من جديد ٠٠٠٠ » ·

بعد ذلك ، أعلن آمون ، بكل وضوح وجلاء : « ان خنمت آمن حتشبسوت سيكون اسم هذه الابنة التى وضعتها فى احشائك ، وفقا لتلك الكلمات التى خرجت من فاهك · وسوف تمارس المهام الملكية العظيمة النافعة فى البلاد قاطبة · وسوف تكون قواى وتاجى العظيم فى حوزتها ، وستحكم القطرين ، فوق عرش « حورس » للأحياء ٠٠ » ·

وبذا ، فان الاله قد قام باختيار اسم الملكة المقبلة ، مستوحيا اياه من العبارات التى قالتها أحمس فى لحظة نشوتها : خنمت أمن Khenemet Imen « من اجتمعت بآمون » ، وحتشبسوت « تلك التى على راس النبلاء » او « ذات الجذع الشامخ » ·

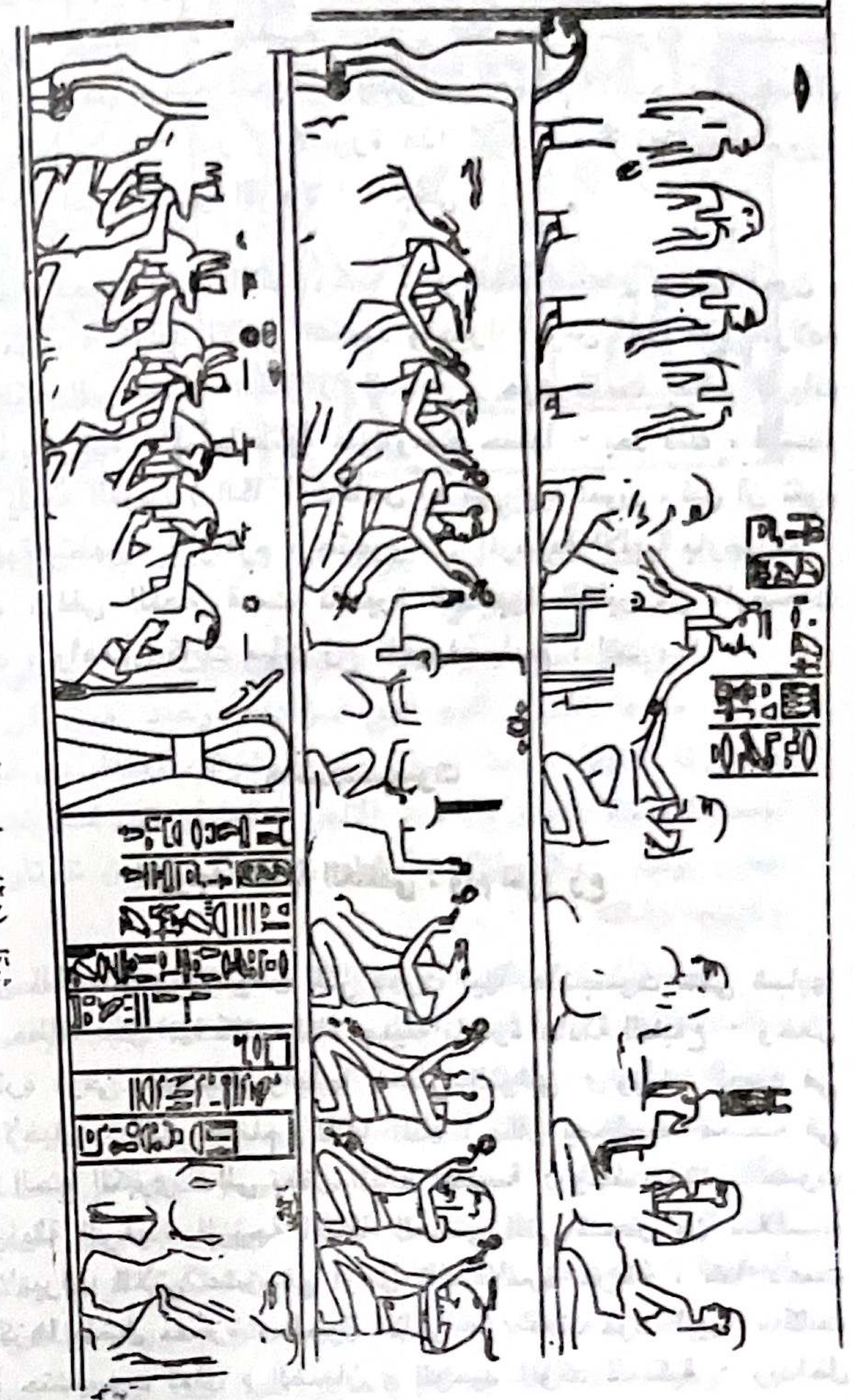
ويمكننا أن نرى على جدران معبدها رغم تهشمها ، سلسلة من المناظر التى تصور الاله خنوم الفخرانى ، (أو صانع الأشكال) ، بعد أن تلقى أوامر من آمون ، وبدأ يشكل بدوره من طينة النيل ، جسم المولود الجديد المقبل ، وكذلك الكا (القرين) الخاص به (أى القبس الالهى) ، والتى سوف تلازمه فوق الأرض ، منذ مولده ، والمولود فى هذه الصورة ، ولد صغير : وعلينا الا نخطىء الفهم : فكل من يموت ، يصبح « أوزيريس » · كل مرشح للعرش ، يبدو فى العالم الآخر ، فى شكل الصغير « حورس » · اذن ، فصورة هذا المولود ، لا تعنى بالضرورة ذكورته اذ أن آمون ينادى المولود : « ابنتى » ·

ثم جاء تحوت بشير الالهة وكأنه كبير الملائكة ليبشر برضاء آمون ، وبقرب « مولد » الوليد الالهى المجسد وأخيرا ، ومن أجل هذه الولادة ادخلت الملكة الى قاعدة الطقوس الدينية ، حيث قامت بعض الربات المختصات بالولادة ، بمساعدتها على وضع حملها · بعد ذلك ، قدم المولود ، يتبعه القرين (الكا) الخاص به الى أبيه آمون ، قبل أن تقوم بعض الآلهة بتطهيره ، ونقوم « حتحور » ، المرضعة الالهية بارضاعه · ومع ذلك ، ففى القصر قدمت للأميرة الصغيرة الكثير من المرضعات الدنيويات ، وأهمهن كانت سات رع المعروفة باسم « انت » ·

حتشبسوت

الزوجة الملكية العظمى ، وأم نفرو رع

فى الكتابات والنصوص التى ذكرت فيها حتشبسوت سنى شبابها لم تغفل مطلقا ذكر أنها كانت فتاة جميلة ناضرة هادئة الطباع · وخلال تلك الفترة توفى أخواها ، وأختها ، على التوالى · وبذا ، نعمت فى معظم الأحيان ، بجل اهتمام والدها الملك ، فكان يصطحبها معه فى رحلات الحج الكبرى ، الى بعض البلاد المقدسة · وكانت حتشبسوت هى الوريثة الوحيدة للزوجة الملكية العظمى التى تنحدر من سلالة أكثر الأميرات اللاتى عشن فى أوائل تلك الأسرة عراقة ، كما دعمت من مركزها بفضل معجزة « الحمل الالهى » · فعند موت أبيها ، كانت الأميرة حتشبسوت تمثل « الضمان » الوحيد المؤكد للملكية · وبداخل القصر ، كان يعيش أخوها غير الشقيق الذى انجبته زوجة ثانوية لتحتمس الأول ، وهى موت نفرت · ولكى يستطيع اعتلاء عرش الفرعون ، قامت بدورها بتنفيذ الأسلوب الذى استطاعت أمها بفضله



شكل (٢٠) مولد حتشبسوت

ان تجعل حكم زوجها أمرا مشروعا : فتـزوجت حتشبسوت من أخيهـا غير الشقيق ، والذى لقب عندئذ باسم تحتمس الثانى ، وأصبحت بذلك « الزوجة الملكية العظمى » فى الحكم الجديد فى اليوم الثامن من الشهر الثانى من موسم الآخت (بذر البذور) .

ولقد كلفت الملكة بكافة الأعباء ومنحت الشرف والاحترام الواجب « لسيدة الأرضين » ، كما حملت لقب « من رأت الالهين حورس وست » . الذى لم ينعم به مطلقا على أية زوجة كبرى ، منذ « أحمس نفرتارى » . والذى كررته اثنتى عشرة مرة فوق تابوتها الأول . كما تمتعت أيضا بلقب « يد الاله » : وهى أول الملكات اللاتى خلع عليهن هذا اللقب . وبعد فترة ، وضعت الملكة طفلة هى « نفرو رع » ، ووكلت أحد المحاربين القدماء ممن شاركوا فى حروب التحرير بتعليمها وتهذيبها ، وكان يدعى « أحمس بننخبت » . ثم أودعتها أمها بعد ذلك بين أيدى الأخوين « سنمن » ، وخاصة « سننموت » الذى بدأ حياته العملية فى الجيش ، والذى لفتت مزاياه وأوصافه الطيبة أنظار البلاط الملكى ، وخاصة الحكيم « اننى » الذى كان رفيقا مخلصا للملك الراحل تحتمس الأول .

ويبدو أن زوج حتشبسوت الشاب اليافع كان ذا طبيعة هادئة ولم يقم خلال فترة حكمه ، التى كانت بدون شك قصيرة الأجل ، الا بحملتين قمعيتين صغيرتين على بلاد النوبة ، وضد بدو آسيا . ولقـد دفعته الفرعونة لاقامة المقاصير والمعابد فى « قمة » ببلاد النوبة ، ثم فى مصر العليا « باسنا » ، ومدينة « هابو » ، والكرنك . وقام الملكان أيضا بالبدء فى اعداد مقبرتيهما . فالمقبرة الخاصة بتحتمس فى وادى الملوك ، لم تكن زخارفها قد اكتملت عند وفاته . أما الزوجة الملكية العظمى فقد حفرت مقبرتها بواد بعيد غرب طيبة ، هو « سكة طاقة زايد » . وهـو يقع على جانب بعض الصخور المرتفعة ، وعلى بعد حوالى ٤٠ مترا من قمتها ، و ٦٧ مترا من سطح الوادى . ومن الملاحظ أن مقبرتها قد اتخذت اتجاها خاصا ، يتيح لآخر شعاع من أشعة الشمس ، أن يتخللها مباشرة ، فى وقت الاعتدال الخريفى . ولم يضم هـذا القبر جثمـانها قط ، ولكن ، وجد بداخله التابوت الجنـائزى الفخم الرائع المصنوع من حجر الكوارتزيت الأصفر اللون ، الذى كان قد أعد لضم جثمان الزوجة الملكية العظمى ، والابنة الملكية ، والأخت الملكية ، « وزوجة الاله » ، و « سيدة القطرين » .

حتشبسـوت ، أرملـة ، ووصية على العرش

لم ينجب تحتمس الثانى من أخته غير الشقيقة طفلا آخر غير الأميرة « بفرو رع » (أما حتشبسوت مريت رع التى تزوجها تحتمس

الثالث بعد ذلك فى وقت متأخر ، فلم تنسب مطلقا كابنة لهذين الزوجين بالرغم من اعتقاد الكثيرين من علماء المصريات بذلك) . ومع ذلك ، فقد أنجب من زوجة ثانوية تدعى ايزيس ابنا سمى أيضا باسم تحتمس . وهو الثالث فى نطاق الدائرة العائلية . ولذا ، فعند موت تحتمس الثانى ـ الذى يبدو أنه لم يكن قد تعدى عامه الثلاثين ، ولم يستطع التغلب على الالتهاب الجلدى الحاد الذى يبدو أنه كان السبب فى القضاء عليه ـ تكرر نفس « السيناريو » الذى كان يشاهده رعايا الفرعون ، منذ وفاة أمنحتب الأول : فلم تجلس على العرش ابنة الزوجة الملكية العظمى ، بل اعتلاه الأمير الذى لا تجرى فى عروقه « دماء ملكية خالصة » ، ولا يزيد عمره عن أربع أو خمس سنوات . ولم يكن الأمر يستلزم أن تتزوج الملكة الشابة الأرملة مرة أخرى مرشحا للسلطة العليا ، لكى ترتقى العرش من الناحية الشرعية . وخلاف ذلك لا يوجد أى دليل ـ باستثناء بعض الاشارات ـ على وجود رابطة بين ذاك الابن غير الشرعى والأميرة « نفرو رع » الصغيرة .

ويتضح مما سبق ، أن حتشبسوت أصبحت وصية على العرش ، بسبب حداثة سن تحتمس الثالث : وكانت هذه هى الانطلاقة على طريق مغامرتها الكبرى . وبدأت الاحتفالات الخاصة باعتلاء العرش ، أى تنصيب الوريث الجديد ملكا بعد وفاة الفرعون مباشرة . ويقدم لنا « اننى » ، الرفيق الوفى لتحتمس الأول ، وصفا صادقا ، لما حدث قائلا : « مضى تحتمس (الثانى) الى السماء . واتحد مع الآلهة ، وارتقى ابنه (تحتمس الثالث) مكانه ، ملكا على القطرين ، وتبوأ عرش أبيه الذى أنجبه » .

« أما أخته (فى الواقع أخته غير الشقيقة) زوجة الاله حتشبسوت : فقد كانت تدير بنفسها شئون البلاد وكان القطران يخضعان لارادتها ويطيعانها ، وخضعت مصر لها (.....) فهى الحاكمة ذات الاستراتيجية التى تريح وترضى القطرين بآرائها » .

وقد نسب أيضا الى عمدة مدينة طيبة العجوز « اننى » هذا المديح :

« انها نطفة الاله المجيدة ، المنبثقة منه . انها المرسى الأمامى لأقاليم الجنوب ،، وهى العماد التى تثبت فيه سفن الجنوبيين . وهى أيضا الحبل القوى الخلفى لبلاد الشمال والجنوب . انها سيدة الأمر والنهى التى تضع الخطط الحكيمة . انها ترضى كلا القطرين عندما تتكلم » .

بدأت حتشبسوت منذ ذلك الحين فى الامساك بتقاليد الحكم . ويبدو أنها لم تعامل على الفور معاملة الفرعون ، اذ أن بعض النصوص تشير الى أنها أمرت باجراء مراسيم تتويجها فى السنة الثانية من الحكم ـ وأوضحت أنها قد اختيرت منذ وقت بعيد لكى تكون وريثة للعرش ـ أمام كافة أفراد البلاط بأمر أبيها . فقد أمرها أبوها بأن تثبت تتويجها خلال فترة « العام الجديد » : « كان أبى يعرف فضيلة التويج فى أول أيام العام الجديد » . فهذا ما كتب على لسانها فوق أحد جدران معبد « الدير البحرى » . وبالفعل فان هذه الطقوس كانت تعد دائما بمثابة عهد جديد ، وتشير الى خلق العالم . بفضل الاله « رع » . وربما تتطابق الاحتفالات الذى حددتها الملكة ، فى العالم الثانى مع رغبتها فى أن يحدد تاريخها ضمن التسلسل التاريخى للحكم المزعوم لتحتمس ، فى تلك الفترة ، بفرق عام فى التوقيت . ومهما كان الأمر ، وبكل تأكيد ، فقد تم التنصيب المقدس للطفل الملك فى العام الأول ، ولا شك أن حتشبسوت قد حضرته بصفتها الوصية على الملك .

وعملت السنوات التالية على تزايد سلطة حتشبسوت وسطوتها ، كما وصفها « اننى » ، وأقر بها عدد كبير من رجال البلاط ، والكثير من أفراد الشعب بسبب منبتها ، وبصفة خاصة ، لشخصيتها المقنعة ، وحديثها البليغ ومنذ العام السابع من حكم الطفل تحتمس ، بدأت حتشبسوت تثبت نفسها فى كل مكان بصفتها الملك الفعلى لمصر العليا والسفلى ، ورسمت لها الصور فى هيئة الفرعون وهى ترتدى النقبة الخاصة بالرجال ، وتاجى القطرين ، هنا أصبح من حقها ، أن تتحدث بكل حرية عن الاحتفالات التى كانت ستتوج خلالها ، بل وأن تجدد لصالحها الشخصى الاحتفالات التى تمت قبل ذلك من أجل الطفل الذى تقوم بالوصاية عليه . وتوجد كل هذه الاشارات الخاصة بهذا الحدث محفورة على بعض الآثار التى شيدتها الملكة فيما بعد فى معبدها بالدير البحرى (بداية من العام ٨ ـ ١١) ، ومسلاتها بالكرنك ، ومعبدها المحفور فى اسطبل عنتر (سبيوس ارتميس) بمصر الوسطى ، ومقصورة القارب المقدس التى ترجع اقامتها الى أواخر حكمها .

وتزودنا المناظر الخاصة بالتتويج فى « الدير البحرى » ، التى هشمت بالمطارق ، بكم واف من المعلومات المفصلة عن فترة الفيضان ، وتوحى بعض الدلائل بأن الملكة قد استغلت فرصة عيد « الأوبت » العظيم لاقامة ذلك الاحتفال الذى أسهبت فى وصف شعائره . وكان أرباب الثالوث بطيبة يغادرون الكرنك خلاله ، بصحبة الملك بصفته الرسمية ،

كل على مركبه الخاصة ، فى احتفال مهيب – ووسط أعداد غفيرة من افراد الشعب ، ويتوجهون الى معبد الأقصر ، بغية تجديد الطاقة والقوة الالهية الكامنة فى الفرعون ، وتصور المناظر المتبقية على كتل حجارة الكوارتزيت فى مقصورة المركب التى كرستها حتشبسوت لآمون ، الملكة بصحبة الصغير تحتمس كعادتها فى الاحتفالات الرسمية . ولا شك ان موضع اقامة شعائر التكريس ، قد تحدد فى الأقصر ، ثم أرمنت ، الواقعة جنوب الأقصر ، والمعروفة باسم هيليوبوليس الجنوب . وقد اوضحت ذلك الكتابات الموجودة على قمة احدى مسلاتها .

وكان تحركها من اجل الاحتفال ، يبدأ من قصرها عند الضفة اليمنى للنيل ، هذا القصر الذى اقامه تحتمس الأول ، وكان يشعر نحوه بميل وحب شديد ، لدرجة انه قد أطلق عليه اسم « لن ابتعد عنه ابدا » . ويمكن تحديد مكان هذا القصر عند البوابة الرابعة الحالية بالكرنك ، على شمال المعبد ، حيث تؤدى احدى القنوات الممتدة من نهر النيل الى « البوابة المزدوجة الكبرى » للقصر الملكى . وبذلك كانت تتقدم الملكة لمقابلة وسيط آمون ، الذى كان قد ابلغها بالحدث . وهنا ، كانت تقام احتفالات دينية ضخمة فى معبد الكرنك ، وخاصة فى القاعة ذات الأعمدة الخاصة بتحتمس الأول ، حيث تقف الملكة وقد احاطت بها الأشكال الواقية المقدسة المصرية وهى تتلقى ، قبل كل شىء ، « حلى رع » ، اى تاجى مصر العليا والسفلى . وبعد ذلك ، يثبت آمون فوق رأسها تاج « الخبرش » ، والذى سمى بتسمية فى غير موضعها ، هى « خوذة الحرب » ، والذى كان يجب أن تظهر به ايضا فى اغلب المناسبات وهى برفقة الطفل تحتمس ، وبداخل حرم الكرنك تقوم الملكة بتمثيل دور الانطلاق نحو مركب آمون ، وهى فى هيئة ملك عارى الصدر ، وتمسك بالمجداف والدفة يصاحبها الثور الذى يعدو بصحبتها . أما المقصورة التى تحتوى على مركب الاله فقد اعيد بناؤها فى الساحة الشمالية قبالة المعبد الكبير ، وهو بناء من المرمر معروف باسم « آمون ذو النصب الباقية ابدا » ، وقد شاده أمنحتب الأول وتحتمس الأول .

وبعد ان تلقت حتشبسوت « حلى رع » ، تخلت دون شك عن زينة وحلى « زوجة الاله » ، ونقلت الوظيفة الى ابنتها نفرو رع . ويبدو ان ذلك قد حدث فى العام الثانى ، الشهر الثانى من موسم « برت » ، فى اليوم التاسع والعشرين . ولا شك ان حتشبسوت وقد باتت ملك مصر العليا والسفلى لم تكن لتستطيع ان تقوم بمهمة تؤجج وتوقظ حيوية الاله . وسواء بداية من هذه الفترة ، او بالأحرى فى السنة السابعة من الحكم ، اى التاريخ الذى لا يشوبه اى لبس او غموض لاستيلاء الملكة

على الحكم ، اضطرت حتشبسوت ان تغير تماما من مسلكها . وتخلت كلية ورسميا عن مظهرها الأصلى ، وتوقفت فى المجال العام عن التصرف كامرأة . واضطرت ان تتصرف فى كافة المناسبات كفرعون . ومع ذلك ففى المراسم الخاصة بالأسماء الخمسة الكبرى التى تخلع عليها وقت الاحتفالات الدينية ، والتى تسجلها سشات ، (المؤرخة الالهية للوقائع) لم يذكر ابدا لقب « الثور القوى » ، الذى كان يوصف به الملوك الرجال فى صيغة التانيث . كما ان آمون أقر بها دائما وعلنا « ابنة له » .

المسلتان الأوليان

فى بداية حكم حتشبسوت

بعد ذلك ، كان عليها أن تحكم مصر تحت اسم « ماعت كا رع » . ولكى يسجل هذا الحدث الاستثنائى أمرت حتشبسوت (الفرعونة) باقامة مسلتين ، فى اقصى شرق معبد الكرنك . وقد راعت أن تمثل عملية نقلهما باسفل بهو الأعمدة الأول « بالبر البحرى » ، وتشهد هاتان المسلتان على أولى سنوات حكم حتشبسوت ، التى لم تكن قد وطدت اركانه بعد ، ومع ذلك فهما تحملان اسماءها والقابها كفرعون . وبالرغم من ذلك ، فان بعض النصوص والكتابات التى عثر عليها باسوان ، على مقربة من محاجر الجرانيت الوردى ، حيث استخرجتا ، تبين أن مساعد الملكة المدعو سننموت ، هو الذى قام بتلك المبادرة : « أعطى لسيدته الالقاب « زوجة الاله » ، و « زوجة الملك العظمى » » ، وصورها وهى مرتدية رداء طويلا ، ووضعت على رأسها ريشتين عاليتين . وهو بذلك ، يقر بأن حتشبسوت لم تكن قد اعتلت العرش فى وقت اعداد هاتين المسلتين المصنوعتين من كتلتين من الحجر . وهناك بعض الدلائل الغامضة ايضا ، التى تجعلنا نعتقد بأن الملكة كانت تتصرف بالفعل كحاكمة فى البلاد ، منذ طفولة تحتمس الثالث . ولكن فى البداية ، وعلى المستوى الرسمى ، كان قد خلع عليها فقط وظائف الوصية على العرش . وبذا ، سوف نتبين بوضوح السبب فى أن الأوانى الرائعة ، المصنوعة من المرمر ، التى وجدت فى مقبرة الزوجات السوريات الثانويات الثلاث لتحتمس الثالث ، كانت تحمل اسم « الزوجة الملكية العظمى » ، و « زوجة الاله » حتشبسوت . (ويبدو أن الأميرات الثلاث قد توفين بسبب وباء ما ؟) ، قبل حلول العام السابع من حكم تحتمس الثالث ، اى الوقت الذى فرضت فيه حتشبسوت نهائيا كفرعون . ولا ريب أن

الملك الصغير كان قد بلغ الثانية عشرة من عمره (ولعلنا لا ننسى أن رمسيس الثانى ، كان له حريمه الخاص وهو فى الثامنة من عمره) .

وقد نقلت المسلتان من المحاجر ، على زلاقات ، ثم وضعتا بحيث تكون قاعدة كل منهما مواجهة للأخرى ، فوق سطح سفينة نقل ضخمة . ولقد بلغ طولهما معا ٥٤ مترا ، أما سفينة الشحن فقد صنعت من خشب الجمير ، ويبلغ طولها ٩٠ مترا . ولهـــا أربع آلات لتسييرها . وكـان يجر هذه السفينة العمـلاقة سبع وعشرون مركبا فى ثلاثة صـــفوف ، يدفعها حوالى ٨٦٤ مجدفا على ما يبدو ، وكان يصاحب هذا التشكيل ثلاث سفن أخرى للحراسة والمرافقة ، حتى طيبة ، وهناك قام البحارون والمجدفون الجدد ، بسحب المسلتين فوق زلاقتيهما ، نحو شرق المعبد ، فى حضور الكهنة ، وبصفة خاصة فى حضور حتشبسوت والصبى تحتمس الثـالث .

سننمــــوت

كما نلاحظ ، يبدو واضحا ، أن سننموت هـو الذى كان يدير أعمال الملكة وأوجه نشاطها . وكان قد استطاع أن يكسب ثقة البلاط منـذ عهد تحتمس الثانى . وسرعان ما وكلت اليه مهام على درجــة كبيرة من الأهمية ، ولكن قبل كل شىء أعلن نفسه مسئولا عن جميع المعابـد الخاصة بسيدته ، وكان ذلك يملـؤه زهــوا وفخـرا ، وكان يشغل منصب رئيس ومدير « بيت آمون » ، وحدائقه ، وضياعه ، وخدمه ، وقطعان المواشى . وأدار أيضا « مخازن الغلال المزدوجة » الخاصة باله وكاهن « المركب الالهى « أوسرحات » ، ويشغل منصب كاهن الالهة ماعت ، وكبير كهنة منتو ، ومنصب العليم بأسرار « منزل الصباح » ، ورئيس بيت الذهب والفضة المزدوج ، ومدير الاحتفالات . كان بالفعل ، يجمع ما بين حوالى عشرين وظيفة ادارية ودينية ، جملة القول ، فان هذا الموظف الكبير المرموق ، كان يعـد أكثر المقربين من الملكة . وكان بالاضـافة لذلك يشغل وظيفة رئيس قصر حتشبسوت منذ أن كانت زوجة لتحتمس الثانى . وقد يرجع أول تقديم له بالقصر الملكى الى امه حات نفـر ، التى كانت تعرف باسم « تياتيا » ، والتى كانت تعمل على ما يبدو ، فى خدمة الملكة اعحمس (أحمس) . وكان أبوه من طبقة متواضعة ، ويدعى رعموسى ، وقد تزوج « سننموت » ، على التوالى من امراتين ، لاولاهمـا كانت تدعى اعح حتب ، وكانت أخته (أو ابنة عمه ، على ما يعتقد) . ويبدو أنه لم ينجب منهـا أية أولاد . ولذا ، ففى المقبرة الأولى التى

شيدها لنفسه . قبل أن تتولى الملكة نهائيا كفرعونة ، يلاحظ أن المكان المخصص للابن وهو يقوم بالشعائر الجنائزية من أجل أبيه قد شغله أحد أشقائه ، ويدعى مين حتب . أما فى القبر الثانى ، الذى شيد بعد ذلك فنجد أن هذا المكان قد شغله أخ له ، يدعى « أمنمحات » .

ولكى يصبح رئيسا « لكل الأعمال الخاصة بالملك » ، بل ورئيسا لكل رؤساء الأعمال ، فلا شك أنه كان من أكثر المعماريين تمرسا وخبرة، وأوضح مثال على نبوغه الذى لا جدال فيه ، هو أعماله الضخمة بالدير البحرى . وكان سننموت يعد المربى للابنة الملكية ، ومديرا لبيتها طوال مايزيد عن الخمسة عشر عاما الأولى من حـكم حتشبسوت وكان يعـد بمثابة الرجل الثانى فى البلاد . أما عن ولائه واخلاصـه فيبـدو أنه كان كاملا اذ ارتبط بتنفيذ كل مشاريعها وكان من الواضح ، أنه يكن لها اجلالا واحتراما يكاد يصل الى درجة العبادة والتأليه . ولقد كرر مرارا فوق نصبه الخاصة ، أسماء مليكته . بل انه كان يدون بنوع من الكتابة الطلسمة أو الملغزة « Cryptographie » والغرض منها ، ليس فقط الحماية من الهجمات السحرية المحتملة ، بل وشد انتباه وفضول القراء . كما كان يتمتع بملكة ابداعية خلاقة ، تجلت فى كافة مظاهر الملك ، وارتبطت أوجه نشاطه خلال مرحلة ترقيه ارتباطا كامـلا بالأعمـــال والمشاريع الملكية . ومن ثم اعتقد الكثيرون أن بطلى المغامرة قد ارتبطا بصداقة حميمة بالغة وينسبون الى الملكة ـ التى لا يسمح لها واقعهـا كامرأة أن تختار لنفسها شأنها شأن أى فرعون ، زوجة ملكية عظمى ، أى أن تبقى دون زواج ـ ارتباطا عاطفيا نحـو أوفى أعوانها ، والنصير الموهوب المخلص فى العمل ، والمتنبه اليقظ ، والمدير الحاذق لكـافـة المشاريع .

كــبار موظـــفى المــلكة

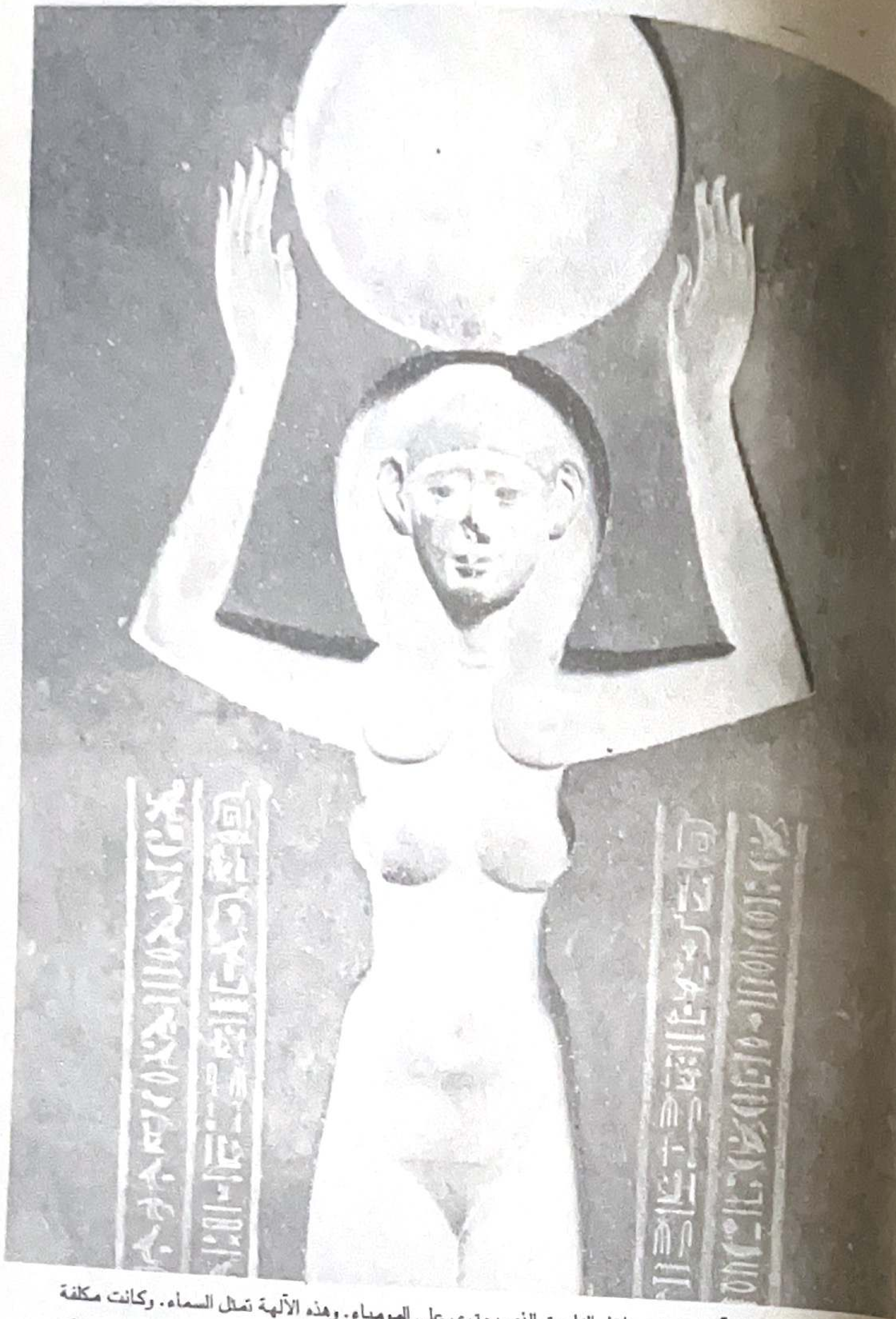
لقد عرفت الملكة أيضا كيف تحيط نفسها بكبار الموظفين المحنكين ، بداية من كبير كهنة آمون « حابو سنب » الذى كان يرأس ويقود مجموعة كاملة من كهنة آمون المنحدرين من أسر مشهود بولائها واخلاصها . فى بداية الأمر شغل حابو سنب منصب حاكم أقاليم الجنوب ، وربمـا أصبح فى أواخر أيامه حاكم الشمال . أما وزراؤها فهم أحمس وابنه أوسر وزير الجنوب ، وهـو شـخصية كبرى ، مولع بالأخـلاقيات والمثل، ويدين بأسمى وأجل الأفكار والآراء الدينية ، ولقد أصبح ابن أخيه « رخميرع » وزيرا لتحتمس الثالث ، وهناك أيضا « انتف » عالم الواحات، و « نبوناى » كبير كهنة أبيدوس ، وكذلك « سننفر » الذى كان يشغل

مع غيره منصب رئيس مناجم آمون للذهب ، و « نخت مين » المشرف على مخازن الغلال ، و « مين موسى » ، الذى ساهم فى نقل المسلات وكذلك الأمير « تورى » أحد مستشاريها وكاتم أسرارها . والقائد « نحسى » حاكم الشمال الذى قاد حملة بلاد بونت . ولنذكر أيضا كبير كهنة آمون الثانى المدعو « بوى ام رع » ، الذى كلفته حتشبسوت بمهام دقيقة بمعبد الكرنك ، وأيضا « ثوتى » وكان من كبار المتخصصين فى صناعة المصنوعات والمشغولات الذهبية للخزائن الملكية ، و « أمنحتب » الذى كلف بالمنشآت الخاصة بعيد « السد Sed » من أجل الملكة وكان أيضا أحد كاتمى أسرارها ، وعثر بداخل مقبرته على بعض نصوص التتويج فى بداية العام الجديد . ولقد صور كل من « واج رنبوت » و « جحوتى رنبوت » ، وغيرهم مثل « انب سنى » نائب الملك فى النوبة ، وأطباء الملكة الثلاثة فوق جدران مقصورة القرابين فى الدير البحرى . وبذا ، تبين وجود ما يزيد عن أربعين من كبار الموظفين الذين خدموها بكل ولاء واخلاص . وتابع العديد منهم مزاولة أعمالهم المعتادة تحت حكم الملك تحتمس الثالث ، بعد أن توارت الفرعونة . وكذلك يجب أن ننظر بكثير من الحرص والتحفظ ، للانتقام المزعوم الذى قيل ان تحتمس قد قام به ضد عمته وعصبتها المزعومة .

وبايعاز محتمل من سننموت فان بعض هؤلاء الأشخاص المرموقين البارزين ، الذين كان كل منهم يمتلك من قبل مقبرة رائعة ذات مقصورة مزخرفة بالضفة الغربية لطيبة ، قد حصلوا مثله على الحق فى حفر قبر تذكارى ، عند جرف جبل « السلسلة » حيث تضيق المسافة بين ضفتى النيل الصخريتين ، فى جنوب طيبة وادفو . وفى هذا المكان ، حيث تصطخب وتشتد الأمواج عند بداية العام الجديد ، وتندفع الى داخل مصر ، بمياهها الجياشة فيمكن الاستفادة من التبرك بالأرواح التى كانت توجد به فى هيئة « مجمع مقدس » عند عودة الفيضان ، بل والتطابق معها بعد الموت . ويلاحظ ، فوق الكثير من الآثار التى شيدت باسم سننموت ، اهتمامه بايجاد التقارب بين بعث الموتى الأوزيرى وبين عودة مصر الى الحياة والانتعاش يوم « العام الجديد » . وبذا ، فاننا نستطيع أن نقرأ النص التالى على التمثال النذرى الصغير ، الذى يمثله واقفا وقد حمل على ذراعيه الأميرة الصغيرة نفرو رع (١) .

« انه أنا الذى أخرج مع خضم الأمواج ، الذى منح فيضان النهر ، وذلك حتى أستطيع أن أتصرف فيه بصفتى (أوزير) الفيضان » .

وكانت المقاصير التى هشمت نقوشها بعد ذلك ، ممن أرادوا النيل من سيرة الملكة والاساءة اليها ، تحمل اسمى حتشبسوت وتحتمس مقترنين سويا .



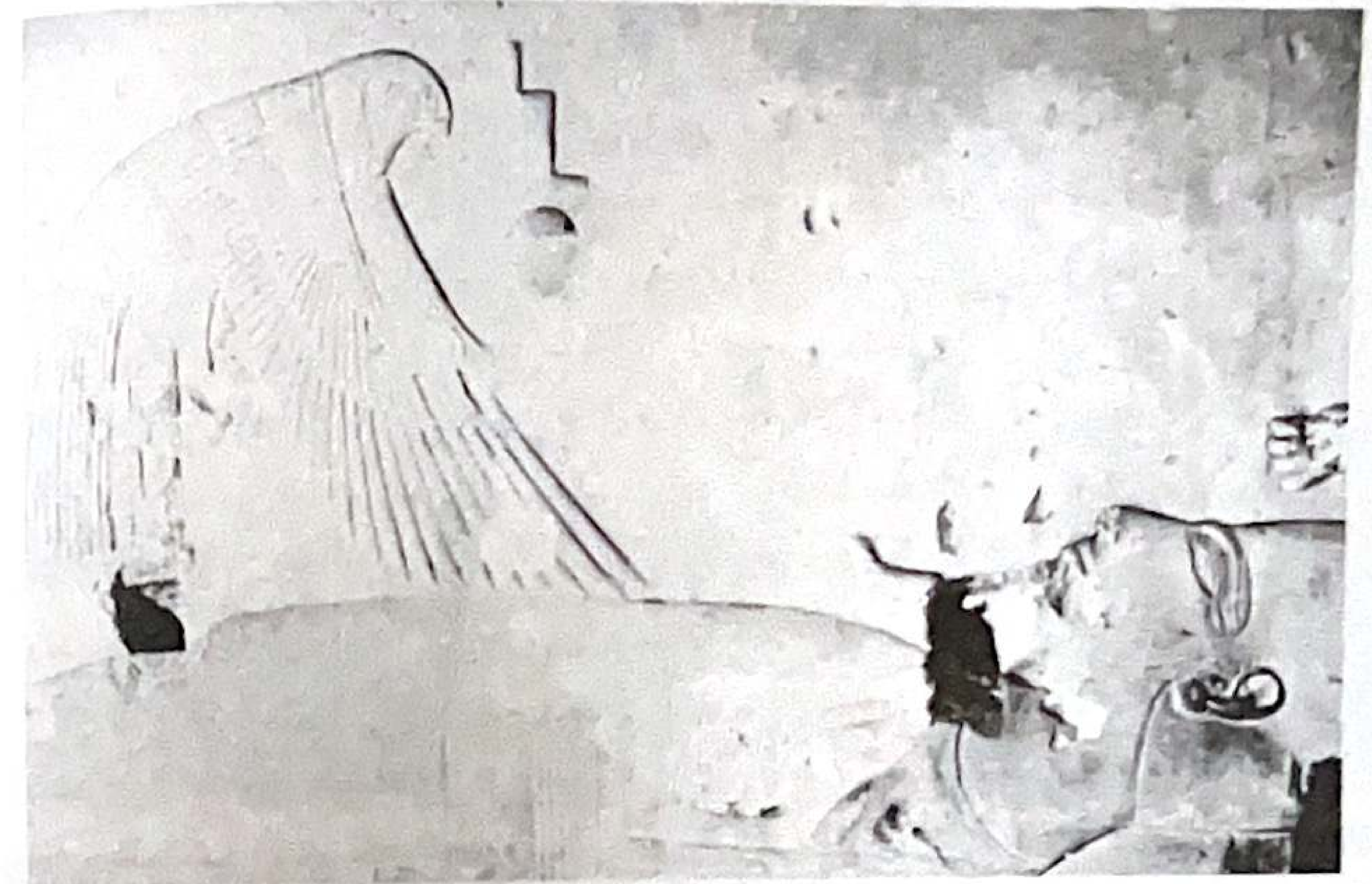
المنظر يمثل الآلهة «نوت». داخل التابوت الذى يحتوى على المومياء. وهذه الآلهة تمثل السماء. وكانت مكلفة ببعث المتوفى من جديد ليعيش فى عالم الآبدية. وهى تقوم أيضاً «بولادة» الشمس كل صباح. وتبدو هنا وهى ممسكه بقرص الشمس، رمز الحياة.



هذا التمثال ذو الرأس الأدمية عثر عليه ضمن «كنوز» معابد «دندرة» ومن المعروف أنه كان يتلقى فى بداية العام الجديد أول شعاع للشمس لتدب فيه روح الآلهه «حتحور».



بعد أن احتل الرومان مصر، أعتبرت إيزيس أيضا ربة البحارة، وهى تبدو فى هذا التمثال وهى ممسكة بهلب السفينة.



قامت ايزيس بجمع اجزاء جسد زوجها المتفرقة فى النهر وكونت منها أول مومياء فى التاريخ. ولكى تنجب منه وريثا، أرجعت إليه الحياة لتضمه لحظات. وأعادت إليه ذكورته المفقودة تدب فيه ثانياً. وتم بينهما جماع . وحملت منه ابنها «حورس»، وهى تبدو هنا فى [illegible] صغير يرفرف فوقه.



صورة لتمثالين يمثلان الملك خفرع وزوجته، وفيها تبدو قوة الرجولة الديناميكية للملك وقد تقدم بقدمه اليسرى. وبجواره تماما، وبنفس حجمه، وبنفس الوضع، وقفت مكملة الملكة معبرة عن الدور الجوهرى الأساسى الذى تقوم به بجوار الملك.



قد يبين هذا التمثال بوضوح تام مدى الرعاية والاهتمام التى توليها الملكة الأرملة والوهيه على العرش لإبنها «بيبى» الأول.



كانوا الملوك يشعرون بكل الفخر والإعتزاز لظهورهم، فى التماثيل والرسوم، بجوار آمهاتهم. فقد كانوا يولونهم عظيم احترامهم وتبجيلهم. وهاهو تحتمس الرابع جالسا، بكل فخر، بجوار والدته الملكة الأم.



ضمن آثار معبد «امنحتب» الثالث، وجد هذان التمثالان العملاقان، للفرعون وزوجته، وحولهما بناتهما. ويبدو واضحاً هنا، ما تتمتع به «الزوجة الملكية المعظمة» من مساواة كاملة مع زوجها الفرعون، وما ينطق به محياها من سمو ورفعة واعتزاز.



الملكة «تيبا» أم تحتمس الرابع وزوجة أمنحتب الثانى، وهى نموذج للجمال المصرى الكلاسيكى لنبيلات الأسرة المالكة.

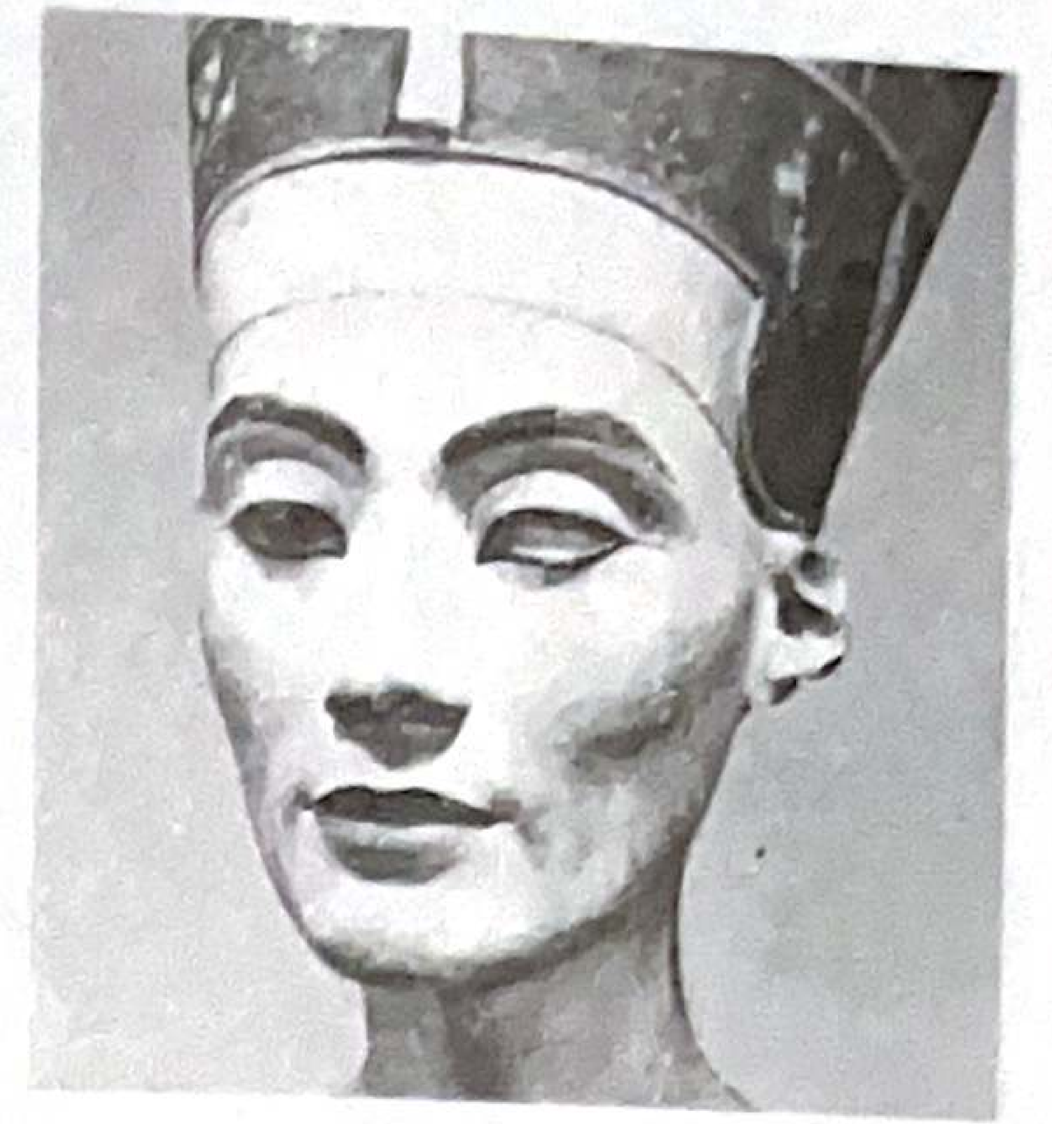


تمثال نصفى للملكة «تيتى - شيرى» ينم عن جمال أخاذ وملامح أنثوية رقيقة. وكان هذا هو النموذج الحى للجمال الأنثوى خلال الدولة الثامنة عشرة.





الصورة تبين الحلية التى على شكل رأس غزالة صغيرة، والتى تزين اكليلا مصنوعا من الذهب ومرصع بالأحجار الكريمة. وكانت محظيات الملك هن اللاتى يرتدين هذا الأكليل فوق شعورهن المستعارة. وكان هذا الأكليل يزين بعدة أفرع من زهور اللوتس.



كانت «نفرتيتى أو بمعنى آخر «الجميلة - القادمة» هى التى كان تحتمس يعتبرها أروع وأجمل مثال للجمال الأنثوى (وله الحق فى ذلك) . وخاصة انه كان يرأس كبرى مصانع إعداد التماثيل فى «تل العمارنة» .



خلال حكم الفرعون أمنحتب الثالث، كانت المـ «تيـيـا» تُشـجـع الفنانين على أن يُظهروها فى رسوماتهـ وتماثيلهم بصورة بها كثير من الواقعية، وتبدو هنا واضـ للغاية ملامح النوبة.



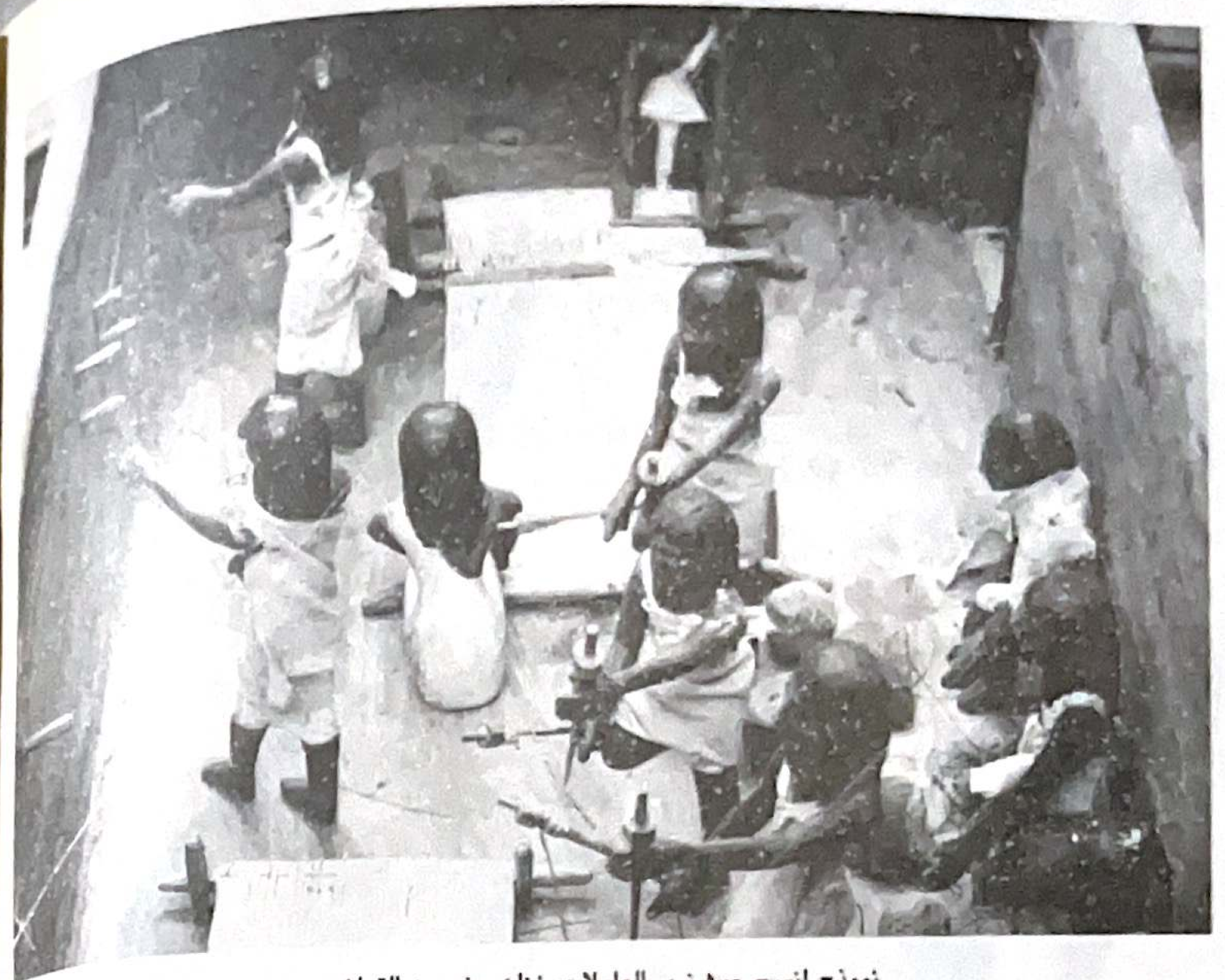


الصورتان تُمثلان الملكة حتشبسوت، وتعبران عن جمال وجهها، بعيونها الواسعة المسحوبة إلى أعلى، وحاجبيها الطويلين المقوّسين، وأنفها الرفيع الدقيق، وهذا الوجه بالذات تأثر به جميع رسامو ومثالو عصرها، بل ومن جاءوا بعد ذلك، أى فى عصر تحتمس الثالث.





مثال مبسط للشكل الأنثوى فى العصور المصرية القديمة، وهو النموذج المثال لشكل المرأة المصرية خلال الحضارة المصرية القديمة: خصر رفيع، صدر رقيق مرتفع خطوط إنسيابية.



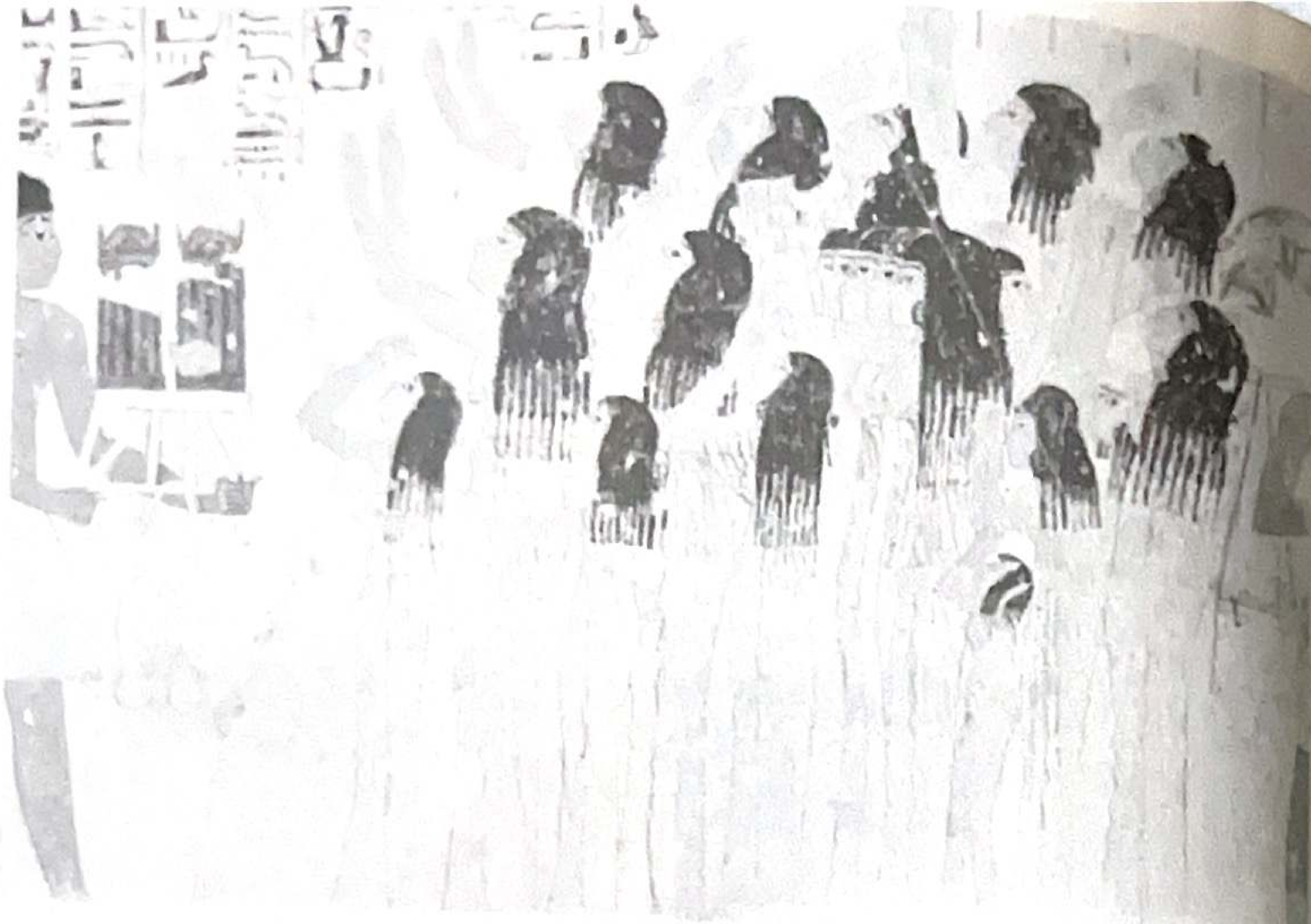
نموذج لمنسج حيث نري العاملات يغزلن وينسجن القماش.



بعض العـامـلات فى صنـاعـة العطور يقطعن الزهور لاستخلاص زيوتها.



مجموعة من الفلاحات الفقراء يذهبون إلى الحقول بعد الحصاد يجمعون الحبوب المتبقية.



المشهد يبين قريبات الشخص المتوفى وهن يُطلقن صرخات الحزن والأسى لحزنهم عليه. وعادة كانت تصاحبهم فى ذلك مجموعات من النائحات أو الندابات اللآتى كُنّ يتقاضين أجراً على هذا العمل.



التمثال يمثل إحدى النساء أثناء قيامها باعداد عجينة الخبز. أما الخبيز فى الأفران فكان يقوم به الرجال بصفة خاصة، وقلما تقوم النساء بذلك.



لم يكن من المعتاد مطلقا تصوير الأشخاص أثناء تناولهم الطعام (ولكن تناول الشراب كان مسموحا به). وانمحى هذا التقليد تماما فى عصر العمارنة وهذا ما يوضحه المثال هنا، وهو يصور إحدى الأميرات أثناء تناولها لبطة محمرة.



كانت هذه التعويذة تستعمل لاستمالة المحبوب والتخلص من أى غريمة أو منافسة. ويلاحظ «الدبابيس» السحرية التى تخترق بعض الأماكن المحدّدة من جسم التمثال الصغير الذى يبدو على شكل إمرأة عارية راكضة على ركبتيها.



هذه السيدة تدعى «ميريت - نبيبيس» وهى من أوائل المتعبدات. وواضح جدا أن هذه الكاهنة كانت على قدر كبير من الجمال والأنوثة الطاغية، فمن أهم وظائفها تأجيج طاقة وحيوية الرب. ويلاحظ أيضا ردائها الشفاف الذى يبين من خلاله جسداً متناهى الرشاقة والجمال.



١- الدولة القديمة. ٢



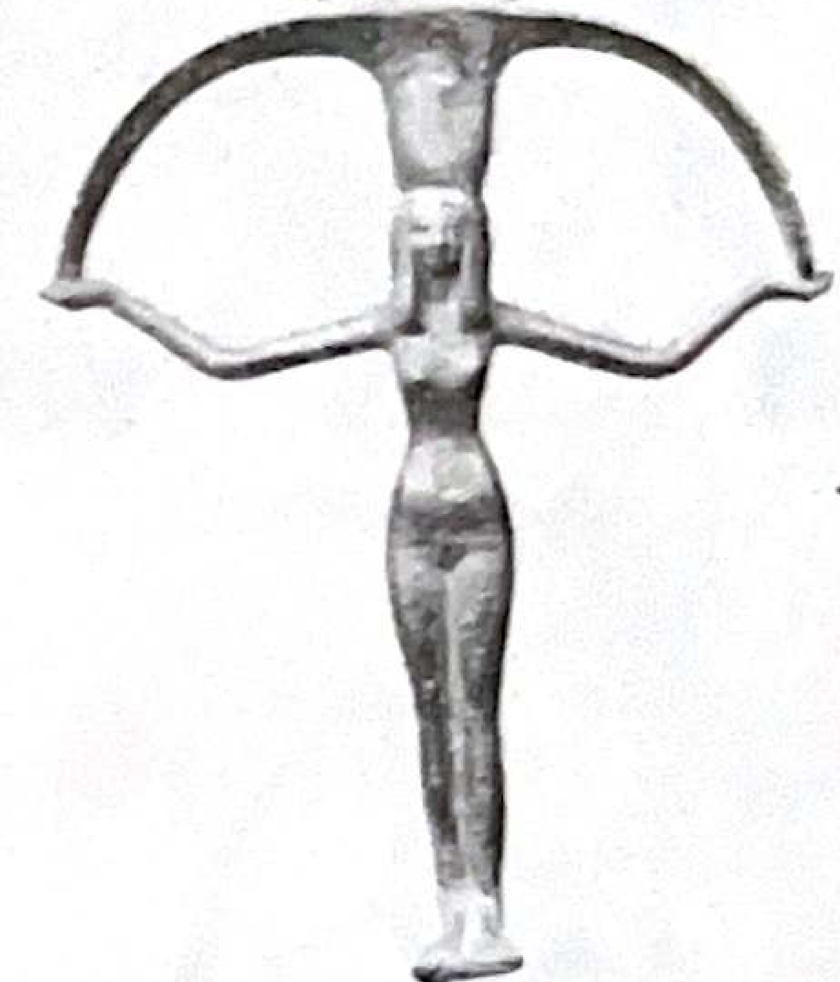
- الدولة الوسطى.





٣- الدولة الحديثه.



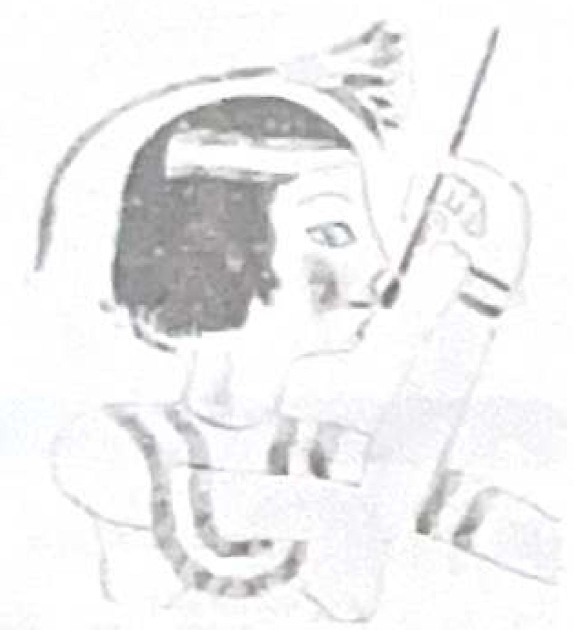






بعض أدوات الزينة التى كانت تتزين بها المصرية، ومنها: المرآة، وقوارير العطور، والامشاط، والأمواس، ودبابيس الشعر.

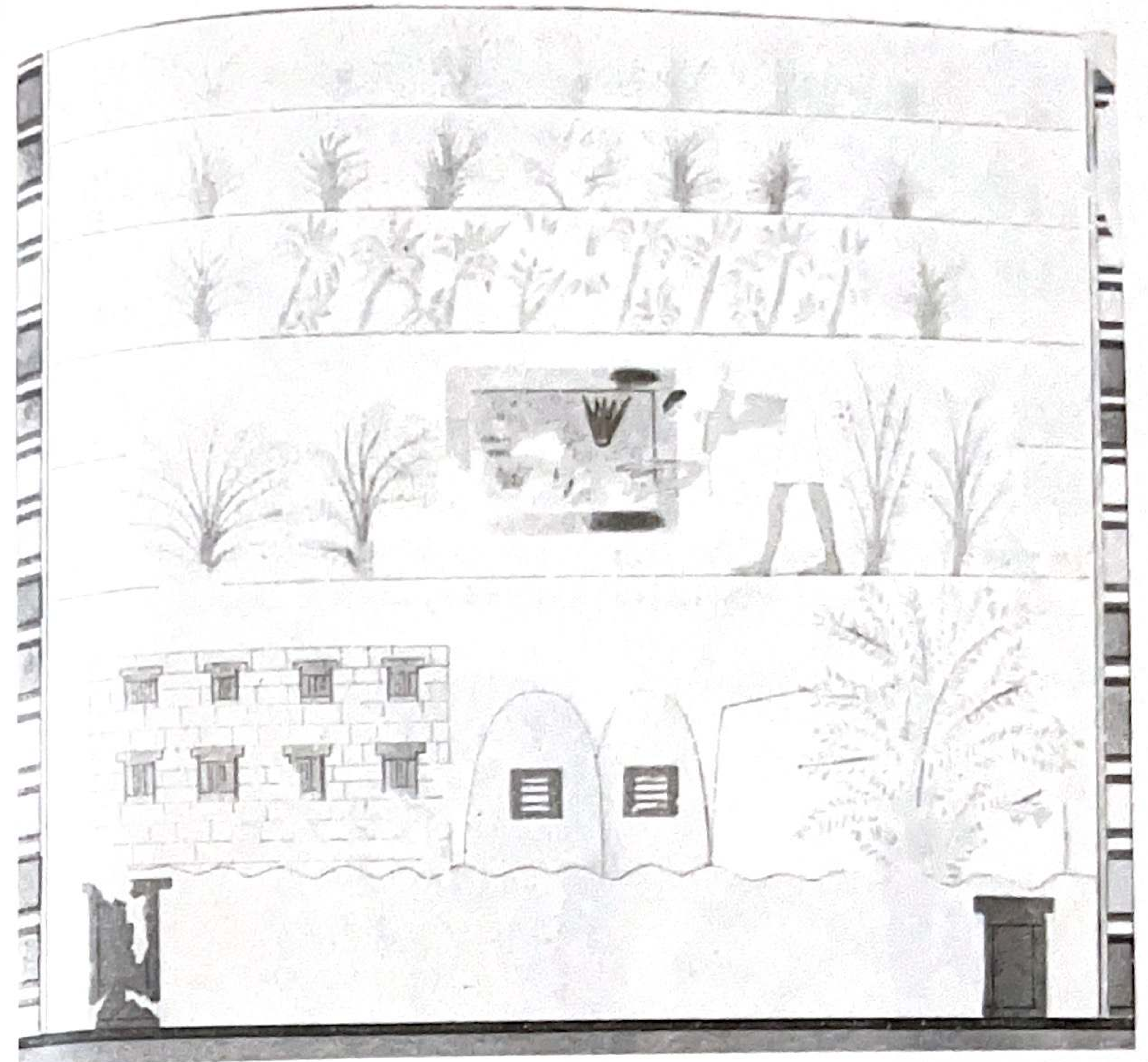


يرجع هذا المشهد إلى الدولة الحديثة، وفيه تبدو الأميرة كا ـ او رايت، . وقد إنهمكت وصيفتها فى تصفيف شعرها. بينما انهمكت هى فى احتساء بعض الشراب، وامسكت مرآتها الصغيرة باليد الأخرى.





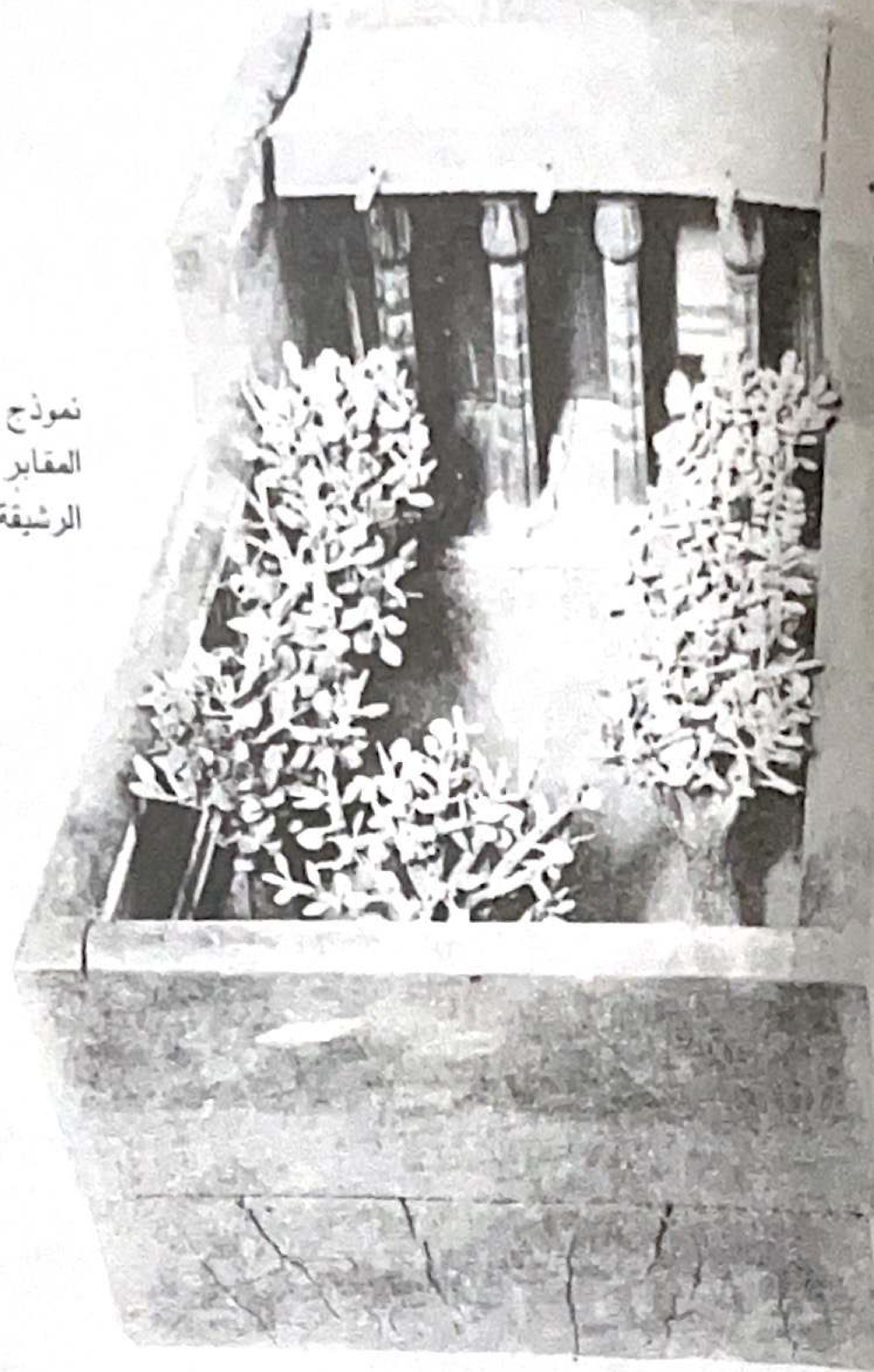

مجموعة نادرة من أدوات الزينة التى كانت تستعين بها المرأة فى تجملها. ومنها نجد المرآة المصنوعة من البرونز المطلى، وفى وعاء لوضع الدهانات المعطرة، وقادور للحلى كما ... النساء اثناء طلاء شفتيها باللون الأحمر.



شكل مبسط للمنزل الريفى الكبير. ويلاحظ الحديقة المترامية الأطراف، وحوض المياة والأشجار المتعددة الأنواع، وكذلك بعض الملحقات الخاصة بالخدم والعاملين بالضيعة. وبعض مخازن الغلال.



فى حوش حديقة المنزل المترامية وتحت ظلال الأشجار الوارفة، كانت ربة البيت وزوجها تجدان الكثير من الراحة والاسترخاء بالسباحة فى حوض المياه التى ترفرف فوق مياهه الطيور الجميلة، وتطفو فوقها زهور اللوتس، وتخرج فى جنباته الأسماك الصغيرة العاجية اللون.



نموذج لبيت مصرى قديم عثر عليه فى إحدى المقابر ويصور حديقة البيت وصفة من الأعمدة الرشيقة تتقدم الواجهة.



وعاء سحرى للاحتفاظ ببعض العقاقير وهو يمثل احدى السابحات وهى تدفع أمامها ببطة عائمة فى النهر. وكان من المعتقد أن العقار بداخل هذا الوعاء، يحفظ سحريا، من أى عطَبٍ أو أذىً. فالفتاة تمسكِ جيدا بجسم البطة التى لا تستطيع الهرب مطلقاً.









بعض الأوانى الخاصة بالتعاويذ السحرية والعقاقير، والتى كانت تحتوى أيضا على لبن الام، وعلى بعض المياه السحرية، أو السوائل الخاصة بعلاج بعض أمراض النساء. وبعضها يساعد المرأة على الانجاب.

لم تأنف هذه الأميرة الجميلة مطلقاً الزواج من هذا القزم المسمى «سنب»، وهو من عليه القوم. وقد أنجبا أطفالاً طبعيين.

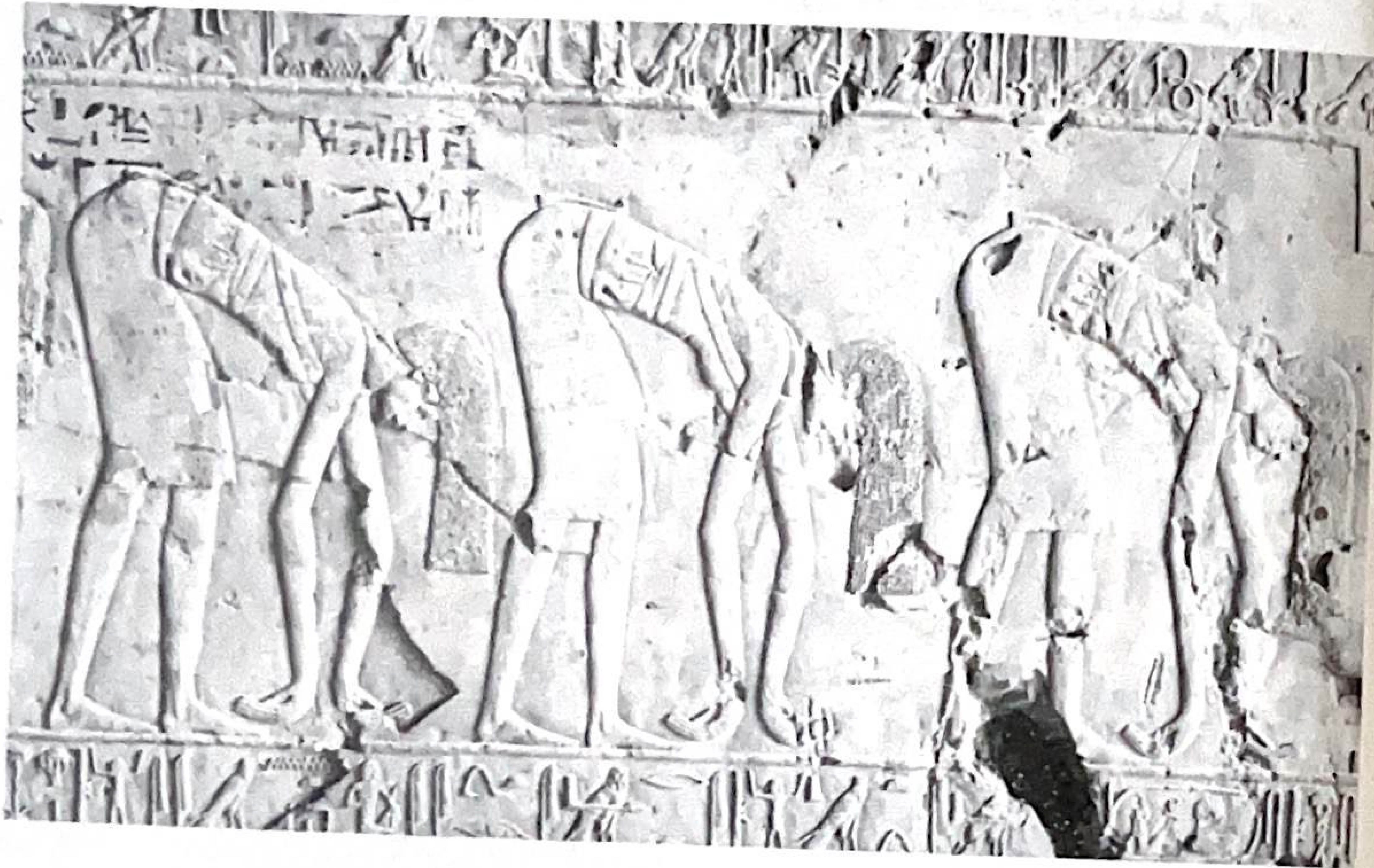


يُلاحظ أن كافة الأعياد سواء الدينية أو الجنائزية أو الشعبية، كانت تضم العديد من الرقصات والأغانى. يقوم بها مجموعات من الراقصات والمغنيات، اللاتى يستعين بمختلف الآلات الموسيقية. وكانت الراقصات والمغنيات يقمن بالتصفيق المنتظم أثناء غناءهن ورقصهن تماما، كما يحدث فى يومنا هذا.





بنات الملك رمسيس الثانى يؤدين طقسه معينة فى العيد اليوبيلى - لاحظ خصلة الشعر المميزة التى تميز الأطفال الملكية والتى تتدل على الجبين.



رقصة طقسية تؤديها مجموعة من الراقصات ويعبرن بحركاتن الرشيقة عن بعض الأحداث الأسطورية ويبدو من ردائهن الغريب أنهن من بنات الواحات.

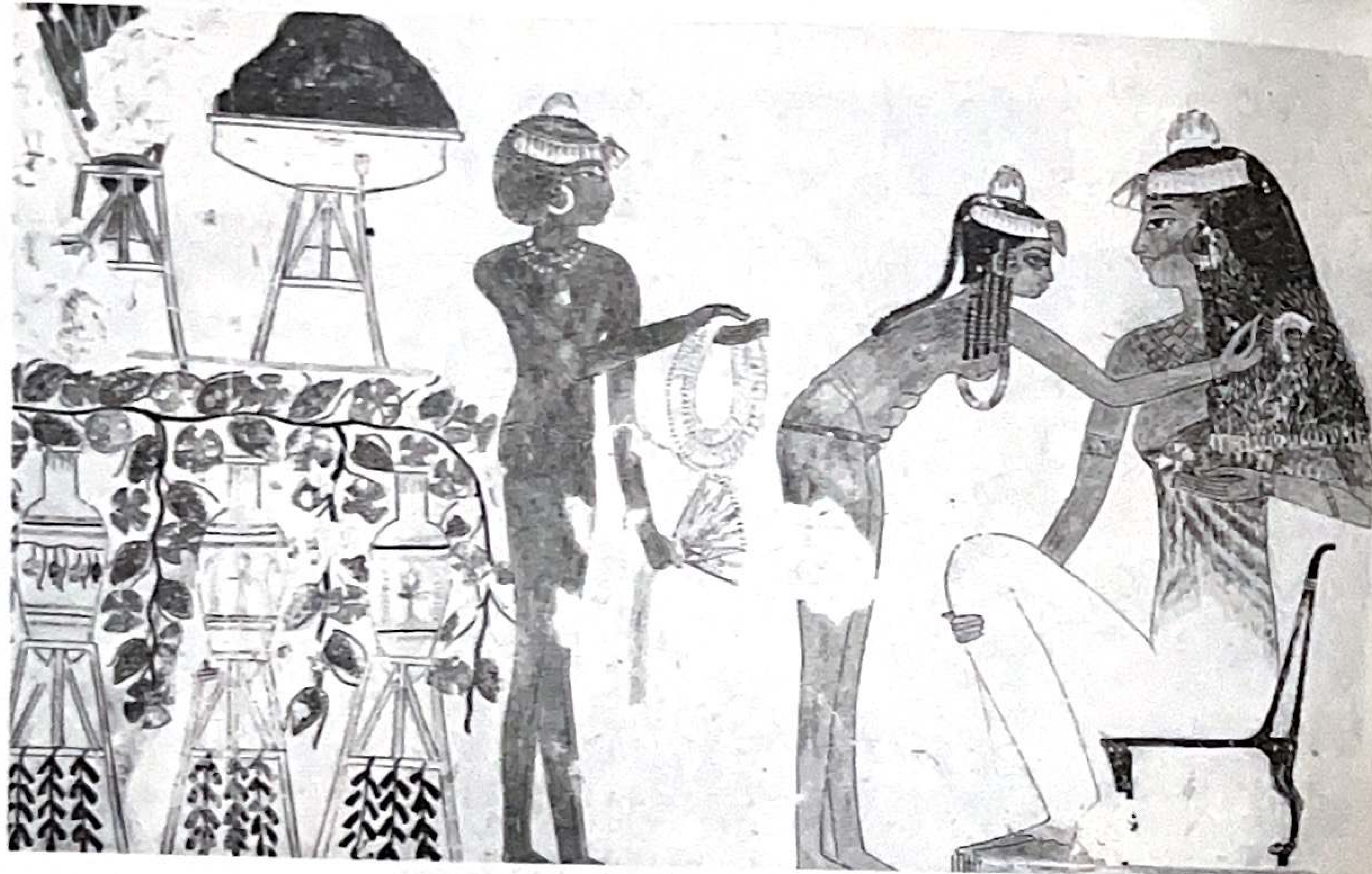


كانت أماكن إحتساء الجعة تعج بالراقصات وفتيات الهوى. وتُرى فى الصورة الأولى إحدى هؤلاء الفتيات وهى تؤدى إحدى رقصاتها. وفى الصورة الثانية نرى احد الشباب السوريين وقد أفقدته الخمر توازنه، فسقط على الأرض، وأخذت إحدى هؤلاء الفتيات تداعبه وتهزأ به.

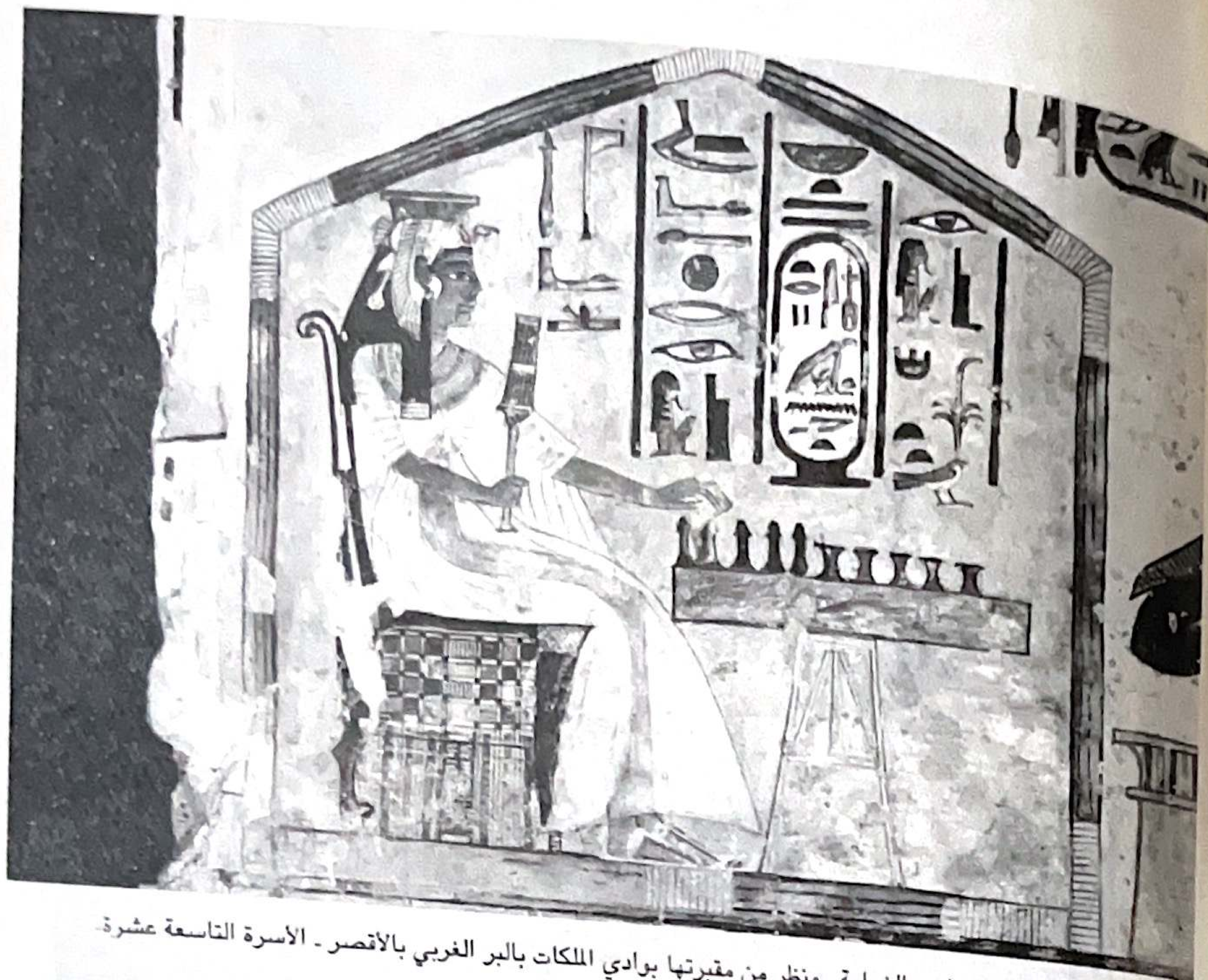




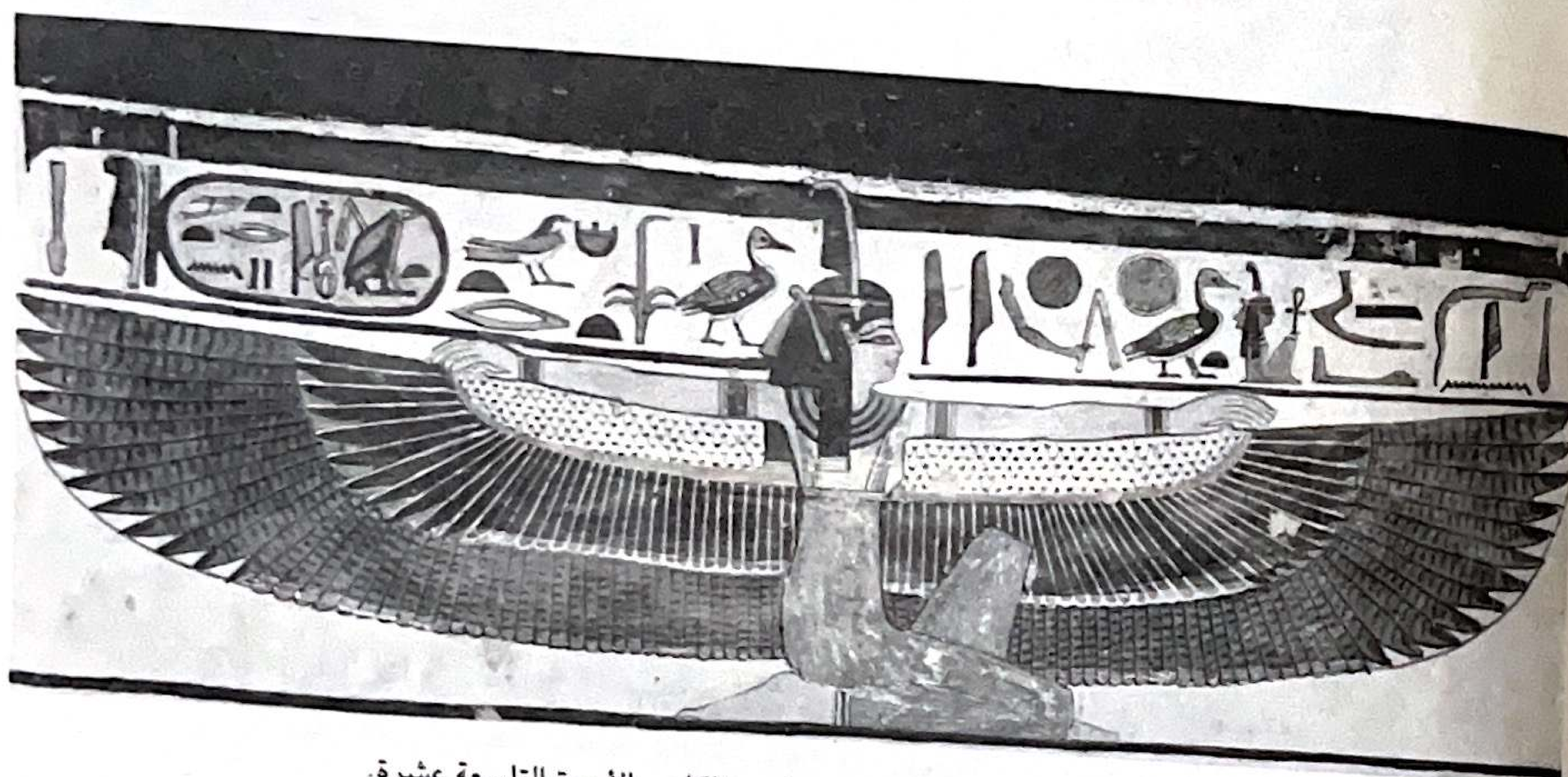
مجموعة من الندابات المحترفات. وهن يرتدين ملابس من الكتان الأبيض. ولكن يُلاحظ أن أهم علامات الحزن كانت تتمثل فى إهالتهن التراب فوق رؤوسهم ولذا يلاحظ أن بعض ملابسهن قد تحولت إلى اللون الرمادى الغامق.



تمر بين الحاضرات، خادمات صغيرات، عاريات الجسد ويُحطن خصورهن بأحزمة من الصوامع الصغيرة، وتتدلى من أعناقهن عقودٌ من الورود. وتقوم هؤلاء الخادمات بتقديم الشراب للمدعوات، ويساعدنهن فى اصلاح زينتهن، وتعديل وضع شعورهن المستعارة وعقود الورد التى تحلى صدورهن. كما يلاحظ فى الصورة أيضاً وجود عدة أوانى مليئة بالخمر، ومزينة بالورود.



الملكة نفرتاري تلعب الضامة - منظر من مقبرتها بوادي الملكات بالبر الغربي بالأقصر - الأسرة التاسعة عشرة.



الإلهة «ماعت» - مقبرة الملكة نفرتاري - وادي الملكات - الأسرة التاسعة عشرة.



مأدبة في احدي الاحتفالات حيث نري أحد النبلاء يجلس بصحبة زوجته ويتسم النقش بالبراعة والرشاقة والفخامة وهي سمات خاصة بنقوش نهاية عصر الامبراطورية. وقد حرص الفنان علي إبراز جمال المرأة وأناقة ثيابها كما نري في الصورة السفلي.

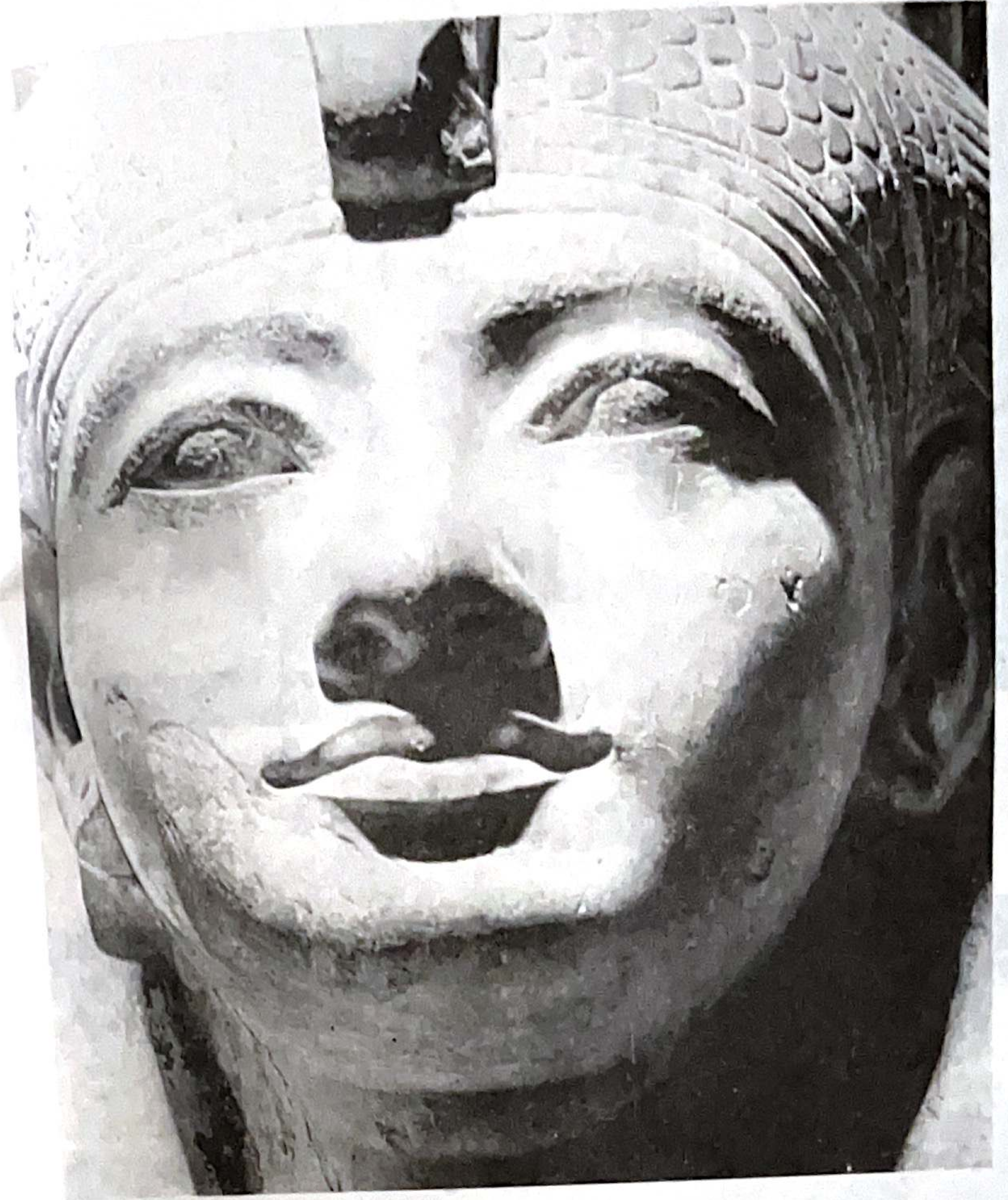


قام سننموت بوضع تصميمات العديد من المنشآت الدينية : ومن المؤكد أن الملكة قد كلفته أيضا بمهمة ترميم واصلاح المعابد الخاصة بمصر الوسطى ، التى كانت قد أهملت – بل وخربت ومرت الى حد ما فى عصر الهكسوس . ويؤيد ذلك ، بعض الكتابات التى أمرت بنقشها على جدران الكهف الذى كرس للالهة « باخت » ، والذى عرف بعد ذلك باسم معبد ارتميدوس (اسطبل عنتر) . ويبدو أن أسلافها الذين كانوا يركزون كل اهتماماتهم ووقتهم فى طرد الغزاة ، واعادة النظام الى بلد دمر وخرب جزئيا ، واعادة اصلاح الأحوال الاقتصادية للدولة ، لم يكن لديهم الامكانات ليقوموا من جديد بتشجيع الحرفيين والفنانين بالبلاد ، أو لجذبهم نحو مصر العليا . كما أن العاصمة خلال حكم الفترة السابقة أى فى خلال الدولة الوسطى ، كانت قد أقيمت قديما بالفيوم ، على بعد ٥٠٠ كم شمال طيبة .

وبمساعدة سننموت استطاعت حتشبسوت أن تنشىء فى طيبة تلك العاصمة التى لم تعمل بها بالفعل أية ورشة فنية ملكية قبل ذلك ، وبالرغم من أن الكثير من مظاهر الثراء والفخامة والسلام قد بدأت تعود اليها . واستطاعت أن تنشىء فيها مدرسة فعلية للمثالين والنحاتين اتخذت من صورة الملكة مثالا ونموذجا أصليا . وكان هذا النموذج الأنثوى الذى يتمتع بسحر خاص للغاية ، وعيون واسعة مسحوبة الى أعلى عند مؤخرتها ، تشع ضياء ولمعانا بشىء من المكر والدهاء فى وجه يميل الى الاستطالة قليلا ، قد أثر فى نهاية الأمر على فن صناعة التماثيل فى تلك الحقبة . بدليل أن جميع أشكال تحتمس ، بعد ذلك والذى أصبح الفرعون المحارب الغازى ، قد أظهرته فى كافة الصور خلال حكمه كجندى قوى ، وقد شاب تقاطيع وجهه بعض من رقة ولطافة صور عمته ذائعة الصيت .

وبداية من هذه الفترة البارزة التى ساد فيها الهدوء ، والتى يمكن تحديدها فيما بين العام الثالث والسادس من الحكم المشترك بين الملك الشاب والوصية عليه ، لوحظ أن سننموت قد اختار من أجل منشآت ونصب مليكته ، الأساطين الأنيقة المحزومة على شكل أوراق البردى ذات التيجان المقفلة ، والتى يمكن مشاهدة أحدث نموذج منها فى البهو الأول فى الأقصر (مقصورة المراكب) .

وتسمح لنا الدلائل التى ترجع الى العامين الثالث والرابع ، بأن نتصور مشاريع البناء الأولى من أجل اقامة معبد الدير البحرى الذى



الآلهة موت سيدة عظيمة وجليلة. انها الأم المقدسة. كانت تسمي «نسر» لأنه من المعتقد انها في الأصل الهة نسرية من طيبة. لهذا قالوا إنها ملكة الآلهة. وكانت ثيابها من الريش.

أطلق عليه اسم « جسر جسرو » « قدس الأقداس » . وكانت الملكة قد اختارت مكانا مترامى الأطراف أمام منخفض صخرى متدرج بشكل دائرى بجبل طيبة يطل على وادى الضفة الغربية فى مواجهة الكرنك بالناحية الأخرى للنهر . لقد حددت حتشبسوت هذا المكان ، فى شمال الموقع الذى مازال يوجد به معبد منتوحتب والسراديب الجنائزية للأسرة المالكة . وكانت تعتقد أنها بذلك ، تزداد قربا من الأسلاف الطيبيين العظام ، الذين حكموا فى أوائل الدولة الوسطى ، وتزيد من تدعيم حقوقها فى وراثة العرش . ومن احدى لوحات سننموت ، التى عثر عليها ، بمعبد « مونتو » الشمالى بالكرنك ، تبين وجود مخازن لمعبد « قدس الأقداس » خلال العام الرابع من الحكم (الشهر الأول من فصل الشمو ، فى اليوم السادس عشر) .



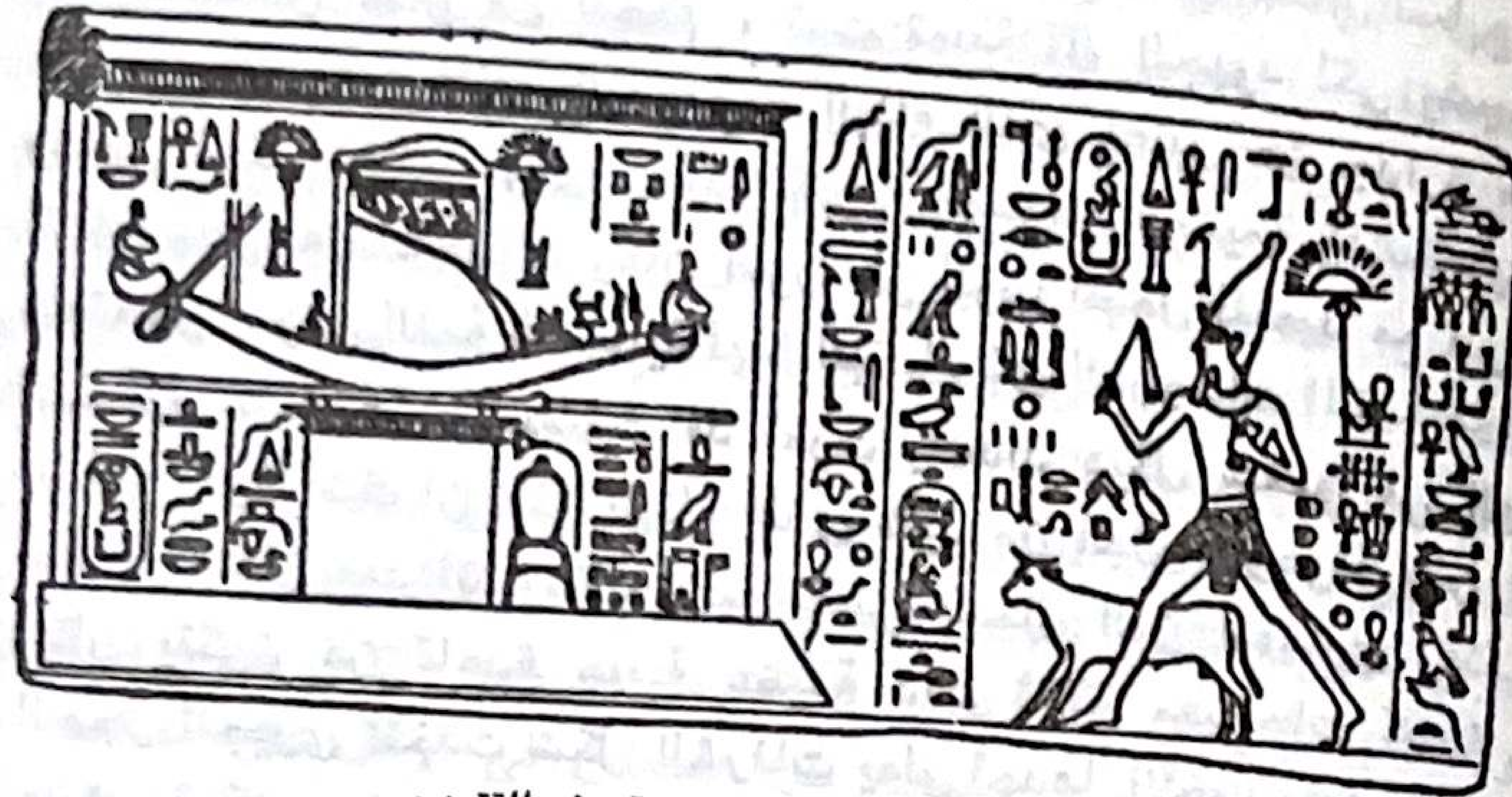
شكل (٢١) حتشبسوت

- ٧ -

حتشبسوت ـ ماعت كارع

فرعـــون

الحكم بداية من العام السابع



شكل (٢٢) الجرية المقدسة عند التتويج

لا شك أن العام السابع ، يعد مرحلة فاصلة من الحكم . وهو بدون ريب العام الذى تجسد من خلال نص وسيط آمون : « لقد تركت تاج زوجة الاله ، لكى تمجد وتعظم بزينة رع » . وفى كافة الكتابات التى نتحدث عنها اتخذت الملكة بصفة نهائية لقب « ملك مصر العليا والسفلى » . وسادت مظاهر ضخمة من النشاط والعمل فى البلاد التى تمتعت بالتنظيم والازدهار . وقد أنعمت حتشبسوت على أبوى سننموت بمقبرة تقع فى نطاق الضياع الملكية (فى الشهر الرابع من موسم بذر الحبوب ، فى اليوم الثانى منه) ، كما أمرته بزخرفة مقصورة فى شرق معبد الكرنك ، بجوار المسلتين الأوليين اللتين استخرجتا من محاجر أسوان . وكذلك المعبد الذى يضم فى داخله ناووسا كبيرا مشيدا من المرمر (تسكنه تماثيل الملكة وآمون) ، وكان يجب أن يواجه شروق الشمس من سلسلة جبال الصحراء الشرقية ، استولى عليه بعد ذلك تحتمس الثالث ، ثم قام رمسيس الثانى بتغيير معالمه . ولا شك أن الآثار المتبقية منه تبين ما كانت تتمتع به الملكة من ارادة ورغبة فى التجديد

والتطوير لكى تقيم بذلك من أجل رعاياها ، أول همزة وصل بينها وبين آمون ، حتى يستطيعوا الحضور الى هذا المكان المفتوح من المحراب « لكى يستمعا لاستعطافهم واسترحامهم » .

معبد الدير البحرى

كرست الملكة اهتمامها لتشييد المعبد اليوبيلى الرائع ، الذى قام بوضع تصميماته سننموت ، وبدأ فى ارساء أساساته تحت اشرافه ، منتظرا أن نفتح الأعمال الكبرى رسميا . وابتداء من العام السابع الى العام الحادى عشر من الحكم ، تمت تعبئة كل الجهود لكى يشيد فى الصخور الجيرية فائقة النعومة ، البناء الذى اعتبر عن جدارة مجدا وفخرا لحكم حتشبسوت ، وللتذكير بالخطوط العظيمة للشخصية الملكية وبأوجه نشاطها . وكان آمون هو الرب المبجل للمعبد مع انوبيس وحتحور . وفى القمة الشمالية لهذا البناء ذى الدرجات المتتابعة أمام الصخور ، كانت حتشبسوت قد أمرت باعداد هيكل شمسى فى الهواء الطلق . ولا شك أن هذا البناء الذى شيد من أجل الفرعونة ومن أجل خالقها ، كان يعد أنشودة حقيقية تتغنى بجمال الفن المعمارى وقتئذ . وكان يتكون من قاعدة مهيبة عظيمة ذات ثلاثة مسطحات كبيرة من الحجر الجيرى اتخذت شكل الشرفات يعلو أحدها الآخر ويليه ، وتشرف عليه « قمة » جبل طيبة المقدسة ، ومن خلال ثلاثة طوابق متتالية ، كانت الأبنية تؤدى الى السطح الأخير الذى كانت كواته المحفورة فى الصخور فى العام العاشر ، تحتوى على سبعة وعشرين تمثالا شعائريا للملكة ، معظمها منحوت من الجرانيت الوردى ومن ضمنها ثمانية كانت تمثل الملكة وهى راكعة . وفى الناحية الجنوبية أقيمت مقصورة لكى تقام بها شعائرها وشعائر أبيها ، وأسرتها ، بل وشعائر تحتمس الثالث أيضا . ولاشك أن تمثال الملكة ، الذى يمثلها وهى جالسة والذى صنع من المرمر السميك ، ربما جاء من هذه المقصورة (١) .

أما الشرفتان السفليتان ، فقد اتصلتا ببعضهما بطريق صاعد يتوسط واجهتهما ، يبلور انسجام عمودية الواجهات . بل ان أناقة وروعة ابتكار وفرادة المجمع بأكمله ، مندمجا بكل توفيق وتوازن داخل اطار الموقع الرائع المهيب ، توضح أيضا وبشكل مدهش معالم حكم ملكة عظيمة . وكما يلاحظ أنها قد خصصت مكانا شرفيا للملك الشاب تحتمس . ولقد ساهم الكثير من المعماريين وكبار المسئولين بجوار سننموت فى اقامة هذا العمل العملاق ، مثل ثوتى و بوى ام رع ، وكان

حابو سنب رئيس الأعمال بصاحبه نحسى ، ومين موسى ، وأوجرنبوت ، وياحكا من المعروف باسم بنيا ، ونب آمون ، وأمنمحات ، وبنياتى ، ودواى ار نحح . أما العمالة فقد كانت تتضمن العديد من الأفراد أو الجماعات . واقبل كثير من الوجهاء والشخصيات المرموقة على وضع قوالب من الحجر الجيرى فى البناء ، كانوا قد كرسوها وغطوها بأسمائهم ، حتى يحظوا بالاهتمام والعناية الملكية والالهية .

كما رصت عشرات التماثيل على هيئة ابى الهول ، لها وجه حتشبسوت ، ومطلية باللون الأصفر على جانبى الطريق ، ابتداء من القناة المتفرعة من النيل وحتى الفناء الداخلى . ويجب الاقرار بأن طريق الانتصار هذا الذى كان الاغريق يطلقون عليه اسم « طريق الكباش Dromos » ، هو ابتكار وتجديد ، اتبعه بعد ذلك خلفاؤها دون استثناء . وكان هناك أيضا سبعة أزواج من تماثيل ابى الهول لها معرفة الأسد ، على جانبى المر الرئيسى للفناء ، الذى زين بأشجار اللبخ Persea ، وأشجار الأثل Tamaris ، والنخيل ، وحفرت فى انحائه بعض الأحواض من أجل أن تصب فيها ، وفقا لبعض الطقوس ، كميات من الألبان كقرابين . وكان هذا هو المكان الذى خصصته الملكة لزراعة أشجار البخور القيمة التى جلبت من بلاد بونت . وعلى جدران الأروقة تتابع تدوين الحوليات الدينية والتاريخية ، بنقوش ملونة . وكان يمكن أيضا ضمن العديد من المشاهد ، تأمل صور « المولد الالهى » ، والتتويج ، وعملية نقل المسلتين فى أوائل فترة حكمها ، والحملة الكبرى الى بلاد بونت ، ومناظر دينية تبين بعثة الفرعونة .

وأمام الأعمدة أقام سننموت تماثيل أوزيرية لمليكته ، تبدو فيها فى هيئة اله الموتى فى صورة المومياء ، وقد توجت بتاجى الملك الأحمر والأبيض ، وذراعاها متصالبتان فوق صدرها ، وممسكة صولجان الملك بيديها : وهذه هى صورة الملك ، خلال يوبيله السنوى ، الذى يحتفل به من أجل تجديد كل كيانه واعادة تجديد سطوته . ورغم ذلك ، فان سننمرت لم يكتف باظهار صولجان الاله المتوفى فى يدى « الملكة — أوزير » . بل أضاف الى العصا المعقوفة « الحقا Héka » والسوط « النخخ Nékhakha » وهما رمزان متصلان بأوزير ، الشارة المعروفة باسم « الواس » ومعها شارة « العنخ » ، وهما شعاران للحياة الدافقة المشعة التى توفرها الشمس ، وقد ظهرتا بعد ذلك فى الأيدى التى تنتهى بها أشعة « قرص » آتون الشمس . وبذا ، فان هذا المعمارى البارع ، والعالم المحنك قد اتفق أيضا مع مليكته على الاستعانة ببعض الرموز من أجل توضيح احدى الحقائق الأساسية فى الديانة

المصرية المتصلة بالقوانين العظمى اللانهائية الكونية ، التى يعبر عنها وتبلورها فوق الأرض مناظر الاحتفال اليوبيلى للفرعون · كما ان أوزير ورع ، كانا مظهرين يمثـــلان نفس القوى ، القــوى الخامدة (الموت) والقوى النشطة (الحياة) · وبذا ، يتضح لنا تماما مغزى العبارة المذكورة بالفصل السابع عشر ، فى كتاب الموتى : « اما عن اوزير فهو امس ، وأما عن رع فهو الغد » ·

وعند هيكل أنوبيس ، شمالا ، اقيمت مجموعة من الأعمدة الدورية ، يوضح تناسقها الهادىء والمتالق عن حيوية تؤلف مزيجا من الظلال والأضواء · وفى الداخل ، بدت تماثيل الملكة وهى مازالت شابة ترتدى ثوبا بسيطا ، وبدا واضحا انها لم تتعرض لمعاول التدمير · وفى الناحية الجنوبية ، وكما أرادت الملكة ، اقيمت مقصورة حتحور ، مأوى « البقرة المقدسة » ، التى تستقبل جميع الموتى ، وتجهزهم من أجــل الحياة الأبدية ، لأنها كانت تعد بالفعل مقر الاحتفال بالعيد السنوى البهيج للوادى ، الذى كان يستمر أحد عشر يوما وكانت الفرعونة والملك الصغير (أو تماثيلهما الخاصة) يذهبان عند ظهور الهــلال فى صحبة موكب ضخم مهيب ، نحو « قدس الأقداس » ·

مقبـــرة وادى المـــلوك

ابتداء من نفس هذا العام السابع ، رغبت حتشبسوت أن تتحرك فورا وتثبت سيادتها ، فتخلت عن المشروع الذى كان يهـدف الى استعمال المقبرة التى كانت قد أمرت بحفرها عند أحد الوديان النائيـة بجبـل طيبة · وبصفتها ملكة ، « مطلقة » لمصر ، فقد كانت ترمى الى أن يدفن جثمانها فى « وادى المــلوك » · وقد كلف كبيـر كهنتها حابو سنب تنفيذ رغبتها هـذه ، وأمر فعلا بالبـدء فى حفـر مقبرة (رقـم ٧٠ فى وادى الملوك) خلف الجرف الواقع خلف المعبد ، وقد استمر العمل فيها حتى العام السادس عشر من حكمها دون أن ينتهى تماما · ولذا ، فهى لا تتضمن أية زخارف ، أو أية نصوص أو كتابات · أما مسار دهليز الدخول فهو عبارة عن ممر مقـوس طوله حوالى ٢١٣ مترا · ويبدو أن المعمارى الذى صممه قد حاول دون جدوى بواسطة هذا الممر ان يصل الى الناحية الخلفية لمعبد الدير البحرى · أما حجرة الدفن ، فهى مستطيلة الشكل ، ويبلغ طولها حوالى ٩٧ مترا · عثر بداخلها على تابوتين مصنوعين من المرمر أعدا من أجل الملكة ، ولكن يبدو أن أحدهما قد جرى تعديله ليضم جثمان تحتمس الأول · واعتمادا على هذه المعلومات ، أراد بعض الكتاب

ان يستخلصوا ان حتشبسوت قد أمرت ربما بعد عمليات السلب والنهب بنقـل موميـاء والدها الى مقبـرتها الشـخصية · ولكن هذا غير مؤكد تماما ·

الأنشــطة الأخــرى بالبــلاد

لم يهمل أى أمر من الأمور فى البرنامج الضخم ، من أجل النهضة الشاملة بأنحاء البلاد · هذا ما ذكرته حتشبسوت بكل المغالاة والتشدق اللفظى التى تتصف بها الألفاظ الفرعونية ، فى نصوصهــا الشهيرة بمعبد اسطبل عنتر (سبيوس أرتميدوس) · فقـد عملت على تالق وازدهار كل ما كان مضمحلا أو متهالكا منذ حكم الأسيويين فى أفاريس شمال الدلتا ، والذين طردهم اسلافها الأمجاد : « كان هـذا واجب آباء آبائنا ، الذين كان ظهورهم مناسبا تماما فى عصرهم » ، ولقد لاحظنا ، انها كانت شديدة الاهتمام بتشييد المنشآت والنصب الكبرى الباقية على الدوام ، وكذلك اصلاح وترميم وتوسيع المعابد · ولقـد لاحظت أنه حتى يتمتع بلدها بالاهتمام الواجب وتعيش فى سـلام ان تعمـل على تجديد عتـاد وسلاح جيشها الذى كان كل من تحتمس الأول والثانى قد ارهقـاه واستغلاه دون أن يهتما ، على الأرجح ، بتجديد شبابه · هذا ما نتبينه على الأقل من مضمون الكتابات بنفس المعبد الذى كرس من أجل الالهــة « باخت » : « ان جيشى الذى لم يكن يملك عتادا ، قد أصبح يتمتع بكافة مستلزماته وعتاده منذ أن أصبحت ملكا » · ان مجرد ذكرها لهذا الأمر يبين مدى استيعابها لأهميته وضروريته · كما يبين ما كانت تتمتع به هذه الملكة من حكمة ، ومدى اهتمامها بأن توفر الاحترام الواجب لبلادها ·

السياســة الخــارجية

خلال فترة حكمها ، لم يحدث أى خلاف مع أى بلد أجنبى · ولكن حدثت عملية تدخل واحدة فقط فى بلاد النوبة ، فى بداية حكمها ، يبينها هذا النص المنقوش فوق صخور جزيرة سهيل : « لقد تبعت الالــه (الفرعون) (······) ، ورأيته وهو يقهر أهل البادية ، ويقتاد زعيمهم كاسير » · وربما أن هذه الحملة التى قادها ضابط يدعى « تيى » قد انتهت بجزيرة « ساى » السودانية حيث أقيم بالفعـل تمثال للملكة ·

كما أن الحروب التى أراد البعض نسبها الى الملكة فى أواخر عهدها كان تحتمس هو الذى قام بها فعلا . وبداية من العام الثامن ، ازدادت مصر فى تأكيد وتثبيت معالم ازدهارها الفعلى تحت السيادة السلمية لحتشبسوت التى كانت تتصرف بحذق بالغ ودراية فائقة لدرجة أنها لم تفقد مطلقا مزايا وفوائد أى واحدة من الفتوحات ، أو حملات اخماد الفتن التى سبق أن قام بها والدها تحتمس الأول . « فلم يكن هناك متمردون فى الجنوب ، ولا أعداء فى الشمال » .

واستعان سننموت بسلطته الحكيمة الفطنة ، ليتمكن من تحويل الضرائب ، بشكل منتظم ، فى خزائن آمون ، كما كان يقوم بجباية الرسوم بشكل عادى دون أى التزامات مغالى فيها أو التجاء الى العنف ، ودون أن يشك أحد فى قوة الملكة وسطوتها . وكانت الصورة التى قدمتها ادارة حكم الملكة ، فيما وراء مصر ، لا تسمح بأن يعارض أحد سلطتها كفرعون . ولذا ، استطاعت أن تعلن جهرا : « ان حدودى الجنوبية ، تمتد حتى شواطىء « بونت » ، وحدودى الشرقية الى تخوم آسيا (......) ، أما فى الغرب فقد قمت بحكم ليبيا » .

وأرسلت حتشبسوت حملات تجارية نحو « مرافىء الشرق » (أو « الدرجات » كما كان يقال) ، وضمن هذا المزيج من الخلق ، فمنهم من جاء من داخل آسيا ، الذين يحضرون المنتجات النائية عن طريق القوافل ، ومنهم تجار السواحل . وكان يوجد أيضا سكان الجزر ، كجزيرة قبرص ، وجزيرة كريت النائية للغاية ، الذين كانوا يبحرون ويأخذون طريقهم نحو مصر . ويصلون غالبا عن طريق البحر - الأكثر أمنا - وكان سكان طيبة يحضرون ، وهم متعجبون للغاية - لهذا العرض المكون من أشخاص يتميزون بالأناقة والمظهر الفريد ، يرتدون تنورات مزركشة ، ومزينة بالكرات ، ويضمون وسطهم ضما شديدا بأحزمة عريضة قصيرة ، ويرتدون فى اقدامهم أحذية نصفية ذات شرائط صغيرة . أما شعورهم فهى طويلة الى حد ما صففت على هيئة خصلات متفرقة ، منتصبة الأطراف . وكانوا يحملون فوق أكتافهم أكثر المنتجات طرافة وغرابة ، والتى صنعها الحرفيون : كئوس ذهبية مرصعة ومنقوشة ، ذات مماسك مزينة بالورود والطيور المختلفة الأنواع والأشكال ، والـ Rhytons الضخمة ذات الرؤوس الحيوانية . وكان الخفتيو « Kheftiou » الكريتيون (٢) يصطحبون أحيانا فى أيديهم بعض الأطفال الصغار . ولا شك أنهم كانوا يريدون عرض بضاعتهم للبيع ، والاقامة فى مصر ، حيث يستطيعون مزاولة تجارتهم . وبذا ، دخل نوع من الخزف الفخارى ، ذى الأشكال القبل الهيلينية ،

والزخرفة التى على هيئة الأخطبوط . وقد احتفظت جدران المقبرة الأولى لسننموت ، وكذلك جدران مقابر بعض كبار الموظفين فى ذاك الحين ، بصورة لها (فى حوالى العام السابع أو التاسع من الحكم) .

وبداية من العام الخامس ، عاودت الملكة القيام بالحملات الى سيناء ، حتى تستطيع الحصول على أحجار الفيروز ، من منطقة « سرابيت الخادم » ووادى « المغارة » . وتعددت تلك الحملات بشكل منتظم ولم تكن الملكة تستعين بالعبيد أو بأسرى الحرب لكى يعملوا تحت امرة مهندسى المناجم لديها ، ولكن لجأت الى المتطوعين المصريين والى بعض البدو من نفس موقع العمل من أجل تكملة مجموعة رؤساء العمال ، والكتبة ، وأمناء المخازن ، والأطباء - السحرة (مروضى الثعابين) وبالحرس الصغير المسلح ، المكلف بحماية واسترداد الحجر الأزرق (الفيروز) من السالبين والناهبين . ولا شك أن أجدادهم هم الذين حاولوا منذ بداية الدولة الوسطى أن يقتبسوا بعض الكتابات الهيروغليفية التى كان الكتبة المصريون يكتبونها أو يحضرونها أمامهم على الجدران الصخرية ، لكى يضعوا الخطوط الأولى لكتابة مبسطة انتشرت مبادئها وأسسها عن طريق التداخل والتحريف التتالى ، فى الحوض الشرقى للبحر الأبيض المتوسط . ثم قام الفينيقيون باعادة تنظيم العلامات والرموز التى اقتبسها الاغريقيون ، ونقلوا أشكالها النائية الينا ثم ظهرت ثانية فى أبجديتنا (الأوربية) .

وفى مثل هذه الأحوال نعرف سبب عدم وجود مناظر أسرى الحرب لا فوق جدران المعابد ، ولا فوق حوائط مقاصير المقابر ، والتى كانت قد أصبحت من المناظر التقليدية خلال العهود الأخرى . بل على العكس من ذلك فقد ارتفع عدد أبناء الأمراء الأجانب الذين تربوا ونشأوا فى البلاط الملكى ، وعلى ما يبدو فقد تم سن أحكام وقوانين فائقة الانسانية من أجل المهاجرين ، ومن كانوا يحتجزون فى حالة عبودية .

الحملة الى بلاد بونت

الاستعدادات :

ظهرت سياسة حتشبسوت الخارجية ، والتى ترتكز على اتخاذ موقف السلام الدفاعى ، بوجه خاص فى هيئة عمليات ماهرة لعقد ارتباطات وعلاقات تجارية متزايدة ، وللانفتاح على بلاد ذات عادات كانت لا تزال مجهولة وتتمتع بثروات ومنتجات طبيعية يعود استيرادها بنفع كبير على أوسع مستوى .

ففى أوائل العام الثامن كان كل شىء معدا ، لكى تقوم السفن برحلتها الى بلاد بونت الأسطورية ، أرض الاله التى كان رجالها الأصليون الأكثر نبلا المنحدرون من الأصل الحامى ، قد اطلقوا لحاهم على نفس طريقة أوزير . ولذا ، عرفوا باسم « الخبستيو » Khebestyou (أو الأشخاص ذوو اللحى Khebeset) حقيقة أن المصريين ، منذ العصور المتأخرة ، كانوا مرتبطين بعلاقات عريقة مع هؤلاء الموردين للبخور ، ولكن ، الأمر الآن يتعلق بحملة ضخمة ، واسعة النطاق ، وكلت مسئوليتها للوزير النوبى « نحسى Nehèsy » وبصفة رسمية ، ولكى تتماشى مع المفهوم السائد فى عصرها ، كان من المفروض أن الملكة قد اطاعت وسيطا جديدا لآمون أمرها أن تذهب الى بلاد بونت لاحضار أشجار البخور والصمغ والعطور . ولكن هذه العملية – وهى من أهم أعمالها – لم تكن على الأرجح ، تنحصر فى مجرد هذه المكاسب القيمة والنافعة ، كما كانت تبدو ظاهريا . ولم تحدد النصوص المصرية تحديدا واضحا مكان « أرض الاله » هذه ، بالرغم من أن نفس تسميتها تبين مدى تقديرها وتمجيدها لها ، واعتبارها قريبة من الأصول والمنشأ . وقد ذكرت بعض الكتابات المعاصرة لحتشبسوت أن هذه الأرض كانت توجد على الجانبين شديدى الخضار » . ويعتقد الكثيرون انها نفس مكان « أريتريا » و « حضرروت » ، وأرض الـ Labèens وبلد أفير Ophir » ، بل واليمن ، والـ Corne d'Opone » أما البعض الآخر ، فيعتقدون أنها منطقة جنوب السودان ، والبلاد الواقعة عند أعالى النيل ، وشرق المنطقة المدارية .

وسوف نتوقف عند هذه المنطقة مفترضين أن الملكة لم تضم فقط الى أعضاء الحملة المختصين بعلم الحيوان ، والمهندسين ، وعلماء النبات ، بل ويبدو أنها قد ضمت اليهم كذلك بعض الكهنة – العلماء المختصين بدراسة النيل (والعلماء المختصين بعلوم المياه ، جملة القول المختصين بشئون الرى ، وكانوا من المرموقين الماهرين ، على مدى كافة العصور بمصر) . وقد كلفوا بدرسة نظام هطول الأمطار الاستوائية المرسلة من العناية الالهية والتى كانوا يستشعرون أنها تكيف فيضانات هذا النهر ، المنظم والضابط الصارم المتصلب لكل مظاهر الحياة بمصر . وكانت المجازفة على درجة كبيرة من الجدية ، لكى لا تتوانى ملكة على قدر كاف من العظمة والذكاء كحتشبسوت ، التى كانت نصائح عالم مثل سننموت تسيطر عليها ، امام ظاهرة على مثل هذه الدرجة من الأهمية . ولكن ، بالرغم من أن « رخميرع » ابن أخ وزير الملكة ، والمعاون المقبل لتحتمس الثالث ، قد أعلن أنه مهتم بدراسة مصدر ونظام الأمطار التى تغذى الفيضان السنوى (؟) ، فلا شك أن

الوقت قد حان بعد ، للميل ، صراحة وجهرا ، ناحية الظواهر التى كانت ترجع حتى ذاك الحين ، الى عناية واهتمام الاله .

واذا كانت مظاهر المبالغة والاغراق ، تبدو واضحة جلية فى الأدب المصرى ، من اجل تمجيد وتعظيم الآلهة ، وتقريظ وتملق الفرعون رسميا ، ومدح الأعمال الانسانية الطيبة ، فان التحفظ يبدو شديدا والتفاصيل عن المجهودات المادية الفعلية تنعدم تماما ، عندما يتعلق الأمر بمعالجة موضوع بناء هرم ، واستخلاص مسلة من المحاجر ، أو الصعوبات والعوائق التى تلاقيها حملة نحو أرض البخور . لقد اكتفت حتشبسوت فى هذا المجال بأن تصور على احدى جدران معبدها مشاهد بداية التحرك من طيبة ، والوصول الى « بونت » ، حيث عاودت السفن ابحارها . ثم اكتفت أيضا ، باستعراض حصر الموارد فى العاصمة أمام صورة آمون . ولكن ، ترى أى الطرق سلكته السفن ؟ فلقد أعدت خمس سفن ضخمة رائعة ، يبلغ طول كل منها حوالى ٢١ر٥٠ مترا ، وعرضها ٥ر٥٠ مترا ، وهى ذات شراع كبير ، وصارية مركزية يمتد ارتفاعها الى ما يزيد قليلا عن ٧ر٥٠ م . ولقد بلغ عدد ما بها حوالى ٢١٠ رجال ، منهم ٣٠ جدافا لكل سفينة من السفن .

حقيقة أن الاقلاع قد بدأ من طيبة ، ولكن أى طريق تراها اتخذته بعد ذلك ؟ فالوصول الى البلد عن طريق البحر كان الأمر يتطلب اما أن تنزل السفن عبر النهر حتى « منف » ، ثم تسلك طريقها عبر قناة المياه العذبة ، التى كانت تربط ، خلال الدولة الوسطى ، ما بين النيل والبحر الأحمر ، وبين بحيرة التمساح ، والبحيرات المرة ، واما أن تعبر الصحراء الشرقية على مستوى طيبة ، من خلال « وادى الحمامات » . وكان الأمر يستلزم اذن ، أن تقطع هذه المسافة بواسطة قافلة تمضى حتى ميناء « القصير » ، الخاص بناء السفن .

وخلاف ذلك ، فللوصول الى هذا البلد عن طريق النيل ، كان الأمر يستلزم أن تسير السفن صاعدة النهر حتى المناطق القريبة من عطبرة ، حيث تواجهها بالضرورة مشكلة عبور الشلالات . وكان الحل يتطلب الدوران حول الشلالات بجر السفن بالحبال على طريق مغطى بطمى النيل الرطب الذى قد يمكن تزليق السفن فوقه .

الوصــول الى بونت :

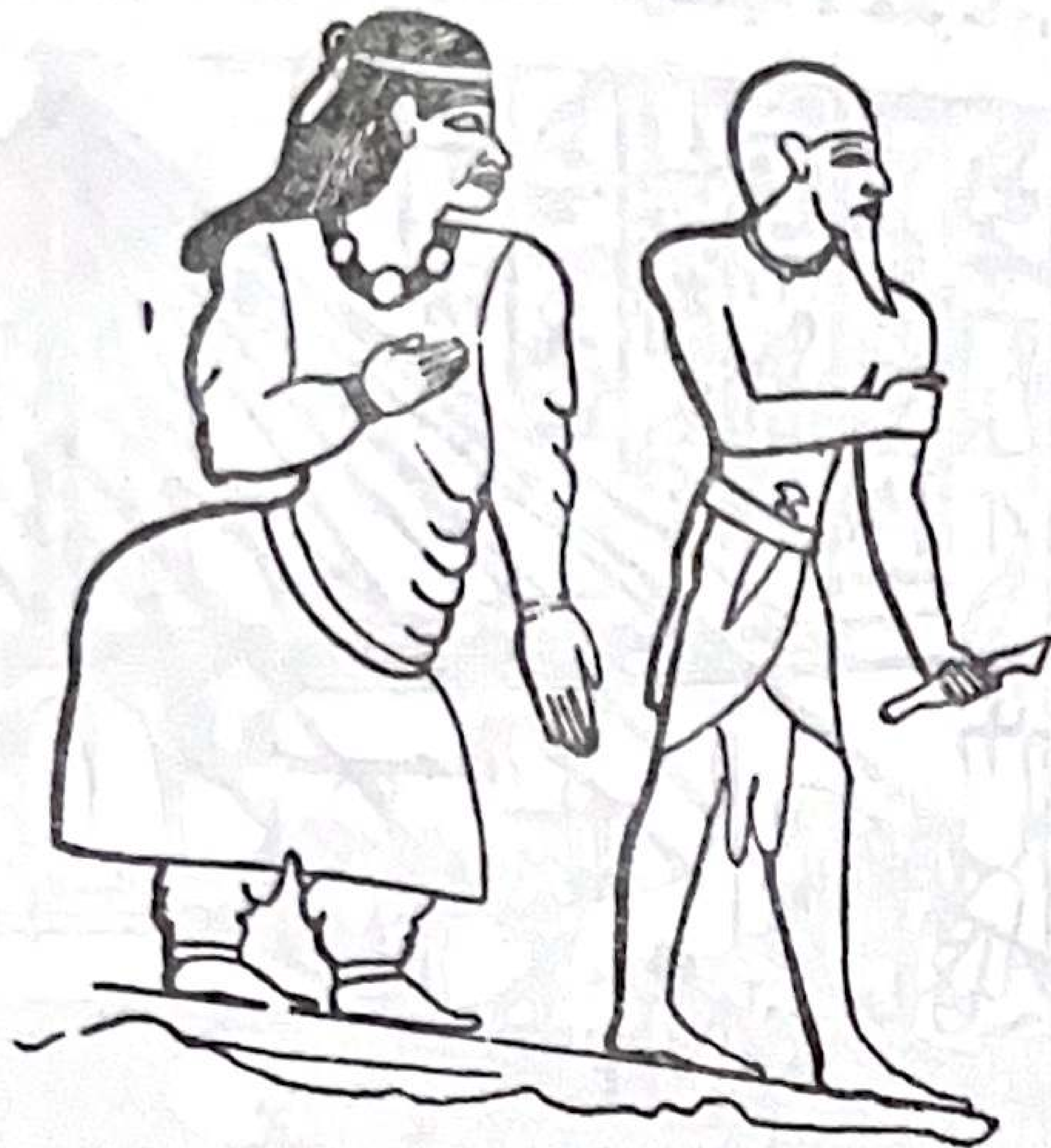
لقد اكتشف الدليل الذى يؤكد وجود ذلك على مقربة من قلعة مرجيسا الحامية للشلال الثانى . واعتقد بالنسبة للحملة التى نظمتها

حتشبسوت أن هذه هى أنسب الحلول ، وخاصة أن حجم السفن المستعملة
لهذه الحملة ، كان أقل من حجم السفن التى يستعان بها لعبور البحار :
حوالى ٥٢ مترا طولا ، بداية من الأسرة الثالثة .

ومهما كان الأمر ، فاننا نستطيع أن نشاهد على جدران « الدير
البحرى » ، المنظر الرائع الذى يمثل الوصول الى بلاد بونت . فمياه
الشاطىء تبدو ، وهى تعج بالأسماك ـ وخاصة نوع معين من القشريات
يعتقد الأخصائيون أنها يمكن أن تعيش فى البحار ، وأيضا بالنهر ـ
ويرى المستشار نحسى وهو ينزل من سفينة القيادة ، وقد استند على
عصر طويلة ، وهو يقدم الى زعيم بلاد بونت هداياه التى تعبر عن النوايا
السلمية لقدومه ، وأحاط بهذا الوزير ، مجرد مجموعة من حـرس الشرف،
نرى منهم ثمانية جنـود فقط . ورصت فـوق الصـناديق الموضوعة على
الأرض بعض المصنوعات ، والأسلحة ، وخاصة المصنوعات الزجاجية
المتضمنة عقـودا وقلائد وأساور ، والتى اعتبرت فى عيـون أهل بونت ،
بألوانها البراقة المتوهجة ، وكأنها كنوز فعلية . ويبدو فى هذا المنظر
أيضا والذى يمثل زعيم البلد « بارحو » بقـامته المـديدة الرشـيقة ، وهو
يتلقى تلك الهدايا فى جلال ووقار شديد ، لا تشوبه شائبة التذلل أو
الخضوع . ووراءه يبدو مخلوق سمين ، مصاب بمرض التشحيم الحاد ،
والـذى لا يبـدو أنه يقلقـه بتـاتا أنهـا زوجتـه الملـكة « اتى Ity »
وقد اصطحبت الحمار الذى تمتطيه . أما نتائج المبادلة التجارية ، التى
عرضت بوضوح عند الرجوع الى طيبة ؛ فهى تبدو ظاهرة جزئيا حول وفوق
السفن ، خلال شحنها بالبضائع عند موانىء بونت : فهناك تبدو الأجولة
المحملة بالصمغ المعطر والبخور ، واللبان ، وزكائب الذهب ، والالكتروم ،
والفضة ، وجلود الفهود ، واعلانا لما سـوف يحبـه المصريون فى ذاك
البلد . ولكن ، لكى يسـتقبل « با رحو » مبعوث الملكة العظيمة ، نشاهده
بدوره واقفا أمام « نحسى » فى نبـل وشموخ ، ويقدم له أكياس الصـمغ
المعطر ، وحلقات وصررا مملوءة بالذهب والالكتروم ، وقـد رصت بنظـام
تام بجوار لوحة منظمة من العاج ، وخشب الأبنوس . وقد شحنت
احدى سفن الحملة بتمثال مصنوع من الجرانيت الوردى اللون يمثل
حتشبسوت بجوار أمون . وقد قدم للأمير ، لكى يقام على نفس الشاطىء
الذى رست عليه سفن الأسطول البحرى الصغير .

ولقد استطاع « علماء أصول السلالات البشرية ومميزاتها » فى
عصر حتشبسوت أن يدونوا ملاحظاتهم على أوراق البردى ، لكى تنقل
على جدران « الدير البحرى » لمختلف مظاهر حضارة بلاد بونت ، حيث
اكتشفوا أن أهلها هم خليط من الحاميين الأصليين ـ قد يرجعون وفقا

لاعتقادنا الى نموذج اثيوبى ـ ومن بعض المخلطين والسود . وكانوا
يعيشون فى أكواخ تقام فوق ركائز وأوتاد ، ويتم الصعود اليها بواسـطة
سلالم متنقلة . أما القرى ، حيث يكثر بغزارة نخيل الدوم ـ كان قد
ظهر من قبل فى النوبة ـ فهى الى حد ما قرى نيلية . ولكن تنمو بهـا
أشجار البخور واللبان التى تنتج الدهانات والصمغ اللازم لتعطير معابد
آمـون .



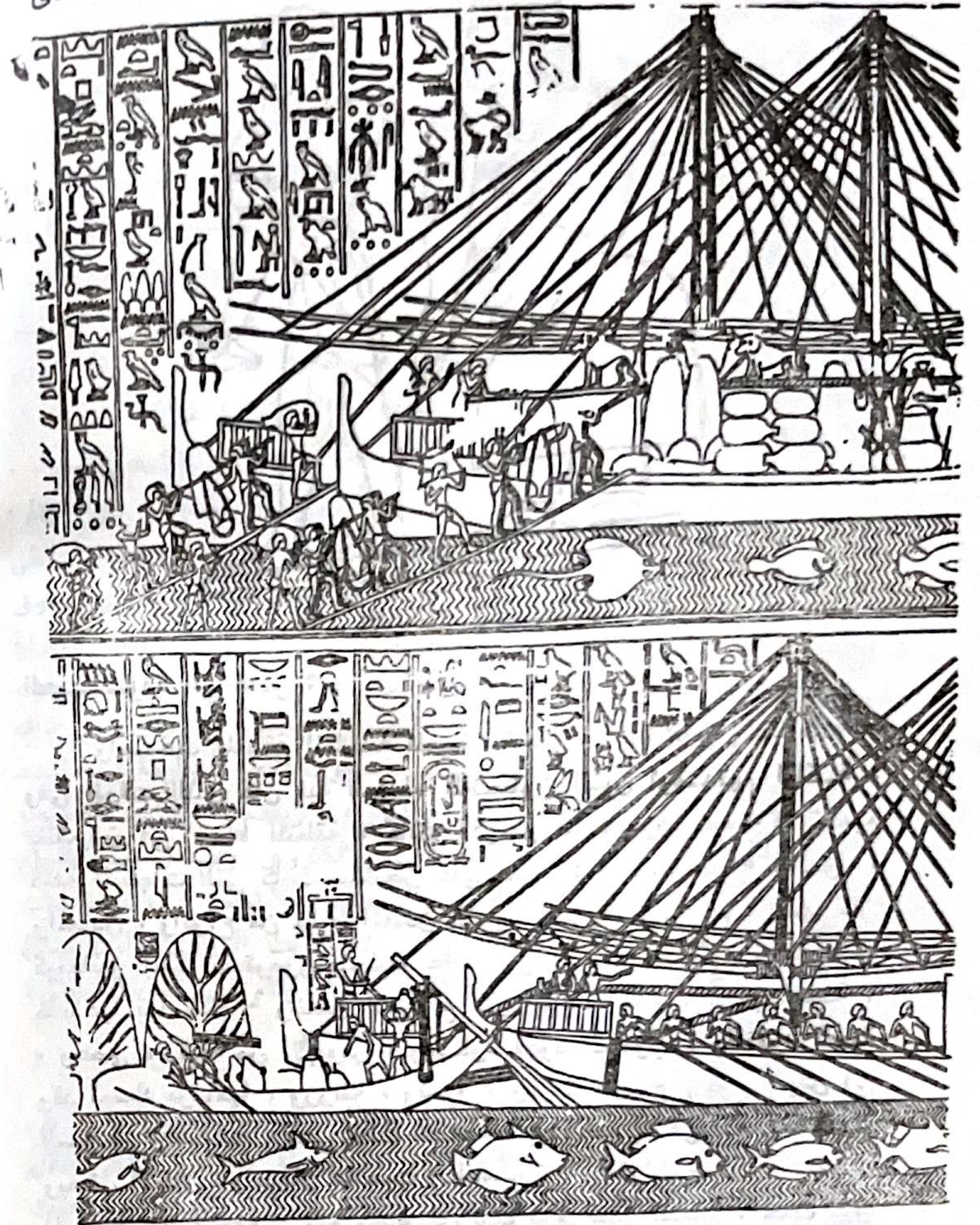
شكل (٢٣) ملكة بونت وزوجها

العـــودة الى مصر :

واصبحت المنطقة المتاخمة للميناء شعلة من النشاط والحركـة .
وفى الوقت الذى كان فيه العلماء الملاحظون الذين أوفـدتهم الملكـة ،
ينتشرون فى أنحاء المنطقة ، كانت الأوامر قد صدرت للبحارة بتجميع
كافة المنتجات التى كانت ستشحن على الفور : مختلف أنواع العطور ،
والمعادن ، وأنواع من خليط المعادن الثمينة ، منها الالكتروم ، الذى كان
كيميائيو الملكة سيقومون بتحليله عند رجوعهم الى معاملهم وانتاجـه
صناعيا بعد ذلك . وضمن البضائع كان يوجد أيضا ، أنياب الفيلة ،
« وعصى » رقيقة من الأبنوس ، وجـلود فهود الجنوب ، والفهود الحية
وقد أمسك بزمامها ، وزرافة ، ونمور ، وقرود الرباح (نوع يعيش فى
السودان والحبشة) التى كانت تقوم بألعابها الغريبة فى أركان السفن،
وبعض الأبقار ، وأحجار الملاخيت (الدهنج) ، والتوابل وقشور الأشجار
المعطرة مثل القرفة . وتم وضع كل ذلك فوق ظهر السفن ، حيث كان
يصعد ، بكل حرية ، بعض أهالى بونت الذين يتشوقون لأرض الفرعون ،

ومنهم : النساء ، والرجال والأطفال · وكان هناك أيضا ، ذاك الشيء المبهر : احدى وثلاثون شجرة بخور ، غذيت جذورها ، بكل عناية بقدر من تربتها ، ووضعت لحمايتها داخل سلال كبيرة .

ترى هل كان من الممكن أن تعود مثل هذه الحملة الى طيبة عن طريق البحر الأحمر ، فى حين أن الأمر كان يستلزم تغذية وارواء أعداد من البشر والحيوانات ، وتوفير مياه عذبة لرى الأشجار التى كانت عملية تأقلمها تعد بدون ريب ، من الاهتمامات الرسمية ؟ عموما ، فان احدى



شكل (٢٤) منظران لسفن الحملة الى بونت أثناء شحنها

كتابات أسوان التى ترجع الى الأسرة الثامنة عشرة ، قد ذكر بها أخبار « استكشاف بلاد بونت » : وفيها ذكرت النمور والفهود ، والقرود التى وجدت بهذا البلد ، وكذلك الروائح والعطور ··· فهل هناك لزوم أن نذكر بأن أسوان والشلال الأول يقعان بمصر عند مدخل النيل ، القادم من أعماق افريقيا ؟

فى العام التاسع ، أقيمت فى طيبة مظاهر الابتهاج والفرح الكبرى، حيث قامت الملكة ، وبجوارها « تحتمس » ، بالاشادة جهرا وعلنا أمام « سننموت » و « نحسى » ، بما حققته الحملة من نتائج · وأقيم عرض لكل ما جلب من بونت ، وتم احصاؤه ووزنه وقياسه ، أما الأشجار التى كانت تلقى كل العناية فقد تم غرسها ثانيا فى الحديقة المقدسة بالدير البحرى · وكذلك منح « نحسى » قلادة ذات أربعة صفوف ، (وسام رفيع) ، وأسلحة ذهبية · ولا شك مطلقا أن حالة الازدهار والأمان التى كانت تعم البلاد ، قد عملت على تحقيق وتنفيذ الحملة التجارية الأولى الكبرى ، وعملت على تقوية سبل العلاقات والتبادلات السلمية بين مصر وبلاد أقصى الجنوب .

نفـــرو رع

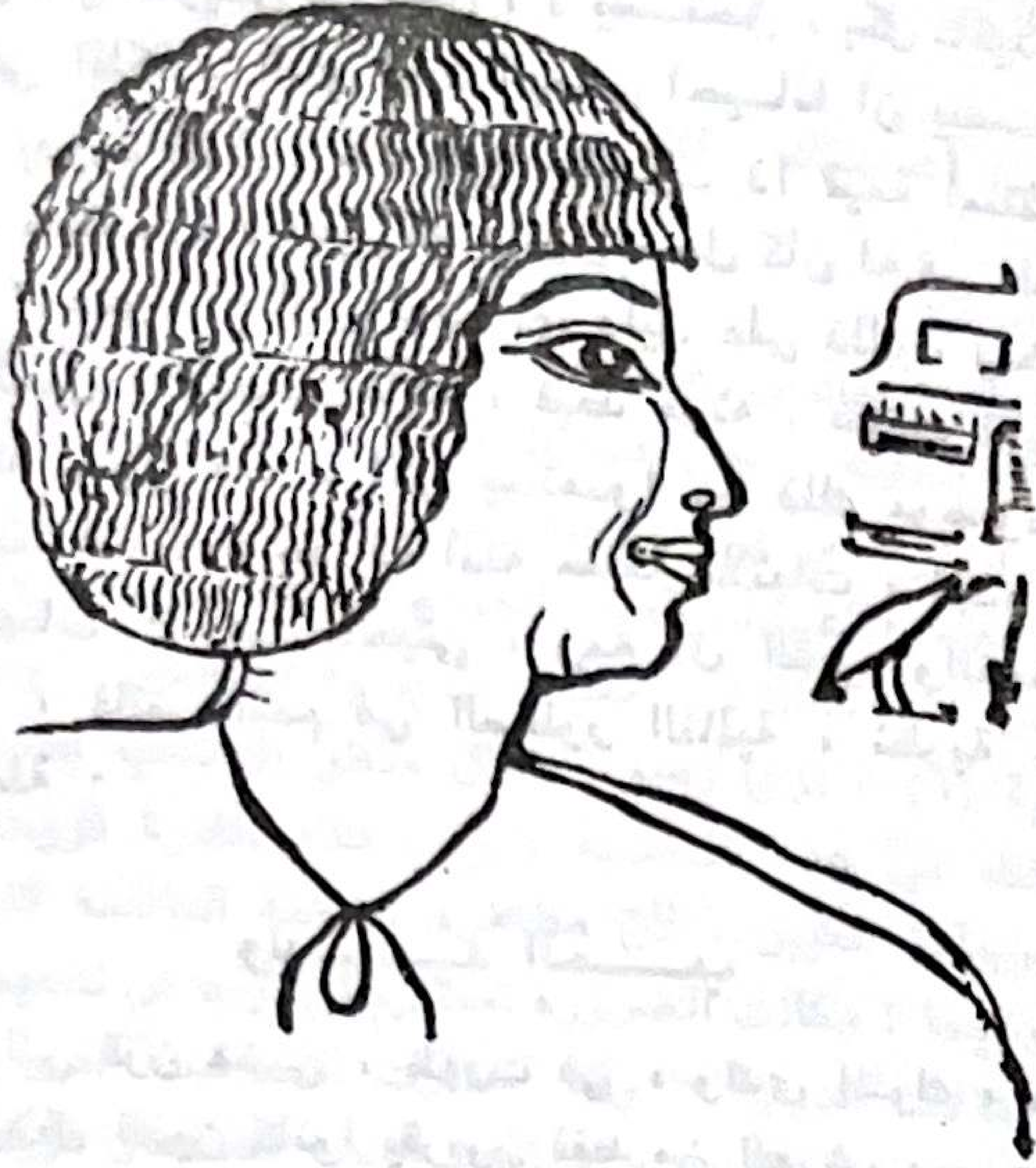
كانت الأميرة نفرو رع التى ورثت عن أمها وظيفة « زوجة الاله » ، تحمل أيضــا ألقــاب « الابنة الملكيــة » التى يحبهـا والدهـا (تحتمس الثانى) ، « سيدة القطرين » و « الوصية على الجنوب والشمال » · ويلاحظ أن هذه الألقاب كانت تخلع على بنات الملك قبل نفرو رع وبعدها، وهى لم تتزوج مطلقا « ممن كان سيصبح تحتمس الثـالث ، الذى كانت تناديه بأخيها » · وهى تبدو فى شىء من التحفظ ، على جدران الدير البحرى ، وكذلك فى معبد « بطن البقـرة » المحفـور فى الجبـل بمصر الوسطى · ولكنها شوهدت مرارا خلال فترة صباها ، حيث كان من الممكن أن يلاحظ فوق تماثيل مربيها سننموت ، وجهها الشبيه بوجـه القطة وهو ينبثق من بين أحضانه ، وهو يدثرها بمعطفه ، أو يجلسها فوق ركبتيه ، أو حتى يأخذها للتنزه وهى بين ذراعيه · ولا شك أن خيال سننموت بأن يمثل فى أوضاع متباينة ومختلفة ، غير مألوفـة ولا تتطابق مع « النماذج » التقليدية ، لم يكن يقف عند حد · ولا شك أن تماثيله الكبيـرة والصـغيرة ، كانت لا تعـد ولا تحصى ، فبالرغـم مما تعرضت له من تدمير منظم ، فمازال يوجد منها حتى الآن خمسـة وعشرون تمثـالا ·

ومرة أخيرة ، نستطيع أن نشاهد نفرو رع ، فوق احدى لوحات سيناء (بسرابيط الخادم) ، التى ترجع الى العام الحادى عشر من الحكم ، وهى تقدم القرابين للالهة حتحور . وتبدو مرندية رداء طويلا ملتصقا تماما بجسدها ، على الطراز السائد فى هذا العصر ، والحية المقدسة فوق جبينها ، وقد اعتلت رأسها الريشتان المرتفعتان الخاصتان بوظيفتها الكهنوتية . أما سننموت المسئول عنها والمشرف على أمورها ، فيبدو واقفا خلفها وممسكا بمروحة كبيرة . وهذا المنظر الذى يصور الأميرة الصغيرة وقد أصبحت فتاة شابة ، هى الصورة الأخيرة التى احتفظت لنا بها الآثار عنها ، ولقد توفيت نفرو رع ، فى حوالى العام الرابع عشر . وربما دفنت على مقربة من المقبرة الأولى التى حفرت لأمها ، على جانب شق صخرى بوادى « جبانات القرود » ، خلف « وادى الملكات » .

امتيازات سننموت

فى تلك الفترة ، كان سننموت قد تلقى تصريحا ملكيا بأن يحفر لنفسه مقبرة أخرى للدفن ، داخل نطاق الدير البحرى ، على شمال المعبد ، حيث تؤدى بعض الدرجات واحد الممرات القائمة تحته ، الى الحجرة الجنائزية . ويبدو أن الغرف الثلاث التى تتكون منها هذه المقبرة الجديدة ، لم تتم تماما ولكننا نستطيع أن نشاهد فوق أحد الجدران سننموت وهو يقف فى تبجيل واحترام منحنيا أمام أسماء حتشبسوت . وفى السقف ، وعلى بعد خطوتين من القاعة الثانية كان مساعد الملكة ووكيلها الأول قد أمر بنقش ملخص لبعض النصوص والمعطيات الخاصة بالعلوم الفلكية ، التى كان يجيدها اجادة فائقة ، بالاضافة لمنظر للسماء فى طيبة ، فى عصره : والناظر لهذا الرسم الذى يبين مجموعة الأبراج السماوية ، كثور الدب الأكبر ، وفرس النهر والدب الأصغر (احدى رجليه الخلفيتين هى النجمة القطبية)، والملاحظ للاثنتى عشرة دائرة الكبرى التى توضح تقسيم السنة الى ثلاثة أقسام موسمية ، كل منها يتكون من اربعة أشهر ، والمحقق فى الدرجات العشر من دائرة البروج ، الموضحة فوق الجزء الجنوبى من السقف ، وفى صورة « سوتيس Sothis » أكثر النجوم تلألؤا وضياء ، ضمن برج الكلب ، الذى يعاود الظهور فى السماء ، للاعلان عن موعد الفيضان ، يتبعه دائما « Orian » الذى لا يستطيع أبدا اللحاق به ، والمتعرف على رمز المجرة ، سيتبين تماما مدى غزارة وعمق علم وثقافة سننموت ، صاحب هذه المقبرة . وضمن بقايا وانقاض هذه المقبرة ، كانت بعثة « متحف المتروبوليتان » للتنقيب التى كانت تتفحص كافة انحاء الموقع ، قد عثرت على جرة

للنبيذ ، عليها تحديد العام السادس عشر (الشهر الأول من موسم الآخت ، اليوم الثامن) . ولا شك أن هذا هو العام الذى توفى فيه سننموت .



شكل (٢٥) سننموت

وقبل وفاته بفترة قصيرة ، سمحت له الملكة ، كنوع من التكريم والتشريف ، بأن يدون اسمه على جدران معبد الدير البحرى . (حيث حصر عالم المصريات الأمريكى ونلوك تكرار اسم سننموت ، حوالى ٧٠ مرة) وكذلك بالمعابد الأخرى . ولا شك أن الذين كانوا يطاردون الملكة ، قد قاموا بطبيعة الحال ، بمحو كل ما يتعلق بآثار نائبها ومساعدها . ومع ذلك ، فان سننموت كان يعرف قطعا ، مزايا النقوش والمناظر المستترة لتكون بمنأى عن الحيل والأعمال التى ترمى الى محوها وازالتها ، لتدمر مفعولها وتاثيرها . وبذا ، فقد قام برسم صورة شخصية له بالحبر متخفية وراء فتحات الأبواب ، بالمقصورات العليا بالدير البحرى . وقد بقيت الصورة فعلا ، محتفظة بالشكل الجانبى (بروفيل) لوجه شخصيته ومازالت تفرض نفسها حتى الآن . وكان وجهه مستطيلا الى حد ما ، ويعلو رأسه شعر قصير مستعار على نمط سكان النوبة ، وأنفه عظيما ، وتحمل وجنتيه آثار تشريط ، عند مستوى قاعدة الأنف ، لحزين من مميزات سكان هذه المنطقة . وحتى الآن ، نرى آثار هذا التشريط على وجه الكثير من النوبيين المسنين .

لقد صاحب سننموت الملكة ، دون توقف ، طوال الستة عشر عاما الأولى من حكمها : كما ارتبط بوريثتها « نفرو رع » ، فى الوقت الذى كانت فيه حتشبسوت مجرد « الزوجة الملكية العظمى » لتحتمس الثانى. ان هذا المساعد والمعاون البارع النابغة ، والمرشد ، وحامى العرش ، والمجدد القدير ، والحريص فى تعقل ، لا يستحق ، بكل تأكيد ، أن يطلق عليه لقب حظى الملكة ، الذى أراد البعض أحيانا أن ينسبوه اليه ، والذى لم يقم بدوره أبدا . لقد كان سننموت ذا قيمة استثنائية وغير عادية ، وكان مستشارا لا نظير له . ترى ، هل كان له فى قلب الملكة مكانة خاصة ؟ عموما . ليس لدينا اى دليل على ذلك ، ولكن قد يكون ذلك غير مستحيل ، وبصفة عامة ، فبعد موته ، تفتقت قريحة بعض المغتابين ، كما سنرى بعد ، لكى يستمدوا من ذلك موضوعا للنقد والهجاء . وبما أنه لا توجد أية أدلة مقنعة للاثبات ، فهذه اذن مجرد افتراءات وتكهنات . ومن ناحيتى ، ومع كل القيود والتحفظات التى تفرض نفسها ، فاننى أقدم فى السطور التالية ، نظرية ، قد تكون معقولة ومحتملة .

وليـــد الحـــب

منذ حوالى قرن مضى ، ظهرت فى « وادى الملوك » مقبرة لأحد الأشخاص القلائل الذين كانوا يقربون فقط من العرش ، ومع ذلك حظى بشرف الحصول على أحد القبور ، فى هذا الموقع المخصص للملوك فقط . وهذا القبر كان لشخص يدعى « ماى حر برعا » ، « حامل المروحة على يمين الملك » . ولقد ظهر هذا اللقب ، خلال حكم تحتمس الأول ، ولم يخلع الا على الشخصيات الشابة ، الوثيقة الصلة بالفرعون . وقد أنعم هذا اللقب على سننموت ، خلال فترة شبابه ، التى يبدو أنه قد استهلها فى العمل العسكرى . وكان « ماى حر برعا » هذا ، أحد أبناء « الكب » ، وتم تعليمه وتربيته بمدرسة القصر . وكان ، بكل تأكيد ، نوبى الأصل . فان البردية الجنائزية الرائعة التى صاحبته ، كهدية ملكية فعلية وضعت بمقبرته تبينه ببشرة أبنوسية وقد اعتلى رأسه الشعر المستعار القصير المجعد على طريقة أهل الجنوب . ولا شك أن هذا المستند يعد على درجة قصوى من الأهمية : ويمكن مشاهدته فى الطابق الأول بالمتحف المصرى ، حيث يعرض على طول أحد الجدران الكبيرة . وقد بينت مومياء هذا الشخص ما هو أكثر من ذلك : ففوق تابوته الذى كان هو الآخر هدية من الفرعون ، ظهر كل من الخرطوش واللقب الملكى لـ « معات كا رع » . ان هذا الشاب كان « ثمرة زيجة غير متكافئة » ، وتمت اعالته وتربيته فى نوع من السرية بالقصر ـ

وكان ابنا لسننموت ، وشخصية بارزة تبدو على وجنتيه علامات التشريط المميزة قطعا لأهالى النوبة (٥) ، ويحتمل جدا أن أصله من الحدود الشمالية لبلاد النوبة ـ وربما كان بمثابة المواساة العابرة والسلوى الخاطفة لفرعونة لاقت مصيرا استثنائيا غير عادى ، ولكنه مصير قاس .

أعياد « الأوبت Opet » الكبرى

يتميز العام السادس عشر من الحكم ، بأهمية الاحتفالات التى اقيمت فى انحاء المملكة . ففى هذا الحين حاول سننموت الذى كان على وشك التوارى أن يحضر هذه الاحتفالات . ووكلت الى أمنحتب الوكيل الجديد للملكة مهمة الاعداد لأعياد العام الجديد الذى يتوافق مع ظهور النجمه سوتيس Sothis معلنة عن بداية الفيضان . وعلى جدران مقبرته فى طيبة (٦) ، نرى رسوما تمثل منظر الهدايا الفاخرة التى قدمت الى الملكة فى هذه المناسبة ، وفى هذه الفترة قررت الملكة أن تحيى ذكرى يوبيلها الكبير ، لأن مظاهره الفخمة الباذخة كانت ستعمل على تأكيد تتويجها : وكانت الضرورة تستلزم أن تزيد من تدعيم السمات الأساسية للاحتفالات الدينية . وقد اختارت التوقيت الذى يتم فيه الحج نحو الأقصر ، لكى تعد ، أو تعيد اعداد احتفال فريد من نوعه لعيد يشاهد خلاله ثالوث آمون وهو يغادر الكرنك فى موكب عظيم متوجها نحو « حريم » الأقصر (٧) . وكان هذا هو عيد « الأوبت » : ومن اجل حتشبسوت ، وفى نطاق « حريم الجنوب » هذا ، أقيمت ثلاث مقاصير مشتركة ، كان الغرض منها استقبال مراكب كل من أعضاء الثالوث المقيم بالكرنك : آمون ، وموت ، وخنسو .

وتكون كافة المناظر التى سنشير اليها زخرفة المقصورة الخاصة بموكب آمون ، التى شيدت بناء على أوامرها ، فى الفترة الواقعة ما بين العام السادس عشر ، والسابع عشر من الحكم : وفيها تطالعنا قواعد رقيقة الشكل ، مستطيلة ، من الحجر الكوارتزيت الوردى اللون ، ومخضبة باللون الأحمر ، ولا يزيد ارتفاعها عن ذراع واحد ، وهى ترتكز على ركيزة سوداء يبلغ ارتفاعها حوالى ذراعين عليها نقوش « محفورة » مخضبة باللون الأصفر . أما المعبد الذى كان يسبقه بهو ، فقد كانت تقع على جانبية حجرتان صغيرتان . وفى تلك الفترة ، كانت هذه المجموعة تقع فى فناء الكرنك أمام الصرح الرابع الذى كان حينئذ بمثابة الواجهة الغربية للمعبد . وبعد ذلك قام تحتمس الثالث

بفك اجزائه ، لرغبته فى أن يستغل المساحة كلها لاقامة « قاعة الحوليات » الخاصة به ، وفى وسطها اقام مقصورته الخاصة « بالمركب » من الجرانيت الأحمر · ومن حسن الحظ ، أن جزءا من هذه القطع الحجرية الرائعة ، قد أدمج كمواد بناء لحشو الصرح الكبير الذى اقامه أمنحتب الثالث ، أمام منشآت من سبقه من الملوك · ولهذا ، فان حوالى ٢٩٦ من أحجارها ــ والتى ما زال ينقص منها الكثير ــ قد استمد من هذا النصب ومن العديد غيره بالكرنك عام ١٨٩٩ بواسطة المعماريين العاملين بادارة أعمال الاصلاح والترميم بمصلحة الآثار .

وبالرغم من أن نقوشاتها ذات قيمة فنية نادرة ، فانها ولسوء الحظ ، لا تسمح باعادة ترميم زخارفها كاملة · ولكن ما بقى منها يعد ثريا جدا بالمعلومات ، حيث حفظ بفضل اعادة استعماله فى منشآت لاحقة، وهو يتضمن مجموعة من المناظر السليمة الكاملة .

ولقد عثر على النص الكامل الذى يتحدث عن المراحل الأولى من حياة حتشبسوت ووحى آمون رغم الدمار الذى لحق بمعبد الدير البحرى ، وعثر كذلك معه على مشاهد تقديم القرابين ، والطقوس المرتبطة بمراسم التقديس · كما أن حوارها وعناقها مع الاله آمون مين الخالق ، « كاموت اف » ، التى كانت تستمد منه القوة وامامه الطيب والعطور والذهب الوارد من بلاد بونت (لتذهيب المبانى) ، صورت جميعها للتذكير بالحملة الكبرى · وتشاهد حتشبسوت ايضا ، وهى تؤدى الطقوس من أجل انشاء المعابد ، وأثناء الأعياد الكبرى التى كان يتم خلالها انعاش واحياء التماثيل الملكية · وقبل كل شىء ، كان عيد الأوبت يتصدر كافة المناسبات فى العام السادس عشر ، حيث كانت قد قررت الاحتفال باليوبيل الأكبر لحكمها · ويبدو تحتمس حاضرا فى هذا الاحتفال ، ولكنه كان يقف خلفها ، ولقد أشير اليه كملك : « الاله الحى ، سيد القطرين » · اما الملكة فقد كانت تحمل ألقاب : « ملك الجنوب والشمال ، والسيد المتصرف ··· » .

وبذا ، تبين لنا لأول مرة ، مختلف مراحل هذا العيد ، الذى كانت مظاهره الشعبية تشاهد فيما بين الكرنك والأقصر · حقيقة انه قد عرف سياقه وخطواته ، المثيرة للاعجاب ، بفضل النقوش البارزة التى حمتها وخبأتها مجموعة الأساطين الضخمة للملك توت عنخ آمون بالأقصر ، ولكن تبين أن حتشبسوت هى التى قامت قبل ذلك ، بتحديد مراحله الأساسية ، والرقصات المقدسة حيث تقوم الراقصات بتأدية المنظر الشعائرى الممثل لتمارين بهلوانية على انغام آلة الصلاصل الصاخبة التى تعزف عليها الكاهنات · وكان يتم استقبال مركب آمون

المقدسة ، على الطريق المؤدى الى الأقصر فى عدة مقاصير (استراحات) ابتكرتها الملكة ، حيث يتوقف الموكب عندها · ولقد اتفق على وجود ستة منها (٨) · وصورت اشكالها على جدران المقصورة الحمراء ، وهى على شكل جوسق ذى درجين متقابلين ، من أجل دخول وخروج المركب المقدسة .

وأبوابها كانت محاطة بصور حتشبسوت وهى فى هيئة الاله أوزير · وفى مثل هذا الوضع اليوبيلى ، كانت الفرعونة تستعد لتدعيم وتقوية طاقتها الالهية ، بواسطة تجديد الكا الخاصة بها ، بداخل معبد « الحريم » : الأوبت (الأقصر) ، وكان هذا يؤهلها ، بدون شك ، لأن تحتفظ فى المراسيم الملكية بلقب « صاحبة الصفات القوية » ، بدلا من لقب « الثور القوى » ، الذى كان يحمله الملوك الآخرون ، والذى لم يكن يلائمها · ولا شك أن تلك المبادرة لهذا الاحياء ، من جانب الملكة ، قد سار على نهجها الكثيرون من الملوك أمثال حور محب ، حتى يعملوا على التصديق على تتويجهم فى مناسبة عيد الأوبت · وخلاف ذلك ، وفيما يختص بالمذابح التى اقيمت من أجل هذه الاحتفالات ، فالجدير بالذكر ، انه قد عثر على آثار مبنى على هذا النمط ، امام المعبد الصغير الخاص بالتحامسة فى مدينة هابو ، كما عثر على بقايا مبنيين آخرين مماثلين على جانبى طريق الكباش المؤدى للمنطقة المقدسة بالدير البحرى .

المسلتان المكسوتان بالالكتروم

لقد ساعد الاعداد لكافة الاحتفالات منذ العام الخامس عشر من الحكم على أن تقوم حتشبسوت وهى فى قصرها الهادىء ، بالتخطيط لعمل ضخم يمكن أن يرضى أباها آمون · لقد أوحى لها أبوها آمون بأن تقيم مسلتين جديدتين ، تكرسهما له فى قلب ردهة تحتمس الأول ، بين البوابتين الرابعة والخامسة بالكرنك · ولقد سرد هذا العمل ، على قاعدة المسلة التى مازالت متبقية فى مكانها حتى الآن ، والتى يبلغ ارتفاعها ٢٨ مترا .

« (·····) هأنا جالسة فى قصرى ، وأفكر فيمن خلقنى (آمون) · لقد دلنى قلبى أن أقيم من أجله مسلتين من الالكتروم (····) ، وهنا بدأت أفكر ، فيما سوف يقوله البشر الذين سيرون هذا الصرح ، بعد سنوات عديدة ويتحدثون عما انجزته » .

ولكن عندما بدأت الملكة تستشير « حابو سنب ، وسننموت ، وبوى ام رع) ، الذين كلفوا بتطريق المعدن على شكل المسلات الحجرية،

علمت أن الالكتروم الذى استورد من بلاد بونت والذهب الذى كان يمكن وقتئذ تصنيع المسلتين منه ، والمخزون فى خزانة آمون لا تكفى كميته لتنفيذ رغباتها ٠ ولذلك قررت الملكة ، وهى لا تتخلى تماما عن مشروعها أن تضفى على هاتين المسلتين الجديدتين ، لمعانا وبريقا ، لم تكن تغطى به ، حتى ذاك الحين ، سوى قمم الأهـرامات ، وأن تغطى سطحيهما تماما بالالكتروم :

« فيما يختص بالمسلتين اللتين أمرت جـلالتى بأن تكسـوا بالالكتروم ، من أجل أبى آمون ، من أجل أن يدوم اسمى ويخلد فى هذا المعبد حتى نهاية القرون : لقد صنعت كلا منهما من كتلة واحـدة من الحجر الجرانيتى الصلب دون وصل (٠٠٠٠) لقد فعلت ذلك من أجل آمون كدليل لتعلقى وحبى الشديد له ، وكما يفعل أى ملك حيال ربه ٠ لقد كنت أرغب رغبة شديدة فى أن تصهرا من مادة الالكتروم (وبما أن هذا كان مستحيلا » ، فقد عملت على الأقـل ، على أن يغطى سـطح المسلتين (بالالكتروم) » ٠

وتفيدنا الملكة علما ، بأن هذا العمل قد تم تنفيذه خلال سبعة أشهر فقط ، ابتداء من اقتلاع المسلتين من محجر أسوان ، حتى نقلهما الى مكان اقامتهما بالكرنك : وقد تم ذلك فى اليوم الأخير من الشهر الرابع من موسم الفيضان ، وقام « بوى ام رع » بتغطية المسلتين بالالكتروم بمساعدة احد المتخصصين فى صناعة المعادن النفيسة ويدعى « نوتى » ، وما زالت الخطوط الجانبية التى تثبت بداخلها رقائق الالكتروم واضحة حتى الآن ، فوق سطح احدى المسلتين التى ما زالت قائمـة فى مكانها ٠ أما مثيلاتها ، المحطمة ، التى وجدت على طريق البحيرة المقدسة ، فما زالت باقية من خلال قمتها الهرمية الرائعة ، التى احتفظت لنا بمنظر الملكة وهى راكعة عارية الجذع تماما وكأنها ملك شاب ، وقد أدارت ظهرها لصورة آمون الكريمة ، الجالس على عرشه ، وهـو يحاول أن يثبت تاج الملك « خبرش » فوق رأس من اصطفاها ٠ ولقد بلغ حجم هاتين الكتلتين الطويلتين ، الرشيقتين ، المصنوعتين من الجرانيت الوردى ، حوالى ١٤٠ مترا مكعبا ، وبلغ وزنهما حوالى ٣٢٠ طنا ٠ أما السفن العشر اللازمة لنقلهما بمحاذاة النهـر ، والتى زودت كل منهما بـ ٣٢ بحارا وعاملا ، فقد انسابت هابطة نهر النيـل تحت اشراف الضـابط « تتى ام رع » ، والأمير « ستب تاو » وكيل كهنة مدينة « ثنى » ، وكذلك « مين موسى » ٠

وحقيقة أن حتشبسوت لم تحضر بالفعـل مراحل تلك المغـامرة ، ولكن الاهتمام الشخصى الذى كانت توليه لها ، قد بينه وجود عرشهـا

ومروحتها الملكية الكبرى ، فوق سطح سفينة القيادة ٠ ولقد بلغ طـول سفينة النقل حوالى ٨٣ مترا٠ وتم انجاز هذا العمل تحت ادارة ومسئولية خليفة « سننموت » الذى يعتقد انه كان مريضا فى ذاك الحين ٠ انه امنحتب الذى كان يشغل وظيفة مدير الأعمال ، ويقوم أيضا بوظيفة مدير البيت الملكى ، والذى كانت الملكة قد قلدته اياها منذ وقت قريب ، ولكنها كانت قد طلبت منه عملا يتطلب الكثير من الجلد والقوة ٠ ألا وهو ادخال هاتين المسلتين فى بهو الأساطين الخاص بأبيها ٠ ولقد استلزم هـذا الأمر ، أن يتم فتح ثغرة كبيرة فى احـد الجدران بل وهـدم سقف البهو نفسه ، بالاضافة الى الاطاحة بأربعة أساطين بنفس البهو جهـة الشمال ، وكذلك أسطونين آخرين جهة الجنوب ٠ ومن المحتمـل أن الاتجاه المضاد لازاحة المسلتين من البهـو (بعد حكم حتشبسوت) لم يكن من الأمور الهينة ٠ ولذا فعندما أراد تحتمس الثالث أن يخفى هذين الشعاعين الشمسيين المتحجرين اللذين جـردا من غطائهما المصنوع من « الالكتروم » ، استدعى الأمر اقامة حائط كبير أمامهما ، يبلغ طوله ٢٢ مترا ٠ ولقد بينت بعض الحسابات ، أنه يجب الوقوف بعيدا عـن المسلتين بما يزيد عن مائة متر ، حتى يمكن تمييز المنظر الأخير عليهما ٠

نهاية حكم حتشبسوت

وبداية

حكم تحتمس الثالث

تنقصنا معلومات كثيرة خاصة بالفترة الواقعة ما بين العام السابع عشر ، والعام الثانى والعشرين ، أى الفترة التى انمحت فيها تماما ، آثار حتشبسوت . ويبدو أن مصر كانت لا تزال تتمتع بالاستقرار والهدوء اللذين ميزا الفترة السابقة . وفى العام الثامن عشر ، تم الانتهاء من نقوش جدران الدير البحرى ، بالرغم من أن المبنى نفسه لم يتم الانتهاء منه تماما . وكانت الملكة قد أمرت أيضا ، باقامة الصرح الثامن بالكرنك ، والذى كانت ستمر منه المواكب ، يتلوها ممر انتصارى . ولكن تحتمس الثالث قام باجراء تغييرات فى هذا الموقع . فأقام جدرانا عالية لتحديد هذا الممر من ناحية الشرق (وقام أمنحتب الثانى بتزيين الواجهة الجنوبية للبوابة الثامنة بأخبار مآثره وبطولاته) . ومع تزايد سلطة وسلطان تحتمس خلال العام السادس عشر ، ثم بصفة خاصة خلال العام العشرين قام باسم الفرعونة وباسمه هو أيضا بقيادة حملة الى « سيناء » تركت الكثير من الآثار « بوادى المغارة » . فهناك ، مثل الملكان ، لآخر مرة معا : ماعت كا رع وهى ترتدى تاج الخبرش الذى يرمز للملك ، أمام الاله أنوريس وتحتمس الثالث ، وهو يضع على رأسه تاج الوجهين ، ويتعبد للالهة حتحور . ومنذ العام الحادى والعشرين ، لم تعد حتشبسوت تظهر فى التماثيل والنقوش ، حتى نستطيع أن نجزم بأنها كانت ما تزال باقية حينئذ ، على قيد الحياة . وعلى العكس ، فيبدو أن تحتمس قد أمسك نهائيا ـ وبمفرده ـ بالسلطة العليا منذ العام الثانى والعشرين ، واستولى على المقصورة الحمراء بالكرنك ، وأمر بأن تحفر عليها نقوش خاصة به هو فوق الأماكن الخالية من أى مناظر . وبعد فترة وجيزة أمر بأن تنزع عنها الكسوة المصنوعة من الالكتروم من أجل اعادة استعمالها فى أعماله الخاصة وربما يكون قد أطاح ببعض صور وأشكال الملكة . ثم أمر بعد ذلك بهدم المبنى ليقيم مكانه منشآت أخرى ، كرست من أجل التذكير ببطولاته وانجازاته الكبرى بهذا الجزء من المعبد ، الذى كان بفضله أجداد الأسرة .

ونفس الكتل الحجرية الخاصة بالمقصورة الحمراء تحمل اشارات عن معبد (جسر آخت) الذى كان ابن أخى الملكة ، قد بدأ قبل ذلك ، بمباركتها وموافقتها فى تشييده ، جنوب « جسر جسرو » ، مهيمنا على المعبدين المهيبين الخاصين بـ « منتوحتب » والفرعونة . ولمرات عديدة لوحظ أن الملكة ، منذ بداية « وصايتها » الغريبة من نوعها ، لم تكن تتوقف عن اشراك الشاب تحتمس فى كافة المنشآت خلال فترة الحكم . والدليل على ذلك ، يوجد سواء فى النوبة (مقصورة قصر ابريم) ، أو فى مصر نفسها ، بالكرنك ، والدير البحرى على سبيل المثال ، حيث كان الاثنان يتعبدان للاله آمون خلال « عيد الوادى الجميل » ، وكانت مركباهما تنسابان معا فوق مياه النيل . وشوهدا متجاورين أيضا ، فى المقصورة الحمراء بالكرنك ، وفى المعابد المحفورة فى الجبل فى منطقة مصر الوسطى وحتى سيناء ، وأيضا فوق بعض التماثيل وبعضها خاص بسننموت ، كما شوهدت صورهما كمعاصرين ، فوق بعض الزخارف المعمارية والحلى والجعارين .

ولقد أراد البعض على التوالى ارجاع السبب المجهول لاختفاء سننموت ، الى انتقام مزعوم من جانب الملكة ، التى أقالته من مناصبه . ثم اتهم تحتمس أيضا ، بأنه لكى ينتقم من عمته قام بتدمير أعمالها وانجازاتها الأساسية . وبدوره ، فمن المحتمل أن يكون سننموت كان ضحية انتقام ابن الأخ الذى كان يضمر حقدا وغلا فعليا ضد الشخص المفضل لدى حتشبسوت . ولكن كل هذه النظريات لا ترتكز على أساس فعلى . وعموما ، ففيما يختص بوكيل حتشبسوت ومساعدها الأول سننموت ، فان بعض هذه التكهنات المذكورة قد انهارت من أساسها من تلقاء نفسها ، فقد عثر فى معبد تحتمس الثالث ، المطل على الدير البحرى على تمثال لسننموت منقوش على ذراعه الأيمن الخرطوش الخاص بتحتمس الثالث . والمجموعة الموجودة بمتحف القاهرة التى تمثل سننموت وهو يحمل فوق ركبتيه الصغيرة « نفرو رع » عليها نقوش تبين بدون أى غموض أو ابهام أن من حق هذا التمثال الاستفادة من القرابين المقدمة أولا الى تحتمس الثالث . ومثل هذه الاشارات والتوضيحات ، تساعد على الاعتقاد ، بأن سننموت المستشار الملكى الأول الذى كان يدين بالولاء الشديد للملكة قد أثبت ولاءه نحو الملك الشاب أيضا . ويستلزم الأمر اذن ، أن نحاول الرجوع الى كافة النظريات والتكهنات المقدمة فى هذا المجال ، وأن نتساءل عن حقيقة الخلافات والمشاكل التى عارضت ما بين الشريكين فى الحكم و « الأوفياء » لهما ، لا « المشايعين » لأى منهما .

امسك تحتمس الثالث بمقاليد الحـــكم كاملة فى العام الثانى والعشرين ، أى فى اليوم العاشر من الشهر الثانى من فصل « البرت » (فصل البذور وبدء الزراعة) فهل كان حكم عمته بمثل هذا الشؤم والنحس ؟ فبعد مرور شهرين على هذا التاريخ أى فى الشهر الرابع من نفس الموسم ، استطاع تحتمس على رأس جيش كامل الاستعداد فائق القوة ، أن يقوم بأولى غزواته السبع عشرة المنتصرة فى قـــارة آسيا ، ويبدو أن الوقت كان قد حان لكى تؤكد وتدعم هناك بالموقع ذاته قوة وسيطرة الفرعون واخماد أية حركة من حـــركات التمرد المحتملة. ولم يكن كل ما قامت به حتشبسوت الملكة من أعمال ضارا أو مجحفا بالبلاد ، أو يفوق مقدرة ومسئوليات ملكة مصر ، بل العكس هـــو الصحيح .

مضطهـــــد الفرعونـــــة

لم يعثر حتى الآن على مومياء حتشبسوت ، ولم يوجد لها أى أثر فى الخبيئتين الملكيتين . ترى ، هل دفنت حقا ، فى القبر الفسيح الخالى من أى زخارف ـ الذى كان قد أعد من أجلها فى وادى الملوك ؟ حيث لم نعثر لها على أى أثر ، سوى نقشين من المخربشات المرسومة بالحبر وعلى درجة كاملة من الاباحية والفجـــور ، قد عثـــر عليهما فى مقصورة صخرية صغيرة بأعلى معبدها بالدير البحـــرى ، ويبدو أن الفكرة من هذين الرسمين هو الايحاء بوجود علاقة مشينة مخزية بين شخصين هما حتشبسوت وسننموت وتفصح عن مواضيع أثيرة ومرغوبة خلال عصر الرعامسة ، فخلال تلك الفترة ، أصدر بعض المعـــاصرين البرديات « الماجنة » الشهيرة ، والمحفوظة حاليا بمتحف « تورين » . والى نفس هذه الفترة ، يجب أن تنسب عمليات التدميـــر الرئيسية لأشكال وتماثيل حتشبسوت ـ وكذلك صور وتماثيل أمنحتب الرابع / أخناتون ـ والتى قام رمسيس الثانى بمحو كافة الاشارات والتنويهات الخاصة بها فى القوائم الملكية . وباعادته لأسماء آمون التى كانت قد هشمت خلال البدعة الدينية الآتونية ، فمن المؤكد أنه قام بمحو كـــل ذكرى للملكة . وبالفعل ، نشاهد على جدران الدير البحرى بعض الجمل القصيرة المضافة الى الكتابات الأصلية بأمر الملك ، والتى تقول ان : « أوسر ماعت رع » (اسم التتويج الخاص برمسيس الثانى) قد قام « بتجديد » هذا الصرح من أجل أبيه آمون » . وخلاف ذلك ، فمن الملاحظ أن تحتمس الثالث نادرا ما كان يقـــوم باحـــلال اسمه مكان اسم الملكة ، كما أن ذلك لم يحدث مطلقا قبل العام الثانى والأربعين . ويحتمل أن

رمسيس هو الذى استبدل كل ما ذكر عن الملكة ، بالتنويهات والاشارات الخاصة بأخيها غير الشقيق وزوجها تحتمس الثانى ، وأبيها تحتمس الأول . وهذا التصرف الذى بقى غير معـــلل وموضح لفترة طويلة قـــد ساعد كثيرا على جعل أية محاولة للاقتـــراب من الشخصية الفـــريدة من نوعها التى تتميز بها الفرعونة حتشبسوت ، أمرا معقدا وشائكا .

حتشبسوت ، ملكة عظيمة ومجـــددة

لا شك أن حتشبسوت كانت المحركة والمحرضة على دفع حركـــة التجديد والابتكار التى استوحى منها تحتمس الثالث الكثير . فهو لم يكتف فقط باستكمال تشييد معبدها فى الدير البحـــرى ، بل وأكمل أيضا البوابة الثامنة بالكرنك . وفى العـــام الثالث من حكمه المنفرد ، تلقى من حاكم بلاد بونت أربع أشجار جديدة من أشجار البخور ، صورت أيضا بمقبرة « بوى ام رع » أحد كبار موظفى الملكة السابقين الذى استمر فى خدمـــة تحتمس بكل الولاء والاخـــلاص اللذين كان يكنهمـــا للملكة . وعندما امتلأت خزائن آمون على اثر فتوحات الفرعـــون الغـــازى ، وباتت قادرة على بذل المعدن النفيس بوفرة ، صنع « بوى ام رع » نفسه لتحتمس الثالث مسلتين من الالكتروم المصمت كان قد عجـــز عن تنفيذهما فى عصر حتشبسوت . ولقد ورد ذكر هاتين المسلتين على أسطوانة مغطاة بكتابات مسمارية باســـم « آشور بانيبال » (٩) . ووفقا للنص الآشورى ، فان كلا منهما كانت تزن ١٢٥٠ تالنتا ، أى ٣٧٫٨٧٥ كيلو جرام (حوالى ٣٨ طنا) : وقد حملها « آشور بانيبال » غنيمة الى بلده . وأضحى الكثير من أعمال الملكة السابقة مدرســـة يحتذى بها . فقد استلهم تحتمس من اهتمامها بالحيوانات ونباتات البلاد الغربية ، فأحضر بدوره عند رجوعه من غزواته بآسيا نماذج منها كون بها حديقة نباتاته الشهيرة بالكرنك أو على ما صور به هـــذه الحديقة . أما الهيكل الشمسى المفتوح للسماء بالدير البحرى فهـــو الأصل والنموذج الذى نهج عليه عند اقامة الهيكل الشمسى فى شمال صرحه المسمى بالآخ منو Akh-Menou بالكـــرنك . كمـــا أقحـــم صورته بالمعبد الشرقى ، حيث صورت الملكة بصحبة آمـــون . وكانت حتشبسوت قد أقامت نوعا من المعابد الصغيرة يبتهل فيها رعاياها الى الأربـــاب .

ولقد اغتصب رمسيس الثانى هاتين المقصورتين ، واحتفظ بهما فى نفس موضعهما ، وأقام على مقربة منهما معبدا أو مقصورة لآمـــون

باسم « آمون مجيب الدعاء » . كمـا يوجد ايضا فى ابى سمبل ، على يسار الداخل الى المعبد الكبير ، الهيكل الشمسى الذى كان قد اقامه قبل ذلك من اجل ابيه سيتى الأول ، والذى كان قد استوحى نموذجه من معبد القرنة .

وقد اهتمت حتشبسوت ، وربما سننموت، بالعقيدة الأوزيرية اهتماما كبيرا سابقا لعصرهما ، وقد احتذى امنحتب الرابع حذوهما من بعدهما، ولكن فى صورة رمزية تعبر عن رسالة أوزير الخفية التى يحملها للاجيال التالية ، وكانت حتشبسوت قد تجاسرت على تصوير نفسها فى يوبيلها فى هيئة أوزير المتوفى بضماماته وهو يمسك بصولجانيه ولكنها امسكت برمزين لتجدد الحياة كل يوم وهما « العنـــخ » و « الواس » اللذان يرمزان للشمس وربها رب الحياة . ولا ريب أن الكهنة لم يستطيعوا ان يغفروا لها مطلقا هذا التصوير الصريح الذى بدأ يجرد السر القديم الخفى من غموضه الذى اكسبه القداسة ، وهو الغموض الذى استطاعوا أن يحيطوا به الأسطورة والشعائر الاوزيرية احاطة تامة .

جلبت حتشبســوت على نفســها ، مثلهـا كمثـل امنحتب الرابع (أخناتون) الخزى والعار من وجهة النظر الدينية الرسمية . اذ تنم نقوش الكثير من منشآتها ، وكذلك منشآت معاصريها المقـربين عـن ارهاصات بالوحدانية الكامنة . التى استوحى منها « باحرى » أمير الكاب El-Kab ، والوصى على أخـوى الملكة «باحـــرى » أميـر اشار فى نصوص مقبرته الى أن مآل الموتى بجـوار الاله الواحـد ، « الكامن بداخل البشر » ، « رب الحكماء » (١٠) .

« ليتك تلحق بمكانك فى رب الحياة (....) . وبذا ، سوف تتأمل « رع » عند أفق السماء . وسوف ترى آمـــون ، عندما يشرق (....) ، وسوف تطرد عن نفسك كل مساوىء الأرض ، وسوف تمضى الى الأبد فى طمأنينة وسكينة القلب ، فتنال حظوة الرب الكامن بداخلك » .

كما أن كاهن الملكة الكبيــر ، المدعـو « حابو سنب » ، لم يتـوان عن تقديم الدليل على تصوفه ، اذ قال :

« لقد انطلقت نحو موضعى السرمدى ، وحلقت روحى فى السماء ، بينما بقى جسدى مسجى فى قبرى : لقد لحقت بربى » .

ولا شك أن هذا التحرر الذى قد ينزلق الى المساس بعقيدة عتيقة ، لم يغفر مطلقا للملكة ، ولم يقبل لفترة طويلة خلال حكم أخناتون الذى أراد أن يجعل منه منهاج حياته . وبذا ، يجب أن تنسب مثلا ، الى كل

من سيتى الأول ، ورمسيس الثانى أعمال العنف والقسوة الفعلية حيال هذين الملكين . لقد استعانا بكل السبل والوسائل ، لمحـاولة محو كـل من اخناتون وحتشبسوت من التاريخ .

ومع ذلك ، فمن المؤكد ، أن روح وصحة وصواب ذلك الاصلاح الدينى ، قد ايقظ فى رمسيس الثانى ، حاسة الانتهازية . فأدانه صراحة و « علنا » . ثم بعد ذلك كأى مغتصب محنك ، أخذ يعبر عنه بلغــة رمزية كفيلة بالا تصدم المشاعر التقليدية : ففى نفس الوقت الذى يبدو فيه من اكثر الثالبين (العائبين) المغتابين قسوة وشراسة للثــائرين ، عمل بشـــكل ما على تكملة اعمالها ، ولذلك فان رسالة حتشبســوت الأخيرة بدلا من أن تختفى وتنمحى من الوجود أصبحت حقيقة واقعة .

الجزء الثالث

المرأة فى مصر

(١)

المرأة الحرة والأمة

المصرية

مكانتها فى المجتمع

كلما توغلنا على مدى آلاف السنين فى حضارة النيل المصرى ، وفى الوقت الذى بدأت فيه المخلوقات تعبر بالنقش – أو بالتشكيل – عن اهتمامات معيشتها وأحوال حياتها ، تطالعنا صورة الرجل أو المرأة ، كل فى الإطار والمجال الذى اختارته من أجله الطبيعة . وفى هذا الإطار صور الرجل كمحارب ، وصياد ، وربما ساحر أيضا . أما الصورة الأنثوية ، فهى تعبير عن الحب ، والخصب أو المشاركة الوجدانية ، أى الحبيبة ، والأم ، والباكية النائحة (أو الندابة) ، والتى تثير الحب والرغبة ، والتى تعطى الحياة للمولود أو تعنى بالميت الراحل نحو أبديته وخلوده . وداخل إطار نفس هذه الأدوار الأساسية تبدو المرأة مرغوبة ومشتهاة ، محترمة وحانية : ومهما كان الأمر ، فهى تجسد نوعا من الجاذبية ، والضرورة ، والتعزية .

ولهذا ، نجد أن الصورة الأولى للمرأة المصرية فى صور ما قبل التاريخ ، تبين لنا أجساما ذات تقاطيع ممتلئة وموضحة فى شىء من المغالاة غير اللائقة مظاهر أنوثتهن . وغالبا ما يحملن على أذرعهن طفلا صغيرا – فى حين أن النائحات أو الراقصات الجنائزيات ، يتميزن بأرداف مائلة للاستدارة والامتلاء ، وخصور واهية نحيلة ، ونهود صغيرة ، يبدون دائما وقد رفعن أذرعهن الرشيقة الاستدارة فوق رؤوسهن فى حركة دائمة مستمرة منذ آلاف السنين .

ويتصل اكتشاف بعض التماثيل الصغيرة المصنوعة من العظام والعاج ، ببعض القبور الخاصة بأواخر العصر الحجرى الحديث ،

يمكن أن نلاحظ ، أنه منذ تلك العصور ، من عصور التاريخ ، كانت النساء تتدثرن بما يشبه المعطف ، تحلى احدى كتفيه هدب من القماش على شكل ثنيات ، أو أن نتأمل باعجاب تشكيل جسم دقيق التكوين كنموذج انثوى : جسم ذو سيقان طويلة رشيقة ، وحوض متسع ، وخصر نحيف ، وصدر ناهد مرتفع · وبالنسبة للنموذجين المذكورين ـ المرأة العارية أو المرأة المرتدية ملابسها ـ يلاحظ الشعر البديع الساحر ، الطويل الى حد ما ، ذو الخصلات المنسقة ، التى تربط من الخلف بشريط انيق معقود · ومنذ ذلك الحين ، لم تتخل المرأة المصرية عن هذا التانق والدلال الواضح للعيان الذى استمر خلال عدة قرون .

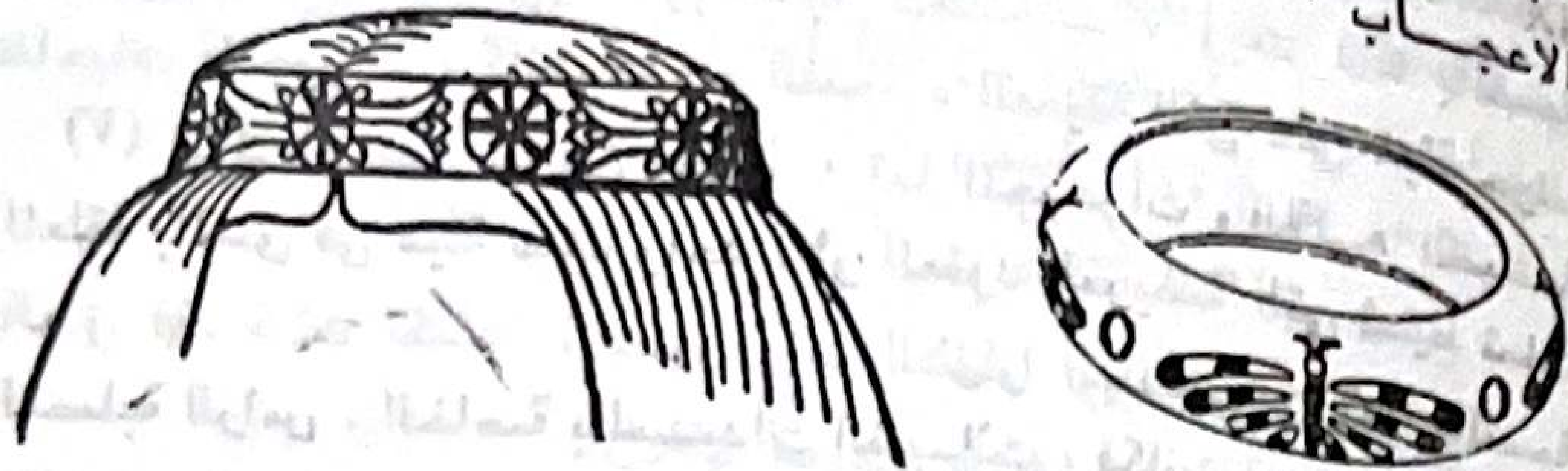
ترى ، ما هو شعور وانطباع السائح وهو يتأمل صور هذه المخلوقة الساحرة التى تظهر بكثرة من خلال النقوش البارزة والرسومات على جدران المنشآت التاريخية ، أو فى المتاحف الكبرى للآثار ؟ ، وبداية من الدلائل الأولى وحتى آخر الآثار قبل مجىء الاسكندر ، توقف دائما نظر الزائر عند منظر السيدة الجالسة فى وقار وجلال أمام مائدة قرابين والنذور ، أحيانا أمام زوجها ، وهما يتناولان القرابين معا من أجل راحتهما الأبدية · وهى تتجول بحرية كاملة فى ثيابها البسيطة أو المتأنقة وفقا للظروف ، فى الحقل ، أو فى المصنع أو الورشة ، أو من خلف مشاغل أمومتها فى بيتها ، أو وهى متزينة خلال احدى حفلات الاستقبال ، أو الأعياد : انها تتساوى تماما مع زوجها · وفى هذا المنظر ، تكون بجوار زوجها ـ وقد أحاط بهما أحيانا أبناؤهما ـ تلك المجموعات الرائعة المنحوتة من قطعة واحدة من الحجر والموضوعة فى مقاصير المقابر · ولقد أراد البعض ، دون جدوى ، أن يفسروا التباين فى طول القامة أو وضع هذا الثنائى أو حتى وضع اذرعتهم بمثابة علامة من علامات العبودية أو اللامساواة : وبالتحليل تنهار هذه النظرية من تلقاء نفسها · فسواء أكان الرجل جالسا أم المرأة واقفة (والعكس قائم أيضا) وحجم الرجل يفوق ، فى معظم الأحيان ، حجم زوجته ، فان ذلك يبين أن جسم الزوج يعتبر اكثر ضخامة وقوة من جسم زوجته الأقل ضخامة ·

نموذج جسدى ، تأنق وأسلوب العصر :

ان تلك المجموعات تبين فعلا الشغل الشاغل والرغبة لدى كل مصرى فى : توافر الارتباط الوثيق بين الزوجين ، وارتباطهما بالخلية الاسرية ·

ان كافة آثار مصر القديمة تبرز بوضوح هذا الجمال الحامى ـ السامى ـ شبه الأوروبى فى أغلب الأحيان ـ وتلك الرشاقة والأناقة

الطبيعية التى يتمتع بها أهلها ، والتى تزداد جمالا بالنسبة للمرأة خاصة التى تتميز عادة بلون بشرة أفتح من بشرة الرجل وبأناقة فى ملبسها وتأنق وفتنة ودلال تبين عن رغبة أكيدة فى الاستحواذ على الاعجاب ·



شكل (٢٦) اكليل وسوار

انها بكل تأكيد ، صورة للمرأة المثالية فى المجتمع الراقى ، ولكنه مثال يشد الانتباه ، ويجعل من يراه يحاول الاقتراب منه بقدر الامكان : قامة رشيقة ممشوقة ، نهدان صغيران ، قد ممشوق ، ساقان طويلتان ، وكلها نسب جسدية وضحت من خلال حقبة ما قبل التاريخ · ومما يذكر أن البدانة وزيادة الوزن كانتا من الأمور غير المرغوبة تماما · فلم يعثر فى مقابر سيدات المجتمع الراقى ، على تلك الأوانى الخاصة بنبات « شعر الأرض » وسيقان النباتات المائية ، وزهور اللوتس التى تعمل على اضفاء الاستدارة والامتلاء ، التى كان يفضلها بعض صغار الوجهاء والأعيان · أما الفلاحات فلأنهن كن أكثر تعرضا للهواء الطلق والشمس من سيدات المجتمع ، فقد كن يتميزن بلون أسمر يختلف تماما عن البشرة شبه العاجية التى كانت تتمتع بها معظم نبيلات طيبة ·

وكانت أوضح علامات الاهتمام تركز أولا على تصفيف الشعر ، فكانت تلجأ الى التلاعب بتشكيله على هيئة خصلات مضفرة أو متموجة· وقد اختلف تصفيف الشعر وفقا لاختلاف الحقب التاريخية وتباين الطبقات الاجتماعية ، فكانت الشعور المستعارة تحيط بالوجوه فى هيئة كتلة قصيرة ، ولكن جذابة وجميلة ، أو تحيط بها أيضا فى هيئة حرملة ضخمة تنسدل الى ما بعد الثديين · وكانت الشرائط والورود تكمل هذا التزين الأساسى من أجل السحر والاغراء والفتنة · وتطورت الثياب أيضا ، بداية من أكثرها تحشما الى أكثرها تكلفا وتصنعا ، وبداية من الرداء البسيط للغاية ، الى الثوب المتأنق المصنوع من الكتان فى شكل كسرات ، تطورت دائما وفقا لنفس مبادىء الخطوط السليمة والترف والأبهة الذى لا يتضمن مطلقا أى أثر للمغالاة والافراط · ولكن

الاهتمام الدائم بأن تبرز معالم الجسم الأنثوى دون أى تحشم مزيف ، كان هو القاعدة السائدة · ففى الدولتين القديمة والوسطى ، كانت هناك حمالتان عريضتان تمسكان غالبا برداء المرأة المصنوع من الكتان الأبيض ، مبينة بذلك فتحة عميقة عند الصدر (Décolte) على هيئة حرف (٨) · وبالنسبة للخادمات ، وبعد ذلك بالنسبة للناحبات المأجورات ، كانت هذه « الفتحة » العميقة التى على هيئة حرف (V) تترك الثديين عاريين أحيانا · أما المجوهرات واللآلىء الضخمة المعلقة بالعنق فى هيئة صف واحد ، أو العقود العريضة التى تحيط تماما بالعنق فقد كانت تكملها الأساور ذات الطراز الهندسى · أما بالنسبة لعصابة الرأس ، الخاصة بالسيدات النبيلات ، فكانت تصنع من الذهب وتزخرف بأشكال زهرية · ومنذ أن دخل الغزاة الهكسوس شاع استعمال بعض أدوات الزينة الأخرى ، وفضل على الفور استعمال الأقراط · وفى بداية الدولة الحديثة أيضا ، وبعد الغزوات الأولى فى المناطق الآسيوية المجاورة ، حيث وجد المصريون ترفا وبذخا ، ووفرة فى الثراء، لم يعتادوا عليها من قبل ، ويلاحظ فى كافة المجالات تغيير وتطوير فى طراز الأزياء ، تبلور فى تزايد مظاهر الدقة المتناهية فى استعمال خامات الأزياء وأشكالها · ولكن لم يكن هناك مطلقا أية ظاهرة من مظاهر المغالاة والتطرف فى التفاصيل ، أو فظاظة الأسلوب ·

ويكشف تصفيف شعر النساء عن تكوينات واقعية ، ففى بعض المناسبات الكبرى ، نرى الشرائط تعود للظهور ثانيا ، والضفائر المتنوعة كانت تكون غطاء أنيقا للرأس ، حيث يعمل تلاعب الأضواء على ابراز تألق وجمال الخصلات المضفرة تضفيرات متباينة ، والتى كان يعتليها غالبا فرع لين من زهور اللوتس التى تتدلى متفتحة فوق الجبين · وكان اللون الأسود للشعر المستعار يتضاد مع اللون الأبيض للتهدلات الرقيقة المصنوعة من الكتان ذى الكسرات الشفاف غالبا لأثواب طويلة ذات أكمام عريضة صممت على هيئة « شال » ، ينتهى « بأهداب » ، معقود تحت الثديين ، وتختلط أهدابه هذه مع أهداب الجزء الأسفل من الثوب ، الذى يتسع عند الذيل · وبلغ الترف والبذخ أوجه ، خلال حكم كل من أمنحتب الثالث وأمنحتب الرابع ، تلك الفترة التى كان ثوب المرأة يبدو فعلا وكأنه « ملاءة مبللة » التصقت كسراتها المتعددة بالجسم ·

ولقد استمر هذا الثوب الفاخر الذى كان يغطى دائما بمعطف من نفس الطراز ، حتى أواخر عهد الرعامسة · ولكن لم تتعد المرأة المصرية أبدا الحدود اللائقة فى اى وقت من الأوقات ، الا خلال الاحتفالات

والأعياد والمآدب ، حيث كانت العطور والدهانات المعطرة تنثر بكميات غزيرة على المدعوين · وهنا ، كان الجزء الأعلى من الأثواب الجميلة الناصعة البياض ، يتخذ اللون العنبرى للزيوت العطرية ، وكانت هناك أيضا القطع المخروطية الشكل المكونة من دهون عطرية ، وكان الغرض منها أن تذوب ببطء شديد من قمة الشعر المستعار الى بقية الجسد :

(ها هو) رداء أبيض ،
وطيب من أجل كتفيك ،
واكليل من الورود لعنقك
(فاملئى) أنفك بأريج الصحة والمرح
(وعلى رأسك) ضعى العطور (٠٠٠٠٠)
ولتمضى يوما فى الاحتفال والمرح ·

وتبعا للمظهر غير اللائق الذى تسببه الدهانات العطرية التى كانت تلطخ وتبقع الأثواب الرقيقة الشفافة خلال كل احتفال ، فان هذا الوصف قد يفسر بأنه يشير للنساء اللاتى يحضرن « الوليمة الجنائزية » · ومع ذلك ، فان الكتابات الشعرية قد أشارت مرات عديدة الى هذه الدهون العطرية التى كانت تتخلل أنسجة قماش الأثواب التى ترتديها النساء فى مختلف المناسبات :

« سوف أجعلك ترى جمالى ،
وأنا فى رداء من الكتان الملكى الرقيق للغاية ،
المضمخ بخلاصة العطور المنعشة الشافية الشذية ،
والزيوت العطرية » ·

وها هى أيضا بعض الأمنيات التى ذكرها أحد العاشقين :

« ليتنى فحسب أغسل ملابسها
لشهر واحد فقط
وهنا ستكون سعادتى ونشوتى فى أن أقوم بازالة الزيوت
وال « مورينجا Moringa » التى أشربت ثوبها الشفاف » ·

وبذا ، نجد أن أثواب السيدات كانت دائما من الكتان الأبيض · ولم تدخل الألوان ، الا فى الزخرفة بالأحزمة ، المنسوجة على ما يبدو · ولم تر المرأة المصرية فى أية حال من الأحوال ، وهى متزينة بأحد هذه الأثواب ذات الدوائر (Volants) ، والمطرزة والمجملة بألوان عديدة والتى كانت ترتديها نساء الشرق الأدنى · ولكن هذه الأثواب الأجنبية قد شدت بالرغم من ذلك انتباه رعايا الفرعون ، الذين جنحوا

الى تصويرها فى رسوماتهم الزخرفية منذ فترة مبكرة ، ولقد امر احد حكام (٢) « بنى حسن » فى عصر الدولة الوسطى ، بان يرسم فى مقصورة مقبرته المحفورة فى الصخر ، منظرا يمثل عرضا لمجموعة من البدويات اللاتى كن قد جئن لزيارته بمصاحبة أزواجهن ٠ وكن يرتدين أثوابا مستقيمة ، لا يتعدى طولها منتصف « سمانة » الساق ، وقد طرزت أطرافها بما يشبه « الفوستون » ، وكانت تترك احدى الكتفين مكشوفة ، وزين الرداء كله بما يشبه النقط الصغيرة ، والشبك ومختلف الأشكال الهندسية ، التى لا يعتقد مطلقا ان المصريين قد زينوا ملابسهم بها ، بل طنافسهم وبسطهم فقط ٠ وخلال نفس تلك الفترة ـ وربما ردا على ذلك ـ نرى ان الأثواب الملتصقة بالجسم التى كانت ترتديها « حاملات القرابين » بها زخارف شبكية ، مطرزة أو ملونة على قدر كبير من الطرافة والأناقة ٠

كما أن النعال البسيطة ، التى تربط بواسطة سيور قصيرة ، كانت ترتديها أحيانا ، أكثر النساء يسرا وثراء ٠ وخلال الدولة الحديثة أصبح استعمال مثل هذه « الصنادل » أمرا شائعا ، وفى عصر الرعامسة أصبح شكلها يتميز بالقدمة لأعلى وفقا لطراز « الجيزوم » ٠ وكانت تصنع من الجلد الأبيض ، وقد يضاف اليها لتزيينها ، بعض الترصيع من الجلد الملون ، أو حتى بعض الزهور الذهبية ٠

ولن تكون الصورة المختصرة لسيدة النيل كاملة ، لو اننا لم نشر الى مساحيق التجميل ، التى كانت خضراء فى البداية ، ثم سوداء ، لزيادة تحديد عمق العيون الواسعة المتألقة كالجمر ، والتى كانت قزحيتها ترتفع قليلا نحو قمة قرنيتها ، مما يضفى على النظرة سحرا متراخيا ناعما ٠ وسوف نتأمل على مهل ، كافة أوعية العطور والطيب والدهانات الخاصة بالسيدة المصرية ، عندما ندخل معا الى بيتها ٠

القانـــون العـــام للمـــراة

المساواة بين الرجـــل والمـــراة :

هكذا ، كانت تبدو ، وفقا للمظاهر ، المراة المصرية كمواطنة سعيدة فى بلد يبدو أن المساواة بين الجنسين فيه كانت منذ القدم أمرا طبيعيا تماما وتمتد جذورها الى أعمق الأعماق ، فلم تثر هذه المشكلة مطلقا فى يوم من الأيام ٠ ولقد بين « مريكارع » ذلك منذ وقت مبكر ، فى « تعاليمه » عند قوله ان الآدميين « قطيع الاله » ، ينعمون بمصير يحسدون عليه ، « فلقد خلق الخالق السماء والأرض من أجلهم ، ودفع

بعيدا باخطار الفيضانات من أجلهم ٠ وخلق النسيم لأنفاسهم ، لأنهم على شاكلته خرجوا من بين أعضائه ٠ ومن أجلهم يتألق فى السماء ، ومن أجلهم خلق أيضا النبات ، والحيوانات ، والأسماك ، لاطعامهم » ٠ فالآدميون كالأرباب ينعمون بهذه المساواة والتكافؤ فى الخلق ، وهى فكرة تمتد جذورها الى أعمق أعماق المعتقدات الدينية المصرية ٠ ولم يكن من الممكن أن ينتظر أقل من ذلك من شعب جعل من الالهة ايزيس « سيدة الجنس البشرى » ، والأخت اليقظة الحريصة ، والزوجة الوفية المخلصة، والمحبة الودود التى تحولت الى ساحرة ليتفتق ذهنها ، بفضل مهارتها، عن السبل التى كفلت دوام واستمرار وفحولة أوزير بعد وفاته وضمان نقل خلافته الى ابنه ٠ لقد رسخت جذور هذه المساواة بين الجنسين فى العـادات والتقاليد السائدة بين أهالى وادى النيل ، حتى ان نفس الاسم العلم كان من الممكن أن يطلق على المراة أو الرجل على حد سواء ، دون أى تمييز ٠

وبذا ، كانت مصر ، فى نطاق العصور القديمة ، البلد الوحيـد الذى خصص فعلا للمراة وضعا قانونيا ، يتساوى مع الرجل ٠ ويبدو هذا واضحا ، دون أى غموض ، طوال فترة حكم الدولة القديمة كلهـا ، ويتألق بوضوح ساطع ، خلال الدولة الحديثة ٠ ترى ، هل كان الأمر كذلك خلال الدولة الوسطى ، تلك الحقبة العظيمة التى تضمنت اصلاحـا وتقويما وطنيا فيما بين فترتين مظلمتين سادتهما القـلاقل والاضطرابات؟ هناك بعض الدلائل التى تشير الى بعض الانحسار الطفيف فى بعض الحقوق المقر بها للمراة ، ولكن ليس هناك شىء مؤكد تماما ، كما أن نقص المستندات المهمة ، يعتبر من العـوامل الأسـاسية التى تسـاعد على التردد والشك فى هذا الشأن ٠ ولذا ، فان الدراسة الدقيقـة للتسلسل التاريخى للأحداث يمكن أن تكون أحيانا عسيرة وعويصة ٠ وأخيرا ، فان الدلائل التى تم العثور عليها ، وجميعها متفرقة ومتشتتة ، لا تسمح حاليا بتقديم سيرة ذاتية كاملة لسيدة مصرية معروفة ٠ ومع ذلك ، فان نوعية النصوص تكفى للتأكيد برؤية شـاملة من الامتيازات التى كانت تتمتع بها المراة المصرية ٠ وبداية من القرن التاسع عشر ، حـاول « رفيـون Revillon » و « باتورى Paturet » ، وهمـا من العلمـاء المتخصصـين فى القـانون المصرى من خـلال الكتابات الديموطيقية (الشعبية) فى العصور المصرية المتأخرة ، أن يحـددا الخطوط الرئيسية للوضع القانونى للمراة على ضفاف النيل (ثم تتابعت الدراسات عن الحقب السابقة ، وان كانت تبدو أقل اسهابا واطنابا ، وخاصة ما قام به كل من تيودوريس Thiodoris » ، و « شفيق عـلام » و « بستمـان Pestman » ٠ ولكن كل الدلائل تؤكد أن المراة المصـرية

كانت تتساوى تماما مع الرجل من الناحية القانونية ، وتعامل مثله على قدم المساواة . وكذلك كان الحال ، فيما بين الأبناء والبنات . وكانت المرأة تستطيع أن تكون صاحبة أملاك ، وأن تبرم عقودا ، وأن تلتزم بكامل حريتها . ولا شك أن الأم كانت بمثابة المحور الأساسى للعائلة ، ولكنها لم تكن تستمد من ذلك هذا الاستقلال . فكانت تمتلك كافة الحقوق، منذ ولادتها ، ولا يطرأ أى تغيير على وضعها القانونى بسبب زواجها أو أمومتها . وكانت أهليتهاكاملة ومطلقة ، حالما تبلغ سن الرشد وتتزوج ، ويبدو أن الفتاة غير المتزوجة كان يمكنها ابرام أية عقود ذات صيغة قانونية حالما تستطيع فهم كنهها وتقدير مداها .

حـرية المـرأة :

لم تعرف المرأة المصرية الوصاية التى خضعت اليها المرأة الرومانية، كما أن « سلطة الأبوين » وخاصة سلطة الأب — كانت قبل كل شىء نوعا من الرعاية . وفى مجال الميراث والتركة كانت الأيلولة تتطابق بين الرجل والمرأة . ويبدو أيضا أن المرأة المصرية — فى اطار بعض القواعد والأسس ، ومن ضمنها طبعا موافقة الأب — كانت حرة نسبيا فى اختيار زوجها المقبل . ولا ريب أن هذا الاستقلال قد بلغ مداه خلال الأسرات الوطنية المتأخرة لدرجة أن سوفوكليس ويوربيديس قد بلغا فى الكثير من أعمالهما فى الحط من شأن الرجال المصريين فصوراهم فى صورة : « من يقبعون فى ركن من الدار بينما الزوجة تدير كافة شئون الأسرة بنفسها » : بعد ذلك حدث رد فعل معاكس عندما سن بطلميوس فيلو باتور Ptolémeè Philopator قوانين « Prostagna » الشهيرة ، التى أعادت النظر فى مفهوم المساواة بين الجنسين .

الكفاءة القانونية للمرأة الحرة

فضائل المـرأة :

يبدو أن المفهوم « الطبقى » لم يكن له أثر فى المجتمع المصرى ، واذا نحينا جانبا نظام الاماء ، فاننا سنجد أن كافة الامتيازات قد أقر بها للمرأة مثلها مثل الرجل ، فكانت المرأة تنادى باسمها ، الذى كان يسبق منذ الدولة الوسطى ، اذا كانت متزوجة ، بلقب « نبت — بر Nébet-per » أى « ربة البيت » . ولا شك أن هذا هو اللقب الذى تشتهيه وترغب فى الحصول عليه فتاة شابة : وهذا هو ما تقوله تلك الشابة الصغيرة العاقلة :

« انت ، أكثر الرجال وسامة ،
اننى أرغب (فى رعاية) شئون ممتلكاتك
عندما (أصبح) ربة بيتك .
ويرقد ذراعك فوق ذراعى
و (بذا) يساعدك ويعاونك حبى » .

أما (البرجوازية) الصغيرة القاطنة فى نطاق بعض الضواحى السكانية ، أو القرى المهمة ، فكان يطلق عليها غالبا لقب : « عنخ ان نيوت » . أى « من تعيش بالمدينة » . وكانت المواطنة الحرة التى تملك الأملاك والأموال ، تعرف بلقب « نمحيت » . واذا رغبت كما كان يحدث أحيانا ، فى تبنى أبناء احدى الاماء ومنحهم بعض أملاكها ، فان هؤلاء المعتقين يصبحون بدورهم « نمحو némehou » .

ولقد ادعى البعض أن المرأة فى عصر الأهرامات ، لم تكن تتمتع بهذا القدر من الحقوق التى كانت تتمتع بها فى عصر الغزوات الكبرى لتحتمس ورمسيس . ولكن يبدو أن وضعها لم يكن ، أقل ارضاء عما كان عليه فى الأزمنة الأولى . فان امتيازاتها كانت هائلة وتتوافق مع ما كانت تستحقه من احترام .

وسوف نرى بعد ذلك ، الأحوال القضائية والعاطفية ، التى كان يتم فى أجوائها زواج المصرية . ولكن علينا أن نبين ، أنه اذا كان وضع المرأة القانونى ، منذ الدولة القديمة يتساوى مع وضع الرجل ، فقد كانت هناك ضرورة يتحتم توافرها من أجل اتمام زواجها : أولا ، أن تكون عذراء . وبعد ذلك ، ولكى تحتفظ بوضعها كسيدة متزوجة ، عليها الا تقترف جريمة الزنا والا عوقبت بالموت . وان لم يستدل على دلائل فعلية تبين تطبيق مثل هذا الحكم ومثل هذه العقوبة القاسية ، سوى الحكايات والقصص الشعبية التى تهيب بالزوجات المتقلبات أن يتبعن طريق الحكمة والتعقل . فمثلا ، قصة « الزوج المخدوع » (٤) التى قصت على مسامع الملك خوفو ، للتسرية عنه ، كانت نوعا من التحذير الجاد . وهى قصة زوجة أحد السحرة (كاهن قارىء) يدعى « أوبا أونى Oubaône » ، التى اتفقت على موعد غرامى مع أحد القرويين من الأحياء المجاورة ، وكانت قد شغفت به حبا (وهذا يبين أنها كانت حرة التصرف) . ولكن البستانى الذى يعمل لدى زوجها وشى بها اليه ، فقام هذا الزوج بصنع تمساح يبلغ طوله ٧ بوصات من الشمع وبث فيه الحياة بسحره . وبعد أن انتهى العاشقان من لقائهما المحرم بالمبنى الصغير الملحق بالحديقة ، وعندما أسدل الليل ستاره اتجه العاشق الى البركة ليغتسل ، وهنا ألقى البستانى وراءه فى المياه

التمساح المصنوع من الشمع ، الذى تحول الى تمساح حقيقى يبلغ طوله سبعة أذرع ، وانقض على القروى ، ثم جره الى أعماق المياه . « أما زوجة الكاهن الساحر فقد أمر الملك بأن تساق الى أرض فضاء ، شمال القصر ، لتحرق وينثر رمادها بالنهر » .

ولا شك أن هذه العقوبة المثالية قد ذكرت على سبيل الارشاد والتوجيه ، ولم يكن هذا فى عهد الدولة القديمة فقـط . ففى عهد الرعامسة ، تضمنت قصة « الأخوين » مغامرات لا يصدقهـا عقل ، بطلتها زوجة كانت تضمر نوايا واضحة لخيانة زوجها مع أخيه الأصغر الذى صدها ، وكانت قد حاولت اغواءه على نسق امرأة العـزيز . أما الأخ الأكبر ، فعندما علم بالحقيقة فى نهاية الأمر ، قتل المرأة الخائنة . ولا شك أن الهدف الأساسى من وراء كل ذلك هو توضيح أن الوفـاء والاخلاص ، كان يعد من الأمور المطلوبة عامة من الزوجة ، وأن انتهاكه أو خرقه ، كان اثما فادحا (٥) .

الأمـلاك الحـرة ، والمـواريث والوصـايا

استقلال دائـم ، أم خســوف ؟

منذ الأسرة الثالثة ، كان للسيدة « نب سنت » والدة « متن » أحد كبار موظفى الدولة ، مطلق الحرية فى ملكية واستخدام ميراثها . وكتبت هذه السيدة وصية لصالح أبنائها (كان نصيب ابنها متن منهـا خمسين أرورا) . فمن الواضح ، أن كل عضو من أعضاء أى أسرة : الأب ، والأم ، والأبناء ، كان يمتلك ثروته الخاصة به ، وله الحرية فى التصرف فيها كيفما شاء . ولم تكن الزوجة تخضع لسلطة زوجها ، أو لسلطة ابنها الأكبر . كمـا لم تكن تخضـع لأية وصاية أو وكالة ، فقد كانت تتساوى معهما سواء فى المكانة أو فى الحقوق . وكان يمكنها أن ترث زوجها كما يرثه أبناؤه . ولا شك أن المساواة الميراثية بين الأبناء والبنات تؤكد التكافؤ القانونى بين الجنسين . ومن هذا المنطلق ، يصبح للمرأة مطلق الأهلية لكى تقتنى وتمتلك ، مثلها مثل الرجل ، املاكا عقارية .

أما فى أواخر الدولة القديمة ، فيبدو أن الزوجة لم تكن تكلف بالوصاية على الأبناء القصر فى حالة وفاة الأب فى بعض الأحوال . وفى الدولة الوسطى ، بينت احدى برديات « كاهون » أن الزوج قبـل أن توافيه المنيـة يستطيع أن يفـرض زوجتـه وصـيا على أولاده الذين لم يبلغوا سن الرشد . ويضيف النص : « أما عن مقبرتى ، فانى أوصى بأن أدفن بها مع زوجتى ، وأمنع أى شخص من معارضة ذلك » .

أما البنات ، فيستطعن ، اذا لم يكن هناك أولاد ، أن يقمن بالطقوس الجنائزية لأبويهما ، وبذا ، يعملن على احياء اسميهما » ، وكان من الممكن للابنة أن تكرس لوحا جنازيا لروح أمها (١) .

ولقد اعتقد الكثير من المؤرخين (٧) أن هناك بعض الانحسار فى حقوق المرأة خلال الدولة الوسطى ولكن هذا أمر غير مقبول ، الا فى أحوال نادرة . وتقـدم لنا احدى برديات « كاهون » التى تتناول وصية يرجع تاريخها الى العام التاسع والثلاثين من حكم الملك أمنمحات الثالث، الدليل على الغـاء ارث كان أحد الأشـخـاص قد أوصى به فى البداية لصالح زوجته . وبعد أن انفصـل عنها بالطلاق ، ألغى هذا العقـد وأبرمه ثانيا لصالح زوجته الجديدة :

« اننى أنقـل وظيفتى كرئيس للجماعة الى ابنى ايمحتب بن مرى المعروف باسم ايوسنب ، بشرط أن يكون « عكاز شيخوختى » ، فقد أصبحت عاجـزا (....) ، أما عن عقـود نقـل الملكية التى كانت قـد أبرمتها سابقا لصالح أمه ، فقد فسختها . وأما عن منزلى القائم فى منطقة حات مادت (؟) ، فهو من أجل الأبناء الذين أنجبتهم من سات نبت ـ نينيسو ، ابنة حارس مجلس المقاطعة ، بكل ما يحتويه (...) » .

وخلاف ذلك . يلاحظ أنه فى أوائل عصر الأسرة الثالثة عشرة (حوالى ١٧٨٥ قبل الميلاد) ، فان المرأة المتزوجة كانت تتمتع باستقلال قانونى كامل ، لدرجة أنها كانت تستطيع أن تقاضى أبيها أمام المحاكم حتى تتمكن من حماية أملاكها الخاصة . وبذا ، فان السيدة « تحنـوت Tehenout » كانت قد قدمت شـكوى ضـد أبيهـا أمام القضـاء الذى فضل زوجته الثانية ، على حساب أبنائه من زوجته الأولى (أمها) قائلة :

« لقد اقترف أبى عملا غير شرعى (؟) . فان لديه فى حوزتـه متعلقات خاصة بى كان زوجى قد قدمها لى من قبل . ولكن (أبى) نقل ملكيتها الى زوجته (الثانية) سنب تيسى ، فهـل أستطيع أن استرد متعلقاتى ؟ » (٨) .

الارث :

فى حالة الوفاة ، كانت ممتلكات المتوفى ، وهذا أمر مثبت ، تؤول طبيعيا الى من يخلفه من أفراد عائلته الذين على قيد الحياة : الأبناء الشرعيين يحصلون على حصص متساوية ، بدون أى تمييز لكونهم اناثا أو ذكورا ، كما سبق أن ذكرنا . وان لم يكن للمتوفى أولاد أو بنات فان كل شىء يؤول الى الزوجة .

وقد يحدث أيضا أن « يوصى أحد الآباء بجزء من أملاكه ، ويترك للقانون مهمة تحديد الباقى بالتساوى » . وهذا ما تبينه لنا احدى لوحات المتحف المصرى (٩) ، التى ذكر بها أن أحد الآباء ، أراد أن يميز ابنته المفضلة ، وكانت طيبة وبارة به ، بمنحها هبة خاصة ، وفى نفس الوقت لا يحرمها من الحصة التى ستحصل عليها من تقسيم الميراث بينها وبين اخوتها وأخواتها . ولكى تبين المنتفعة صحة وشرعية هذا السخاء من جانب والدها ، نسبته فى شىء من البراءة المصطنعة الى منف الهى ، قالت متسائلة :

« من هو الاله ، أليس هو الأبوين ؟ » .

كما أن الزوجة كانت تستطيع أن تحرم بعض أبنائها من الميراث متصرفة بذلك فى أملاكها الخاصة التى تكون قد ورثتها أو حصلت عليها من خارج نطاق حصتها من الممتلكات فى حياتها الزوجية . وهذا هو عين ما فعلته امرأة متوسطة الحال ، تدعى « ناونختى » ، زوجة أحد عمال جبانة طيبة (١٠) . ومنحت ارثها خاصة لاحدى بناتها ، وحرمت ثلاثة من أبنائها الاخرين ، وهذه هى الحجج التى قدمتها هذه السيدة فى وصيتها :

« لقد قمت بتربيته وتنشئة هؤلاء (الأبناء) الثمانية ، خدمكم هؤلاء ، وقدمت لهم كل ما يلزمهم كى يستطيعوا أن يؤسسوا بيتا من كافة الأشياء التى تكون من أجل من هم فى مثل حالتهم . ولكن انظر ، هأنا قد أصبحت هرمة ، وانظروا ، انهم لايعنون بى بدورهم ، أما كل من وضع منهم يديه على يدى ، فاننى أمنحه بعض أملاكى ، وأما من لم يعطنى شيئا ، فلن أمنحه شيئا من أملاكى » (بعد ذلك تأتى قائمة بالشهود) .

ولكن ، يبدو أن الأمثلة على مظاهر الجحود ونكران الجميل لم تكن متعددة أو متكررة .

اجراءات قضائية :

وفى نفس تلك الفترة ، وفى بلاد ما بين النهرين (العراق القديم) كانت حقوق المرأة فى مجال الارث ، محدودة للغاية ، فى حين أنها فى مصر ، كانت قد أصبحت رسمية ، والحالة الشهيرة التى وصلت الينا والتى بدت فيها نساء ذوات أهلية للحصول على ارث ، هى قضية « مس » الشهيرة ، المتعلقة ببعض المزايا العسكرية التى كان قد منحها فى الماضى الملك أحمس (أوائل الأسرة الثامنة عشرة) . وكانت مثل هذه الثروة المكونة من ملكية مشتركة ، لا تورث (١١) . ولكن بالرغم من هذا الشرط ، فقد طالب الورثة المتتالون المستحقون بحصصهم الشخصية

سريعا . وامرت المحكمة التى كان يرأسها الوزير خلال حكم الملك حور محب (أواخر حكم الأسرة الثامنة عشرة) ، بالرغم من الشرط المذكور، بأن يحصل كل منهم على حصته فى هذا الارث . واستمرت القضية حتى حكم رمسيس الثانى ، واستمرت الدعوى معلقة فى « محكمة » العدل العليا طوال سنوات عديدة . وفى نطاقها كان يتصارع عدد كبير من النساء ، ومن بنات أول مالك للأملاك العقارية ، وعينت المحكمة واحدة منهن كمديرة لتلك الأملاك موضع الخلاف ، وهى السيدة « أوريرو » وكانت هؤلاء النسوة يتمتعن بكامل الأهلية فى الحصول على نصيبهن من الميراث ، بل والترافع أمام القضاء . وهذا ما فعلته والدة « مس » الشهيرة ، التى اعتبرت أنها قد سلبت نصيبها المستحق لها . ولقد لوحظ فعلا بعض المخالفات القانونية فى الاجراءات . بل تبين أنه قد حدث تزوير فى « الأرشيف » عند التسجيل بالادارة المركزية ، وخلال نظر القضية هاجمت الأخوات المختلفات قرارات التقسيم ...و لم يلزمهن مطلقا من أجل ذلك ، أن تحصل كل واحدة منهن على موافقة زوجها .

اذن ، ففى مصر الفرعونية ، كانت المرأة بكل تأكيد تتصرف بكامل مسئوليتها ، ولا تنتظر مطلقا موافقة الغير ، اذا كانت متزوجة فلا تنتظر موافقة زوجها .

اذن ، كان لها مطلق الحرية فى أن تعقد أى اتفاق مع أى طرف اخر ، سواء أكان رجلا أم امرأة . وهناك موضوع معروف ، يفيد بأن احدى النساء قد عقدت اتفاقا مع أحد المواطنين ، لكن تؤجر له احدى خادماتها طوال عشرة أيام ، فى مقابل عشر وحدات مالية فى اليوم الواحد ... وأعطته ايصالا قانونيا عليه توقيعها . وقد حدث هذا فى اليوم الخامس والعشرين من الشهر الرابع بالسنة الخامسة خلال حكم اخناتون .

الجنح والمخالفات :

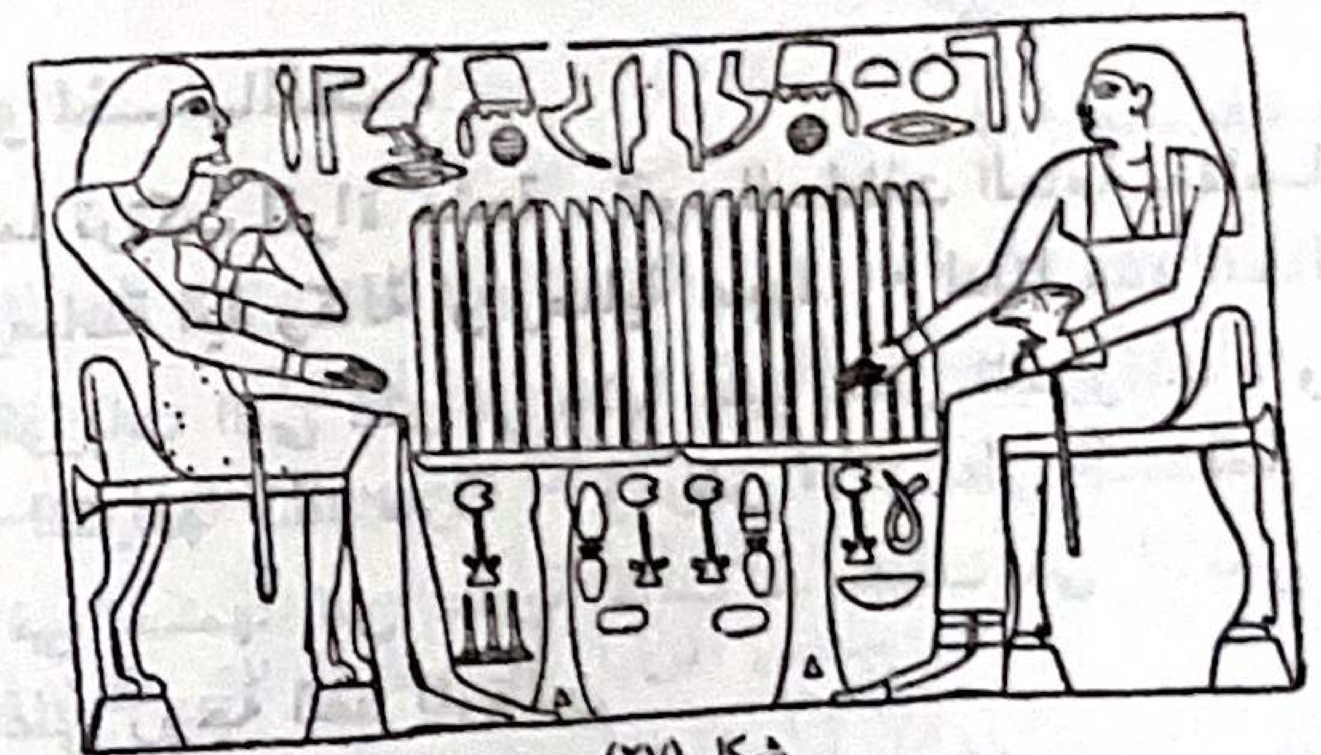
عندما ترتكب المرأة جنحة ، تقوم السلطات العامة بمقاضاتها ، دون اللجوء لوساطة أية وكالة أو وصاية عليها .. لدينا هذه الحالة الخاصة باحدى القرويات التى عثر فى بيتها على بعض المسروقات ، وبالرغم من ذلك نفت اقترافها ذلك سرقة . وعرض الأمر على السلطة العليا التى استندت فى حكمها الى عقوبة كانت قد طبقت فى الماضى فى أحوال مشابهة على زوجة أحد الموظفين .

أما عن التشنيع والقذف والتشهير ، فكان يعد بمثابة جنحة تنظر فيها محاكم الريف . ولقد وجد أحد الأشخاص المرموقين نفسه ذات

يوم هدفا لمثل هذا التشنيع والتشهير من جانب امرأة وثلاثة رجال ، وفرضت عليهم جميعا عقوبة الضرب بالعصـا ، ولم تستثن المرأة من ذلك مطلقا . وبالمثل ، وبعد فترة ما ، فى نفس تلك الحقبة من عصر الرعامسة ، وخلال المحاكمة القضائية التى تمت بعد عمليات سلب ونهب المقابر الملكية ، عومل المتهمون ، من الذكور والاناث ، على حـد سواء ... واهينوا بنفس الطريقة .

ومع ذلك ، فهناك ما يبين أن بعض العقوبات التى كانت تفرض على النساء ، من بنات الطبقة الوسطى على الأقل كانت أقل قسوة من المفروضة على الرجال . فمثلا ، جريمة الشهادة الزور ، كانت عقوبتها غالبا نفى الرجل الذى اقترفها ، الى مدينـة توشكا أو عنيبة بالنوبة . اما المرأة ، فقد كان يحكم عليها – ولنفس هذا الخطأ – بالعبودية (لتقيم بين الخادمات) .

وإذا كانت المرأة ، بصفة عامة ، تتصرف بكامل حريتها ، وبدون موافقة أى ممثل أو وكيل من الأسرة ، فان بعض الكتابات تجعلنا نعتقد – على الأقل فى نطاق الطبقات الدنيا بالمجتمع – أن الزوجة يمكن أن تكون متضامنة ومشتركة مع زوجها فى حالة اقترافه جنحة أو مخالفة تقع تحت طائلة القانون . وعموما ، يبدو ذلك تهديدا حاول المـلك « سيتى الأول » أن يرهب بـه المتهمين بسلب المواشى الخاصـة بمعبد ابيدوس : فالجانى سيلاقى العقوبة التى تفرض على اللصوص – جدع الأنف وقطع الأذنين – ثم يجبر على العمل كمزارع فى أملاك المعبد ، بينما تسترق زوجته وابناؤه » . ولا شك أن مثل هذه التهديدات كانت تعمل على ابعاد الغواية والاغراء عن مخيلة المصرى ، لأنه كان يضع فى المرتبة الأولى من اهتماماته ورعايته وجود جو ومحيـط أسرى متناسق ومنسجم ، وكان يكن لأفراد أسرته حبا حقيقيا وعميقا للغاية .



شكل (٢٧)

المساواة بين الرجل والمرأة : الزوجان يجلسان متقابلين على مائدة القرابين

الخـــادمة :

لا شك أن قراءة القصص الشعبية ، وتأمل مناظر الحياة اليومية التى صورت باسهاب شديد على جدران المقصورات الجنـائزية ، تبين عظم الثروة العقارية التى كان الملاك فى الريف والحضر يكتنزونهـا ، وكانت الدور مزودة بالعديد من الخدم . ومع ذلك ، فليس من السـهل التفرقة ، أحيانا ، بين الخادمة التى تعيش بين أفراد أسرة سيدها ، وبين الأمة . وبما أن ذلك كان يحدث فى مصر منذ آلاف السنين . فان أسر العبيد وأبناءهم ، كانت تكون تقريبا جزءا من أسر سادتهم ويبقون دائما على ارتباطهم بهم . وكانت الخلافات والاشتباكات بين الخدم تكثر « بالفناء الخلفى للمنزل » . وكانت تمتد أحيانا الى أجنحة سيدة البيت ، التى كانت فى بعض الأحيان تشكو من عدوانية وخشونة أو كثرة مطالب واحدة أو أخرى من خادماتها المتمردات ، ولكن هذا لا يمنع أن الواحدة منهن كانت عند الضرورة تلقى عقوبة جسدية .

وكان هناك الكثير من العوامل التى تتضمن مفهوم العبودية بمصر . وأولها « السخرة » ، التى لم يكن يعفى منها أحد مطلقا . فكانت بعض أعمال التكليف ترتبط ارتباطا وثيقا بالنظام الجغرافى الذى يعيشه هذا البلد : فهناك مثلا الفيضان السنوى ، الذى كانت الضرورة تحتم أن تجهز من أجله الأراضى تجهيزا ملائما ، وكان الأمر يستلزم أيضا العمل على أن تكون القنوات فى حالة جيدة ، ثم بعد ذلك مكافحة ما يسببه من خسائر وأضرار . ولذا ، فان التضامن والتضافر المطلوبين ، خـلال فترات محددة ، من كافة المواطنين ، من أجل الأعمال الضخمة ، ومنها بطبيعة الحال بناء النصب والصروح الملكية ، وأولها الأهرامات ، كان يجب أن يطبق اجباريا خلال بعض المواسم . وحقيقة أن هـذا التضامن والتضافر كانا يواجهان أحيانا ببعض التمرد : وطبيعى أن الفارين كانوا يعتقلون ، سواء أكانوا رجالا أم نساء . وكان المجرمون يسخرون أيضا فى تلك الأعمال .

شراء الأمـــة :

وأخيرا ، فقد كانت هذه العبودية تطبق غالبا ، على الأجانب الذين جلبوا الى مصر ، كأسرى حرب ، مع عائلاتهم . وعندما كان المقاتلون المصريون لا يحصلون على بعض أسرى الحرب الذين كان الفرعـون

يقدمهم لهم كمكافاة لهم على شجاعتهم واقدامهم فى القتال ، كانوا يلجأون الى تجار الشام والذين كانوا ـ خاصة فى الدولة الحديثة ـ يحضرون الى مصر ليعرضوا الخدم الذين حصلوا عليهم بأسعار زهيدة من بلادهم . وبشكل عام ، يبدو ان الأجانب كانوا يلقون معاملة افضل من تلك الفئات الثلاث ، وكان مصير هؤلاء يتشابه نسبيا ، مع مصير المصريين القلائل ، الذين كانوا يبيعون انفسهم ، ويدخلون بذلك فى نطاق نوع من « نظام المرتزقة » الاختيارى ، وفى اغلب الأحيان كانوا يفعلون ذلك بهدف تسديد ديونهم . وعندما يتعلق الأمر بامرأة ، فانها توضح تماما فى عقد البيع ، ان هذا الواجب يقع أيضا على الأبناء الذين قد تنجبهم من زوجها ... او من سيد البيت الذى ارتبطت به وفقا لقرارها .

وللحصول على امرأة مستعبدة (أو رجل) ، كان الأمر يستلزم أن يسجل ذلك رسميا بأحد المكاتب الحكومية . وأغلب النساء منهن كن يلحقن بالمنازل ، والبعض الآخر كن يقمن بخدمة الحوانيت التابعة للمعابد ـ ويدمجن بذلك فى اطار فئة « المريت Meryt » ، والحنوت « hénout » وكن حليقات الرأس تماما باستثناء خصلة واحدة من شعورهن تترك متدلية فى هيئة « ذيل الخنزير » .

أما النساء الأجنبيات ، اللاتى كن يجلبن فى وقت مبكر الى مصر ، اثر الغزوات الحربية ، فقد تكونت منهن كذلك مجموعة لا يستهان بها من الاماء . ولذا ، فقد أصبح من الأمور التقليدية ، أن نرى فى العاصمة طوابير من نساء وأطفال الزعماء الليبيين الأسرى ، وهم يسوقون الخراف والماعز ، ونرى هذه المناظر منقوشة على جدران معبد الملك « ساحو رع » من الأسرة الخامسة ، حيث نشاهد الالهة سشات وهى تدون قوائم احصائية بهم .

ومن نصوص التعاليم والنصائح التى ترجع الى عصر الانتقال الأول فى أواخر الدولة القديمة ، نتعرف على شىء من حياة هؤلاء الخادمات والاماء ، ففى النصوص نقرأ :

« انظر لهذا الرجل النبيل الأصل ،

انك لا تكاد تعرفه ،

فالابن الذى أنجبه من زوجته

يعامل مثل الابن الذى أنجبه من خادمته » .

وتتحدث النصوص عن واحدة من « محدثات النعمة » ، لا تبدى أى احترام أو تبجيل لأسيادها القدامى :

« انظر ، الخادمات وقد أصبحن الآن يتحدثن بأسلوب متحرر ،

عندما تتحدث السيدة ، فان الخدم لا يبالون بذلك

انظر ، الى من كانت لا تملك حتى علبة ما ،

ومن كانت لا تستطيع أن تنظر الا لصفحة المياه ،

فهى تملك الآن مرآة (......) » .

السخـــرة ، و « السجن الكبير » :

وبانتهاء الثورة الاجتماعية استعاد الفراعنة المؤسسون وزعماء الدولة الوسطى السيطرة مرة أخرى فى حزم متزايد على مقاليد الأمور بالبلاد ، وأصبحت القسوة والصرامة هى القاعدة السائدة فى أنحاء البلاد . وتبين لنا احدى البرديات (١٢) أن المحكوم عليهم بالعبودية ، كانوا قبل كل شىء ، فى « السجن الكبير » ، وهو عبارة عن معسكر عمل ، يتساوى فيه النزلاء من مصريين وأجانب : ويصبحون هناك ، عمالا بدون أجر ، ومن الممكن أن تنتقل حالة عبوديتهم هذه من جيل الى آخر . ومن المعروف أن النساء ـ مع عدم اجبارهن على العمل المرهق بالحقول ـ كن يخضعن « للسخرة » الاجبارية . ويشير دفتر الحجز بأحد السجون الى فتاة تدعى « تتى » كانت ابنة فلاح يسمى « سيان حور » تقوم بالعمل فى حقـول مدينة « ثنى » ، والتى لم تنجز العمل الذى كلفت به وفـرت هاربة . وكانت الوسيلة التى اتبعتها الادارة فى غاية البساطة : فلكى تتأكد من عودة المذنبة ، أودع جميع أفراد عائلتها فى غياهب السجن ، بكل بساطة . وهنـا ، ضعفت الهاربة أمـام نـداء التضـامن والترابط العائلى ، فسلمت نفسها . وبذا ، تم الافراج عن جميع أفراد عائلتها ، ولنأمل فى الا تكون عقوبة «تتى» ثقيلة الوطأة .

وفى نفس هذه الوثيقة ، سجل حدث آخر نموذجى للغـاية ، يتصل بالموضوع الذى نتناوله ، فلقد اشترى « حاعنخ اف » مدير مزارع طيبة ٩٥ خادمة وخادما (خلال الأسرة الثالثة عشرة) فى العـام الأول من حكم الملك « سبك حتب الثالث » ، وفى العام التالى ، تنازل عنهم لزوجته « سنب تيس » ، وبذا ، فقد نقلوا من مالك الى آخر . شأن أى ممتلكات أخرى . وضمن القائمة التى ترفق بحق ملكية هؤلاء الخدم ، ذكرت الكثير من الأسماء الأجنبية . وبالاضافة لذلك ، ففى دفتر التسجيل ذكرت عبارة « ساميين من سوريا ـ أو من فلسطين » . كما حددت أيضا تخصصاتهم المختلفة . ومن الممكن اذن ملاحظة ، أن الخادمات المصريات اللاتى ذكرت أسماؤهن بالقائمة لم يحصلن على أى تدريب أو تأهيل ، ويحملن أسـماء

« عامية » دون أية شفاعة أو رعاية ربانية · أما الأجنبيات اللاتى كن من مستوى أعلى من ذلك ، فقد كان لهن مهن مؤكدة ، وكن يلقين غالبا معاملة أفضل من المعاملة التى كانت تلقاها المصريات لهذا السبب ، وخاصة أنهن لم يكن ضمن السجينات اللاتى يقعن تحت طائلة القانون العام ·

أجنبيات وأسيرات حـــرب :

لقد أشار عالم الآثار « هيز W. Hayes » الذى نشر هذه البرديات النادرة ، الى عدم ذكر أية حرب معاصرة لهذه الوثيقة ، ويتساءل ، ان كان هؤلاء الآسيويون – ومنهم يوسف الذى باعه اخوته – قد جلبوا الى مصر ، عن طريق التجار الذين كانوا ينتشرون بكثرة خلال تلك الفترة · وكان هذا النوع من الخادمات ، حالما يقمن فى أمـلاك النبلاء والأمراء ، يدمجن عادة بأعضاء الأسرة · ولم يكن يفرق مطلقـا ما بين الأطفال وامهاتهم ، ومن الناحية العملية ، فان هؤلاء النسـاء لم يكن ينعمن ببعض الحرية فحسب ، بل بالاضافة لذلك ، لم يكن من المسموح به مطلقـا تشغيلهن فى أيام القيظ الشديد ·

وخلال الدولة الوسطى وبطريقة مشابهة لما ذكر آنفا ، ألحقت بعض مواطنات بلاد بونت أيضا ، بحريم « الميـور Miour » العظيم ، بصفتهن زوجات « حموت » أو « محبوبات مريت » بصفة خاصة ، أو « ازويـو Isouou » و « باكوت bakout » أيضـا ، كلهـا تسـميات لا تسـمح لنا أن نقدر أو نحدد بدقة درجة عبوديتهن بالضبط ·

ولا شك أن الوثائق والكتابات الأكثر اسهابا وثراء فى عهد الدولة الحديثة عما كانت عليه فى الحقب الســابقة ، تسـمح بشكل أوضح ، بتوضيح هذه الحال ، التى كانت حدودها ما تزال غير واضحة تماما · وبذا ، يلاحظ أن هذه الفئة الخاصة من « الخدم » ، ينحدر معظمهم ، من أصل أجنبى · كما أن الحروب التى شنها الفراعنة كانت بمثابة الممول الكبير لهم · وتبين لنا حوليات امنحتب الثانى ، أكثر ملوك مصر جميعا قسوة وغلظة ، انه بعد غزوة واحدة فقط من غزواته الآسيوية ، جلب الى بلده ٨٣٨ امرأة ضمن غنائم الحرب : « محاربون maryanou » ٥٥٠ مع زوجاتهم الـ ٢٤٠ (٠٠٠٠٠) ، و « أطفال انـاث » من أبنـاء الأمراء ، ٣٢٨ ، ومغنيات الأمراء من كافة البلاد الأجنبية ، ٢٧٠ » · ولقد تحدد بوضوح أن هؤلاء النساء قد أحضرن معهن مقتنياتهن الثمينة جدا ، أى مجوهراتهن وحليهن ، وكان الفرعون يأمر بالعناية بهن وتعهدهن ، حالما يتم أسرهن ، لأن الحسن والجمال الشرقى كان يتذوق كثيرا على ضفاف النيل · أما الأقل سحرا وجمالا منهن فلا يخصصن للقصر الملكى ،

ولا لأملاك كبار القوم ، ولكن كن يلحقن غالبـا بالمؤسســات الدينية كمغنيات ، وراقصات وخادمات · وهكذا كان يفعل كل من حور محب ، وسيتى الأول ، ثم بعد ذلك رمسيس الثانى الذى تمادى فى عنايتـه واهتمامه بهن الى درجـة « وشمهن » باسمه · أما عن صناعة الأقمشة من أجل النساء ، وأعمال الحرث ، وتربية الماشية ، وزراعة القمح ، وصناعة الطوب ، والبناء ، فكان من نصيب الرجال · ولكن حالما يتم أسر هؤلاء النساء ، كان يوفر لهن الأمن على الدوام · فمثلا ، عندما كان يلاحظ أن احداهن قد أصابها الارهاق بعد سيرها لمسافات طويلة ، وتبدو متعبة ومرهقة للغاية ، « هنا تحمل فوق كتف أحد الجنود المشاة ، لدرجة انه يلزم بترك عتاده نهبا للآخرين · أما هـو فيبقى مكلفا بالأسيرة» وكانت أسيرة الحرب تعرف بصفتها السامية : « سرتى Serti » (من اللغة الأشورية : « اسرتو esirtu ») ·

التجـار وأسـعار المستعبدات :

ويبدو واضحا أن عدد « الأسيرات » اللاتى كـان يتم بيعهن (فالفرعون كان يبيع جزءا من غنائمه) ، قد ارتفع وتزايد بشـكل ملحوظ خلال الدولة الحديثة ، وبذا كان التجار السوريون – « الشـوتيو Shoutyou » – يقـومون بتجـارة مثمرة رابحـة ويعتبرون بمثـابة أكبر الموردين ، لفتيات اللهو والمرح فى منازل احتساء الجعة » ، هؤلاء الفتيات كن يدخلن البهجة والسعادة على نفوس الطلبة الشبان الذين كانوا يوبخون ويؤنبون بدون جدوى ، من جانب كتبة التعاليم الوقورين ·

ومع ذلك ، فان هؤلاء الموردين كانوا يتعاملون أيضا مع ربات البيوت الراغبات فيمن يقمن بخدمتهن · لقد علمنا فى هـذا الصدد بقصة السيدة المدعوة « ابرى نفـرت » التى كانت تعيش فى بيت رئيس احدى المقاطعات (وكان يدعى ساموت) ، منذ سبع سنوات ، وجاءها التاجر المدعـو « رعيا » يقترح عليها أن تشترى عبدة سورية شابة ، ، كان قد أطلق عليها اسم : جمنى – حر امنتت (ومعناه : « لقد وجدتها فى الغرب ») ···· قال لى ! « خذى هذه الصبية (أو البنت الصغيرة) وأعطينى ثمنها » · وثمنها كان عبارة عن أربعة دبن ، وكيتى واحد من الفضـــة ، وكانت تعادل ستة أطباق من البرونز ، وعشرة دبن من النحاس ، وخمسة عشر ثوبا من الكتان ، وغلالة وملاءة ووعـاء من العســل (١٤) · ولكى تستطيع السيدة ابرى نفرت Iberfret أن تسـدد ثمـن ما اشــترته ، اضطرت أن تقترض بعض المال من جارتها · ولم تستطع أن تسدد لهـا دينها ، فقـامت الجـارة برفع دعواها للقضـاء ، وكان أخو زوجها ضمن شهود الاثبات · أما الزوج فقـد رأى أن الأمر برمته لا يخصـه مطلقا ،

فبقى بعيدا تماما عن المشكلة » . ومما هو جدير بالذكر ، أن « الدبن déběn الواحد يعادل ٩١ جراما ، وأن الكيتى Kite يعادل ٩ر١ جرام . ويبدو أن ثمن العبيد من الرجال كان أقل سعرا من ثمن الجاريات (تقريبا النصف) فى نفس تلك الفترة . وهذا ما بينته برديتان موجودتان حاليا باللوفر (١٥) : ثمن العبد القادم من الشمال ، حوالى ٥ر٢ دبن فضى ؛ وفى بردية المتحف البريطانى (١٦) نجد أن ثمن العبد « باى عنخ Painekh » يعادل ٢ دبن فضى . وقد لوحظ أيضا فى تلك الفترة أن « العمال » كانوا يسجلون مع الاشارة للأماكن التى وفدوا منها ، بالاضافة الى ذكر أسماء أبويهم .

تأجير « الخادمات » :

كانت توجد أيضا فئة من الخدم الذين كانوا يؤجرون للعمل فى بعض التجمعات أو المؤسسات والادارات ، أو حتى لدى بعض الأفراد . وفى عهد الأسرة الثامنة عشرة ، استلزم الأمر تقديم عجل بقر واحد مقابل عمل الخادمة طوال أربعة أيام ، وهذا يبدو ثمنا باهظا ، وكذلك كان الأمر - فى عهد الملك أخناتون - بالنسبة للوحدات الفضية العشر التى طالبت بها السيدة ، التى أجرت خادمتها بهذا الثمن ، لفترة عشرة أيام من العمل ، والتى تناولناها آنفا :

وكان فى استطاعة بعض المزارعين استئجار بعض الجوارى لمدة أيام من بعض التجمعات التى كانت تضعهن تحت أمر جموع الشعب . وبذا ، أصبحت احدى « الجوارى » ملكا لمدينة ألفنتين . وكان يوجد كذلك فى ضيعة عمال مدينة القبور « بدير المدينة » خدم على هذا النمط من النساء والأطفال الذين كانوا يعملون لدى بعض السيدات الكبيرات اللاتى كن يمتلكنهم . وفى نطاق بعض الأسر الأخرى ، يلاحظ الاستعانة بهذه الأيدى العاملة المجانية التى تقدم لعمال مدينة القبور ، مثلها كمثل كافة أنواع الغلال التى كانت تقدم لهم لاستعمالها فى المعيشة ، وكان على هؤلاء النساء أن يقمن بطحن الحبوب فى كل بيت يعملن به . ومع ذلك ، فان زوجات العمال كن يقمن بعجن الدقيق ، فقد كان دورهن الأساسى قبل كل شىء ، هو اعداد الخبز اللازم يوميا لأهل البيت جميعهم .

ولا شك أن هؤلاء الخادمات المتواضعات ، وهن يتنقلن من بيت الى آخر ، ويتعاملن مع مختلف الأنماط من البشر ، قد اكتسبن على (الطريقة الشرقية) ، نوعا من الحكمة الهادئة الرصينة . لذا ، قال عنهم الحكيم بتاح حتب (١٧)) :

« ان الحكمة الحقيقية لأكثر ندرة من الحجر الأخضر ، ولكن (أحيانا) نجدها لدى الخادمات اللاتى يعملن على حجر الرحى » .

تحرير « الجارية » وتبنيها :

لم يكن مصير العبيد والجوارى فى أرض الفرعون مصيرا قاسيا أو أليما : فلم يعثر حتى الآن على أى عقد يقر العلاقة فيما بينهم ، ولكنهم كانوا يعيشون معا فى حالة معايشة مشتركة . وعلى عكس ذلك ، فمن المعروف أن أى رجل حر يستطيع أن يتزوج أية جارية ولدت فى نطاق أسرة مصرية ، بعد موافقة ربة البيت (وفى بعض الأحيان كانت ربة البيت هى التى تختار الزوج لجاريتها) . والجارية عندما تتزوج برجل حر تصبح طبيعيا حرة مستقلة ، وكذلك الحال بالنسبة لأبنائها منه : ولقد ألغى هذا القانون فى عصر البطالمة . وبمناسبة الزواج ، كان أسيادهن يرتبون « مهرا » مناسبا « للجارية » .

ولزيادة تفهم مضمون هذه الزيجات « المختلطة » ، التى يتولد عنها تحرير الجوارى ، علينا أن نرجع الى النصوص نفسها :

فى البداية (بردية التبنى) ، وفيها تذكر قصة احدى السيدات التى تزوج أخوها « باديو » من جاريتها الشابة : « أنا (سيدتها) أقبله أى « باديو » من أجلها (الجارية) . اذن فسيكون معها (منذ) هذا اليوم . والآن ، انظروا ، لقد جعلت منها امرأة حرة فى أرض الفرعون . واذا حملت ولدا أو بنتا ، فسيصبحان هما أيضا أحرارا فى أرض الفرعون ، وفقا لنفس السياق ، (لأنهم) سوف يعيشون مع رئيس الاسطبل ، باديو ، شقيقى الأصغر . (وتأتى بعد ذلك قائمة بأسماء الشهود) .

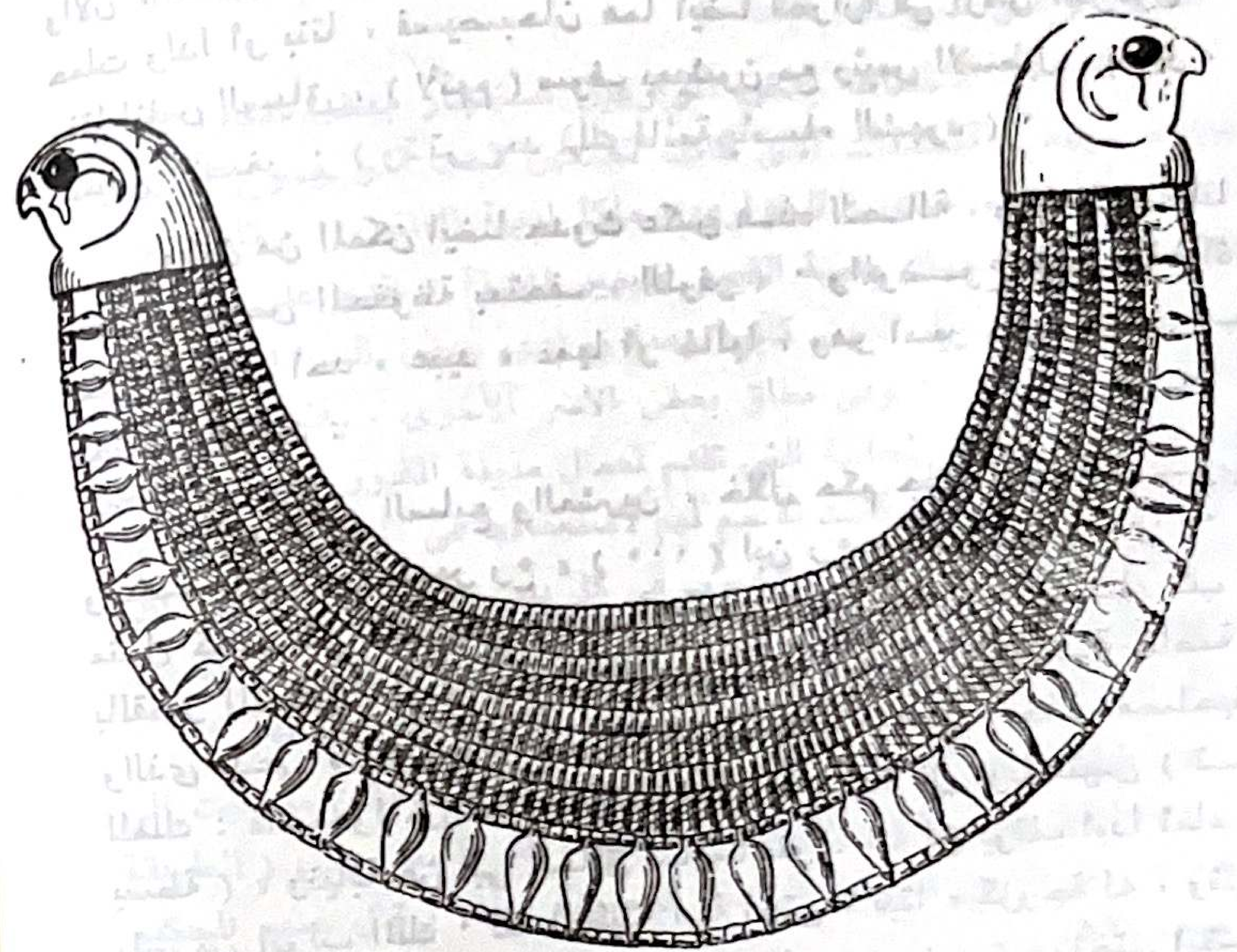
وكان من الممكن أيضا حدوث عكس هذه الحالة ، وفقا لما بينه لنا أحد النصوص المحفوظة بمتحف « اللوفر » . والموضوع خاص بامرأة حرة تزوجت أحد « عبيد » عمها أو خالها ، وهو أسير حرب من حروب تحتمس الثالث :

« فى العام السابع والعشرين ، خلال حكم جلالة ملك الجنوب والشمال « من خبر رع » (...) ابن رع ، تحتمس (.....) مثل كحلاق الملكى « سابا ستت » أمام « أبناء كب » بالقصر الملكى ، ليعلن : « أن العبد الذى منح لى ، كمنحة خاصة ، والذى يدعى « أمين يويو » ، قد كسبته بقوة ذراعى ، خلال مصاحبتى للملك : فاسمعوا من معبد باستت هذا ، « سيدة تل بوباستيس (تل بسطة) » ونيابة عن أبى الحلاق نب ساحنو ، انه لن يوقف أبدا أمام أى باب من أبواب الملك . لقد أعطيته ابنة أختى « نبتا » كزوجة له ، وتدعى « تا كمنت » . ولقد أجريت تقسيما لصالحه مع زوجتى وأختى أيضا . وبذا ، فلم يعد فقيرا أو معدما .

« وقد كتب هذا النص (الكاتب الملكى نى) بحضـــور الحارس
أمنمحات ، والكاتب الملكى أحمس ، وكاتب (الاقطاعيات) الملكيـة باكى
Baki ، والكاتب الملكى أمنمس ، ورئيس البوابة أمنا (....) » .

والأمر المثير للاهتمام هنا : هو أن مواطنة مصرية قد ربطت حياتها
بحياة أحد أسرى الحرب ، بموافقة جميع أفراد أسرتها . وهى تقـدم
لزوجها بعض الأملاك بل ومركز سـيده السابق ، الذى كان على استعداد
أن يورثه لقبه كحلاق للمعبد الذى ورثه عن جده ، ولا ريب أن هـذا الأسير
كان نوبى الجنسية ، وقد تم تحريره أمام « أبناء كب » الذين كانوا ينحدرون
غالبا من العنصر النوبى (١٨) . وكانوا بالنسبة له بمثابة الوكـلاء .
ولا شك اذن ، أن المصريين لم يكن لديهم أى تعصب عنصرى .

وخلاف ذلك ، فان كافة طبقات المجتمع ، كانت تستطيـــع تبنى
« الرقيق » . وهناك بعض الحالات التى بينت بعض السيدات المرموقات
الثريات وقد تبنين أبناء بعض جواريهن ، ومنحـوهن هبـات قيمة . ومن
ناحية الميراث ، فان الجوارى كان من الممكن توريثهن للورثة ، مع بقية
الممتلكات الأخرى . وخلاف ذلك ، فتحت حماية وبموافقة سيدهم ، كان


شكل (٢٨) قلادة مزينة براس حورس

هؤلاء « الأرقاء » يستطيعون أن يمتلكوا أية أملاك ، أو أرض يتوارثونها
ابنا عن أب (١٩) . وكان من الممكن أيضا أن يملكوا مقادير من الكيتى
Kite الفضـة (بل وأن يكون لهـم خـدمهم الخصـوصيون) . وكل
هذه الملكيات يجب أن يحترمها السيد .

وجملة القول ، فاننا نستطيع أن نقول انهم كانوا ، بشكـــل ما ،
مخلوقات حرة ، ولكن بموافقة « السيد » . وفى بعض الأحيان ، كـان
الرجال والنساء ، كما رأينا سابقا ، يمنحون حريتهم واستقلالهم كنوع
من المكافأة . وبذا ، يصبح الاعتراف بكرامتهم وحسن تقـديرهم للأمور،
أمرا مسلما به ، ولذا ، فهناك مثال يبين أن بعض النساء الخـادمات ، قد
طلبن ليمثلن كشاهدات أمام القضاء ، أو يقر لهن بالأهلية الكاملة للشهادة
ضد سيدهن . ومثل هذه الأمثلة ، لا شك أنها ستكفى لكى تبين أن المرأة
« الجارية » فى مصر القديمة كانت تحظى بمكانة ، قد تحسدها عليه
« الجوارى » فى عصورنا الوسطى .

- ٢ -

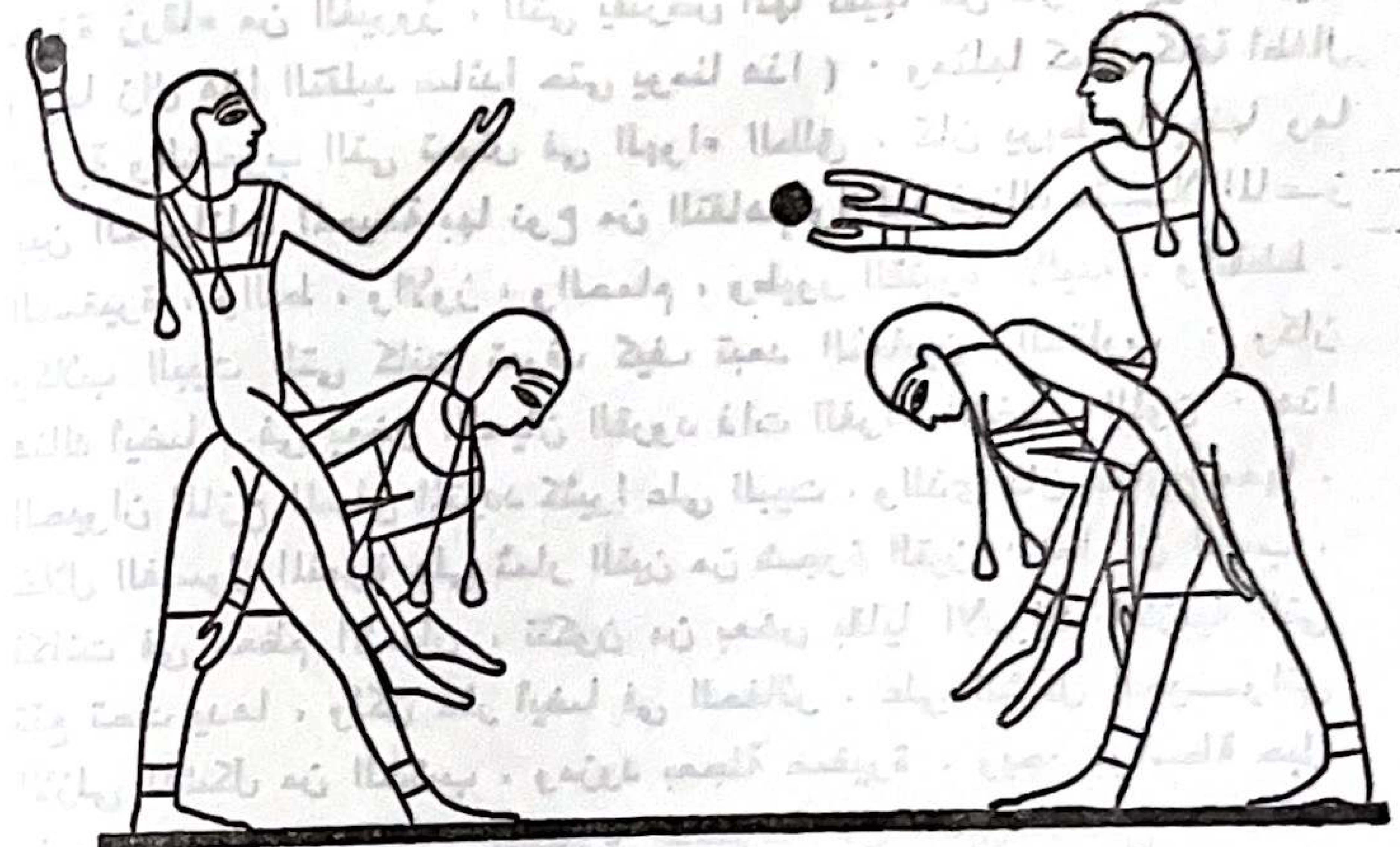
طفولة ، وتعليم ، وحب وخطوبة

الطفـولة

عندما نحيط بالظروف التى تم بها زواج احدى بنات الحرفيين ، او بعض افراد الطبقة المتوسطة ، أو بعض النبلاء والأمراء ، يمكننا بعد ذلك أن نرافق العروس الشابة الى عش الزوجية ، ونشاهد حياتها العائلية . ولكن أعتقد أن الواجب يستلزم قبل ذلك ، أن نبين ونشرح ، كيف كانت تمر السنوات الأولى من حياة صبية ما قادرة على السير ، والتحدث ، وعلى الانغماس فى ألعاب الطفولة . فمن الملاحظ أن الطفلة حتى العام الثالث من عمرها على الأقل ، كانت تستمر فى الرضاعة جزئيا من لبن أمها ، أو مرضعتها . وفى فصل الصيف ، اذا كانت تعيش مع أسرتها فى مصر السفلى ، وخلال فصلين من فصول السنة الثلاثة فى مصر العليا ، حيث الجو أكثر دفئا ، فانها كانت تتجول عارية تماما فى بيت أبويها أو خارجه ، ولكنها كانت لا تزال تعلق فى رقبتها بخيط رفيع خرزة زرقاء من الفيروز ، التى يفترض أنها تقيها من شر العين الشريرة (وما زال هذا التقليد سائدا حتى يومنا هذا) . ومثلها كمثل كافة أطفال القرية والشعوب التى تعيش فى الهواء الطلق ، كان يربط ما بينها وما بين الحيوانات المحيطة بها نوع من التفاهم والألفة فهناك مثلا الماعز الصغيرة ، والبط ، والأوز ، والحمام ، وطيور القنبرة الأليفة ، والقطط ، وكلاب البيت التى كانت تعرف كيف تبعد الثعابين والعقارب . وكان هناك أيضا ، فى بعض الأحيان القرود ذات الفراء الأخضر اللون . هذا الحيوان المازح المسلى المتردد كثيرا على البيت ، والذى كان يتنازع معها ، خلال الفصول المثمرة على ثمار التين من شجرة التين . أما عن اللعب ، فكانت فى معظم الأحيان ، تتكون من بعض بقايا الأدوات المنزلية التى تقع تحت يدها ، ولكن عثر أيضا فى الحفائر ، على الشكل الحيوانى الأزلى المشكل من الخشب ، ومزود بعجلة صغيرة ، ويجر بواسطة حبل رفيع ، وكذلك الحافلات الصغيرة المصنوعة من الطين النضج ، ممثلة لعربة الفرعون ، ولكن من يركبونها كانوا بعض القرود ، أما عن العروسة

المصنوعة من الخشب ، ذات الأعضاء المفصلية ، فكانت موجودة أيضا ، على الأقل فى العصر المتأخر • وكانت أجمل مكافأة بكل تأكيد هى امتلاك غزالة صغيرة يتم اقتناصها من الصحراء ، والتى كانت أكثر صبيات « المجتمع » سعادة يستطعن الاحتفاظ بها فى أحضانهن ، مثلها كمثل كنز ثمين للغاية •

وكانت الفتيات الصغيرات يمارسن التمرينـات الرياضية ، مثلهن كمثل الأولاد الصغار ، كما كن يشاركنهم فى ألعابهم • فكانوا يشاهدون دائما وهم يجرون معا ، بل ويقفزون ، فيما يشبه لعبة « الحطة ـ نطة » ، حيث لا يعرض اللاعبة « الجلود » (أو اللاعب « الجلود ») ظهـره ، ولكنه يجلس على الأرض ، وكانت ذراعاه أو ذراعاها ويداه أو يداهـا المفتوحتان الواحدة فوق الأخرى ، هما اللتان يجب على الشركاء فى اللعبة تخطيهما دون لمسهما (ما زالت هذه اللعبة تمارس حتى أيامنا هذه فى الريف المصرى، وتعرف باسم غزة اوزه Khazza-Lawizza) •وكانت الفتيات الصغيرات يتلقين دروسا فعلية فى الحركات الأكروباتية ، التى تؤهـلهن للقيام بالاستعراضات الخاصة بالطقوس الدينية فى مناسبات التأبين ، أو الطقوس الجنائزية ، أو حتى للمساهمة فى مناسبات الاحتفالات الشعبية• والى جانب حركات الليمونة والرشاقة ، كانت تضاف ألعاب البراعة والمهارة حيث كان يستعان غالبا ، بكرات جلدية •



شكل (٢٩) أطفال يلعبون

منذ وقت مبكر ، وبداية من العام الرابع ، وطوال سنوات عديدة ، كان يمكن قبول بعض الفتيات الصغيرات لتلقى التعليم المقرر للأبناء الذين يعدهم آباؤهم لكى يكونوا موظفين بالدولة • وكانت الضرورة تستـلزم قبل كل شىء الحصول على مهنة « كاتب » ،ولم يكن هذا يحدث كثيرا بالنسبة للفتيات، ولكنه كان أمرا قائما فعلا ، لأن بعض الوظائف كانت تفتح أبوابها للنساء • ومثلهن كمثل زملائهن ، وقد ملأهن الزهو والفخر لانتمائهن الى ربة الكتابة والأرشيف ، الالهة العظيمة الساحرة « سشـات Séchat » فكن يذهبن الى المدرسة ، حيث كان النظام صارما حازما ، وحيث كانت العقوبات الجسدية تطبق وفقا لحكمة ومنطق سليم :

« (. . . .) • لا تضرب من اجل اخطاء سابقة • فالعقوبة الطفيفة التى توقعها على الفور ، أفضل كثيرا من عقوبة شديدة ، ولكن متأخرة » •

وكان أول عمل يرتكز على الالمام بالتعقيدات والتركيبات الخاصـة بالكتابة الهيروغليفية التى تعبر عن لغة قديمة مهجورة لم تكن تستعمـل الا من وقت بعيد فى اللغة الدارجة • ولذا ، كان الأمر يستوجب ، من البداية ، الالمام بقوائم العلامات والاشـارات ، المقسمة الى فئات ومعهـا طريقة نطقها ومعانيها • بعد ذلك ، يلزم الأمر الالمام بقــوائم الكلمات المجتمعة معا بواسطة المعنى ، ثم اداء بعض التمارين التى يقمن خلالهـا بنقل نصوص قصيرة تقليدية بالكتابة « المختصرة » ، والتى نطلق عليهـا نحن ، لفظ « الهيراطيقية » ، والتى كانت تعبر عن اللغة الدارجة فى تلك الحقبة • ووجدت أيضا التمرينات الخاصة بقواعد اللغة ، ولم يكن ينسى أبدا تصريف الأفعال • وكان الطلبة يقومون بعد ذلك بتأدية واجبات الانشاء تحت اشراف وتدريب دقيق حازم من جانب المعلم • وكل يوم ، يؤرخ الطالب ما ينسخه ، وبذا ، تتسلل « العلوم الأدبية » رويدا رويدا الى عقله ، ومن هذه العـلوم : النصوص الأدبية ، بعض بحوث الحكمة والأعمـال الخيالية، والحكايات والقصص ، التى ترتكز غالبا على أسس أسطورية •

كما أن بعض مفاهيم الحساب ، والرياضيات والهندسة كانت ترسخ فى عقولهم فى أواخر الدورة الأولى التى تعطيهم الحق فى حمل لقب : كاتب حائز على المحبرة » • أما عن الأم ، فكان عليها ، كل يوم وطوال فترة دراسة ابنها أو ابنتها ، أن تحضر لمعلم المدرسة ثلاثة أرغفة من الخبز وجرتين من الجعة • وبالنسبة للفتيات الصغيرات القـلائل اللاتى قبلن للتعمق فى أى علم من العلوم ، فان تخصصهن كان يتم امـا فى بعض

المؤسسات أو المنشآت الادارية تحت رعاية « طالب من القدماء » ليقوم بتوجيههم ، واما فى « بيوت الحياة » التى كانت الأملاك الدينية الكبرى تتضمنها فى رحابها .

وبصفة عامة ، فان التعليم فى المدرسة ، بل وفى نطاق العائلة أيضا ، كان واجبا أساسيا بالنسبة للآباء الذين يعلمون أبناءهم احترام مبدأ « الماعت » ، أى الخضوع لقواعد التصرف الذى يحمى من المخالفة التى تعوق المجرى الطبيعى للأمور : « انه تمثال من الحجر ، هذا الغبى الصغير الذى لم يقم أبوه بتعليمه وتقويمه » . وكانت الضرورة تحتم أن يعد البالغ المقبل لحياة سعيدة واجتماعية ، أى باختصار لحياة « من يصمت للماعت » ، والذى يسلك سلوكا طيبا مع الآخرين ومع الاله ، والذى وصفه عالم المصريات « برونر H. Brunner » قائلا : « الشاب المصرى البالغ ، الصورة المثالية للانسان الذى يتقبل العناية الالهية من يد الرب ، والذى يندمج فيما يحيط به ، ويكون حلو المعشر ، هادئا ، متواضعا ، منظما ، مخلصا ووفيا ، لا تجتاحه أبدا ثورة الانفعال ، ولا يكون أبدا متهورا بدون تعقل » .

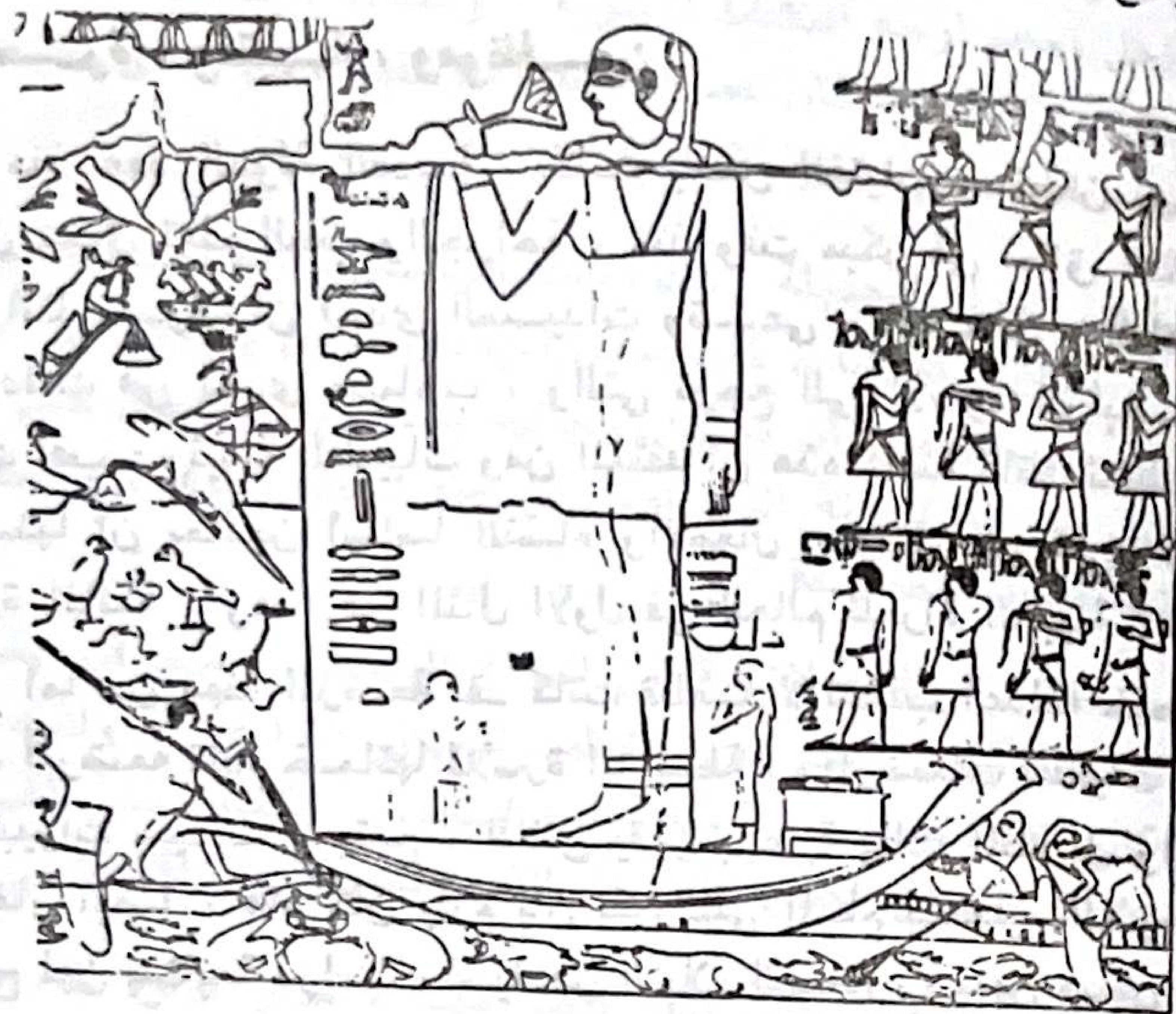
ولا ريب مطلقا ، أن هذا التأهيل ، كان يتصف أيضا بالحزم بالنسبة للبنات ، ويعطى ثمارا طيبة ، وبذا ، ففى أواخر عهد الأسر الوطنية ، أعلن « بتوزيريس Petosiris » كبير كهنة الاله تحوت ، فى الأشمونين Hermopolis ، قائلا بخصوص زوجته ، بأنها قد نهجت تماما على نهج هذه القاعدة :

« زوجته ، حبيبته ، ربة الحسن والجمال ، الرقيقة بحبها ، ذات الكلمة الفصيحة ، والأحاديث الطيبة ، والنصائح النافعة فى كتاباتها . ان كل ما تنطق به شفتاها يتشابه تماما مع أعمال « الماعت » . انها زوجة كاملة ، لها مكانة مرموقة فى بلدها ، تمد يدها الى الجميع ، وتتكلم كلاما طيبا ، وتردد ما يستحب ، تسعد كل واحدة ، ولا يخرج من بين شفتيها كلام سيىء ، مفعمة بالحب للجميع ، « طنبت نفرت » ابنة كبير الأعضاء الخمسة ، رئيس المحكمة « بفتا أونيت » ، التى ولدتها السيدة « سات ورت » .

ولا شك أن أوائل المنتفعات بمثل هذه الثقافة والتربية ، كن ، بطبيعة الحال ، بنات النبلاء والأمراء ، اللاتى يتيسر لهن الالتحاق بمدرسة القصر الملكى مع أبناء وبنات الأسرة المالكة . ولذا ، فليس من المستغرب مطلقا ، أن نرى ذلك المنظر الذى يرجع الى الدولة القديمة ، والذى يمثل الأميرة « ادوت Idout » فى مقصورتها بسقارة ، أثناء تنزهها بمركبها ، وقد أخذت معها كل معداتها اللازمة لها ككاتبة ،

ووضعتها بكل عناية على ظهر مركبها . ومن خلفها وقفت معلمتها ومهذبتها « سش سشت Sèchsèchèt » .

ولم يكن يشوب مخيلة أو تفكير المصرى شائبة أى تفكير طائفى او طبقى . وكان عليه فقط أن يتذكر جيدا أن الرب قد خلق البشر كلهم سواسية ، كما كان يؤكد ذلك الحكيم . ولذا ، فان الفتاة التى كانت تولد فى أسرة متوسطة الحال ، ولكن فى نفس الوقت ، تبدو منذ حداثة سنها على الصفات المطلوبة ، فانها كانت تستطيع أن تأمل يوما ما فى أن قطعة البوص التى تكتب بها سوف تقودها الى المثول عند قدمى الفرعون . وهناك بعض التعاليم التى ذكرها الحكيم « بتاح حتب Ptahhotep » (١٧٥ ـ ١٨٤) ، والتى تبين هذا الترقى الاجتماعى المؤكد الذى يفتح الباب على مصراعيه للجميع :



شكل (٣٠) نزهة بحرية

« اذا كنت متواضع النشأة ، واذا كنت من أتباع أحد الأشخاص المرموقين ، فلتنس أن هذا الرجل كان متواضع النشأة قبل ذلك ، فلا تكن وقحا معه ، بسبب ما تعرفه عن ماضيه . ولتحترمه ، بسبب ما قدر له ، فالثراء والرفعة لا تاتى الينا من تلقاء نفسها ، فان «الرب» هو الذى يمنحنا اياها » .

تعلم المهن :

كانت المصريات المنحدرات من اكثر البيئات بساطة ، ولكن تلقين

تعليما مناسبا متخصصا ، يستطعن التطلع الى الوصـــول الى بعض الوظائف التى يمكن أن يقمن بممارستها هن أو الرجال على حد سواء ، بالرغم من أن نسبتهن فيها كانت أقل · ولكن المعلومات فى هذا الصدد ، تعتبر لسوء الحظ ، قليلة ·

ومع ذلك ، فقد وصل الى علمنا مثال عن السيدة التى شغلت منصب قاض ومنصب وزير ، وتدعى « نبت Nébet » وهى الحمـــاة الثـانية للملك بيبى Pepi الأول ، من الأسرة السادسة · ومن المحتمل جدا أنها تعتبر بمثابة استثناء فعلى ، وأنها قد احتلت هذا المنصب لكونها تنتمى الى أسرة قوية للغاية بأبيدوس ، ويبدو أن هذه الأسرة قد قامت بحماية الملك عند وقوع مؤامرة الحريم · وتكرر التعيين فى هذا المنصب خلال الأسرة السادسة والعشرين ·

مهن حـــرة ، وكتبـــة ، وموظفـــون :

منذ عهد الدولة القديمة ،كانت بعض الفتيات يستطعن تماما ان يسلكن مجال تعلم الطب والجراحة ، منذ وقت مبكر فى نطاق التاريخ ، بمــا أننا نعــرف أن احدى الســيدات وتــدعى « بســشت Peseshét » التى دفنت فى احدى مصاطب ، والتى ترجع الى الأسرة الرابعـــة ، حملت لقب « رئيسة الطبيبات ومن المعتقد أن هذه المهنة كانت تتطلب من يمارسنها أن يعالجن أساسا النساء والأطفال ، وقبل كل شىء سيدات الأسرة المالكة · وهذا هو المثال الأول فى العالم للمرأة الطبيبة ·

أما عن مهنة المرضعة فقد كانت قطعـا لا تتطلب اعدادا خاصا اذا كانت المرضعة تقدم خدماتها للأسرة المتوسطة ، والمرضعات الملكيات ، وهن من كبيرات سيدات المجتمع ، اللاتى يقمن برعاية بنات الملك بل والأمراء الصغار أيضا ، فقد كان يلزم بأن يكن على الـمام بالتعليم اللازم الذى يسمح لهن بمتابعة دراسات أسيادهن النبلاء الصغار، ومنهن «سش سشت Sèchsèchet » معلمـــة ومهـــذبة الأميـــرة « ادوت Idout »

وتختلف عن ذلك تماما فئة المولدات ، وأكثرهن استحسانا وتقديرا فى نطـــاق البلاط الملكى ، كن قد تلقين بعض مبادىء العلوم الطبية · وفى معظم الأحيان ، كن يكملن مهنتهن بمهنة الغناء والموسيقى ·

وغالبا ، كانت عضوات الحريم الملكى يعين رئيسات لورش النسيج بالقصر الملكى · كما أن سيدات المجتمع الراقى كن يستطعـــن ادارة مصانع النسيج الكبرى المحلية · والبعض الآخر منهن ، كن يبدون على مقدرة تؤهلهن ليكن مديرات لقاعة الشعور المستعارة ، وكان عليهن اذن ، أن يشرفن على صناعة هذه العناصر المهمة لتزيين سيدات البلاط الملكى ، بل والفراعنة أيضا ، خاصة بداية من الدولة الحديثة ·

أما النساء اللاتى كن يتلقين التعليم الذى يؤهلهن لشغل وظيفـــة « كاتب » ، فقد استطعن الالتحاق « بالادارة » · ولا شك أن الألقـــاب التى كن يحملنها ، تترك أى مجـال للشك ، فى هذا الموضوع (١) · ولقد قام عالم المصريات « فيشر H. Ficher » بجمع أكثر من خمسة وعشرين لقبا متباينا من هذه الألقاب منها : المديرة ، رئيسة المخازن ، مراقبة المخازن الملكية ، مفتشة غرفة الطعام ، مفتشة الخزانة ، أمينة الخزانة ، المشرفة على الملابس ، مديرة قطاع الأقمشة ، مديرة الكهنة الجنائزيين ، مديرة الناحبات ، المسئولة عن الضياع الجنائزية ، المشرفة (قهرمانة) على الأجنحة السكنية الملكية ··· ، ولم يلاحظ أبدا فى أى عهــد من العهود ، كما لوحظ فى عهد الدولة القديمة ، وجود هذا العدد الضخم من الوظائف التى تقلصت وتضاءلت الى حد ما ، خلال الدولة الوسطى ، عندما بدأت وظيفة الـ « نبت بر Nébet-Per » أى « ربة البيت » ، تجتذب بشكل مذهل معظم أوجه النشاط الأنثوية · وعموما ، يلاحظ ، بالنســـبة لهذه الحقبـة ، أنه مهما كان عمر أو جنس الموظفين ، فى عمــل ما ، فانهم كانوا يحصــلون على أجور متساوية ·

أما فى الدولة الحديثة ، فقد أمسك الرجـال بكافة مقـاليد الجهاز الادارى · ولكن ، احيانا ، كان بعض الموظفين الذين ينقلون الى أماكن عمل أخرى ، يستطيعون أن يحلوا زوجاتهم بأماكنهم ، وكمثال على ذلك هذا الوكيل بخزانة الدولة الذى أوكل لزوجته سلطة تمثيله فى عمله ، وان تواتيه تقارير مفصـــلة ·

ومن خلال الوثائق المتبقية من الدولة الوسطى ، نرى أن هنـــاك وظائف للنساء كانت ذات صلة بتنظيم الجهاز الادارى · وللوصول اليها ، كان الأمر يستلزم التدرج بمهنة الكاتب ، وكمثال على ذلـــك احدى مديرات مخـــزن الكتان الملكى (؟) الذى يقـدم كقربان للاله ·

وبالاضافة لذلك ، كانت تكثر أيضا مهنة « مدير ادارة » ، مثل « ادارة الأختام » ، فى عهد الدولة الوسطى ، وأكثر حاملات هـــذه الوظيفة شهرة هى السيدة « تشات » ، وكيلة أملاك الحاكم « خنـوم حتب الثانى » ببنى حسن ، « مديرة خـزائن (سد جواتيت) ، والمسـئولة عن جميع أملاك سيدها » · وسوف نتناول هذا الموضوع باسهاب أكثر فى الفصل الخاص « بالمحظيات » · ويلاحظ أيضا وجود آثار لمهنة رئيسة الخدم الاناث ، وكانت مهمتهن على درجة كافية من الأهمية ، لكى يتمكن من تكريس لوحات خاصة بهن « بأبيدوس » · أما النســاء اللاتى كن يعملن كسكرتيرات ، فى اطار الأسرة الثالثة عشرة ، فقد كن يســتطعن الحصول على العمل حتى فى البلاط الملكى نفسه ·

وهناك مهنة خاصة ، استطاعت النساء أن يزاولنها ، الا وهى مهنة « امرأة الأعمال » الفعلية ، وكمثال على ذلك ، السيدة « نينفر Nénofer » وهى صاحبة أراض شاسعة ، وأملاك وعقارات مهمة فى عهد الدولة الحديثة · وكانت هذه السيدة توكل لوكلائها التجاريين (شوتيو Shou-tyou) بمهمة ترويج المنتجات التى ترغب فى بيعها (وهؤلاء الشوتيو ، كانوا دائما على اتصال بنظرائهم السوريين ، او انهم هم أنفسهم كانوا من السوريين) .

وكانت الاحتفالات ، فى مصر ، تحتل مكانة مهمة · ولم تكن تمر أية مناسبة من المناسبات ، مهما كان مستواها ، دون أن تتضمن رقصا أو موسيقا · وعلينا أن نتصور المباهج التى كان يمكن أن تدور فى جنبات القصر الملكى ، أو فى المساكن الفخمة : لقد تركت لنا المناظر العديدة التى تصور المآدب الجنائزية ، ذكرى بعيدة · وكانت النساء الموظفات بالقصر ، ورئيسات الحريم ، والقائمات بتنظيم أعياد ومباهج ومتع الملك ، ورئيسات راقصات الملك ، ومديرات المغنيات ، والمفتشات ، يقمن بمهمة الانضباط والمراقبة ، ويتكفلن بمسئولية حفلات الاستقبال الموسيقية التى كن يزينها بالزهور بأذواق خاصة ، وبلحظات الراحة والترفيه الملكية · وكانت المساكن الفخمة تتضمن كل هؤلاء المستخدمات من الاناث اللاتى كن يشاركن بخدماتهن مع بنات الأسرة · ولكن ، كان هناك أيضا نوع من الجمعيات الخاصة بالموسيقيات والراقصات ، والمكونة وفقا للقانون ، والتى كانت تؤجر خدماتها · وكانت تنتقل أحيانا من بلد الى آخر ، يصاحبها بعض مجموعات الأكروبات من أجل الترفيه الخاص ، وحفلات الزواج ، بل وأيضا من أجل بعض الأعياد الدينية الواسعة الانتشار .

المهن الصغيرة :

لم تكن المهن الصغيرة والتى كانت تتعلق بحرفة ما – وكلها تقريبا مقصورة على النساء – تتطلب تعليما مدرسيا · وكانت تنحصر فى نطاق فن النسج والغزل ، وصناعة الملابس ، وصناعة الزيوت المعطرة والدهانات العطرية ، وكل ما كان يتعلق بزينة السيدة ويتطلب المساهمة الأنثوية : مصففات الشعر ، عاملات للعناية باليدين والقدمين والأظافر ، وعاملات للتدليك · أما عن أغلبية الحرف الأخرى ، فقد كانت تقتصر على الرجال · حتى عملية غسل الملابس نفسها ، فكانت توكل فى أغلب الأحيان الى الرجال .

حقيقة أن المرأة التى كانت تتوجه يوميا ، عندما تتطلب ذلك مواسم العمل ، لتحضر الى الحقول غذاء رجال العائلة ، لا يبدو أنها

كانت تشارك المزارعين أعمالهم · فمن النادر جدا أن نعثر على منظر للفلاحة وهى تحلب بقرة · نراها أكثر وهى تذر الحبوب ، أو تقوم بدور جامعة بقايا الحصاد · ولذا ، فاننا عندما نرى فوق جدران بعض المعابد ، أو على بعض البرديات الجنائزية ، مشهدا يمثل ملكا وملكة وهما يقدان محراثا ، فيمكننا أن نتأكد أن الأمر لا يعدو أن يكون هنا ، سوى مجرد تعبير عن السخرة الملقاةمؤقتا فوق عاتق المتوفى فى العالم الآخر · وهناك ظروف مشابهة وأحوال مطابقة عبر عنها بتمثيل زوجين من الطبقة الوسطى أو النبلاء ، وهما منهمكان فى عملية الحصاد ، وفى اقتلاع نبات الكتان من الأرض .

ولكن الأمر يختلف بالنسبة لجمع العنب وصناعة النبيذ · فقد كان هناك تحريم ، ولا شك أنه يرجع الى طبيعة المرأة نفسها ، يمنعها من المساهمة فى عملية جمع العنب وعصره · ولم نعرف سوى ثلاثة استثناءات فقط خلال ما يزيد عن ثلاثة آلاف عام فى نطاق تطبيق هذا التحريم ، مع أن واحدة منها تختص بعملية جمع العنب « الكهنوتية » التى تقوم بها كاهنات الالهة « نيت » · ولعلنا لا نستغرب مطلقا من هذه التفرقة ، عندما نفكر فى بعض التقاليد فى منطقة برغونيا بفرنسا التى حرمت على النساء ، منذ وقت غير بعيد ، الدخول الى مكان عصر العنب ، بحجة أن وجودهن قد يخلل الخمر ، ولكن كان يوكل اليهن بصناعة الجعة .

وكانت عملية تجفيف وتمليح اللحوم والطيور والأسماك موكلة الى الجزارين والصيادين ، أما عمليات العجن والخبز فكانت من الأعمال المنزلية ، وكانت أعمال الطهى موكلة الى الخدم من الرجال ومنها كذلك عمليات اعداد الطعام · وتظهر صور القصور الخدم من الرجال وهم يقومون بعمليات التنظيف ، ويبدو أن عمليات التنظيف وتقديم الوجبات كانت تعهد الى الخدم من الرجال .

الكهنوت النسائى :

كانت أبواب الالتحاق بسلك الكهنوت مفتوحة أمام المرأة بعد أن تتلقى قسطا من التعليم الدينى ، وأغلب الألقاب الكهنوتية تعود الى العصور المتأخرة ، وكان معظمها مختص بالربة « حتحور » ، ربة النساء ، وأحيانا الى عبادة الالهة « نيت » ربة سايس : ومثلما كانت حتحور يكرمها ويبجلها الكهنة الرجال ، فان الكاهنات القائمات بالطقس ، كن يستطعن أن يقمن بخدمة الأشكال الربانية المذكورة ، للآلهة « تحوت » ، « وبتاح » ، وكذلك « مين » و « خنسو » ،

وبصفة خاصة فى الدولة الوسطى للاله سوبك الذى يبدو فى هيئة تمساح (Sobék) . ولقد أصبحت احدى ملكات الدولة الوسطى كبيرة كهنة الاله سوبك . وبما أن الكاهنات كن يمارسن الطقوس مثلهن مثل الرجال ، فقد كن يحصلن على أجور مساوية لأجورهم ، وكن يحصلن مثلهم على لقب « كاهنة » أو خادمة الاله : حمت نثر . أما أفراد الكهنوت المرءوسون والمساعدون ، فقد كان يتم اختيارهم بالطبع من النساء . ومنهن : المحضرات ـ المتطهرات « وعبوت » ، والمراقبات الساهرات والمشرفات « ورشوت » ، والمغنيات « مروت » ، والعازفات على آلة المزهر (الصلاصل) . وكان من الممكن أيضا أن يوكل اليهن بمهمة الكاهنة الجنائزية : « حموت كا » تحيط بهن مساعداتهن ، ومنهن الناحبات « جروت » . وكان لهن الحق ، وفقا لبعض الشروط ، فى شغل بعض الوظائف بادارة المعابد ، وكمثال على ذلك هاتان الشقيقتان لأحد كبار كهنة بتاح خلال الأسرة الثانية عشرة ، اللتان عينتا كمديرتين لأعمال ممتلكات الاله . وظهرت كذلك وخلال الدولة الوسطى وظيفة « زوجة الاله » أو « المتعبدة الربانية » ، وهى وظيفة أنثوية تماما . وقد شغلت هذه الوظيفة سيدات ، يبدو أنهن فى تلك الحقبة ، لم يكن قد انتسبن بعد الى القصر الملكى . وقد عرف أن هذا النوع الخاص من الكاهنات ، كان مكلفا بانعاش الرغبة والشهوة لدى الآلهة ، أمثال مين وآمون أو بتاح . وأحد التابهن ، كان لقب « يد الاله » الذى يشير اشارة شبه مستترة لعملية الخلق ، عن طريق الاستمناء التى نسبت الى رب الأرباب « أتوم » . ويتضمن متحف ليدن تمثالا صغيرا رائعا ، لواحدة من أوائل زوجات الاله ، وهى السيدة « امست نبس » (وتعنى : « التى يرغبها سيدها ») ، وهى تبدو بشعر مستعار كثيف قابل للخلع ، وتضع فى قدمها صندلا ذهبيا ، وهذا التمثال من أكثر الأمثلة ابرازا للمفاتن الأنثوية فى مصر القديمة .

وخلال الدولة الحديثة بأكملها ، لوحظ انحسار شبه كامل لظاهرة اشتراك النساء فى أوجه النشاط بالمعابد ، الا فى نطاق طيبة ، حيث تبين وجود بعض الكاهنات الثانويات . كما أن مهمة « رئيسة » حريم الاله ، قد خصصت ، كما شاهدنا ، لسيدات المجتمع ، وكانت سيدات الطبقة الراقية الصغيرة والكبيرة يستطعن شغل وظيفة مغنية آمون ، خاصة أن وظيفة « زوجة الاله » ، وكانت بمثابة وظيفة ملكية بحتة . ولم تكن مغنيات آمون يحظين بالأرباح التى تدرها خزينة المعبد فحسب ، بل كن يتمتعن أيضا ، بحرية واستقلال استثنائى . ويمكننا ذكر مثال خاص باحدى مغنيات الاله تحوت ، التى قامت بالمبادرة بطلاق زوجها ... لمجرد أن عشيقها قد طالب بذلك (٢) . كما يبدو أن مغنيات آمون ،

كن يكونن الطائفة الوحيدة التى كانت تستطيع أن تدخل فى نطاقها ، بعض المنتسبات اللاتى ينحدرن من أوساط متواضعة للغاية ، ومنهن زوجات النساجين أو حتى زوجات الاسكافيين ، اللاتى كن يلحقن بأدنى درجات هذا المجمع .

ومن المعروف ، أنه فى أعقاب الدولة الحديثة ، بدت قوة رجال كهنة آمون فى شكل اخطبوطى ، لدرجة أن الملك لجأوا مرة أخرى الى النساء ، حتى يمكن ازاحة كبار الكهنة ازاحة شبه كاملة ، ليأخذن مكانهم ، فى فجر العصر الصاوى . وتضخم دورهن حتى فى مجال المراسم الجنائزية ، حيث حلت « ساكبات خمور القرابين » ، فى أغلب الأحيان محل « القائمين بطقوس الكا » فى المعابد القديمة ، فى حين كانت مجموعات العذارى الصغيرات ذوات البشرة الخالية من الشعيرات يؤدين بعض الرقصات خلال بعض الطقوس الأوزيرية .

الحب

عندما تصل الفتاة الصغيرة فى المجتمع المدنى الى سن المراهقة ، وسواء أكانت قد حصلت أم لا على تأهيل يمكنها من الحصول على أية مهنة فعلية ، حتى اذا كانت هذه المهنة هى الانخراط فى سلك الخدمة باحد المعابد التى لم تكن تتطلب أن تظل الفتاة دون زواج ، لم يكن هناك أى عائق يحول بينها وبين تحقيق أعز أمانيها : أن تصبح زوجة ، وأن يكون لها بيتها الخاص ، وتنجب أطفالا . ولنذكر هنا أمنية هذه الشابة العذراء :

« أنت يا أكثر الرجال وسامة ،
ان رغبتى هى فى (السهر على ممتلكاتك)
كربة بيت ؛
وأن تستريح ذراعك فوق ذراعى
وأن يغمرك حبى ؛
اننى أسر الى قلبى
برغبة العاشقة :
« هل يمكن أن أحصل عليه كزوج هذه الليلة ،
فبدونه ، أنا كائن فى مقبرة
ألست أنت العافية والحياة ؟

ولكن ، قبل ذلك ، كانت الفتـاة تمر بمراحل فترة رومانسية فعلية تتضح معالمها لنا بكل سهولة من خلال قصائد الغـــزل ، التى وصلت الينا ، وقد نطالع فيها أولى خلجات العاطفة والعشق ، ومشـــاعر التحفظ والاحتشام ،والقلق والتلهف ، جملة القول ، نجد فى سطورها كل نضارة ورونق المشاعر العاطفية المنتعشة بشىء من العشق الحسى الذى يبدو خجولا ، وكل تأجج واحتدام العاطفة لدى مخلوقة شابـة تتكشف الحب بكل خفر وحياء :

« لقد أثار حبيبى قلبى بصوته

وتركنى فريسة لقلقى وتلهفى .

انه يسكن قريبا من بيت والدتى .

ومع ذلك ، فلا أعرف كيف أذهب نحوه ،

ربما تستطيع أمى أن تتصرف حيال ذلك

وعلى أن أذهب لأحدثها فى (ذلك) (لرؤيتها)

انه لا يعلم برغبتى فى أن آخذه بين ذراعى

ولا يعرف بما دفعنى للافصاح بسرى لأمى

فيا حبيبى فلتعمل ربة النساء ،

الذهبية ، على أن تجعلنى من نصيبك ،

(.......)

ان قلبى يسرع فى دقاته

عندما أفكر فى حبى ،

انه لا يتركنى أتصرف كما يجب

انه ينتفض فى مكانه

لقد أصبحت لا أعرف كيف أرتدى ملابسى

وأهملت مراوحى

ولا أضع المساحيق حول عينى

ولا أتعطر أبدا بالروائح الزكية .

« لا تنسحبى ، لقد كدت أن تصلى الى الهدف »

هذا ما يقوله قلبى عندما أفكر فيه

فيا قلبى ، لا تتركنى للأسى ،

ولماذا تتصرف كمجنون ؟

انتظر ، بدون وجل أو خوف ، ان الحبيب لقادم نحوك ،

من عيون الآخرين .

ولكن (احترس) لا تتصرف بحيث يقـولون على :

« هذه المراة أصبحت عاشقة »

« هذه تستطيع أن تبقى هادئة ، عندما تتذكره

والا تدق بهذه الكيفية ، أيا قلبى » (٣) .

وكما هو الحال بالنسبة لكل العاشقين فى العالم ، فان الطبيعـة الجملة الخادعة والمتواطئة تعد شاهدا على الحب الوليد ، كما تشـارك أشجار الحديقة فى اللقاءات وفى اللهو والمرح :

شجرة (الرمان) تقـول :

« ان حباتنا تتشابه مع أسنانها

وثمارنا تتشابه مع نهـــديها .

وفى الحديقة كلها أنا أجمل الأشجار

لأننى فى كل الفصول أبقى أبدا .

ان العاشقة وصديقها

تحت (ظلالى يتنزهان)

وتحت تأثير الخمر والشراب ،

يتعطران بالزيوت والدهانات العطرية

وبدونى أنا ، تهلك جميع نباتات القرية .

اننى أعبر الشهور الاثنى عشر ،

من كل عام ، وما زلت باقية

وحالما تذبل وردة

سرعان ما (تنبثق) زهرة جديدة من داخلى .

ولذا ، فأنا أول شجرة

ولكن ، اذا اعتبرت الثانية ،

فى هذه الحال ، فعليهم ألا يكرروا ذلك أبدا ،

لأننى لن أصمت أبدا .

ولن أخبئها أبدا ،

وسوف يعرف دهاؤها ومكرها .

وسوف يكشف أمر العاشقة

ولن تحمى أبدا صديقها
(........)
(وتقول العاشقة الصغيرة لحبيبها) :
« انظر ، ان شجرة الرمان على حق
وعلينا أن نمتدحها ،
فلتصدر أوامرها كما تشاء ، طوال اليوم
لأنها هى التى تخفينا عن الأنظار » .

ويبدو أن شجرة التين قد اشتركت هى الأخـرى فى مشاعر الانسجام ، ولكن ليس هناك ما يماثل احتدام مشاعر شجرة الجميز الشابة التى زرعتها الفتاة بيديها :

« ان همسات (أوراقها)
الشبيهة برائحة العسل الزكية .
انها تجيش بالسحر والجمال : فروعها الرقيقة
تصبح (خضراء ونضرة) .
انها مثقلة بالثمار الناضجة
اكثر احمرارا من حجر اليشب (حجر كريم)
وأوراقها شبيهة بالفيروز ،
وقشرتها تشبه الخزف
(......)
انه يضع رسالة فى يد فتاة صغيرة ،
انها ابنة البستانى الذى يعمل عنده ،
(....)
كانت تحت ظلالى نزهة الحبيبة ،
واننى لكتومة
ولن تفصح كلمة ما عما اراه » .

ولا شك أن العاشقة سوف تمر بلحظات من الحيرة والقلق :

« بينما أفكر فى حبى ،
يتوقف قلبى بداخلى .
واذا رأيت قطعة من الحلوى المسكرة
خلتها ملحا .

أما الخمر اللذيذ الحلو ،
فيبدو لى فعلا وكأنه مر علقم » .

ولكن سرعان ما تعرف المصرية الشابة كيف تكون مرغوبة :

« ان المحبوبة تعرف تماما كيف ترمى بالحبل ذى الأنشوطة ،
دون أن ألجأ الى عد القطعان
وبشعرها ، أطلقت نحوى أحبولاتها ،
وبعينيها ، جعلتنى أسيرا ،
وبزينتها أمسكت بزمامى وأخضعتنى ،
وبلسانها وشمتنى بالحديد الملتهب » .

ثم سرعان ما تستسلم المحبوبة لحبها :

« عندما آخذها بين ذراعى
وتطوقنى ذراعاها
فكأننا فى « بلاد بونت »
وكأن الجسد مخضب بزيت معطر .
وعندما أقبلها
فتصبح شفتيها منفرجتين
أشعر باننى نشوان
دون أن أشرب جعة
فيا أيها الخادم ، اننى أقول لك ،
أسرع باعداد الفراش ،
ولتأخذ كتانا رقيقا لتغطية جسدها ،
ولتفرش السرير من أجلها بملاءة ،
اياك أن تستعين بقماش بسيط خشن :
بل ضع على مخدعها ملاءات معطرة ....
آه . ياليتنى كنت خادمتها السوداء ،
التى تقوم بغسل قدميها ،
لاننى عندئذ ، سأستطيع أن أرى بشرة
جسدها بأكمله » (٤) .

ولكى نستطيع أن نتفهم موقف الانسان المصرى حيال عاطفة الحب ، علينا أن نعرف لمن تشير النصوص الشعرية التى ذكرناها هنا ،

هذا اذا كانت أصلا تتطابق مع الحياة الواقعية ، هل نحن أمام عاشقين يتستران فى لقاءاتهما تمام التستر ، ولماذا ؟ هل يخشى تدخل أحد أفراد الأسرة الذى يحرص كل الحرص على الحفاظ على عذرية فتاة العائلة ؟ هل العاشقة هى زوجة خائنة تريد الافلات من جريمة الزنا ولا يبدو ، والحال هكذا ، أن الأمر يتعلق ببعض فتيات الهوى اللاتى كن يتناثرن ، على الأقل فى عهد الدولة الحديثة ، فى أجواء الحانات بالضفة الغربية لطيبة ، التى كان معظمها يزخر « بجوارى » سوريات قديمات .

ومهما كان الأمر ، فاننا نستطيع أن نجزم من خلال ذلك ، أن المرأة المصرية اذا كانت تبدو أكثر تحفظا وحياء من الرجل فى افصاحاتها العاطفية ، فهى أيضا عاشقة فعلية ، تستطيع أن تشعر مبكرا جدا بالاحساسات الجسدية التى تتعارض مع وحشية الاستئصال التى كانت تجرى فى أنحاء أفريقيا السوداء ، حيث ما زالت تتم فى بعض قرى مصر العليا .

ومع ذلك ، فهناك بعض الفقرات القليلة فى النصوص ، تشير الى بعض الفتيات الصغيرات اللاتى لم يجر لهن الاستئصال ، وتجعلنا نعتقد أن نوعا من الاستئصال كان يتم بالنسبة للبنات ، كعمل مواز لعملية الختان للفتيان ، كطقوس شعائرية تشير الى العادة ، التى تنتشر بقارة أفريقيا ، فى غياهب العصور ، وهدفها هو تأكيد نوعية الجنس وتمييز الرجل والمرأة عن الطبيعة الالهية التى كانت تتصف بأنها مزدوجة .

ومهما يكن الأمر ، فان العواطف الجياشة التى نرى وصفها فى قصائد الحب ، تبدو ـ اذ لم تكن من بنات أفكارها ـ متعارضة تماما مع فكرة الختان « التام لامرأة متحررة » كالمصرية فى العصور الفرعونية .

ولنعد مرة أخرى لعاشقتنا الشابة التى تحتاجها أحيانا مشاعر الغيرة اذا ما غازل صديقها الحنون فتاة أخرى . وهنا ، كانت تلجأ أحيانا الى السحر . فكانت تبدأ بمهاجمة ما كان يعد بالنسبة للمصريين مفعما بقوة جنسية مؤكدة : الشعر الجميل المنسق أجمل تنسيق والذى كانت النساء يتفنن فى تصفيفه . ولقد عثرنا على وصفات سحرية تهدف الى اسقاط شعر رأس أى مخلوق تضمر له الكراهية ، أو أى غريمة : ففى احدى هذه الوصفات تظهر الديدان « انارت Onaret » فى زيت اليسر « ben » ويدلك بهذا الخليط رأس المرأة المنافسة (؟!) . أو : « توضع ورقة لوتس محترقة فى الزيت ، ويدلك بها رأس من تضمر له (أولها) الكراهية » (٥) .

ولكن الطبيب الممارس كان يجابه الساحر ، فالضحية لا يفيدها العلاج الذى يصفه لها طبيبها . فكان الأمر يستلزم للقضاء على الصلع الذى حدث بسبب ذلك ، دهن الجمجمة بدهان مكون من ذيل السلحفاة ومن بعض الدهن المأخوذ من شحم احدى قوائم حيوان فرس النهر (سيد قشطة) (٦) .

واكثر ما كان يخشى فى مجال الحب والعشق ، هو الغريم الخفى الذى لا يمكن رؤيته ، ويستعمل احدى « التعاويذ » للعمل على استمالة حبيب غير مبال : والكلمات الموجهة لها كان يجب أن تكون حاسمة ومحددة وقاطعة : « انهض ، واجعل هذا الذى أنظر اليه ليكن حبيبى (بما اننى) أعيد وجهه (٧) » . وعلى هذه الأساليب الأنثوية ، كان العاشق المرفوض من ناحيته أن يجيب بكل فعالية ، بل ويتمادى الى درجة تهديد الآلهة ، اذ لم يستطع الحصول على مساعدتهم له لاقناع المرأة المرغوبة لكى تستجيب لتهديداته :

« سلام عليك ، يا رع حور أختى ، أبو الآلهة
سلام عليكم ، يا سبعة حتحورات
يا من تتحلين بشرائط حمراء !
سلام عليكم أيتها الآلهة
يا أسياد السماء والأرض !
اعملوا على أن تتبعنى « فلانة » ، ابنة فلان
كما يتبع الثور علفه ،
وكما تتبع الخادمة أطفالها
وكما يتبع الراعى قطيعه !
وان لم يعملوا على أن تتبعنى
فسوف ألقى (بالنيران) بوزيريس
وسوف أحرقها ! » .

وكان يلجأ البعض الى تمثال صغير من الطين المحروق أو الشمع ، فمثلا ، المرأة التى يراد الاستحواذ على حبها كلية ، وقد عثر على مثال مقنع يرجع الى العصر المتأخر : ويبدو أن هذا الشكل العارى ، الراكع على ركبتيه كان قد اخترق بثلاث عشرة ابرة غرزت بأعماق جميع المراكز الحساسة الحيوية من الجسم ، ثم يصاحبه النص السحرى ، ويوضع بمقبرة أى انسان توفى قبل الأوان ، أو لقى حتفه مقتولا (٨) . ولا شك أنه كان يوجد نوع من الترياق لازالة السحر عن تلك البائسة : التى يؤديها حاليا القرويون المصريون ، والمسماة « بالذكر » .

عندما كانت الفتاة الشابة لا تقابل رجـل أحلامها ، فانهـا كانت تلجأ لحتحور الجميلة ، التى تستمع الى دعاء والتماسات كل فتاة شابة ، تبكى ، متعشمة فيها ، وكانت الفتيـات عادة يستطعن الزواج بداية من العـام الثانى عشر أو الرابع عشر من عمرهن ، أما الفتيان ، فيبـدو انهم كانوا يستطيعون الزواج فى حوالى العـام السادس عشر أو السابع عشر من عمرهم ، ولكن ليس هنـاك تحديد واضح فى هـذا المجـال ، ولذا فان سن الزواج كانت تختلف وفقـا للظـروف والامكانات المادية للزوجين المقبلين . وعموما ، كان الرجل ينصح بأن يتزوج مبكرا وهو لم يزل شابا لكى ينجب أبناء . ولنذكر مرة أخرى ، فى هذا المجال ، كلمات الحكيم : « كون أسرة ، وأحب زوجتك ، التى فى بيتك كما يجب . واتخذ زوجة وأنت مازلت شابا حتى تستطيع أن تنجب لك أبناء ، فالرجل يعد ذا قيمة ومنزلة بنسبة عدد أبنائه » .

وفى عصر مصر القديمة ، كانت موافقة والد الفتاة ضرورية بدون شك . وفى أغلب الأحيان ، كان الأب يختار « رجلا طيبا » لابنته ، فها هو مثلا ، أحـد الأجداد ينصح ابنه بأن يختار لابنته : « رجلا حريصا ورزينا ، (ولا يستلزم) أن يكون من يختاره لهـا غنيا » . ولـذا ، فان الموتى الذين كانوا يحاولون أن يدافعوا عن أنفسهم أمام المحكمة الالهية ، كانوا يصرحون قائلين : « لم آخذ فتاة من أبيها ، (بدون موافقته) » . ومع ذلك ، فان هذه الموافقة وهذا الاختيار الذى يقوم به الآبـاء عند الضرورة ، لا يمنع الأبناء منعا اجباريا ، من البحث عن شريكة الحياة المناسبة : وكان الأمر يستلزم فقط ، قبل قرار الزواج ، أن يتم الحصـول على موافقة الأبوين : وبذا كان هناك نوع من الحرية ، بصفة عامة فى نطاق الدولة الحديثة التى توضحها « قصائد الحب » .

ونجد فى الدولة الوسطى ملامح الدور الذى كان يقوم به كبـار الملاك الزراعيين عند الضرورة حين كانوا يسهلون زواج فتيات أقاليمهم ومقاطعاتهم ، من الرجال غير المتزوجين الباحثين عن « ربة البيت » .

واذا كان الملوك يستطيعون الزواج من شقيقاتهم لأسباب سلالية ، واذا كان الفرعون من أجل ضرورات التبنى الربانى يعقد قرانه على بعض بناته ، فان هذا النوع من زواج المحـارم ، أو زواج المتحـدين دما ، لا يبدو أنه قـد وجـد فى النطاق المدنى العـام . وكان المحبون ، والأزواج ، ينادون بعضهم بعضا عادة بقولهم : « أخى » أو « أختى » . ولكن عالم المصريات « تشرنى » قد أثبت تماما ، أن هذه العبارات لم

تكن سوى عبارات للتعبير عن المحبة والاعـزاز ، وكانت تستعملها كافة طبقات المجتمع . وقد لوحظ بعض حالات قليلة من الزواج بين بعض الاخوة والأخوات غير الأشـقاء المنحدرين من آباء وأمهـات مختلفين ، وخلال عصر الاحتلال الفـارسى ، ربمـا ، قـد وجـد مثال لحالة زواج « واحدة » من الزواج بين المحـارم بين أب يدعى « جد حـر » وابنته ، ولكن لم تعرف بعد مبررات هذا الزواج .

ووفقا لبعض النصوص الخاصة بعقود الزواج يبدو أن عذرية الفتاة كانت من الأشياء المطلوبة ، وكان ذلك الأمر يعتبر من الأمور المهمـة للغاية على المستوى الاجتماعى ، ولوحظ وجوده أيضا سواء فى نطاق العالم الشرقى لدى اليهود أو وفقا لتباين العصور فى الغرب . ترى ، هل كانت هناك بعض الاستثناءات ؟ ان بعض قصائد الغزل التى تفصح لنا عن « علاقات غرامية » ، لا تخص سوى النساء « غير المتزوجات » أو « المتحررات » ، أو قد تكون هذه القصائد مجرد نسج خيال ؟

ونحن لا نملك أى دليل على أن الوقت الذى يستـهل بمـا نعتبـره بمثابة زواج ، كان يسبقه فترة زمنية اجبـارية تتطابق مع فترة الخطوبة المعروفة لدينا . حقيقة ان الأميرات الأجنبيات المخطوبات للفرعون ، كن يتلقين ، عن طريق سفراء « جلالته » دهان الزيوت الخاصة بالزواج . وربما يتبين لنا ، فى يوم ما ، تقليد يشبه ذلك ، على المستوى الخاص ، بأحد النصوص الذى لم يصل الينا حتى يومنا هذا .

وكذلك ، فنحن لا نعرف عما اذا كان الزواج المنتظر يحتفـظ من أجل « خطيبته » بهدية ما تعبيرا عن حبه لها . ولكن علينـا أن نتذكر هذا المفهوم المتعلق بالتشريح الذى ذكر فى أحـد النصوص القديمة . والذى اكتشفه عالم المصريات « سونيرو » : لاعداد شراب للمحبـة ، يكفى الحصول على كمية صغيرة من دم الاصبع الثانية المجاورة للخنصر باليد اليسرى ، والذى كان يتطابق أحيانا مع الطحال ، ولكن كانت تسمى « باصبع القلب » ، وعرفت فى اللغة القبطية تحت اسـم « سيلويين » . وبناء على ذلك يتضح لنا حاليا سبب وضعنا دبلة الخطوبة والمصاهرة فى الاصبع « البنصر » باليد اليسرى .

-٣-

الزواج ، وتعدد الزوجات ، وتعدد الأزواج والطلاق والخيانة الزوجية

عقد الزواج

من المستحسن قبل أن نتحدث عن الزواج نفسه أن نتكلم عن الوثائق القانونية والعرف والعادات التى تتعلق به . وكانت هذه المستندات التى تؤكد الاستقلال والأمان اللذين كانت تستطيع المرأة أن تتمتع بهما ، والتى وصلت الينا ، ترجع الى الأسرة الثانية والعشرين (١) . وتبين لنا تلك النصوص ، أن العرف الذى كان راسخا فى أعماق التقاليد والعادات ، والذى لم يكن يتأثر بالانقلابات السياسية ، كان موجودا دائما وقائما ، ومعبرا عنه فى وضع خطوطه منذ عصور أكثر قدما ، بل ربما منذ عصر الأهرامات . وبالنسبة للدولة الحديثة أمكن من خلال النصوص أن نتبين الأنماط الثلاثة الأولى لعقود الزواج . وكانت هذه العقود تعد بمثابة ضمان لحقوق المرأة الزوجية ، « فقط فى حالة حدوث الطلاق » . وهذا العقد لم يكن اجباريا فى بداية الحياة الزوجية : فهناك الدليل الذى يبين أن الأمر كان يستلزم أحيانا ، الانتظار سبعة أعوام ، قبل ابرامه . ومع ذلك ، فقد تيقنا من خلال أحد النصوص الذى يرجع الى العصور المتأخرة أن سيدة « المجتمع » لم تكن تقبل هذا الارتباط الا بعد أن يحدد ويوضح لها حقوقها الزوجية (٢) .

ولم يستدل مطلقا على أى دليل قانونى يحتم ابرام عقد الزواج فى حد ذاته ، ومع ذلك فهناك مرسوم ملكى يفيدنا بأنه كان يجب اعطاء كل امرأة المهر الخاص بها . وينطق بذلك أمام الوزير (ولا شك أن الأمر كان يتعلق بأن تضمن لها بعض الأملاك أو الحقوق فى ميراث ما . وفى الواقع أن كافة النصوص المتضمنة فى العقود كانت تهدف ، من ناحية الى امداد الزوجة باهليتها ، ومن ناحية أخرى الى توفير الميراث للأبناء ، وذلك فى حالة حل الارتباط بين الزوجين (طلاق الزوجة لا هجرانها) ، أو موت الزوج . وعادة كانت الأملاك والمقتنيات تقسم

الى قسمين منفصلين تماما : أولا ما تأتى به الزوجة عند بداية حياتها الزوجية ، وثانيا ما تستحق أن تأخذه (أو ما يقر لها) ، وجزء مما اكتسب مشاركة خلال فترة الزواج .

وها هى النماذج الثلاثة من العقود التى يمكن أن تشير اليها بداية :

أولا ، نص يبدو من خلاله مساهمة الزوج بسهم وافر فى تمويل الحياة الزوجية المشتركة . ومن الممكن أن يقوم عدد كبير من الشهود بتوقيع هذا الاتفاق الذى يتعلق بـ « الهدية من أجل الزوجة » (أو هدية العذراء) ومقتنياتها الخاصة : « لقد اتخذتك كزوجة لى ، وقد أعطيتك (يتبع ذلك قائمة بالعطايا) . ولو حدث أن نبذتك كزوجة ، اما لأننى أكرهك واما لأننى ارغب فى امرأة أخرى سواك ، فسوف أعطيك (قائمة بالهبات) ، كما يجب أن أعطيك أيضا ثلث ما نكتسبه معا ، منذ اليوم . أما الأبناء الذين انجبتهم لى (اذن فان العقد قد أبرم بعد مرور وقت ما من العلاقة الزوجية) . والذين سوف تنجبينهم له هم الورثة لكل ما أملك أو ما يمكننى أن أحوزه . وابنك البكرى هو ابنى البكرى » (وهنا ينتهى النص بقائمة للمنقولات والمتعلقات التى أحضرتها الزوجة عند الزواج ، مع تحديد ، كما هو الحال دائما ، قيمتها المادية) .

وهناك عقد آخر ، يبدو أنه ينص على أن الزوجة هى الوحيدة التى تقدم المال (فى حالة كون الزوجة أكثر ثراء من الزوج ، وهنا فان مثل هذا الزواج قد حذرت منه الحكمة والموعظة الأخلاقية) . ويحمل هذا العقد العنوان التالى : « المال ، لأجل أن تكون زوجة » : « لقد أعطيتنى (وهنا يذكر المهر من حيث قيمته من الفضة ومن النحاس) كمال لكى تصبحى زوجتى (......) . ولقد تلقيته من يدك ، وان قلبى لراض عن ذلك . والحساب مضبوط تماما . وليس لدى ، بداية من هذا اليوم ، والى الأبد ، أى احتجاج أعبر عنه بخصوصه . (أما أنا) ، فسوف أوفر لك (هنا تذكر كمية الغلال والفضة) من أجل اعالتك كل عام . واذا لم أرد لك خلال الشهر (٣٠ يوما) المال المطلوب (من المر) ، فاننى سوف أستمر فى دفع ما يجب على نحوك من أجل احتياجاتك المعيشية حتى اليوم الذى أتمكن فيه من رد (هذا الصداق) » . وهنا ، يقوم الزوج ، أمام الشهود ، وأمام الكاتب الذى قام بتدوين نصوص العقد ، برهن كل ممتلكاته ، لضمان تسديد هذه المبالغ ويصرح: « ولك الحق فى هذه الأقساط من أجل احتياجاتك المعيشية » .

أما النموذج الثالث من العقود ، فهو أيضا مجز للغاية للزوجة ، ويتعلق خاصة بالمعاش المتعلق بالمأكل والمشرب . ومن يقوم بتوقيعه هو الكاتب فقط ، الذى يعتبر كضامن لأى نزاع بشأنه . ويسمى هذا

العقد ب « راس المال الخاص بالمأكل والمشرب » : لقد أعطيتنى (الصداق) ، بمثابة معاش للغذاء · وأنا من ناحيتى ، أعطيك (كفضة وغلال) ثمنا لغذائك وملبسك · واليك تعود ثلث ممتلكاتى الحالية ، والتى قد أحصل عليها مستقبلا ، باسم الأبناء الذين أنجبتهم والذين سوف تنجبينهم لى · ولك الحق فى المعاش الذى أسدده بنفسى · ولا يمكن مطلقا أن أقول لك فى يوم من الايام : « انى أرد اليك صداقك ! » · ومع ذلك ، فاذا كنت ترغبين فى استرجاعه (أى انفصام الارتباط) ، فسوف أرده اليك · وكل ما أملكه ، أو ما سوف أملكه يضمن (هذا الوعد) » ·

وينجم عن ذلك ، قبل كل شيء ، فيما يختص بحق « الاشتراك المالى القاصر على كسب الزوجين » ، انه فى حالة الوفاة أو الانفصال فان الأملاك تؤول مباشرة ، وفقا لبعض أحوال الموصى لهم ، الى الابناء ، ولكن المكتسبات تؤول الى كلا الزوجين أو الباقى منهما على قيد الحياة ، بنسبة الثلث للزوجة والثلثين للزوج · ولكننا لا نعرف عما اذا كانت الوثائق تتكون من ثلاثة الفصول التى تطبق بالنسبة لعقد واحد ، اما اذا كان الزوجان يختاران وفقا لادكاناتهما الحل الأكثر مناسبة لهما وكما نرى ، يلاحظ أن التعهدات التى يأخذها الرجل على نفسه ، كانت تعد بمثابة أعباء ثقيلة ، وذلك فى حالة رغبته فى الطلاق فقط · وكانت كافة المزايا الأساسية مكفولة للزوجة التى كانت لها هى أيضا حرية التصرف فى طلب الطلاق وأن تستعيد اذا لم تكن هى المخطئة ، كل ثروتها وممتلكاتها · وكان من الممكن أن يدير الزوج شئون هذه الأملاك ، ولكن بقدر معلوماتنا حاليا ، يبدو من الصعب أن نحدد ما اذا كانت كافة الأملاك والمنقولات المذكورة فى العقود والاتفاقات التى عثر عليها تتطابق فعلا مع حصة الزوجة · وفى أغلب الأحيان ، كان الزوج يستطيع أن يقر لها بدفعات اعتبارية ـ بمثابة ضمان لها ما دامت العلاقة قائمة ومستقرة ·

وكان من الطبيعى أن يقوم المصرى بتوفير متطلبات زوجته حتى فى حالة انفصالها مؤقتا عنه · أما اذا كان الزوج يعانى من العوز والعسر المادى (أو أصيب بمرض ما) ، فان زوجته وأسرتها ، كانت ملزمة بمساعدته واعانته · وتفيدنا نصوص احدى الشقفات (الأوستراكا)(٣) بما كان يحدث فى مثل هذه الحالات ، فى نطاق وسط متواضع للغاية ، بخصوص زوجة كانت تستنجد بزوجة أخيها لكى تهب لانقاذ حياتها الزوجية : « سوف أبعث اليك بكمية من الشعير ، وأرجو أن تقومى بطبخها من أجلى · وأضيفى اليها بعض الخميرة ، واصنعى لى الخبز ، لأننى أتعارك مع زوجى · فهو يقول انه سوف يطلقنى ، لأنه يتعارك مع

أمى بخصوص عدد الأرغفة اللازمة لنا · انه يقول : « ان أمك لا تقوم أبدا بعمل ايجابى كما أن اخوتك وأخواتك لا يعنون بأمرك هم أيضا » · فهذا هو ما يقوله ! وهو يتشاحن معى كل يوم قائلا لى : « أنت ترين ما فعلته بى ، منذ أن عشت هنا معك ، فى حين أن كل انسان يبعث كل يوم ، الى ذويه ، بالخبز ، والجعة والسمك ، جملة القول يجب أن تقولى شيئا لأملك ، أو فعليك أن تذهبى ·· » ·

ولقد تبقى لدينا نوع آخر من الالتزامات ، عند الارتباط الزوجى (٤) · وفيه يقوم الأب بمنح ابنته ، مختلف المتعلقات والأشياء والأدوات ، لمساعدتها على تأسيس عش الزوجية · وبالاضافة لذلك ، فهو يتعهد بأن يقدم للزوجين كما من الغلال طوال سبعة أعوام ، ونفس هذه الفترة تتطابق مع فترة نوع من الزواج يعرف باسم « زواج التجربة » أو « الاختبار » والذى عثر على بعض معالمه وآثاره (٥) ·

تعدد الزوجات و تعدد الازواج

من المؤكد أن الاتفاقية الزوجية ، أى العقد ، الذى وضع فقط فى حالة احتمال وقوع الطلاق ، ينفصل تماما عن عملية الزواج فى حد ذاتها ، وحتى وقتنا الحاضر لم يعثر على قانون يحكم هذه العلاقة التى كانت تنبع فقط من العرف المعتاد ·

ترى هل كان المصرى يستطيع أن يتزوج بزوجتين فى آن واحد ، أى يكون له « ربة بيت » « نبت بر » فى نفس الوقت ؟ لقد طرح هذا السؤال أكثر من مرة ، وفى أغلب الأحيان ، كان الجواب : « لا » · ومع ذلك ، فهناك بعض المؤلفين (٦) الذين استطاعوا أن يؤكدوا « أن حقوق المرأة قد تقلصت وتضاءلت خلال الحقبة التى سادت فيها الفوضى والقلاقل ، والتى تقع ما بين الدولتين القديمة والوسطى » ، وأن اضمحلال الأحوال القضائية والقانونية الخاصة بالمرأة ، قد نالت من ظاهرة الزواج الأحادى الذى كان سائدا قبل ذلك · ولم يعد الأمراء فقط يتخذون أكثر من زوجة ، مثلهم كمثل الملوك ، ولكن أصبح الأفراد الأقل رفعة وأهمية يتخذون زوجتين أو ثلاث زوجات فى نفس الحين ، وتكون سلالتهن معترفا بها شرعا ، وبالرغم من أن واحدة فقط منهن هى التى تحتل مكانة « ربة البيت » · وفى الواقع ، فلكى يكون الابن معترفا به من والده ، فيجب أن تكون من أنجبته هى « ربة بيته » (بعد ذلك سوف نتحدث عن المخطية تشات) · ومع ذلك فان الأمر يستدعى أن يكون لدينا الدليل القاطع على وجود ظاهرة تعدد الزوجات فى نطاق الحياة الدنية ، كما كان هذا الأمر سائدا بالنسبة للفرعون (٧) فقط · وبتحليل

كافة هذه الحالات التى تمت دراستها ، يبدو واضحا أن بعضها يمكن أن ينطبق على بعض الرجال الأرامل الذين يذكرون على لوحاتهم الجنائزية اسم الزوجة الأولى المتوفاة ، بجوار الزوجة الحديثة . ويمكن أن نتفهم هذا الأمر بسهولة أكثر لو عرفنا أن المصريات كن يتوفين غالبا أثناء عملية الوضع ، وأن الضرورة كانت تستلزم احضار أمهات جديدات للأطفال المولودين حديثا . ولكن أمام حالة ذلك الشخص المدعو مرى – عا ، الذى صور بصحبة زوجاته « الست » ، فاننا قد نتردد فى اعتقادنا بأنه قد ترمل خمس مرات ، بل مر بحالات « خلط ومزج » من الطلاق والترمل المتتالى . فهذه الحالة تعد فى حد ذاتها كنموذج مغالى فيه – وبالنسبة لغيره من النماذج الأقل لفتا للأنظار ، يمكننا أن نقدم البرهان الذى سبق أن أشرنا اليه : التعدد الفائق فى وفيات الأمهات أثناء الولادة .

أما فيما يختص بتعدد الأزواج ، فالأمثلة التى تدل عليه مازالت أيضا مشكوكا فيها . فليس من المستطاع التأكيد بأن امرأة ما قد تزوجت برجلين فى آن واحد ، فمثلا ، فى اطار الدولة الوسطى ، صورت احدى السيدات وتدعى « منكت » على احدى اللوحات المحفوظة حاليا « بمتحف اللوفر بباريس » (٨) بصحبة زوجها « حر » ، وهى بدون شك نفس السيدة التى صورت على لوحة أخرى فى نفس المتحف (٩) ، مع زوج آخر يدعى « نبسومنتو » ! وحتى اذا كانت هناك حالات مماثلة لذلك ، يمكن ذكرها ، فاننا لا نرى ما يسمح بأن نجزم بوجود ظاهرة تعدد الأزواج ، أو بأن المثالين المرموقين المدفونين فى دير المدينة ، قد اتخذا فى نفس الفترة ، هما الاثنان زوجة واحدة ، ويحتمل أن السيدة المذكورة قد تزوجت من هذين الفنانين الواحد تلو الآخر ، بدون شك بعد وفاة أولهما .

الطلاق وحماية المرأة

أسباب الطلاق :

كان الطلاق يعتمد على العرف السائد مثله كمثل الزواج . فالرجل والمرأة كانا يستطيعان الانفصال بالطلاق ، ولكن أمام العبء الذى كان يقع عموما ، على كاهل الزوج ، فأغلبية الزيجات ظلت فى حالة استقرار فائق . ومع ذلك ، فقد كانت الخيانة الزوجية من أسباب أكثر حالات الطلاق شيوعا والتى كانت شائعة وكانت تلقى أشد أنواع العقاب . ومع ذلك ، فقد كان هناك الكثير من حالات التسوية للخلافات

فى نطاق هذا الموضوع ، الذى أطلقت عليه النصوص عبارة « الجريمة الكبرى » ، أو « الخطأ الفاحش » ، والذى كان يهدد بالقتل بين فكى التمساح . ولنرجع أولا ، الى الحكيم بتاح حتب (١٠) :

« اذا أردت أن تكون أعمالك حسنة مستطيبة فابتعد واهرب من كل المساوىء والشرور وهدىء من طباعك ، وتجنب الشراهة والنهم فهى بمثابة المرض الأليم لمن لا علاج له !

(.........)

فهى تفرق بين الآباء والأمهات
وأيضا بين الاخوة والأخوات
انها تفرق بين الزوجة والزوج » .

ولم يكن أحد يبعد عن متناول الوشاية والنميمة . وعندما تذكر احد الأشخاص « المتشائمين » ، فى نطاق الأدب خلال عهد الدولة الوسطى ، من عدم حب الناس له ، قال : « الويل ! ان اسمى لأكثر اثارة للكراهية والبغض من امرأة وشى بها البعض لدى زوجها ! » . ولكى تدافع السيدة عن نفسها ، لم يكن عليها سوى أن تقسم قسما وفقا لطلب زوجها ، وأمام بعض الشهود لأن الاله كان يعرف كيف يعاقب بالعمى من يشهد أو يقسم زورا ، عندما يبتهل باسمه دون جدوى . « لم تكن لى أية علاقة ، بخلاف زواجنا . ولم أرتبط بأى شخص (سواك) ، منذ أن ارتبطت بك فى العام (....) وحتى اليوم » . وفور اعلان القسم ، سرعان ما كان يسقط الاتهام ، ولكن الاهانة التى لحقت بالزوجة التى اشتبه فى شرفها تبقى كما هى . ولذا ، وعلى الأقل وفقا لاحدى الوثائق التى ترجع الى العصر المتأخر ، يتبين أن ترضيتها بالتعويض كانت تتم بتسديد مبلغ ضخم : « فى حالة نطقها بالقسم ، لا ينسب اليها أى شىء ، وعليه (الزوج المشتكى) أن يعطيها أربعين تالنت ومائة دبن من الفضة » .

الفوضى الأخلاقية لدى عمال مدينة الموتى الملكية :

قبل أن نتناول بالبحث نظام الطلاق فى مختلف طبقات المجتمع ، تستوجب الضرورة أن نتحدث عما كان محتملا أن يحدث فى حقبة يسودها الانحلال الخلقى الفعلى فى فجر الأسرة العشرين بدير المدينة ، بقرية عمال مدينة القبور الملكية ، غرب طيبة . ولا شك أن الكتابات التى عثر عليها خلال عمليات التنقيب التى قامت بها البعثة تعد وفيرة للغاية ، لكن تسمح بتكوين أفكار بسيطة عن أساليب المعيشة ، وهناك

بعض النصوص التى تناولت أمر الخيانة الزوجية ، فكان هناك أحد العبيد القدامى يدعى « حسى – سونبت » ، تبناه أحد رؤساء العمل بالقرية المذكورة . وكان قد تزوج بسيدة تدعى « حنور » والتى كان يناديها بلقب « الأخت ، ربة البيت » . وعلى ما يبدو كانت تلك السيدة تقيم قبل ذلك علاقة « محرمة بلا زواج » مع أحد العمال وكان يدعى « بن دواو » . ولقد أنجب « حسى سونبت » بعد زواجه من هذه المرأة ، ولدا وبنتين ، وكانت البنت الكبرى « Oubékhet » . ويبدو أن هذا الزوج البائس ، لم يكن قد أحسن الاختيـــار . فقد اندفعت زوجته الخائنة « حنور » بالاضافة الى ابنتها الكبرى ، الواحدة تلو الأخرى ، الى مشاركة المدعو « بانب » أكثر فتيان دير المدينة سوءا فى فراشه ، (١١) ابنه ، أى السليل اللائق بأبيه ، فقد قام بدوره باغواء الشابة الصغيرة « أوبخت » فور تركها لأحضان « بانب » ومما زاد الأمور سوءا أن هذا الأخير كان قد اتهم أيضا باغواء سيدة تدعى « توى » ، زوجة العامل « قننا » . وهنا ، نفهم لماذا اضطر التعيس « حسى سونبت » أن يطلق زوجته (١٢) فى العام الثانى من حكم الملك « ست نخت » . ومع ذلك ، فقد خصصت حصة شهرية ضئيلة من الحبوب لهذه الزوجة . ولم تمنع كل هذه البلبلة والتعقيد من أن يستمر على علاقة طيبة مع ابنته ، التى تزوجت بعد ذلك من « نخت ام نيوت » رئيس العمال .

أسباب أخــرى للطـــلاق :

باستثناء الخيانة الزوجية ، التى كانت تقع تحت طائلة عقوبة صارمة ، الا فى بعض الطبقات الاجتماعية الشعبية ، كانت الأسباب الأخرى للطلاق ، تدخل فى نطاق ما نسميه الآن بعدم توافق الطباع ، أو وقوع أحد الزوجين فى غرام طرف آخر ، أو الاصابة بالعقم بصفة خاصة . وهناك حالة تعلل مصطنع قدمها أحد الأزواج ، الذى كان قد قابل – « امرأة حياته » بعد أن أمضى ٢٠ عاما من الحياة الزوجية مع زوجته . وقد قيلت هذه المأثورة كمثال لزوجة كان زوجها قد قرر طلاقها بسوء نية وبدون أى خطأ معقول :

« انك فى نفس حال الزوجة العوراء التى عاشت فى بيت أحد الرجال منذ عشرين عاما ، ولكنه عثر على امرأة غيرها ، ولذا قــال (للأولى) : « سوف أطلقك ، لأنك عوراء » ، كما يقال « فأجابته : « أهذا هو الاكتشاف الذى اكتشفته طوال هذه الأعوام العشرين التى قضيتها فى بيتك ؟ » .

أما عن العقم ، فان الكاتب الحكيم الذى يبين دائما أفضل الطرق التى يجب سلوكها فهو يسدى النصح قائلا : « لا تطلق امرأة بيتك لانها لم تنجب لك ابناء » . فكان الحل الأفضل هو التبنى .

حقـــوق المطلقـــة :

لم يكن هناك تحريم دينى يعارض الانفصال بين الزوجين ، ولذا فان استقرار الحياة الزوجية كان يعتمد على الرغبة الطيبة لديهما ، وعلى خشية الزوج من الأعباء التى تثقل كاهله فى حالة الانفصال ، هذه الأعباء المالية التى كانت تؤدى به أحيانا ، الى الاملاق والفقــر التام ، فضلا عن المستوى الأخلاقى الرفيع الذى كان سائدا فى نطاق الأسرة عموما ، والتى كانت تضع دائما نصب أعينها ، قانون التوازن الذى لا يجب مطلقــا الاضرار به أو الاخــلال بنظـامه . وعلى كافة المستويات الاجتماعية ، كان والد الخطيبة ، يراعى تأمين وضــمان مستقبل ابنته الى أقصى مدى . وبذا ، فان الخطيب ، والزوج أيضا ، كان يقسم لحماه ، مؤكدا له حسن نواياه تجاه ابنته : وهذا هو ما أقسم به أحد العمــال ، أمام رجال السلطة بالقرية :

« فليحى آمون ، وليحى الملك ، لـو اننى فكرت أبدا فى نبــذ (أو اهانة) ابنة « تنرمنتو » ، فاننى سأستحق أن أضرب مائة ضربة ، وسوف أفقد كافة الأموال والأملاك التى اكتسبت بالمشاركة بينى وبينها (اعلان القسم أمام) ، رئيس العمال ، « خنسو » ، والكاتب « آمون نخت » و « نفرحر » ، و « خع ام نون » ، فى العـام ٢٣ ، فى الشهر الأول من فصل الشتاء ، فى اليوم الرابع (خلال حكم رمسيس الثالث) » .

ولو حدث أن طلقت احدى النساء الثريات ، بدون ذنب ، فمن حقها أن تسترد « هدية الزوجة » ، بخلاف « مؤخر الصداق » . وكان يضاف الى ذلك الأملاك الخــاصة بالزوجة (أو قيمتها) ، و « النفقة » ، بـل وأيضا جزء من الميراث الشخصى الخاص بزوجهــا (وكان يعرف بعبارة « أملاك الأب والأم ») ، الا اذا كــان هــذا الميراث قد خصص من أجل أولاد الزوجة المطلقة ، التى كانت تحصل أيضا على ثلث الأملاك المشتركة فيما بينهما . وفى بعض الأحيان ، كانت تحصل على كافة هذه الأملاك المكتسبة بالمشاركة (أى الثلثين الباقيين أيضا الخاصين بالزوج) ، وعند الاقتضاء ، كانت تحصل على « تعويض عن الطلاق » (والذى قد يتضاعف فى قيمته اذا كان الزوج قد تركها ، من أجل عقد زيجة أخرى) . وأخيرا ، ففى بعض الأحوال ، كانت المطلقة تستطيع

الاستمرار فى البقاء فى بيت الزوجية السابق ، واذا لم يستطع المطلق ان يرجع لها فورا « مؤخر الصداق » أو « النفقة » التى أمر بها لزوجته من خلال العقد ، فكان عليه ، بطبيعة الحال ، أن يوفر لزوجته السابقة معاشها وقوتها ، حتى اليوم الذى يستطيع فيه أن يرد لها هذه الأملاك وتلك الأموال · ولذا ، فيمثل هذه الالتزامات ، كل الزوجان يكادان لا يفترقان عن بعضهما أبدا · ومن خلال ذلك ، يبدو أن الزواج بأكثر من زوجة ، كان من الأمور الصعبة التحقيق · وبذا ، ساعد ذلك ، الى ابعد مدى ، على ارساء دعائم نظام الزواج بزوجة واحدة .

لقد رأينا أن الوالد كان يرعى مصالح ابنته ، فبعد أن يحدث طلاق فى نطاق أسرة رقيقة الحال ، فان الأب لم يكن يترك ابنته أبدا ، دون مأوى : فقد وجه أحد الآباء كلامه لابنته قائلا :

« انت ابنتى ، واذا طلقك العامل « باكى Baki » من بيت الزوجية ، فانك تستطيعين أن تقيمى فى بيتى ، بما أننى أنا الذى قمت ببنائه ، ولن يستطيع أحد طردك منه » ، وخلاف ذلك ، فاذا تبين أن زوج الابنة قد اقترف أمورا مشينة ، فمن حق حماه أن يطرده من البيت .

وعلى ما يبدو ، لم تكن عملية الطلاق نفسها تتطلب أية اجراءات ، أو كتابة اية وثائق : فالطلاق يصبح ساريا ، حالما يعبر أحد الزوجين عن ذلك شفويا ، (وهى عادة ما زالت باقية حتى أيامنا هذه على ضفاف النيل ، منذ فترة قريبة حيث كان يكفى تكرار عبارة : « أنا أطلقك » ثلاث مرات) .

وبمجرد أن يقدم الزوج لزوجته السابقة مكتوبا للصلاحية القانونية · وفى « وثيقة الطلاق » هذه (التى لا تعتبر تأسيسية ولكن لمجرد الاعلام فقط) ، فانه يتخلى عن حقه فى الحياة الزوجية ، ويعلن زوجته صراحة وجهرا ، بأنه يترك لها كل الحرية فى أن تتزوج ثانيا · وبدون الحصول على هذا النص توصى الحكمة الشعبية بتوخى الحيطة والحذر :

« لا تتزوج من امرأة ما زال زوجها على قيد الحياة ، خوفا من أن يصبح عدوك (....) · وسيكون هذا أمرا خطيرا ، بل وقد يعرضك لتهم الخيانة الزوجية » .

المطلق :

تبقى بعد ذلك الحالة الأقل حدوثا ، ولكنها قائمة ومقبولة أيضا ، والتى يجد فيها الزوج نفسه مطلقا من زوجته · وفى هذه الحالة ، اذ

لم يكن هو المخطىء ، كان يستطيع الحصول على نصف « هدية الزوجة » (التى كان قدمها يوم الزواج) · ووفقا للظروف ، كان يمكنه أن يستعيد ، كما هو مقرر ، على الأقل ثلثى ما اكتسب بالمشاركة بينهما · وفى بعض الأحيان ، كان الثلث المخصص عادة للزوجة يعطى له أيضا ·

تحذيرات من أجل الزوجين المقبلين :

فى عشية يوم زواجه ، كان الشاب المصرى ، يستمع كثيرا الى النصائح التى يجزل أبوه فى اسدائها له ، رجوعا الى الحكمة السلفية لذائع الصيت « بتاح حتب Ptahhotep » (١٤) ، والتى تناولها بقلمه ثانية الكاتب « آنى Ani » (١٥) .

« لا تراقب زوجتك مراقبة مستمرة فى بيتها ، اذا كنت تعرف أنها فاضلة · ولا تقل لها : « ذاك الشىء ، أين هو ؟ ، أخضريه لنا » · عندما يكون هذا الشىء موضوعا فى مكانه المعتاد · لاحظ بعينيك ، وابق صامتا · اظهر اعجابك بقيمتها · ان السعادة تتحقق عندما تتحد يدك بيدها · والكثيرون يجهلون (كيف) يتفادى الرجل سبب المشاحنات فى بيته · فحالما تبدو بوادر مشاحنة فى البيت ، يجب على القلب أن يثبت على الفور » (حكم آنى Ani ٨ و ٤ — ٥) .

ولا شك أن مثل هذه العبارات ، كانت قطعا تستطيع أن تساعد الى أبعد مدى ، فى الفترة الأولى من التعايش ، التى كان الأمر يستلزم خلالها أن تتوافق المواجهات الحتمية والتصادمات البسيطة خلال الحياة اليومية · ولكن الكاتب « آنى » كان يفكر أيضا فى الواجب الذى سيقع سريعا على كاهل الزوج الجديد أمام أبنائه .

« وأنت مازلت شابا ، اتخذ زوجة ، وسوف تؤسس بيتك : قم برعاية كل من ستنجبهم ، وكل من ستطعمهم ، وكأنهم خليقة أمك · ولا تجعلها تلومك ، أو ترفع ذراعيها نحو الرب ، أو أن يستمع الرب الى شكواها » (١٦) .

ولم يكن هناك أى نقص فى النصائح من أجل الاشادة بالتفاهم بين الزوجين ، ووفاء الزوج لزوجته ، التى يجب أن تقوم بمهمة رعاية البيت :

« اذا كنت عاقلا ، احرص على بيتك ، أحبب زوجتك دون أى مشاركة ، وأطعمها كما يجب ، ووفر لها الملبس المناسب · وداعبها وأشبع رغباتها · ولكن ، لا تكن فظا · فانك لا تحصل على أكثر مما تريده منها بالمراعاة لا بالعنف · فان أنت أبعدتها ، فان زواجك سوف يخفق ويذهب مع التيار · افتح لها ذراعيك ، ونادها ، وعبر لها عن حبك » .

ولكن مازال هناك دائما شك ما ، يجب أن يحمى الزوج الشاب من الاستسلام لطمأنينة وسكينة باطلة ، وألا يترك سبيلا أبدا فى بذل جهوده ومحاولاته :

« لا يمكن أن يعرف قلب الأخ ، اذ لم يستنجد به فى وقت الحاجة ،

« ولا يمكن أن يعرف قلب خادم ما ، قبل اليوم الذى يفقد فيه سيده ثروته » .

« ولا يمكن أن يعرف قلب امرأة ، مثلما لا يعرف أحد حقيقة السماء » (١٧) .

ولا شك أن نجاح وازدهار البيت ، يتعلق بسعادة « ربة البيت » هذا « الحقل الخصب » . كما أن الزوج الشاب ملزم أيضا بألا ينسى أن « العطور والمساحيق تعتبر بمثابة علاجات سحرية » .

اذن ، فالأسرة المنسجمة المترابطة ، بالاضافة الى العديد من الأطفال ، وزوجة محبة ، كانت هى فى الواقع الأمنية التى يعبر عنها أغلبية المصريين ، والحب بين الزوجين ، كان يعتبر ، بصفة عامة بمثابة المثل الأعلى الذى يتمنون الوصول اليه . وكان يساعدهم فى ذلك ، تطبيق نمط من الأخلاقيات كان يلقن لهم منذ بداية تعليمهم وتثقيفهم ، وكانت هذه الأخلاقيات ، تلعب فى مصر ، دورا أكثر أهمية مما هى عليه فى أية حضارة أخرى من حضارات العصور القديمة .

أما الفتاة الشابة ، التى تمر بكل كيانها فى فرح وغبطة اللحظات التى تحياها ، وهى منهمكة فى تكوين « جهازها » ، والثرثرة أكثر من المعتاد مع بعض صديقاتها اللائى عرفن قبلها مباهج الحب ، فقد تتلقى زيارة السيدات المسنات الوقورات ، المكلفات باسداء النصائح النافعة اليها ، واعدادها لحياتها المقبلة كزوجة . وكانت أمها ، تقوم باكمال هذه اللوحة « البانورامية » الشاملة ، بأن تذكرها بتعاليم العدالة ماعت ، التى تعمل على أن يكبح المرء جماح اندفاع ألفاظه وعباراته ، وتسمح من خلال التفكير الهادىء المتروى ، بتوخى الطريق السليم فى كافة الأحوال ، واصدار الحكم المتوازن الجدير بمن سوف تصبح محور الأسرة ، والأم ذات المسئوليات العديدة . ثم يذكرنها كذلك بايزيس العظيمة ، النموذج الأسمى للزوجة ، والتى لم يتخاذل حبها ، ووفاؤها ورعايتها أبدا . وكن يذكرنها أيضا ببركات ومعجزات حتحور ، « التى تمنح الزوجات أبناء وبناتا ، دون أن يمسهم مرض أو فاقة » . ويجب على الزوجة الشابة الا تنسى أبدا ترتيل بعض الصلوات من أجل الأموات ، لأن حتحور ، سيدة الغرب تحمى النساء من العقم ، وتمنع الأزواج من أن يصبحوا عاجزين ومصابين بالعنة .

شجب الخيانة الزوجية

اذن ، كان الزواج يعتبر مثلا اجتماعيا أعلى ، ولذا ، كان لا يجب أبدا أن يعوق مسيرته المتناغمة أى شىء ، بشرط أن يلتزم طرفا هذا « الاتفاق المتبادل » البسيط ، الطريق الذى حددته العدالة « الماعت » ، أى المعطيات الأساسية للضمير الانسانى . ولذا ، فان عدم الوفاء فى اطار هذه العلاقة ، يبدو على قدر من الخطورة ، لدرجة أنه يصور وكأنه « الجريمة الكبرى » . ولكل منهما كان يشار للمصير الذى لاقاه العشيق والزوجة الخائنة ، وما حدث لهما ، عندما علم الزوج بهذا الزلل ، فقد وافق الملك « خوفو » نفسه على عقوبة الموت التى قررها ، « بواسطة التمساح » (برديات وستكار) ويبدو أن هذا التهديد والوعيد كان لم يزل يخيم على مجتمع الدولة الحديثة ـ تلك الفترة التى سنحصر خلالها لحظات الارتباط بين الشاب والشابة ـ ففى احدى القصص المعاصرة لتلك الحقبة (الصدق والكذب) يقوم ابن احدى النساء التى كانت قد عاشت حياة ماجنة ، بتأنيبها فى هذه العبارات :

« هذا أمر يستحق أن يجمع بسببه أفراد العائلة ، واستدعاء التمساح » . وكان على الفتاة الشابة أن تتيقن تماما من فداحة الخطأ عندما تتذكر « قصة الأخوين » ، وكانت بطلتها ـ زوجة حاولت خيانة زوجها ـ فلاقت عقوبة الموت ، بيد زوجها . والى هذه التنبيهات ، كان يضاف أيضا تحذير المعلم المسن لتلميذه :

« خذ حذرك من المرأة الأجنبية التى لا يعرفها أحد فى المدينة . ولا تغمزن لها بعينيك ، و (بصفة خاصة) ، لا تتصل بها جنسيا (......) . انها مياه عميقة ، لم يتمكن أحد بعد من سبر غورها (....) . انها تتوقف ، وتجمع فى شباكها : انه لجرم يعاقب بالقتل لو عرف بأمره ، لأنها لم تعرف كيف تصون السر » (١٨) .

الادانة النظرية :

اذن ، فالموضوع كان يخص كلا الزوجين على حد سواء ، وكانت يد العدالة تستطيع أن تصيب المخطئين الاثنين ، سواء على الأرض ، أو أمام المحكمة الالهية ، عندما يتحتم المرور نحو ضفة الأبدية :

« لم أقترف الخيانة الزوجية » (١٩) فهذا ما ينطق به لسان الذى ـ أو التى ـ يردد « شهادة البراءة » الشهيرة بالفصل ١٢٧ من

كتاب الموتى · وفى الواقع ، اذا كان الزواج وأحيانا الطلاق أيضا ، يعتبران من الأحداث التى يصدق عليها بداخل الاطار الأسرى فقط ، بمجرد ارادة الزوجين ورغبتهما ، بدون أى تدخل من جانب الهيئـة الادارية ، كما هو الحال بالنسبة لأى « قبول بالمشاركة الشخصية أو المالية » ، فان الخيانة الزوجية على عكس ذلك ، تستحق العرض على هيئة القضاء : فالمحاكمة يتبعها فرض عقوبة ، كانت بالنسبة للرجل الذى يعتبر كمغتصب : الاخصاء ، وبالنسبة للمرأة التى وافقته على اقتراف الجرم : قطع الأنف مما يجعلها مشوهة ، ويحرمها الى الأبد من كل سحر وجمال · واذا كانت « الجريمة » قد اقترفت بدون عنف ، كان الرجل يتلقى فقـط مائة ضربة بالعصا ·· ولكن ذلك نقله الينا المؤرخ الرحالة « ديودور » (٢٠) ، ففى نصوص أخرى ، يكون تهديد الرجل بقطع أنفه وأذنيه وبالأشغال الشاقة ، والمرأة بالنفى الى بلاد النوبة .

التطبيـــــق :

ومع ذلك ، كان هنـاك فارق كبير بين النصـوص الموحية والعبرة والتعقل ، وبين التطبيق الواقعى · فقد سبق أن رأينا مـدى الاستهتار الذى كانت تبدو عليه حياة بعض عمال « دير المدينة » ، سـواء المتزوجون منهم ، أو الذين كانوا فى معـاشرة غير شرعيـة (الفصـل الخـاص بالطلاق) · فقـد كان التحـرر من التقاليد يمـارس على أبعـد مدى فى نطاق هذا العـالم الصغير · كما كان القضاة متسـامحين وعطوفين للغاية : وهذ ايتبين من خلال هذه الأقصوصة التى حدثت أيضا ، بدير المدينة ، وبالرغم من أن ذلك أمر غير شائع ، ولكنه كان يمكن أن يحدث : فقد ارتبط أحد الرجال بامرأة برابطة الزواج ، ومع ذلك ، فلم يكن يقيم معها · فكل واحد من الزوجين كان يعيش فى بيت أبيه · وفى ذات يوم ، فاجأ الزوج زوجته وهى بين أحضان بحار يدعى « مـرى سخمت Méry-Sekhmèt » ابن « منـا » · وعنـدما تقـدم الزوج بشـكواه للقضاة ، أعلنوا أنه على خطأ ، ولكن العاشقين فوجئا بدورهما بضبطهما بواسطة أحد الشهود وفى نهاية الأمر ، التفت الكاتب نحو البحـار الخاطىء ، وطلب منه أن يعد بعدم التحدث الى المرأة · كما حصل أبوه منه على نفس هذا الالتزام ، والا وقع تحت عقوبة الأشغال الشاقة · ولا شـك أن مثل هذا الحلم والدماثة من جانب القضاة كان يمكن أن يعللها أن الزوجين لم يكونا يعيشان معا ، وأن الزواج ربما لم يكن قد تم بينهما ·

ومهما يكن الأمر ، فان هذه النهاية لا تثير الدهشة · وفى الواقع أن الخيانة الزوجية ، لم تكن دائما ، تقع تحت العقوبة الصارمة كمـا

ادعى · ألم يوجد ، فى نطاق هذا العالم الميثولوجى الأسطورى المثقل والمفعم بالتعاليم والأمثال ، بعض الأمثلة التى تقوم فيها الالهة « نفتيس » شقيقة وزوجة الاله « ست » بخيانته عندما أغوت « أوزيريس » ؟ ··· اذن ، فالأمر لا يتعلق اجباريا بتطبيق العقوبة بالنسبة للمرأة التى كانت تعلن بأنها قد أغريت ، لكى تبرىء نفسها · وفى هذه الحالة كانت تعتبر انها وقعت تحت نوع من الاغتصاب ، وحينذاك ، لم يكن زوجها يضطر أن يقدم شكوى ضدها أمام القضاء : ومع ذلك ، كانت المرأة تحمل فى بعض الأحيان بعد مغامرتها هذه ·

و « المحاكم » نفسها كانت تبدو أحيانا على شىء من التخـاذل والضعف · فهناك مثلا ، قصة خيانة زوجية ، سويت بأن : طلب من المذنب بأن يقسم بأنه سوف ينتهج بعد ذلك سلوكا مثاليا ، لكى يتـلافى عقوبة بتر أنفه وأذنيه · ولكنه كرر فعلته ثانيا ، وتسبب فى حمـل « الجميلة » · وجرت محاكمة أخرى مبينة روح التساهل القصوى من جانب هذه « المحاكم التى تعتمد على الشهادة والتحكيم » ·· لا بصفتها محاكم قادرة على فرض العقوبات : وكل ما فى الأمر ، فرض التزام جديد :أن يكف العاشق عن فعلته ، والا فانه ، سوف يتعرض لعقوبة شديدة » ·

وفى أحوال أخرى ، كان المذنب يصر على انكار فعلته الجديرة بالعقاب ، على مدى خمس مرات خلال خمس جلسات مختلفة لوسيط الوحى · ولم يعترف فى نهاية الأمر ، الا بعد أن أوسع ضربا ······ ، وتحت ضغط الرأى العام » · الطريقة المثلى « (٢١) كانت تعتمد دائما على الفصل فى الخلافات بحيث يمضى كل من الطرفين وهـو راض تماما ، ولذا ، يراعى ويحسب حساب هذا الرأى العـام » ·

وخلاف ذلك ، فان التهديدات بالقتل فى حالة اقتراف الخيانـة الزوجية ،تنبع خاصة من روح الانتقام المتوقعة لدى الزوج المخدوع ، والتى جعل ديودور من نفسه هو أيضا صدى لهـا ، ولكن ليس بالنسـبة لأية مقاضاة ، أمام المحاكم · ففى الواقع ، أن « الجـرم » كان يرتكـز على فكرة مهاجمة امرأة « متزوجة » لأن الأمر كان يتضـمن شـعورا بالاهانة والخزى والعار بالنسبة للزوج · والذى حاول الحكيم « عنخ شيشنقى » أن يلقنه ، بعد النصوص الأخلاقية الأولى ، فهذا هو الوضع الذى يعاقب رسميا عن طريق الغضب المباشر من الزوج المخـدوع · وحتى من العائلة القريبة : « أما عن الذى يمارس الحب (······) مع امرأة لها زوج ، فهو يقتل أو (يمكن أن يقتل) أمام باب بيتها » · ولكن ، يجب أيضا مراعاة نوع آخر من التحذيرات : لا تفعل ما لا تود أن يفعله بك الآخرون » ثم يباشر كلامه قائلا :

« لا تضاجع امرأة متزوجة » . فالذى يجامع امرأة متزوجة فى سريرها ، فان زوجته نفسها يمكن بدورهـا ، أن تغتصب على الأرض » .

وخلال تلك العصور المتأخرة ، حيث أصبحت بعض المبادىء الصارمة على شىء من اللين والسلاسة ، عمل التساهل الواضح للعيان على التخفيف من حدة بعض الأحوال والأوضاع . ولقد حاول « عنخ شيشنقى » تبرير الضعف الانسانى أمام العاطفة ، وبدا التسامح واقعيا أكثر منه رومانسيا ، ألم يتمـاد هـذا الحكيـم الى درجـة ابداء النصح للمخدوع التعس الحظ ، بأن يتجاهل الاهانة ، ويكتفى بمجرد الطلاق ليتخذ لنفسه زوجة أخرى ، بل ويوصيه أيضا بأن يراجع نفسه ، وان يتساءل قائلا : ألم يكن مهملا تجاه زوجته ؟ وفى الواقع ، ألا يستحق هو بعض اللوم ؟

ولكن ، كانت الضرورة تستلزم أن يستمر دائما أبدا « الخوف من الشرطى » ، ولاشك أن نفس هذا القلق المحمود جدا ، هو الذى جعل تطبيق العقوبات على ما استمر فى تسميته « بالجريمة الكبرى » ، غير واضح أو محدد . والضرورة كانت تحتم قبـل كل شىء أن يسـود النظام والانضباط العـام بالسهر على أمن كل فرد ، وبالعمـل على تلافى الأخذ بالثأر بين جماعة المعتدين ، وجماعة المعتدى عليهم . وبذا ، فان احدى البرديات الشهيرة التى ترجع الى عصر رمسيس الثالث (٢٢) تحتفظ لنا بالتأكيد التالى لهذا الموضـوع وهو : « أن المرأة فى مصر ، كـانت تستطيع أن تذهب الى أى مكان قريب ، دون أن تلحقها أية مضايقة أو ازعاج » . (فالدولة كانت تضمن لها عدم اغتصابها) .

الـــزواج

لقد سبق أن رأينا أن الزواج لم يكن يخضع لأى قانون ، بل كان مجرد اتفاق شخصى تماما بين شخصين معينين ، أى مجرد ميثـاق اجتماعى . ومنذ حوالى مائة عام (٢٣) ، كانت مثل هذه الجملة : « اننى أهب لك نفسى » ، التى تنطق بها المرأة البالغة للرجل الذى سيصبح زوجها ـ بحضور أو بعدم حضور شهود ـ تجعـل منها زوجة شرعية له . والى يومنا هذا ، وخاصة فى القرى المصرية ، ما زال المصريون الحريصون بشكل رائع على العادات والتقاليـد التليدة ، يكتفون بهذه العبارة : « اننى اقبلك كزوج » ، أمام هذا الوكيل الدينى القائم بالتسجيل ، المعروف بالمأذون ، ومعه شاهدان .

الموافقـــة :

ترى ، كيف كانت تتم هـذه الموافقة فى العصر الفرعونى ؟ اننا نعرف فقط أن كل واحد من الزوجين المقبلين ، كان ملزما على التوالى ، أن ينطق بالعبارات التى حددها العرف : الزوج : « لقد جعلتك زوجى» ، « لقد جعلت منى زوجتك » .

وفى بادىء الأمر ، كان الشاب يتوجه للتحدث مع والد تلك التى يرغب فى اتخاذها زوجة له ـ وفى بعض الأحيان ، وهذا يبدو مؤكدا ، كان الأب يتفق مباشرة مع الذى يقع عليه اختياره لكى يحقق السعادة لابنته ، ويبرم معه نوعا من التعاهد ، كما رأينا آنفا . وبعد ذلك ، كانت تتم المعاشرة بين الزوجين ، التى تجعل كل ارتباط شرعيا بالفعل : كانت الفتاة تترك منزل أبويها لكى تدخل بيت زوجها . ولكن ، فى بعض الحالات النادرة جدا ، كان الزوج هو الذى يحضر للاقامة لدى زوجته ، عنـدما تكون هذه الزوجة أكثر ثراء منـه ، وكان ذلك من الأمور التى يحذر منهـا بشـدة .

ويجب علينا أن نحذر من تأويل الحدث بعقليتنا كغربيين عصريين : فلم يكن القانون الدينى أو حتى القانون الفردى مقحما فى تلك المناسبة . فعلينا أن نلقى تماما وراء ظهورنا افتراض وجود ما يعرف « بمباركة الزواج » فى نطاق المعبد (٢٤) . فان أكثر الضمانات متانة وقـوة لتأكيد الروابط الزوجية كانت « الرغبة » فى اعانة الأسرة فى منـاخ يسوده الأمن ، بفضل توافق وتفاهم جيد ، وانجاب أطفال شرعيين وهو أمن يزيد من تدعيمه التزامات « عقود الزواج » ، التى كان من الممكن ابرامها بعد الزواج ، أحيانا بعد مرور سبع سنوات من « المعايشـة الزوجية » ، وهذه العقود ترجع الى الأصل الطيبى ، وكانت غالبا ما تمنع ما قـد يجيش فى نفس الزوج من رغبـة فى الانفصـال عن « ربة البيت » .

الأحـوال والشروط :

كانت الضرورة تستلزم أن يتـم الزواج بين شـخصين متمتعين بحريتهما ، ولذا ، فقد سبق أن سردنا قصة أحد أسرى الحرب ، الـذى كان يود الاقتران بمصرية ، ابنة أحد حلاقى تحتمس الثالث ، ولزم الأمر أن يتم قبل ذلك ، اعتاقه . كما كان الأمر يستلزم أيضا تحرير « الجارية» حتى تتمكن من الزواج « بمواطن مصرى » .

محـــاولة اعادة تكوين الزواج :

لوحظ أن أغلبية الأفراد « العبيد » ، كانوا يعيشون معا ، معاشرة حرة » ، وهذا يعنى ، أن المرأة لم تكن تحمل لقب « ربة بيت » ، ونفس هذا النظام كان يطبقه عمال مدينة القبور فى طيبة بدير المدينة . ومع ذلك ، ففى أجواء الطبقة المتواضعة ، كانت توجد أيضا العلاقة الزوجية ، فالزوجة كانت تعرف « بالمرأة » « حمت hémèt » ، أو « المرتدية ملابســها » « حبســـوه hebésout » (٢٥) . ففى بعض الأوساط المدقعة الفقر ، وجـد مثال عن أحـد رعاة البط الـذى تزوج زواجا فعليا ، ولكن لفترة تسعة أشهر فقط ، وفى نهايتها ، قدم لزوجته مبلغا من المال (٢٦) .

ان الزوجين اللذين سنقوم الآن بتصور حياتهما معا ، ينحدران من أسرتين ميسورتى الحال ، خلال أبهى مراحل الدولة الحديثة ، والتى تحدد فيما بين الثلث الأخير من الأسرة الثامنة عشرة وعصر رمسيس الثانى .

والاشارات التى تتضمنها النصوص الخاصة بالعصر المتأخر(٢٧) ، تجعلنا نعتقد أنه على الأقل خـــلال تلك الحقبة ، كان والد العروس ، يقوم فى اليوم المحدد ، وعندما يسدل الليل ستره ، بتوصيلها علنيا الى منزل صهره المقبل ، وقد صحبت بعض الهدايا . وبدوره ، كان الشاب يقوم باقامة حفل كبير ، يدعى اليه عدد من المدعوين ، ومعهم هداياهم . وبعد أن تتم هذه الاحتفالات ، كـــان العروســـان يبدآن حياتهمـــا المشتركة (٢٨) .

ويكفى أن نرجع أولا الى العبارة المصرية التى تعنى كلمة « زواج » ، بكـل أنواعـه : حمس hémès حمسى hémésy ، أو حمسى ارم hémésy-irem وتعنى حـرفيا : « يجلس » أو « يجلس مـــع » ، ومنهـا امتد المعنى الى « عايش » ، و « عاش مـع » . وأعتقد أنه يمكننا أن نمعن النظر أبعد من ذلك ، بل حتى الوصول لمعنى العبارة الأولى : « يجلس مع » . وهنا ، لن يسعنا سوى أن نفكر فى احتفالات الزفاف التى تقام حتى أيامنا هذه ، سواء فى القرية أو فى القاهرة ، والتى تتمثل فى تجمع فعلى لأعداد من المدعوين والعديد من أعضاء الأسرة ، وهم يحيطون ، فى بهو فسيح خاص بالاحتفالات ، بالعروسين اللذين يبدوان وكأنهما معـروضان فوق منصـة ، الرجـل والمرأة ، « الواحد » بجوار « الآخـر » ، يجلسان على مقعدين يستحسن أن يكونا مذهبين . اذن ، ويجب أن يبدوا وهما « جالسان » ، وقد ارتدى الشاب بدلة داكنة اللون ، أما « هى » ، فهى تتلألأ وتتألق بالمساحيق ، وقد ارتدت ثوبا من الساتان ، أو « الفاى » « Faille » (تل) ، تبرق وتسطع بما ارتدته من مجوهرات

حقيقية أو مقلدة ، وقد أحاطت رأسها طرحة كثيفة من التل ، وأحاطت بكليهما الورود والرياحين . ويتبادل المدعوون التهنئة ويمرحـون ، أما الزوجان فهما « معروضان » ، ساكنان ، باعتبارهما عناصر أساسية فى استعراض ما ... خارج نطاق الزمن . فلو أننا تغاضينا عن الملابس والحلى المعاصر ، لتصورنا أننا فى الدولة القديمة ، أمام الأمير « رع حتب Rahotep » والأميرة « نفـرت Nofrét » أما فى الدولة الحديثة فقد اكتسبت الأوضاع ، أحيانا ، شيئا من الليونة ، ولا شك أن حركة الذراع مثلا ، واتجـاه قدم المرأة ، أو ميـل احدى خصلات شعرها ، يقود العين المدربة فقط ، الى تفهم الغرض والمرمى الذى يهدف اليه النحات ، الذى أراد بذلك ، ووفقا للتحشم والتحفظ المصرى الفائق ، أن يوحى بالجاذبية بين هذين الكائنين ، أو بمجرد حركة اغراء من جانب المرأة ، أو يوحى بالدعوة المستترة للحث على الحب (٢٩) .

ويبدو مؤكدا أن كافة مجموعات المناظر التى عثر عليها بمقصورات المقابر ، تكون العديد من الأسس لهذه العلاقة الأبدية المستمرة التى تمتد الى ما بعد الموت ، والتى يرغب فيها كل مصرى مجددا بذلك – من أجل تخليده – ما كان خلال حياته سببا لوجوده . وفى أيامنا الحالية ، لا شك أن رقصات البطن ، التى تؤديها الراقصة ، تقليديا ، خلال حفل الزواج ، على أنغام الفرق الموسيقية المحلية ، وعلى أنغام الجلاجل والصـــاجات المتزايدة فى تأججهـــا ، هى بمثابة انعكاس للحفــلات والرقصات التى كانت تعتبر كمواكبة أساسية ، وتعبيرات جسدية عـن نشوة الحب . وفى القرى ، وقديما فى النوبــة ، كانت الأغـــانى والرقصات التى تؤديها نساء القرية ، تتم بداخل نطاق نوع من الدوائر السحرية يقف على حدودها أعضاء العشيرة . وكانت أغانى الزواج الجميلة للغاية ترتفع فى كل تموجات صوتية عميقة ودافئة نحو الأزرق الداكن لليل المرصع بالنجوم .

وهناك نقطة أخرى لا شك أنها مشتركـة بين احتفـــالات اليوم واحتفالات الأمس فى مصر : موكب « جهاز » العروس الشابة . فهناك تشابه مؤكد بين منظر العروسين فى العصور القديمة وهما « جالسان » ، وبين المظهر الحالى للعروسين فى مصر الحديثة ، ويلاحظ التشابـــه أيضا بين قائمة « جهاز » العروس الذى أشير اليه فى معظم عقــود العصور القديمة (ذكرت مع كل قطعة من الجهاز قيمتها المادية) ، وبين موكب جهاز عروس اليوم ، فى ضواحى القاهرة أو القرية ، ومن ناحية أخرى بين أثاث المتوفى الذى كان ينقل الى « المقصورة الأبدية » الخاصة به من أجل زواجه بالالهة حتحور .

ومع احترام كافة النسب ، فهناك بعض العروض المشابهة والتى تكاد تكون متوازنه : صراخ وصياح الناحبات فى العصـور القديمة ، والتى حلت محلها حاليا (زغاريد) ، وتشاهد أيضا ، معروضة بالطرقات ، وهى تطوف فـوق أكتـاف الأهل والأصدقاء والخـدم ، السرير ومرتبته المريحة ، وقد اعتلته « رأس السرير » ، والمقعـد ، والكراسى ، وصناديق الملابس والمجوهرات (عقود ـ أساور ـ خـواتم) وأدوات المنزل ، وقوارير العطور ، وأدوات الزينة ، والملابس ، والنعال الخفيفة المصنوعة من الجلد الأبيض ، وفى قائمة الأشياء المنزلية كان يظهر دائما رداء ـ أو قطعة كبيرة من القماش ـ لا تذكر الا فى هذا النوع من القوائم . ولقد تساءل البعض عما اذا كان الأمر يتعلق بقماش شعائرى خاص بالعروس (٣١) . ومن الصعب تشبيهه بالملاءة ، ولكن يبدو من المحتمـل الاعتقاد بأن الغرض منه هـو وضعه جانبـا توقعـا لاستعماله المحتمـل ككفن (يمكن مقارنته بقماش الفوط ، الذى يقـوم كل مسلم ، ولو كان أعلى الناس منزلة ، بلف جسمه به خلال الحج ، لتكون له كفنا فى حالة وفاته أثناء سفره الى مكة) . وهناك توضيح آخر ، قد يكون أكثر قربا من الحقيقة ، لو أننا رجعنا الى شىء أساسى ، كان يذكر فى قائمة جهاز سيدات عصر السلاطين ، المماليك فى مصر ، والذى يكون عند زواجهن : كان الأمر يتعلق بالناموسية ، ولا يستبعد ذلـك مطلقا بالنسبة للعصور الفرعونية ، بما أنه قـد تم العثـور على نماذج لها ترجع الى أوائل الدولة القديمة ، بين قطع أثاث أم الملك خوفو ، وبعد ذلك ، ضمن أثاث « توت عنخ آمون » . ولقد أشير الى استعمال مثل هذه القطعة من القماش ، لدى العامة من الناس ، ومن خـلال بعض



شكل (٣١) حاملوا الأثاث

الرسومات على جدران بعض المقصورات الجنائزية خـلال الدولـة القديمة .

وجملة القول فى هذا المجـال ، وبالنسبة للزوجة الشـابة ، كان يوجد ما تستطيع بواسطته أن تقوم بكل افتخـار بالتزاماتها ، وتؤثث كلا من حجرة النوم ، وغرفة الخدم والمطبخ ، تأثيثا جيدا : وكان على الجميع أن يعجبوا بالعديد من الممتلكات التى غمرها بها أهلها .

وليس من المستغرب ، لكن يتبع عرف متعمق الجـذور فى غقليـة أبنـاء البلد ، عنـدما يتعـلق الأمر باحتقال ما ـ وهى عـادة شـعائرية تلاحظ حتى فى أيامنا هـذه ، خاصة عندما نبتعـد عن المدن الكبرى ـ فالرجل والمرأة اللذان سيحتفى بزواجهما خلال السهرة ، يتوجهان منذ بداية اليوم الى مقبـرة العائلة . ولكنهما كانا ، وبالاضافة لذلك ، لكى يقلدا ظاهرة « المولد الالهى » الملكية ، على المستوى الشعبى ، قد وجها ابتهالا الى الأب ، أو الجد ، المتوفى منذ وقت قريب ، طالبين منـه أن يولد لهما ابن . وبذا ، فان الجـد أو الأب « يوحى » هنـا بالحمـل فى الوريث المقبل ، ويسمح بذلك باستمرار السلالة . وبالفعل ، فقد وجدت بعض التماثيل الصغيرة بجوار بعض المقابر التى تمثل بعض النسـاء ذوات الشعور الكثيفة ، حملت كل منهن بين ذراعيها شـكلا لطفـل وليد ، وقد رسمت سيقانهم بكتابة بالحبر عبـارة عن الابتهـال الموجه للجـد ، لكى « يوحى » و « يحث » على انبثاق هذه الحياة الجديدة .

ولا شك أن الاحتفال بالزواج كان يجب أن يكون احتفالا مشهودا **من اجل عقد رابطة تعمل على دوام ، ليس فقط خلية واحدة من الأسرة** الكبيرة ، بل وايضا مجموع الشعب فى البلاد . وبالاضافة لذلك ، فان كلمة « عيد » باللغة المصرية ، أى « حب hep » قد استمرت وبقيت فى اللغة النبطية ـ التى تعتبر بمثابة التعبير الأسمى للغة المصرية المكتوبة **بالأحرف الاغريقية ـ تحت عبارة « هب hop » والتى تعنى ليس** فقط « عيد » ، ولكن « عيد زواج » بصفة خاصة .

الزواج كما ورد فى قصـــة خـــع ام واس :

هكذا كانت تتم احتفالات الزواج التى اهتم بها الفرعون شخصيا ، والتى وضعت فى قصة « خع ام واس » :

« قال الفرعون لرئيس شئون البيت الملكى : « فلتوصل حـورس الى منزل « نينوفر كا بتاح » فى نفس هـذه الليلة . ولتأخـذ معهـا كل أنواع الهدايا الجميلة » . واصطحبونى كزوجة الى منزل « نينوفر كابتاح » ، وقد أمر الفرعون بأن يحضر لى صداقا كبيرا من الذهب والفضة ، قام بتقديمه لى كل أفراد البيت الملكى » .

« قضى نينوفركابتاح يوما سعيدا معى ، واستقبل جميع أفراد البيت الملكى ، ونام معى ، فى نفس الليلة . ولقد وجدنى عذراء ، وازدادت معرفته بى أكثر وأكثر لأن كل منا كان يحب الآخر » .

« وعندما حان وقت تطهرى ، لم يكن هناك داع لأن أتطهر ، ولقد ذهب البعض لاعلان الفرعون بذلك ، ولقد سعد قلبه وفرح بذلك كثيرا . وأمر بأخذ كافة أنواع الأشياء الثمينة من ممتلكات البيت الملكى ، وأمر بأن تحضر الى العديد من الهدايا الرائعة المصنوعة من الذهب ، والمصنوعة من القماش الكتانى الرقيق » .

« وعندما حان وقت ولادتى ، ولدت هذا الولد الصغير الماثل أمامك . ولقد سمى باسم « ماى حت » وأدرج اسمه فى سجلات « دار الحياة المزدوجة » .

هوية المرأة المتزوجة :

حالما تتزوج المرأة ، فانها لم تكن تغير اسمها ، بل لم تكن حتى تقرن اسم زوجها باسمها . فقد كانت هويتها يحددها دائما تسلسل نسبها الشخصى : ولدتها فلانة ، وأنجبها فلان (أو من نسل فلان) . ولكن ، فى بعض الأحيان ، كانت تعرف بأنها « زوجة فلان » .

- ٤ -

البيت والحياة فى البيت

البيت

ما يمثله البيت :

مما يبدو ، فان المنزل كان من أعز الأشياء الى قلب كل مصرى ، فكان يمزج بينه وبين حبه لعائلته وابتهاجه بالحياة . فعندما يبتعد المصرى عن مسكنه ، فانه كان يفكر فيه دائما ، ويشغل باله بما كان يحدث فى أجوائه ، ويستعلم عن صحة أفراد أسرته ، وعن آلاف التفاصيل التى تملأ أجواء معيشتهم ولو فرض أن طالت رحلته أو فترة انتقاله ، فان الحزن والأسى كانا يستوليان على مشاعره . ولذا ، فلكى يجد « الثعبان الكبير » الكلمات المعبرة عن المواساة المناسبة لتهدئة « الغريق » ، الذى رمت به أمواج البحر الأخضر للجزيرة المسحورة ، فقد قال له متنبئا : « سوف تحتضن أبناءك فوق صدرك ، وسوف تقبل زوجتك ، وسترى بيتك ، وهذا يساوى كل شىء ! سوف تعود الى البيت الذى كنت تعيش فيه بين اخوتك » .

وبعد ذلك ، عندما أوشك البحار على الرجوع الى مصر بفضل احدى السفن التى وصلت الى الجزيرة ، قال له « الثعبان » مؤكدا :

« (ارجع) فى أتم صحة ، أيها الانسان الصغير ، الى بيتك — ولتر أولادك ثانية ! » .

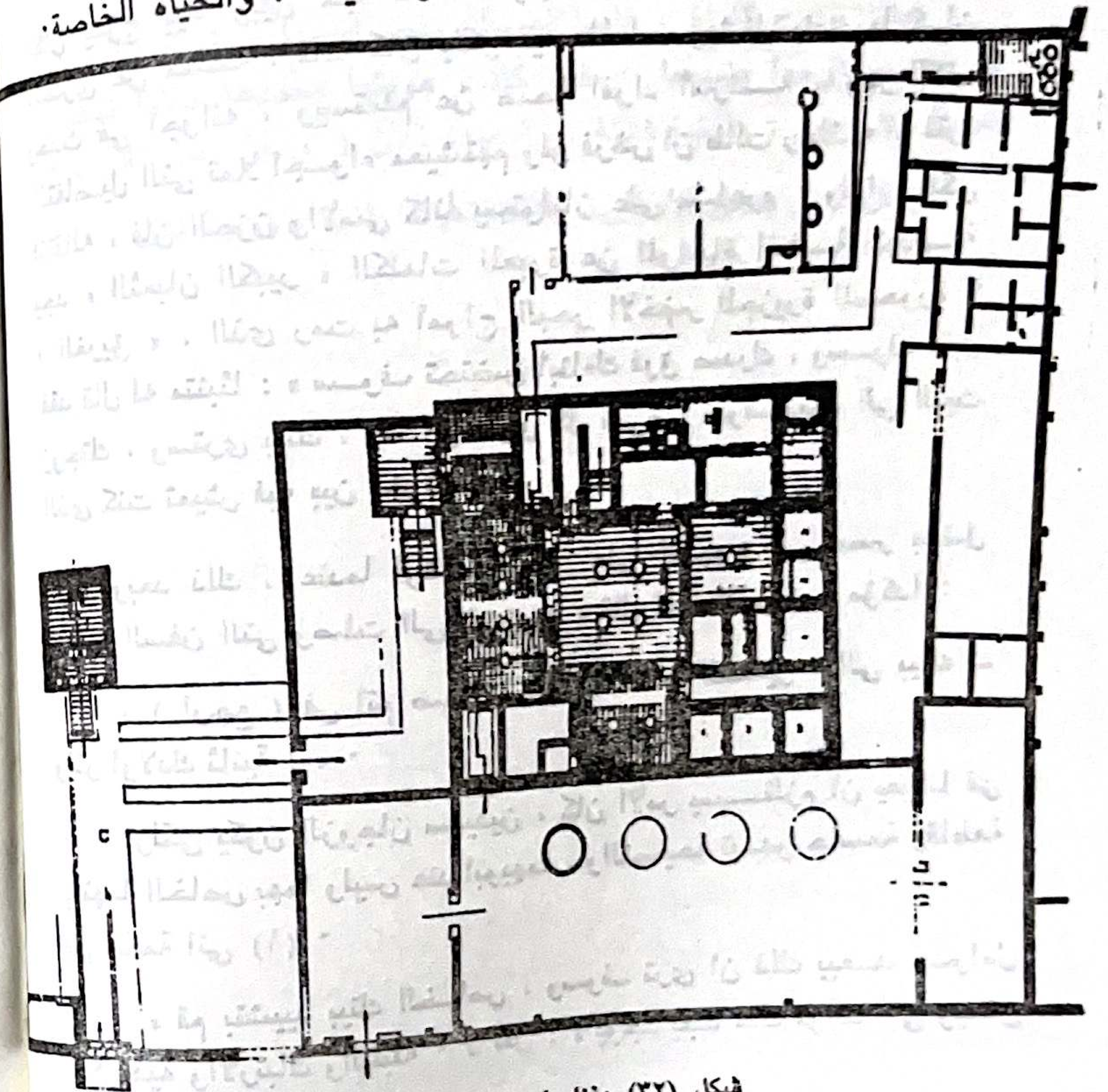
ولكى يكون الزوجان سعيدين ، كان الأمر يستلزم أن يعيشا فى بيتهما الخاص بهما وليس عند أبويهما ، والنصيحة تبدو حاسمة وقاطعة فى حكمة آنى (١) .

« قم بتشييد بيتك الخاص ، وسوف ترى أن ذلك يبعد عوامل الكراهية والارتباك والبلبلة . لا تقل : « يوجد بيت ملك لوالد أبى ويمكن أن يتخذ كمسكن لى » .

كما أن عبارة « تأسيس مسكن » ومعناها بالمصرية جرج بر géreg per كانت تطابق فعلا عبارة : « تكوين أسرة » .

الضيعـــة الريفية :

ان البيت الذى كانت كل عناصره تخضع لحماية بعض الصيغ السحرية ، كان يبنى دائما بقـوالب من الطوب اللبن ، وهى مواد ما زالت حتى أيامنا هذه تستعمل فى القرى ، بل وفى الضواحى ، ولكنها فى طريقها لأن يبطل اسـتخدامها ، فالمسـكن كان يتميز بتدفئـه شتاء ، وبرودته صيفا ، سواء كان بالمدينة فى مكان محدد ، أو مقام بين الحقول فى قلب ضيعة كبيرة ، وكان يتضمن دائما ثلاثة الأجـزاء الأساسية التى تكون مسـكن الاله فى المعـابد وهى الفنـاء ، وقاعة الأسـاطين وقدس الأقداس ، وكذلك يتضمن مقر المتوفى الفناء ذو الحديقة والمقصورة وسرداب الدفن . وكانت هذه الأجزاء الرئيسية تتطابق مع المتطلبات الأساسية للحياة المشتركة : الاستقبال ، والضيافة ، والحياة الخاصة.



شكل (٣٢) منزل احد اثرياء الريف

وكانت مساكن الطبقة العليا تتكون من العديد من الغرف الملحقة ببعضها البعض ، ولكنها تنحصر فى أضيق الحدود بالنسبة لمسـاكن عامة الناس . والأمثلة على ذلك ،واضحة للغاية فى الدولة الوسطى ، بفضل ما تبينه لنا الأطلال المتبقية من مدينة « كاهون » ، وتسمح لنا بعض الآثار السابقة لتلك الفتـرة ، بأن نتخيـل أن نفس الظـاهرة كانت سائدة أيضا منذ الدولة القديمة . وفى الدولة الحديثة كانت المنـازل الصغيرة بالقرى تحاط بجدار يفصلها عما يجاورها . وكانت تقـام متجاورة ، الواحد بجوار الآخر ، وموزعة على جانبى طريق رئيسى يؤدى الى ساحة التجمع . والمطبخ ، الذى كان يعتبر بمثابة الغرفـة الثالثة فى المؤخرة ، فقد كان يكمل غالبا بقبو ، وكان يستر مدخله احيانا حجر الموقد . وطبيعى أن السـطح الذى كان يتـم الصـعود اليه بواسطة سلم خارجى ، يؤدى الى فناء الدخول ، هذا السطح كان على درجة كبيرة من الأهمية والمنفعة ، سواء من أجل الحياة الأسرية ، أو من ناحية تخزين الكثير من المهمـلات غير المتوقعـة ، والغـــلال ، أو حتى الحيوانات التى يراد تسمينها انتظارا للعيد .

والزوجة الشابة ، موضع اهتمامنا هنا ، كانت قد تزوجت بأحد الرجال المرموقين ، ومع ذلك كان ما يزال شابا ، من أعيـان الاقليم ، ويشغل منصب « حاكم » . وكان قد هيـأ الأمور تهيئـة حسـنة ، وبذا كانت أملاكه تمـاثل المسـكن الرائع الخـاص بـ « اننى » « Ineni » الرفيق المسن لتحتمس الأول ، والذى كان يعظ وينصح الملكة الشـابة حتشبسوت بكل حكمة ، فى بداية حكمها . وكان هذا المسكن يحـاط بجدار ضخم ، جوانبه مطلية باللون الأبيض ، وحافته العليا تشبه نوعا من الحراب المتموجة ، يبين من خلاله الطـابقان المـكون منهمـا البيت الفسيح الأرجاء ذو النوافذ الصغيرة ذات القضبان ، المنفصل عن مكان الخدم وعن أجران ومخازن الحبوب ، والتى كانت عبارة عن ملحقات للمبنى . وفى المؤخرة نرى المزرعة الشاسعة المحببة للغاية الى قلب صاحبها ، لدرجة أنه قد أحصى كل ما بها ، ذاكرا وموضحا نوع كل شجرة من أشجارها . وكان هناك أيضا حوض مياه مستطيل الشكل لاكمال هذا المكان الرائع الذى يساعد على الاستراحة والتسلية . ولكن هذه الضيعة التى يملكها الزوجان الشابان ، ترجع الى حقبة أكثر قربا : كانت الأسرة الثامنة عشرة قد أوشكت على الانتهاء ، فى الوقت الذى كان فيه المعماريون يقومون بتشييد المدينـة الجديدة (تل العمارنة حاليا) التى عهد اليهم بتشييدها ، والتى أراد أخناتون أن يتفننوا فى جعل أفراد الشعب ينعمون فيها بالمزيد من الراحة والرفاهية .

الاستقبـــــال :

تضمنت الجدران المحيطة بالضيعة فتحتين : تؤدى الأولى مباشرة الى مقصورة عبادة قرص الشمس ، فى مقدمة الحديقة ثم البوابة الكبيرة الخاصة بمرور العربات والتى تؤدى الى البيت والمبانى الملحقة به مباشرة · ومن خلال هذه البوابة الكبيرة ، كانت تستطيع أن تمر ، بكل سهولة ويسر العربة الخفيفة ذات العجلتين والمظهر الجانبى الرشيق للغاية ، والتى كان يجرها حصانان ، حيث نرى النبلاء والأمراء ، منذ بداية الأسرة وهم يقودونها بكل مهارة ودراية · وبجوار البوابة ، كان يقف الحارس ، المكلف بادخال الدواب الى الحظيرة فى حين أن صاحبها كان يتوجه نحو الحجرة الصغيرة الخاصة « بالبواب » ، أى مدخل المنزل والتى تقع على ارتفاع ثلاث درجات · وبذا ، فان الزائر ، كان يقوده « البواب » (٢) المذكور الى حجرة مستطيلة ، تتطابق غالبا مع كل مساحة المنزل الطولية ، كما كان سقفها يرتكز على عدة أعمدة · وكان المدعوون ينتظرون استقبال رب البيت لهم فى قاعة الاستقبال لادخالهم الى الحجرة الكبيرة ، المربعة الشكل غالبا ، والتى تعتبر بمثابة النقطة المركزية للبناء بأكمله ·

الاستضـــافة :

كان يتم اجتماع أفراد الأسرة من أجل الاحتفالات مع الأصدقاء ، فى مكان الاستقبال · وعادة ، كان سقف هـذا المكان تدعمه أربعة أعمدة ، ويرتفع عاليا (لضمان توفير البرودة فى فصل الصيف) ، ويتعدى فى ارتفاعه من ثلاث نواح أسطح الحجرات المجاورة · وبذا ، كان هذا المكان يتلقى الضوء من خلال نوافذه المرتفعة ذات القضبان الحجرية الصغيرة التى كانت تقى من دخول طيور المساء · أما عن الجدار الرابع ، فقد كان بجانب الرواق الخارجى للطابق الأول ، الذى شيد على طول ممر الاستقبال بالدور الأرضى · أما عن الأعمدة وتيجانها فقد زينت بزخارف تمثل بعض النباتات والزهور ذات الألوان الصارخة ، وتختلط بها صور البط البرى المعلق من أرجله ، وأحيانا فوق الجـدران ، كانت الرسوم الملونة للأيكات المزهرة ونبات البردى بالمستنقعات تكون الاطار الذى كان يمكن أن تقـام به الأعياد والاحتفالات · وغالبا ، كانت الأعمدة والأبواب الواصـلة بين الحجـرات تطلى باللون الأحمر · وأمام أحد الجدران كانت تقام « أرضية بلاطية من أجل التطهير » ، محـاطة بحاجز صغير ، وتتضمن فى وسطها جرة جميلة ذات رسوم باللـون « الأزرق الطيبى » céruléen حيث تغرف منها المياه المعطرة لرشها على أيدى وأرجل الزائرين ، التى غطتها أتربة الطريق · ولكن ، قبل

كل شىء ، كان هذا المكان يكرس من أجل اشاعة السرور والانشراح فى نفس رب البيت عندما يعود الى منزله ، فى أمسية يوم قائظ الحرارة أو تصاعدت خلاله الرياح الرملية لفترة طويلة · وبذا ، نستطيع أن نتفهم قلق الفلاح فى قصة الشقيقين عندما رجع الى بيته ، ولم تعامله زوجته كالمعتاد : « لم تسكب الماء على يديه ، كما كان متعودا ، ولم تضىء الأضواء أمامه فقد كان بيته غارقا فى الظلام » ·

وأمام ذلك ، أقيمت المنصه التى كان يجلس فوقها أصحاب البيت عندما كانوا يستقبلون ضيوفهم · أما الكراسى والمقاعد ذات المسندين ، والكراسى القابلة للطى ذات الأرجل التى تشبه قوائم الأسد ، فقد كانت فى معظم الأحيان تزخرف بالوسائد المغطاة بقماش ذى رسومات متعددة الألوان أو من جلود « فهود الجنوب » · ولا شك أن مظهرها من بعيد كان شبيه باثاثاتنا ذات النمط المعروف بـ « الرجوع من مصر » ، التى أوحت أشكالها الى رسامى حملة بونابرت ، على ضفاف النيل (خاصة فيفان دينون) · وكانت المناضد الصغيرة والمناضد العالية ، التى تطـوى أحيانا ، ذات القوائم الشبيهة « بعنق البجعة » ، توزع على أنحـاء القاعة الفسيحة ، وتنتظـر المدعوين الذين يخصص من أجـل كل منهم منضدة صغيرة بقائمة واحدة ، وكان الخدم يضعون فوقهـا طعـام الوجبات ، خلال الاحتفالات · وأعـدت مدفأة كبيرة ، ثبت جزء منهـا بالأرض ، لتسمح بتوفير عوامل الراحة والرفاهية فى ليالى الشتاء · وكانت هناك شمعدانات ، بكل ما تدل عليه الكلمة من معنى ، مكونة من عدة أعمدة صغيرة تعتليها كؤوس واسعة كانت تحتوى على الزيت الذى كان يغذى الشعلة ، التى اعتمدت أساسا على فتيلة أو خصلة من الكتان أو التيل ، أو لب نبات البردى · ولتـلافى تصاعد الدخان ، كان يضاف بانتظام قليل من الملح ، أثناء عملية الاشـتعال وغالبا ، كانت ربة البيت تضع بعض المشاعل المزخرفة فى كل ركن من أركان الغرفة ·

وفى كل جانب من جوانب القاعة المركزية ، وفى أماكن متفرقة ، كان يمكن رؤية مكتب السيد وملحقاته ، حيث كان الكتبة ــ السكرتاريون ، وكلاء الضيعة ، يحضرون لرص المستندات التى يمسكونها يوما بيوم ، فى داخل صناديق مصنوعة من الخشب المرسوم عليها مناظر ملونة وذات غطاء مزود · وكانوا يكلفون أيضا بمراسلات سيدة البيت وسيده · وكانت ربة البيت تستعين بهم أيضا ، لكى يقوموا كل عام بوضع قائمة لكل ممتلكات البيت · وكان يتم تسجيل كل شىء ، حتى الأوانى المصنوعة من الفخار المطلى ، والتى قد تكون مكسورة ولكن تم اصلاحها !

الرواق الخارجى :

كانت تجاور هذه الأماكن المخازن المجاورة ، أى حجرات التنسيق حيث كانت تجمع قطع الأثاث الزائدة عن الحاجة ، والصناديق التى تحفظ بها بعض الأدوات ، وعلى الجانب الآخر من البهو ذى الأعمدة ، كانت توجد بعض الأماكن الأخرى المجاورة لبئر السلم والمؤدية الى الرواق الخارجى الذى كان يفضل اقامته ناحية الشمال على السطح (le toit -terrasse)

وكان هذا المكان يزين غالبا بالستائر ، وبمقاعد مستطيلة مجاورة للحائط حيث تتنسم الأسرة النسيم العليل خلال أوقات الحر القائظ ، وكانت تنام به ، فى أغلب الأحيان ، خلال فصل الصيف .

الحياة الخاصة :

وأخيرا ، وعند مؤخرة البيت نصل الى الأماكن الخاصة المفضلة للحياة العائلية . فلم يكن يسمح للغرباء عن الأسرة بدخولها . ومركز هذه المواقع الخاصة ، كان عبارة عن حجرة جلوس صغيرة مربعة الشكل ذات عمود واحد أو أكثر ، حيث كان رب البيت وربته يمضيان فيها أغلب أوقاتهما ، أما الأماكن المتفرعة ، فكانت لسد الاحتياجات العديدة لهذه المعيشة ، وعلى سبيل المثال ، ايواء الأشخاص المتعددين المقيمين بالمنزل ، كمكان لمرح ولهو الأطفال – الذين كانوا يلعبون بالخارج – ومن أجل دروس الموسيقا التى كانوا يتلقونها ، ومن اجل ترتيب وتنسيق الملابس . وأخيرا ، فان أقصى جزء من المبنى كان مخصصا كحجرات نوم الأبوين ، والأبناء ، وكانت تزود غالبا بما يشبه «الدكك» لتستخدم كأسرة .

حجرات الاغتسال :

من ضمن الحجرات التى لا غنى عنها فى هذا « البناء المركب » ، ألحقت فى البداية غرفة « التطهر » . حيث كان يوجد بها متعدان حجريان صغيران يسمحان للخدم بأن يقوموا على جانبى الحوض ، يصب المياه على الشخص الذى يغتسل . فلم تكن مصر الفرعونية قد عرفت « البانيو » قبل العصر الرومانى ، كما أن أهلها المعتادين على الحركة وعلى الرياضة ، كانوا يستمتعون ويتلذذون بالاغتسال الذى كانيسبب لهم راحة وهناء مفعما بالصحة والشفاء .

وعلى مقربة تماما ، كانت توجد « قاعة المسح بالعطور » من أجل أصحاب البيت . فكانوا يتمددون فوق دكك حجرية مغطاة بالحصير،

حيث كانت الخادمات يقمن بتدليكهن ورش أجسامهم بالدهانات والزيوت العطرية ، التى كانت تتنوع وفقا لاختلاف فصول السنة ، وكذلك كان الأمر بالنسبة لمساحيق العيون . وكان هذا هو المكان أيضا الذى يتم فيه اعداد واصلاح التسريحات الرائعة التى كان يحل محلها – فى أغلب الأحيان – الشعور المستعارة ، والتى كانت تعتبر بمثابة احدى الوسائل المحببة لابراز الأنوثة . فمثلا ، عندما قصت الزوجة المنحرفة الفاسدة فى قصة « الأخوين » مشهد الاغواء والتغرير الكاذب الذى ادعت أنها تعرضت له ، فقد بينت له بالبراهين والأدلة التى استعانت بها من ادعت أنه حرضها على الغواية : « .... لقد وجدنى جالسة بمفردى تماما ، و (هنا) قال لى : « تعالى ، لنمض (معا) ساعة ، لنضطجع معا . ضعى شعرك المستعار ! » .

وكانت صناديق أدوات الزينة تحتوى على أجمل وأدق أوعية وقوارير العطور . وكانت تصنع من الخشب الثمين المستورد خاصة من النوبة ومن السودان ، أو تصنع من العاج أو من الزجاج المتعدد الألوان ، نصف الشفاف ، وأحيانا الكامل الشفافية . أما المصنوعة منها من المرمر الأبيض والرخام الشفاف ، فهى التى كانت أكثر شيوعا ، فهذه المادة الباردة الملمس ، كانت تناسب حفظ الدهانات والعطور ، وهذا هو نفس ما تحقق منه وأثبته المؤرخ « بلينى » ، بعد ذلك . وكانت أوانى الدهانات العطرية هذه تصنع فى أشكال متنوعة ومتباينة للغاية ، فمنها الذى يبدو على شكل الرمانة أو اللفاح (نبات من الفصيلة البادنجانية) الذى كان قد استورد حديثا من الشرق ، ومنها الذى على هيئة عنقود العنب ، أو زهرة اللوتس والبردى بطبيعة الحال ، ومنها ما كان يستوحى من أشكال الحيوانات ، وبط المستنقعات والوعل ذى الأرجل المربوطة ببعضها ، والقردة الأفريقية الصغيرة الطويلة الذيل المثبتة على حافة كوب صغير ، أو الممسكة بأيديها بوعاء الكحل . أما المرايا التى صنع مقبضها من العظام على شكل فرع وخيمة نبات البردى ، وأحيانا شكل فتاة صغيرة عارية ، كالالهة حتحور ربة النساء، فكان القرص الأعلى بها عبارة عن قرص من النحاس روعى ألا يعمل سطحه اللامع المصقول على تشويه الوجوه التى سيعكسها . ولا شك أن أجمل أوانى المساحيق والدهانات العطرية هى التى قد صنعت على هيئة سباحة جميلة عارية تدفع أمامها ببطة يمثل جسمها ذو الجناحين المفصليين ، الوعاء نفسه . أما الأمشاط البسيطة أو المزدوجة منها من أجل تمشيط الشعر ، فكان من الممكن أيضا أن تزخرف مثلها مثل بنس الشعر المعدنية التى كان يستعان بها لرفع خصلات الشعر الثقيلة ، خلال اعداد التسريحات الفائقة التعقيد ، فكانت تجمل أيضا ببعض

الزخارف ، واكثرها تقديرا ، خلال عصر الدولة الحديثة ، كانت على
شكل فارس يعدو بحصانه . وأعدت خصيصا صناديق دقيقة الصنع من
أجل احتواء كل هذه الأدوات الكمالية الفاخرة . وكانت الحواجز
الداخلية بها ، والتجويفات المعدة فوق الغطاء ، أو بداخل الأدراج ،
تنتظر أن ترص وتنظم بداخلها الأدوات الرقيقة الناعمة .

اما قاعة التطهر ، فمثلها كمثل دورات المياه ، فكانت تتضمن
مقعدا (كان من الممكن الجلوس عليه ، ولم يكن مجرد بلاطة بدائية
على الطريقة التركيـة ، وتزود بجهـاز للصرف مصنوع من الطين
المحروق .

الملحقـــات :

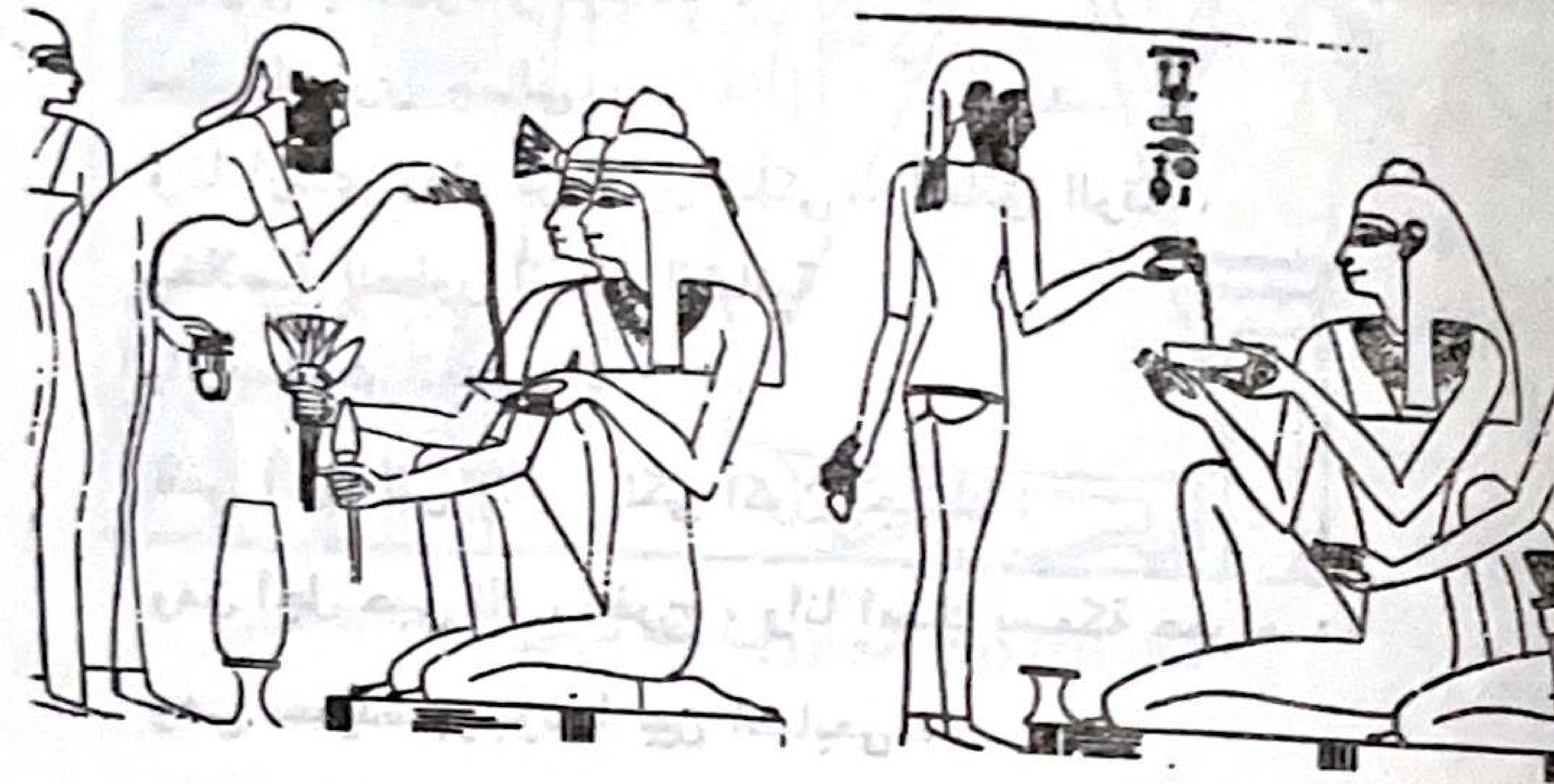
كان من الممكن أن تعتبر الأبنية الملحقة بأى منزل ريفى فاخر ،
على درجة كبيرة من الأهمية ، لأن مثل هذه المساكن المتسعة كانت تهيأ
وتعد لكى تكون بمثابة حوش « صغير خاص » .

وكانت هناك الأحواش التى تحتوى على صوامع فه هيئة قالب السكر
حيث تحفظ الغلال من أجل اعداد الدقيق . وعلى امتداد الجـدران
المسورة للفناء المقابلة للحديقة ، شيدت الحظائر والمخازن ، والاسطبلات
(بداية من الدولة الحديثة وادخال الجواد الى مصر) ، والمرابـط
والزرائب ، والمجازر ، والمطابخ ، والمخبز ، وقبور الخمور ، ومعمـل
صناعة الجعة « من أجل تصنيع الجعة المسكرة » ، وورشة النجارة ،
والورش الخاصة باصلاح الأجهزة والأدوات ، وورش الغزل والنسج .
وبجوار ذلك ، كانت توجد مساكن الخدم والخادمات ، التى تذكر النصوص
دائما أنها كانت « تقع خلف البيت » . وكانت هناك حديقة تحتوى دائما
على عنصرين أساسيين : أولا كرمة العنب ذات العناقيد الممتلئة ، واللون
الأزرق المسود ، وثانيا ، ـ وغالبا بجوارها ـ كانت تقام المعصرة ، حيث
كان يقوم صانعو الخمور بدهس العنب الذى جمع لتوه بأجلهم . وفى
الحال كان يتم جمع العصير الناتج من هذه العملية ، قبل تصفيته فى جرار
كبيرة ، حيث كان يتم التبخر من خلال السدادات المصنوعة من الطين
النضج .

وهذه الخمور النادرة ، المحفوظة بداخل جرارها « والتى حـدد
اسم مصدرها » ، كانت تخرج من الأقبية فى أيام الأعياد والاحتفالات .
وكانت الخمور التى تنقل الى زجاجات رشيقة كبيرة مزينة بالزخارف ،
وموضوعة فوق مقاعد خشبية ومحاطة بعناقيد العنب ، بقاعة الاحتفالات ،
تقدم للمدعوين ، بدون أى حدود . وقبل أن يسكب السائل فى الأقداح

كان يتم تصفيته . وأحيانا ، كان الخدم أنفسهم يشجـعون الذين كانوا
يبينون أنهم قد شبعوا واكتفوا :
« فى صحتك ، اشرب حتى الثمالة !
ولتمض يوما سعيدا من أيام العيد !
واستمع الى ما تقوله صديقتك !
لعلك لا تريد أن تتوقف عن احتساء الخمر ! » .

ولكن المدعوين أنفسهم لم يكونوا فى حاجـة دائما ، الى أى
تشجيع ، وها هى عمة النبيل « باحرى » الذى كان قد اعتكف فى الكاب ،
بعد حروب التحرير ، لم تكن تخفى ميلها الى ..... الزجاجة :
« أحضر الى ثمانى عشرة قدحا من الخمر !
انظر ، اننى أريد أن أنتشى ،
ان داخل جسدى
(جاف)وكأنه قشـة ! » .



شكل (٣٣) حفل

أما النبيذ العذب ، الذى كان « ناضجا » ، فقد كانت تستحبه
كثير من النساء اللاتى كن يقدمنه لضـيوفهن ، بالاضافة الى مشروب
آخر ، يعرف باسم « سرمت Serémèt » كان يجلب أساسا من
« ضياع » الملكات . ولا شك أن هذا المشروب كان يتذوق فى البلاط
الملكى ، لأن أطلال عاصمة الفرعون أمنحتب الثالث بالملقطة فى غرب
طيبة ، لم تقـدم ـ حتى يومنا هذا ـ أية اشارة عن وجود أية جـرة جعة ،
ولكن على العكس ، قدمت ما يزيد عن ٢٠٠ قطعة من بقايا البطاقات
(étiquette) الخاصة بمشروب السرمت ، ويتساءل البعض عما اذا
كان التمر لم يدخل فى تركيب هذا المشروب المنعش جدا ، بدون شك .

الحديقـــة :

اما عن حوض المياه الخاص بهذه المجموعة السكنية ، والذى كان يمكن أن يتطابق أحيانا فى أبعاده مع أية بحيرة صغيرة ، فقد كان يزين بنبات اللوتس ، والأسماك السابحة فى المياه ، واصبح المكان المفضل للزوجين الشابين حالما يعـود الربيع . وسواء أكانت الأنشودة التى نكرت هنا بعض أبياتها ، تتعلق ، فى عبارات رمزية مستترة ، بغبطة مفترضة يشعر بهـا فى عالم الآخـرة ، أم أنها تتطـابق فعلا مع الحياة الدنيا ، فمع ذلك ، يلاحظ من خلالها انعكاس مشاعر قديمة قدم الدهر ، عبر عنها بروح شاعرية مؤكدة :

« يا الهى ! يا زوجى

انه لأمر مستحب وممتع الذهاب الى البحيرة .

ان رغبتك فى أن ترانى وأنا أنزل اليها ،

وأن أستحم أمامك ،

يغمرنى بالنشوة والسعادة !

سأتركك ترى جمالى

وأنا أرتدى رداء من النيل الملكى ، الفائق الرقة ،

بخلاصة العطور اللطفة الشافية

بالزيـوت المعطـرة .

اننى أنزل الى الماء ، لكى أكون بجانبك ،

ومن أجل حبى لك ، أخرج ، وأنا أمسك بسمكة حمراء .

وهى سعيدة بوجودها بين أصابعى ،

واضعها (فوق نهدى) .

أنت ، يا زوجى ، يا حبيب قلبى ،

تعـال وانظـر ! » (٤) .

وعلى مقربة من حوض المياه ، كان يمكن أن تحتل كرمة العنب التى على شكل عريشة مكان مقصورة الحديقة ، حتى اذا كانت تصنع من مواد خفيفة . وفى أيام الحرارة الشديدة ، كانت الشمس تتسلل من بين الأوراق . والعناقيد اذا كانت الشتلة مازالت شابة . ولذا ، كانت ربة البيت تبطـن جـزءا من السقف بستائر متعددة الألوان ذات زخارف هندسية مختلفـة ومتباينـة ، كالتى نراهـا اليوم فى مصر ،

وتستعمل من أجل اضافة كافة أنواع الاجتماعات ، وهى تبدو ممثلة بالمقبرة ذات الكرم ، الخاصة بالنبيل سن نفر بطيبة .

ولا ريب أن هذه المقصورة كانت بمثابة مكان مفضل للغاية للالتقاء والراحـة .



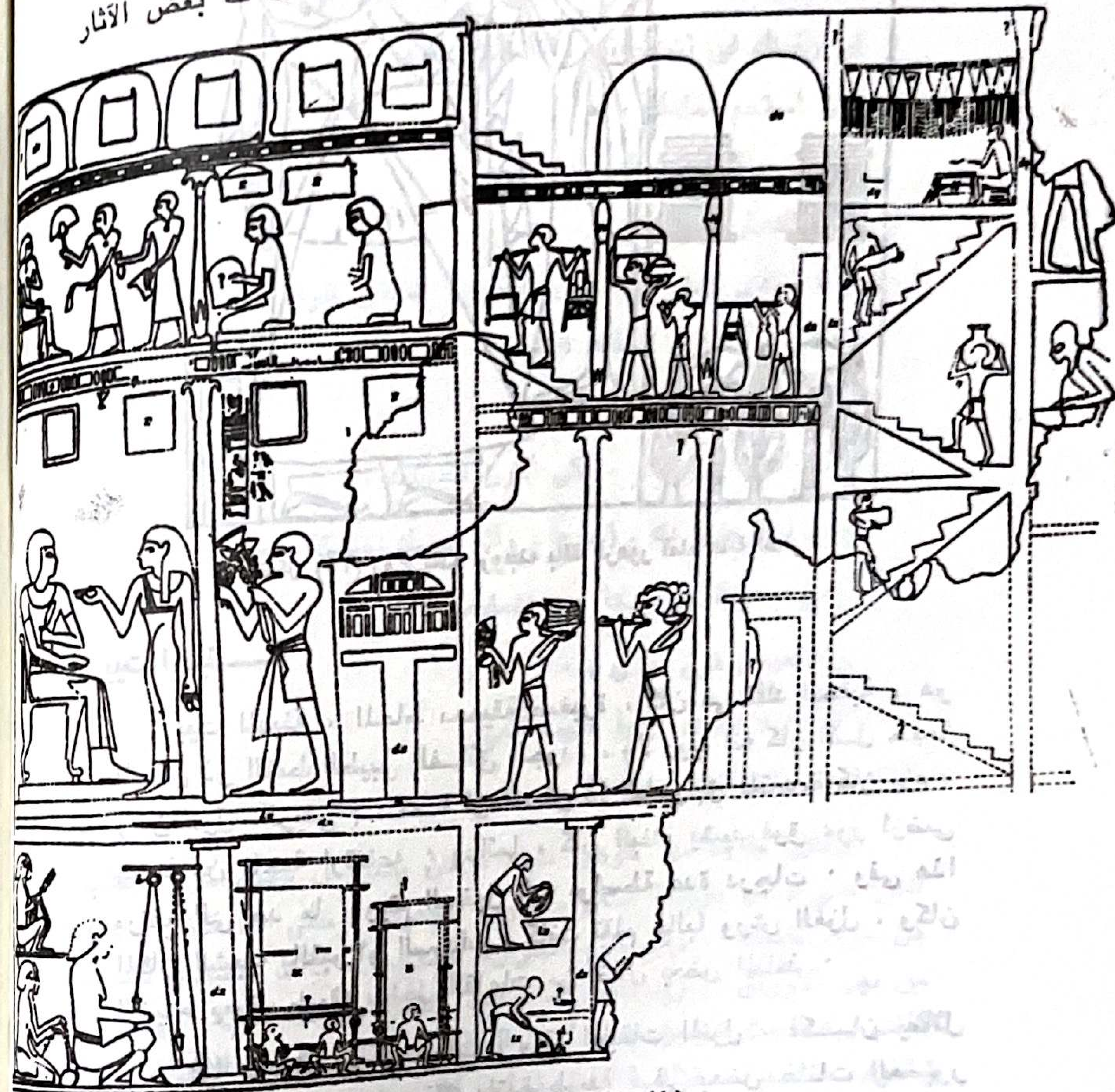
شكل (٣٤) زوج يقدم لزوجته باقة الزهور أمام عتبة الدار

بيت المدينـــة :

بيت المدينة ، المحاط بحديقة صغيرة ، كان فى تلك الحقبة ، هو المسكن ذو النمط الطيبى الفـائق الجودة ، ولا ريب أنه كان أقـل حجما (من المنزل الريفى) ، كمـا أن المسكن ذا الطـوابق المتعددة كان يزداد حجما من ناحية ارتفاعه . ودائما ، كان البناء يشيد فوق دور أرضى مرتفع الى حد ما ، ويتم الدخول اليه بواسطة عدة درجات . وفى هذا المكان الشبيه بالقبو أو السرداب ، كانت تقام غالبا ورش الغزل ، وكان الضوء يعرف طريقه بداخل القاعات من خلال بعض المنافذ .

أما عن تقسيم الحجرات ، وفقا لطبقات المنزل ، فكـان يماثل التقسيم الذى شوهد بعد ذلك بفترة طويلة ، فى بعض خانات العصور

الوسطى بالقاهرة ، حيث يلاحظ أنه بعد مخازن الدور الأرضى ، كان الدور الأول يشغله « قائد القافلة » ، والثانى تشغله النساء ، أما الدور أو الأدوار العليا ، فكانت تخصص للخدمة والقائمين بها . وفى طيبة فان « فيلا » المدعو « جحوتى حتب » التى صور مقطع لها على أحد جدران مقصورته ، تبين تماما نفس الترتيب والتنظيم المذكور : ففى الطابق الأول ، يشاهد رب البيت ، وهو جالس فى حجرة ذات أعمدة – تتطابق مع القاعة « المربعة الشكل » المركزية بالبيت الريفى – ويقوم الخدم بتقديم الطعام له . وبواسطة نفس بئر السلم ، يصعد هؤلاء الخدم الى الطابق الثانى ، لخدمة سيدة البيت ، التى تقيم فى حجرات ذات سقف أكثر انخفاضا . وأخيرا ، على السطح ، يلاحظ وجود المطبخ ، وأفران الخبز ، وكذلك سقيفة مائلة علق بغطائها الخفيف ، بعض قطع اللحم التى يراد تجفيفها . ولقد حفظت لنا بعض الآثار

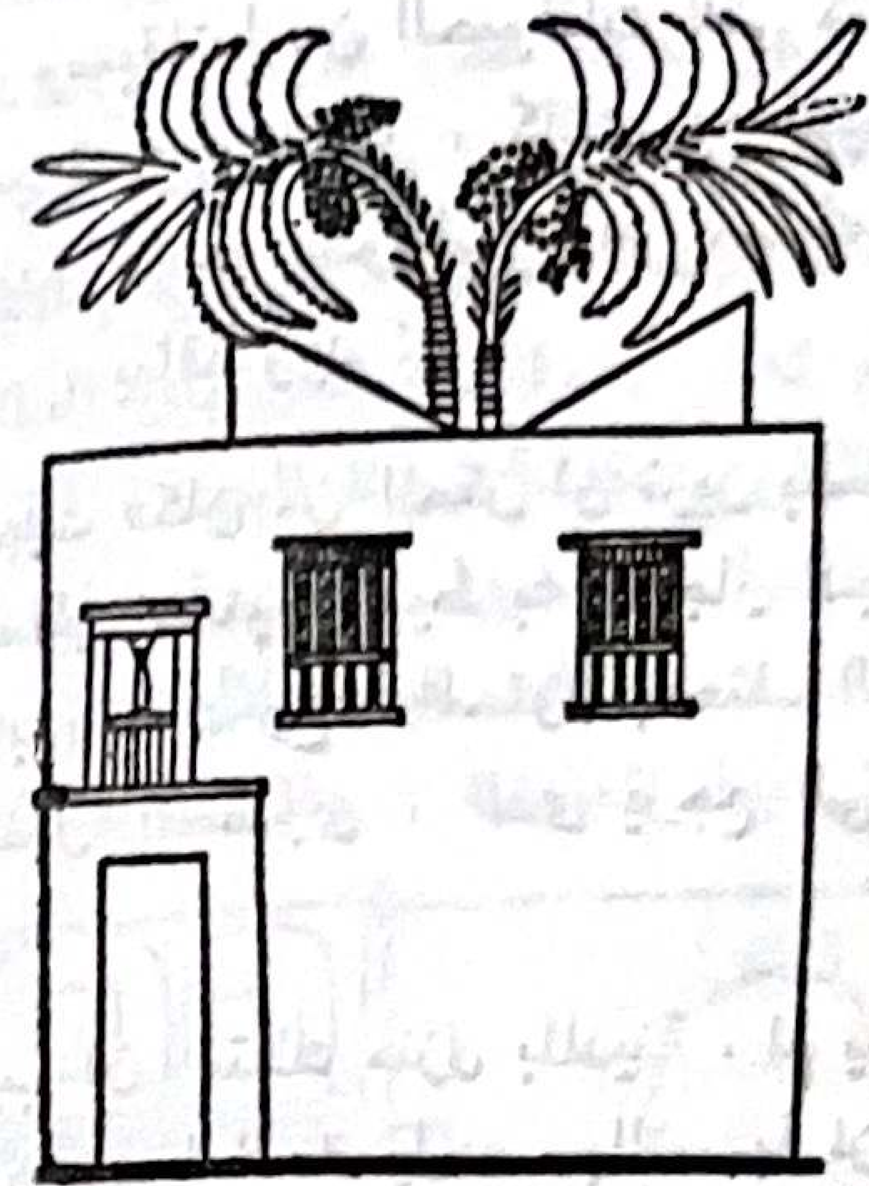


شكل (٣٥) منزل احد الاثرياء

المرسومة والملونة لهذه المساكن الجميلة ذات الواجهات المطلية باللون الوردى ، والتى يعتليها فتحتا تهوية (٥) ، وتحيط بها الأشجار التى تمت حماية جذوعها وسيقانها من الحيوانات التى كانت تمر بالطرقات ، بواسطة حوائط قصيرة . وأحيانا ، كانت ربة البيت ، تبدو عند باب المنزل ، وزوجها يبدو قادما نحوها ، وهو ممسك بيده ، شأنه شأن جميع المحبين بالعالم ، بباقة ورد !

أما مؤخرة البيت فكان من الممكن أن تزين بصف من الأعمدة التى تؤدى الى حوض مائى صغير تحيط به أشجار الجميز . ولا شك أن النموذج الخاص بـ « مكت رع » المحفوظ بمتحف القاهرة ، يقدم ذكرى واشارة محببة للمنزل الحضرى ، الذى يرجع الى الأسرة الحادية عشرة .

ولكن ، لا ريب أن امتلاك منزل بالمدينة ، لم يكن ليمنع مطلقا من الاستمتاع بضيعة « بوسط الحقول » ، بالنسبة لمن كانوا يستطيعون القيام بواجباتها والتزاماتها ، أو أصبحوا مستحقين لها . وأحيانا ، كانت الاشارة الى مثل هذه الملكية تعتبر بمثابة تقديم الدليل على الاجلال والاعتبار ، الذى استحقه شخص ما ، أو على الرخاء والسعة فى العيش التى حصل عليها . وهذا هو عين ما فعله « سنوهى » عند رجوعه الى مصر ، بعد أن حصل على مغفرة وعفو مليكه ، ولكى يتأكد من استعادته الحظوة لدى سيده ، فقد أعلن سنوهى ، أنه تلقى من مليكه « منزل يليق بابن ملك » ، فائق الفخامة ، مزود بالتجهيزات التى توفر له الراحة والرفاهية الصحية ، وتعمل على تبريد مياه اغتساله ، وهذه رفاهية أكثر استحسانا لمثل هذا الهارب الشارد سابقا ، خلال الدولة الوسطى ، والذى اضطر أن يعيش طويلا فوق الرمال مثله كمثل البدو . وكانت جدران المنزل الفخم قد زخرفت ، وزود البيت بالأثاث والصناديق الكبيرة التى تضمنت كل ما كان يمكن أن يزين ويزخرف الحياة اليومية بنمط من الترف والبذخ المؤكد : ملابس مصنوعة من أرق أنواع الكتان الملكى ، زيوت الملك المعطرة من أجل التزين ، كميات من البخور من أجل تعطير الحجرات وتعبيقها . وبالاضافة لذلك ، « كان جميع الخدم منهمكين فى أعمالهم » . ولا شك أن هذا المبنى كان مسكنا حضريا ، لأن سنوهى قد أشار قائلا : « انه قد حصل أيضا على بيت من احد ملاك الأراضى « نب شى « neb-shè » ، **وكان يملك هذا البيت** قبل ذلك صديق (من الأسرة المالكة) . وقام العديد من العمال باعادة بنائه (كان قد شيد مثله كمثل بقية المنازل والقصر الملكى من قوالب الطين النيىء) ، فى حين أعيد غرس جميع أشجاره من جديد (٦) .



شكل (٣٦) واجهة منزل



شكل (٣٧) الخدم يساعدون سيدهم على ارتداء ملابسه

ربـــة البيت :

بعد الاحتفالات الكبرى التى أقيمت بمناسبة الزواج ، كانت الزوجة الشابة تبدأ فى تكريس كل طاقتها واهتمامها لمزاولة وظيفتها كزوجة وكربة بيت . وربما كانت المهمة تبدو لها ثقيلة الى حد ما ، خاصة ان ضيعة زوجها شاسعة ومترامية الأطراف ولكنها كانت قـد تلقت تعاليم

ونصائح طيبة من الكتبة ، ساندتها وعضدتها عاطفة الحب الذى اكتشفته اتوها :

، كم هى جميلة هذه الساعة !

فلتمتد حتى تصبح ابدية !

منذ ان نمت بجوارك ،

فقد اثرت قلبى

فسواء اكان هــذا القلب يئن ام سـعيدا

فلا تبتعد عنى (ايا قلبى) !

فبداخله توجد (لبلابات)

تثير وتحمس

اننى حبيبتك ، بل افضل الحبيبات

اننى ملكك مثل الأرض

التى زرعتها بالورود

وبالنباتات المختلفة الأنواع ذات الرائحة الشذية .

وكم هو رائع وساحر المجرى المائى الموجود بهذه الأرض .

والذى قامت يدك بحفره

لكى تتنسم عنده هواء الشمال ،

انه مكان ساحر للترويح والتنزه !

وها هى يدك فوق يدى ،

وجسدى كله تغمره السعادة ،

وقلبى مفعم بالفرح ،

لأننا نسير معا .

ان سماع صوتك ، هو بالنسبة لى خمر عذبة ،

وانا أعيش على سماعه .

وكل نظرة (منك) توجه نحوى ،

لأغلى عندى من المأكل والمشرب (٧) .

كما أن لقب « نبت ـ بر » أى ربة البيت الذى أطلق منذ الدولة الوسطى على السيدة المتزوجة ، يبين تماما مدى اتساع المهام والمسئوليات ، التى كانت تقع على عاتقها ، والتى كان يجب أن يعترف بها الجميع . فقد كانت تسود على كافة أنحاء هذا الكيان الذى يكون « المنزل » بأقصى ما تدل الكلمة من معنى ، وعلى تسلسل وسياق الحياة اليومية ، وعلى كل ما كان يعمل على انتظامها . وعند ظهور هذا اللقب ، منذ الأسرة الحادية عشرة ، بدا أثره على قدر كبير من الأهمية ، لدرجة أن الملكة « نفرو » زوجة الملك « منتوحتب » قد حملته دائما بصفة رسمية (بل أطلق لقب « نب ـ بر » على بعض الرجال خلال نفس الحقبة) .

ولا يبدو أنه قد خلعت أية وظيفة وراثية على نساء من الطبقة العليا لسن بنات أو زوجات ملك . والاستثناء الوحيد ، على ما يبدو ، هو لقب « حاتيت ـ عا » (كونتيسة Pachat) الذى ظهر خلال الدولة الوسطى أيضا . ولكن ، فى نطاق البيت حيث كانت تسود غالبا على عدد كبير من الخدم ، كانت هى الـ « حنوت hénout » (السيدة) المهيمنة على الخادمات ! وهؤلاء الخادمات ، بالرغم من مظاهر الاحترام التى كان يجب عليهن أن يبدوها نحوها ، فقد كن يجابهنها بقولهم الصريح ، وينزلقن أحيانا الى التمرد والعصيان . وبذا ، كان الأمر يتطلب الكثير من التعقل والحكمة من جانب الزوجة الشابة لكى يسود السلام فى أنحاء البيت ، وأن تنتبه جيدا حتى لا تحاول بعض العاملات بالمنزل أن يصبحن عشيقات لزوجها .

ولكى تكتسب الزوجة السلطة والسيادة اللازمة لمواجهة كافة هذه المسئوليات مواجهة حازمة فعالة ، ولتلافى العديد من المكائد والأحابيل ، التى كانت تتراءى لها من بعيد ، فقد كانت الضرورة تستلزم أن تسارع السيدة الشابة بالحمل وانجاب الأطفال : قبل كل شىء طفل بكرى ، يدخل السعادة على قلب الأب ، ويقابل بالترحيب .

الزوجة والطفل :

كانت الزوجة الشابة تنتظر بتلهف ظهور الأعراض الأولى التى تجعلها تأمل فى أن تصبح أما . فحينما كانت شابة مراهقة ، كانت تحلم ، مثلها كمثل الأميرات صديقاتها ، وأيضا كمثل كل من كن يرغبن فى أن يصبحن أمهات فى يوم ما ، بأحزمة يستطعن أن يزين بها أردافهن ، صنعت موادها من زخارف مذهبة على هيئة أصداف ترمز للفرج الذى يمكن أن يتمخض عن الجنين . ويبدو أن الصلوات والابتهالات للالهة حتحور قد أصابت مرماها ، كما أن القطة الجميلة ، الصورة

اللطيفة الهادئة ، للالهة البعيدة ، قد استقرت بصفتها ربه البيت الحديث ، والحامية الساهرة على عوامل الانسجام والتوافق به ، وعلى تحقيق النسل الوفير . وكانت صورتها تزخرف الحواجز المزينة لقمة بعض الأبواب بالمنازل .

الحمل :

كان العقم بالنسبة للزوجة الشابة بمثابة كارثة أو مصيبة تضطرها الى الالتجاء لتدخل الوسائل السحرية . ولكن ، كان من الطبيعى قبل ذلك استشارة الطبيب الممارس لكى يقدم العقاقير التى تعمل على القضاء على هذا النقص . وفى الواقع كان الأطباء يشتهرون بتمكنهم فى علم أمراض النساء ، والدليل على ذلك أن ملك الحيثيين « هاتوشيليش » كتب الى رمسيس الثانى ، خلال الأسرة التاسعة عشرة ، ليطلب منه بعض العلاج والأدوية التى تساعد على منح الخصوبة لأخته . وبدا رمسيس حذرا أو حريصا ـ ورد على مراسله بقدر ضئيل من الرقة والمجاملة والكياسة ـ فأكد له أن أخته التى ناهزت الستين من عمرها « لا يمكن مطلقا أن تنجب أطفالا » ! ومع ذلك ، فان كان « هاتوشيليش » يصر على طلبه فانه كان على استعداد لأن يبعث اليه بساحر ماهر وبعالم طبيعة (طبيب) قد يستطيعان أن يعدا من أجلها بعض عقاقير الانجاب .

ويبدو أن المصرى كان يقر بأن العقم يمكن أن يكون من جانبه هو أيضا . وفى هذه الحال ، كان عليه أن يتوجه الى الاله . وهذا ، على ما يبدو ، فى ذات يوم ، كان حال أحد كبار كهنة منف حيث ابتهل وتضرع للاله ايمحتب لكى يهب له ابنا .

ويبدو أن الجميلة الساحرة حتحور وكذلك السلف الذى وجه اليه الالتماس والتوسل فى صبيحة يوم الزواج ، قد استجابا للدعاء ، فتأكدت السيدة من أن أمانيها قد تحققت ، وأخذت تتساءل عما اذا كان الطفل الأول الذى كانت تنتظره ، سيكون ابنا . ولكى تتأكد من ذلك ، كان عليها أن تتبع الطريقة التى ذكرت تعليماتها وحفظت فى الكثير من البرديات . وأكثرها شهرة هى التى ترجع الى الاستعانة التجريبية بنظرية الهرمونات (8) .

« وهناك وسيلة أخرى لمعرفة عما اذا كانت امرأة ما حاملا أم لا : (سوف تضع) بعض القمح والشعير (فى كيسين من نسيج الكتان) ، تقوم المرأة بريهما ببولها كل يوم ، وبشكل متواز ستضع بعض البلح وكمية من الرمال فى كيسين آخرين . فاذا نبت كل من (الشعير والقمح) معا ، فانها سوف تحمل . واذا نبت الشعير (أولا) ، فانها

ستلد ولدا ، واذا نبت القمح (أولا) ، فانها ستلد بنتا . واذا لم ينبت لا هذا ولا ذاك ، فانها لن تحمل » (٩) .

الرعايــة أثناء الحمـــل :

خلال فتـــرة الحمل ، كان يستلزم التماس كافة ضروب الرعاية والعناية . فقطع « العاج السحرية » ، وهى نمط من الألواح من عاج حيوان فرس النهر على هيئة نصل سكين معقوف ، قد ظهرت منذ الدولة الوسطى ، وكانت تغطى برسومات تمثل أشكال بعض الجنى ، ومنهم : عحا ، سلف « بس » ، حامى النساء والأطفال ، وانثى حيوان فرس النهر ، تاورت التى قهرت التمساح . وعلى حافتها ، كان يشاهد أحيانا شكل يمثل وجه الكلب الصغير أنوبيس . ومن المحتمل جدا ، أن الغرض من وراء هذه الأشياء ، هو نسج شبكة واقية وحامية حول « البويضة الموجودة فى رحم المراة الحامل » والتى يقوم المثال الالهى خنوم بمنحها الحياة » ، ـ كما يمنح الحياة للفرخ الصغير (١٠) ـ طوال شهور الحمل العشرة ، وفقا لما ذكرته نفس الكتابات (يحتمل أن الأمر يتعلق بالشهور القمرية) . فالشهر الذى يبدأ كان يجب أن يعد كشهر كامل ، ولكننا سنترك هذه المسالة للأطباء . وكانت هناك بعض الآثار الأخرى التى يرجع مثالها دون شك ، الى الدولة الحديثة ، ولكنها استعملت كثيرا خلال العصر المتأخر ، وهى « لوحات حورس فوق التماسيح » . وكانت عبارة عن لوحات صغيرة غطيت بنصوص سحرية ، أما واجهتها الأمامية ، فقد زخرفت أساسا ، بصورة الشاب حورس ، عاريا تماما ، ويمسك بيده بعض الزواحف والوحوش الضارية ، ووقف فوق التماسيح التى أمسك بزمامها وقهرها تماما . وعلى قمة اللوحة ، تبدو رأس الاله بس . ولقد فسرت هذه الآثار غالبا على أنها تنقل قوتها الواقية الحامية لكل من شربوا من المياه التى رشت فوقها ، كطريقة فعالة للحماية من لدغات الثعابين السامة للغاية ! ولكن يبدو هذا الرأى غير مصدق ، عندما نعرف ما يتمتع به الأطباء البيطريون والمختصون بعلم الأفاعى والحيات فى مصر القديمة ، من كفاءة ومقدرة . ومنذ وقت غير بعيد أعتقد فى أن تلك اللوحات كانت ذات نفع وشافية للأمهات والأطفال من أخطار تلك الحيوانات ، بفضل صورة حورس وبعض فقرات النصوص :

« أنت تحمينى من كل سباع الصحارى ، وكل تماسيح النهر وكل الثعابين ، وكل العقارب ، وكافة الحشرات التى تعض بأسنانها وتلدغ بذيلها ، وكافة انواع الزواحف التى تهاجم من داخل جحورها » .

وقد يكون كل ذلك مقبولا ، اذا كانت السباع والتماسيح معتادة على اقتحام البيوت فى مصر ، وهذا لم يحدث طبعا ، وكذلك الحال بالنسبة لوعل الصحراء أيضا . ولكن ، أحيانا ، كانت العقارب والثعابين فقط هى التى تتمكن من دخول المنازل ولذا ، فان هذه الصور الحيوانية ، تعد بمثابة رموز للضرر والأذى ، وكذلك الأمر ، بداخل الـ « ماميزى » (أو بيت الولادة) فى جزيرة فيلة على سبيل المثال يلاحظ أن الفترة التى ذكرت بدهليز قاعة ولادة حورس المليئة بالنباتات المائية ، وبأنواع من الزواحف والحيات والجنى « المسكة coutiliers » باغصان تتمايل فى تمهل بفعل تموجات المياه ، هى الفترة التى كان يمكن خلالها أن تعمل الاعتداءات على الاضرار بالجنين فى أحشاء ايزيس ـ فى مياه الأم التى تجسدها بوضوح وجلاء مستنقعات خميس ، حيث خبأت أرملة أوزير وليدها بعيدا عن الاخطار . كانت تخفيه حتى قبل أن يولد : وبدون أن نرغب فى التوغل أكثر من ذلك فى تناول هذا الموضوع ، الذى يستلزم مناقشة ومجادلة طويلة يمكننا منذ الآن ، أن نجمل القول بأن فترة الاقامة فى تلك المستنقعات الشهيرة تغطى الى أبعد مدى فترة الحمل . وكانت « لوحات حورس فوق التماسيح » هذه التى زينت بنصوص وأشكال ، تصب عليها المياه التى يجب أن تشربها المرأة الحامل ، والتى تنقل بذلك نوعا من الوقاية والحماية للجنين وتعمل على الاعداد لوصوله فى عزة وافتخار .

ولو حدث أن ولد قبل الميعاد ، فقد كانت هناك صيغ ووصفات سحرية يستعان بها لابقائه على قيد الحياة .

ولادة الطفل ومولد اسمه :

ها هى قد حانت ساعة الخلاص . وكانت أكثر الأمهات ثقافة وتعليما يعرفن أن الأمر كان يستلزم فى هذه الحال ، استمالة الاله « خنوم » المثال :

« عليكن أن تخشين بأس خنوم ، أيتها النساء الحوامل اللاتى تعدين موعد ولادتكن ، فانه هو الاله شو المختص بالوضع (شو هو الهواء الذى سوف يستنشقه الجنين الذى أصبح طفلا) ، والذى يفتح شفتى العضو الأنثوى ويضمن ولادته فى صورة آمون » .

وكانت المصرية تلد وهى مستقيمة الجزع ، وعلى ما يبدو عارية تماما ، وأحيانا كانت فوق مقعد خاص ، وأحيانا أخرى كانت تجلس القرفصاء فوق أربعة قوالب شعائرية من الطوب مسخنت ، أو السيدات النبيلات الأربع المشرفات على الولادة واللاتى كن ، بعد ذلك يصاحبن

الانسان الى قبره من أجل حمايته ، وهى أيضا القوالب الأربعة الممثلة للكوات الأربع بالقبر . ونفس شعائر الوضع هذه ، كانت توجد أيضا فى المراسيم الخاصة بانشاء المعابد ، التى كانت توجه وفقا لمحور ولادة كائن حى » ، سوف يخرج من رحم سائل فوق قوالب الطوب الخاصة بالولادة مسخنت ، ومن هنا بدأ الدور الرئيسى لعملية صنع قوالب الزوايا ، ثم وضعها فى مكانها المحدد ، كرمز لعمل الاله المثال خنوم ، الذى يشكل ، فى نفس الحين ، بعجلة الفخرانى الكائن الصغير المقبل (١١) ويمنحه مكانا للاقامة فوق الأرض » (١٢) .

وهذا ما كانت تفعله القابلة ومساعداتها اللاتى كن يمسكن السعيدة الواضعة من ذراعيها :

وهنا وقفت ايزيس أمامها (زوجة كاهن رع) ، ونفتيس خلفها ، وحكات (الالهة ـ الضفدع) المختصة بعمليات الولادة ، قامت بدفع مليات الولادة وتنشيطها (يوجد هنا تلاعب بالكلمات لهدف تكوين اسم المولود الجديد ، والذى يجب أن تنطق به الالهة المولدة دون سواها) . وانزلق هذا الطفل عندئذ على يديها ، كان طفلا يبلغ طوله ذراعا واحدا وعظامه متينة قوية ..... وقمن بغسله بعد قطع حبله السرى وبعد أن وضع فوق اطار من قوالب الطوب (١٣) .

وكان الطفل يتلقى اسمه عند ولادته . أما بالنسبة لأى فرعون مقبل ، فكان من الممكن تكوين اسمه بواسطة الكلمات التى نطقت خلال ممارسة (الاتصال المقدس) ، أو عند التوليد الذى تقوم به الربات .

وفيما يختص بالأم المدنية ، كان الاسم يطلق على وليدها لحظة ولادته . ويبدو أن الأب كان يساهم فى تكوين هذا الاسم بتركيبه وفقا للكلمات التى تنطق بها الأم ، خلال عملية الولادة . عموما ، كان ذلك يعتبر « كاسم الأم » ، التى كان يفترض أنها تلد الطفل واسمه فى نفس الحين .

وبجوار هذا « الاسم الحقيقى » الأصلى ، كان الطفل يستطيع بعد ذلك تلقى اسم ثان ، مألوف ، وشائع .

أما المشيمة أو الخلاص فقد كان ينظر اليه بكل الاحترام والتبجيل ، فقد كان يستعمل ، كما يحدث فى أيامنا هذه ، كبداية فى المجال الطبى ، فى تركيب بعض العقاقير التى تساعد على سهولة التئام الجروح الغائرة .

ولقد تمت هذه الولادة فى أحسن الأحوال ، بالنسبة للأم أولا ، التى كان يخشى عليها دائما من حدوث أى حادث ، وبالفعل ، فقد بينت

دراسة المومياوات أن العديد من النساء قد توفين خلال عملية الوضع (وهذا يفسر الى مدى بعيد زواج الأرامل من الرجال مرة أخرى !) . وكانت الظروف طيبة جدا بالنسبة للوليد الذى بدأ فى خير حال . وفى بعض الأحيان ، ولسوء الحظ ، ان بعض المواليد كانوا يولدون بتشوهات جسدية . أو عجز خلقى ، أو يبدون خلال سنواتهم الأولى ، متخلفين عقليا : وفى هذا الحال ، كانوا يقبلون كمن شملتهم عناية الرب ، وكذلك، فمهما يكن الأمر ، كانوا يدمجون بالمجتمع ادماجا طيبا . ولذا ، فان الحكيم امنموبى كان يحذر رفاقه الشباب قائلا : « لا تسخر من كفيف ، ولا تضايق قزما » .

كان الأمر يستلزم بعد الولادة أن تمضى الأم الأربعة عشر يوما الخاصة « بالتطهر » الشعائرى فى احدى المقصورات ، بعيدا عن الحياة العامة ، بعد ذلك لم يكن الأمر يستلزم الا تغذية الطفل تغذية طيبة ، وحمايته من السوء والشر ، مع الاعتبار دائما ، بأنه يوجد ضمن الجنيات الخمس المثلات لحتحور المشرفة على مصيره ، واحدة كانت تستطيع القيام بدور الجنية « كارابوس Carabosse » الشريرة . وقبل كل شىء أن يمكن اعطاؤه ثدى الأم طوال سنوات عمره الأولى : وكان السحرة والأطباء يتناوبون أو يجتمعون لمساعدة الأم على القيام بهذه المهمة الطبيعية ، وعند الاقتضاء يقومون بعلاج ثدييها المريضين . أما الساحر، فى مثل هذه الأحوال فقد كان يقتدى دائما بالأحداث التى قابلت ايزيس . وكانت الوصفة تبدأ بما يلى : « هذا هو الثدى الذى ألم بايزيس وهى فى « خميس » (.....) تقرأ بعض التعاويذ على قصب صغير ، وبعض من ليف النبات ، وطرف عضو التأنيث فى نبات الأسل ومعها أعضاء التذكير فى النبات (.....) ويحول ذلك الى قطعة من الحبال الملتوية من ناحية اليسار ، وتوضع على مكان الألم (ويقال) « لا تسبب تقرحات ، ولا تسبب أكلان أو حكة ولا تنزف دماءك » (١٤) .

وكانت توجد ، بطبيعة الحال ، وصفات طبية لادرار لبن الأم ، أو من أجل تنظيم عملية التبول المتدفقة لدى الوليد ، وأيضا لتهدئة بكائه وصراخه المفرط .

حمـايـة الوليـد :

ولحماية الأم والطفل ، دونت مجموعات من التعازيم والرقى ، والطلاسم السحرية ، حتى لا يهاجم هذا الوليد أى سوء أو أذى ، وحتى لا ينضب معين لبن الأم ، ولا تصيبه النزلات المعوية والمعدية التى كانت تودى غالبا بحياة المواليد ، وها هى احدى البرديات (١٥) التى تسمح لنا بالتعرف على بعض هذه الصيغ الخاصة بالرقى والتعازيم .

ان حمايتك هى حماية السماء (....) والأرض (....) والليل (.....) والنهار (....) .

ان حمايتك هى حماية الحقائق الالهية السبع ،

اللاتى نظمن الأرض عندما كانت صحراء قاحلة .

اللاتى وضعن القلوب فى المكان المناسب

(.......)

فليحم كل اله من الآلهة اسمك

وكل مكان ستوجد به ،

وكل لبن ستشربه ،

وكل صدر ستؤخذ فوقـــه

وكل ركبة ستجلس عليها ،

وكل ملابس سترتديها ،

وكل مكان ستمضى به يومك ،

وكل حماية ستتلى عليك ،

وكل شىء سترقد فوقـــه ،

وكل عقدة ستعقد عليك ،

وكل تميمة أو تعويذة ستعلق فى عنقك .

فلتحم بفضلهم ،

ولتبق فى صحة جيدة بفضلهم ،

ولتبق سالما سليما بفضلهم

وأن تشمل بالهدوء والسكينة بفضلهم ،

كل اله وكل الهة .

أما التعاويذ السحرية التى ستذكر هنا فهى توجه الآن لكـــل « شبح » ، محتمل ان يكون قادرا على ايذاء الوليد :

« فلتفنى وتتلاشى تلك القادمة فى المظلمات ،

التى تقترب وهى راجعة ،

وقد اتجه أنفها الى الوراء ، واستدارت بوجهها .

تلك التى (يجب) أن تنسى لماذا هى آتية .

هل حضرت لتقبلى هذا الطفل ؟

انا لا أسمح بأن تقبليه !

هل حضرت لتهدئة هذا الطفل ؟

انا لا أسمح بأن تهدئيه !

هل حضرت لايذائه ؟

انا لا أسمح بأن تؤذيه !

هل حضرت لأخذه معك ؟

انا لا أسمح بأن تأخذيه ! » .

ولاطمئنانها بفضل هذه التعازيم والرقى التى تتضمن حمايـــة حقيقية ، لم يكن على الأم عموما ، أن تجعل نفسها فريسة للقلق ، لأن ذلك قد يعود بعواقب وتأثيرات وخيمة على لبنها . ومن أجل اثارة واضطراب ادرار هذا الغذاء النفيس ، يبدو أن النساء ، كن يستعن أحيانا ، بتمثال صغير مجوف على هيئة الالهة « تاورت » ، وتبدو وهى تمسك بأحد ثدييها ، وكأنهـا تهم بالارضـاع ، وقد ثقب هـــذا الثدى بثقب ، وسد بسدادة صغيرة جدا . ولا شك أن هذا الوعاء الصغير عندما كان يملأ « بماء الحياة » هذا كان يسمح بذلك بانزاله منه نقطة بعد نقطة من خلال الثقب ، ويبعد بواسطة السحر المتعاطف نضـوب ادرار اللبن (١٦) .

- ٥ -

علم أمراض النساء ، دور ربة البيت ، والحداد ، والأرملة الوارثة

علم أمراض النساء

ان اللبن - هذا الغذاء الالهى - كان يدخل ضمن غيره فى تركيب العديد من الأدوية التى تشرب على جرعات ، والمحاليل الملطفة من أجل تهدئة سعال الطفل على سبيل المثال بمزجه مع بعض العسل وثمار التمر المسكرة ٠ وكان هذا العلاج القديم يتساوى مع بعض الوصفات الطبية الأخرى التى كانت تشير باستعمال : « لبن الأم التى وضعت لتوها وليدا ذكرا » ، من أجل علاج مرضى الرشح والزكام ٠٠٠ وكذلك أمراض الرمد والتهابات العيون (وانتقل هذا العلاج الى أوربا عن طريق الطبيب هيبوقراط (Hippocrate) ومن أجل نقل هذا السائل النفيس كانت تعد قوارير صغيرة بديعة الصنع ، على هيئة امرأة جالسة القرفصاء ، حاملة بين ذراعيها وليدا عاريا تماما ٠ وفى متحف اللوفر بباريس نموذج لأول قارورة دواء فى العالم من هذا النوع ٠

كما أن الزوجة الشابة المثقفة ، كانت تستطيع أن تلجأ بنفسها الى استشارة البرديات الطبية الموجودة بمكتبتها الخاصة (١) ٠ وترجع هذه البرديات الطبية الى الدولة الوسطى ، والتى بدأ استعمالها فى عصر الأهرام ، وكانت تساعد الكثير من السيدات على علاج الأمراض التى قد تصيب أفراد عائلاتهم « طب القلب ، والعيون ، ٠٠٠٠ الخ ٠ بل وأيضا مرض سلس البول الطويلة الأمد لدى مواليدهن) ٠ ولكن هذه البرديات كانت تتضمن فصلا طويلا مخصصا لعلم أمراض النساء والولادة ، ويتعلق بأغلبية الأمراض والمتاعب التي يمكن أن تصيب المرأة ٠ ولا شك أن موسوعة العلاج هذه قد دونت بعد القيام بتجارب طويلة المدى حولت تطبيقها عمليا الى علم فعلى ، وجاء هيبوقراط أيضا للاغتراف منه بكثرة وغزارة : فبعد تحليل الأعراض التى تظهر على المريض ، كان الطبيب يقوم بتشخيص مرضه ويصف علاجا ، وبمثل

هذا الأسلوب استطاع الأطباء المصريون اكتشاف سرطـان الرحم ، واعتبروه بمثابة « مرض يلتهم الأنسجة » وكانت الأبحـاث المتخصصة تفرق بوضوح تام بين التهابات الرحم والتهاب الفرج أو المهبل .

وبعد مرور حوالى ستة أعوام على انجاب أبنائها السـبعة ، فان ربة البيت الشابة التى كانت قد بلغت الواحدة والعشرين من عمرها ، بدأت تشعر ببعض الضعف فى قواها الجسدية ، وببعض الصداع الذى كـان المصريون يسـمونه « جس ـ تب « ges-tep أى ، منتصف الرأس » (والتى ترجمها الاغريق hemi-crania أى نصف الجمجمة) ، وبعض المتاعب المتنوعة ، اضطرتها لأن تستشير « موسوعتها الطبية » .

وفى الواقع ، فانها كانت قبل ذلك قد لاحظت أن المقويات والأدوية التى كانت أمها ومربيتها السابقة تصفانها لها ، غير مجدية . ولكى تتيقن من العلاج الفعال ، وخاصة أنها لم تكن تستطيع أن تميز جيدا بين المظاهر المرضية الموصوفة بالموسوعة الطبية ، وبين ما تشعر هى به ، ووجدت أن الضرورة تستدعى أن يكشف عليها الطبيب ، وتطلب معاونته وتدخله . وكان يخشى وجود انحـراف ما فى الرحم ، واستلزم الأمر تثبيت ما يعرف بالفوزجة (قرص على هيئة كورة تقحم فى المهبل لمنع الحمل ولتصحيح وضع الرحم) . وقبل ذلك ، وبسبب اكتشاف مرض التهاب الرحم المزمن ، أصبحت الضرورة تستدعى أولا ، أن يحقن المهبل بمادة معينة (كان يستعان بقرون أنثى العجل من أجل هـذا الاجراء ، باعتبارها الأداة المناسبة) وبعد ذلك ، كانت السيدة تعالج بواسطة التبخير ، فينثر بعض من المادة المستعملة للتبخير ، على قـالب من الطوب الساخن الى الدرجة التى يتحول فيها الى اللون الأبيض ، وتجلس السـيدة فى وضع القرفصاء من فوقه باقـرب ما يمكنها من السخونة المتصاعدة .

وكان الطبيب قد أمرها بكل تشدد أن تتبع تعليماته بكل دقة ، ان لم تكن تريد أن ترغب على تطبيق وسيلة ما لتحديد النسل وتستعمل أحد الأدوية المضادة للحمل ، التى كانت تعرف بأنها تجعل المرأة عقيما طوال عامين أو ثلاثة ، والا فانه سيكون بدون شك مضـطرا الى اجهاضها ، وقطعا ، لم ينظر فى ذلك الا لأسباب خطيرة جـدا ، وهذا هو العـلاج الموصى به لكى لا تنجب المراة (٢) : « لكى تتوقف المرأة عن الحمل طوال سنة كاملة ، او سنتين ، أو ثلاثة : بضعة قرون من السنط ، والحنظل ، والتمر ، يتم طحنها كلها مع ما يعادل نصف (لتر) من العسل . وتبلل قطعة من القماش بهذا المزيج وتوضع بداخل المهبـل » .

ولكن ، كانت هناك سخرية القدر . فان شقيقة هذه السيدة التى كانت قد تزوجت بعدها بفترة ، كانت على ما يبدو عاجزة عن انجاب

طفل ، بالرغم من كافة الوصفات التى ابتلعتها بكثرة ، وكافة عمليات التبخير المهبلى ! ومع ذلك ، فقد استمرت على تناول الأدوية اللازمة لعلاج العقم ، والتى كان أسـاسها الجعة ، اللبن ، والتمـر ، وبعض الأعشاب المنتقاة ، تلك الأدوية المصاحبة لبعض الوصـفات وكلمات السر السحرية . ولا شك أن هذه السيدة كانت تخشى أن يطلقها زوجها ، وقبـل أن يظهر الحل فى تبنى طفل ، كانت ما تزال تأمل فى حـدوث معجـزة .

دور ربـــة البيت

وحتى لا تحـدث أية مأساة محتملة فى بيتهـا ، فان هـذه الزوجة الشابة المريضة عملت على عـلاج نفسها بكل همـة وحماس . فقد كانت تريد انجاب المزيد من الأطفال لزوجها ، وتريد أيضا بطبيعـة الحال ألا تجعله يفكر فى اتخاذ خليلة من ضمن الخادمات أو العاملات بالبيت .

وكان المصرى يستطيع أن يصرح قائلا ، مشيرا بكلامه الى منزل بعض أصدقائه : « لم اتصل جنسيا بخادمة بيتـه ، ولم أضاجع العـاملة لديه » ، فقد كان من الأمور المستقبحة اغواء امرأة متزوجة ، أو اتخاذ خليلة من منزل يزوره .

ولذا ، نجد أن ربة البيت الشابة هذه كانت تبدو دائـما متأنقة متجملة ، وفقا لكل مستحدثات ذوق العصر ، وتولى عناية خاصـة بتسريحة شعرها التى كانت تعتبر كما عرفنـا من قبل كاحدى عناصر الاغراء والفتنة ، وكانت تتلافى ثورات الغضب ، وتبـدو دائما باسـمة مرحة ، لأن المرأة المرحة البشوش هى « منة وهبة ثمينـة » ، ومما كان يثير الاعجاب ، الرعاية والاهتمام التى كانت عادة تحيط بها زوجها ، فتعزف له بنفسها على آلة القيثار لكى تخفف عنه وتريحه من مشاغله ، وكانت تعبق البيت بالعطور والروائح الزكية التى كان زوجها يتأثر بها كثيرا . وكانت تقوم بنفسها ، فى الورشة الملحقة بالمنزل ، بالاشراف على نسج أرق أنواع الكتان وأكثرها بياضا ، والذى كان يتخذ من النبات المسمى ب « لون السماء » (الكتان) . وكانت الضرورة تستلزم أن تكون ملابس السيد متناسقة مع وقار وعلو مستواه الاجتماعى ، وأن تكون على قدر كبير من الأناقة . وبما أنها كانت تعرف مـدى تقـديس زوجهـا لأوزيريس ، وتشاطره فى ذلك ، فقد كانت تصر على مرافقته فى الحج الى أبيدوس ، آملة أن تحصل على الاذن بالمشـاركة فى الشر العـظيم للأسرار الخفية الخاصة بهذا الاله ـ كمثل السيدة « تانى Tany » التى حصلت على هذا الاذن خلال الدولة الوسطى .

وكانت تبدى من اليقظة والحذر تجاه كل شىء ، وكانت تتفوق على نفسها فى اعداد واقامة الولائم للحفلات والأعياد بالبيت حيث كان الجميع يثنون على جمالها ورقتها وثقافتها الجيدة ، واهتمامها الفائق براحة وغبطة كل واحد من المدعوين ، وكان السيد النبيل يستطيع ان يفخر بربة بيته ، ولو حدث أن رأت اثناء الليل كابوسا ما ، أو حلما مزعجا فى منامها ، فانها لم تكن تنتظر بزوغ الفجر لكى تطلع على « كتاب الأحلام » الخاص بها ، حتى تتيقن من أن زوجها لا يخونها ، ولا حتى يرغب فى اتخاذ خليلة بالمنزل · كل شىء قد أورد فى هذا الكتاب الذى وصل الينا جزء منه ، وهذه هى بعض فقراته : « اذا رأى احدهم فى أحلامه ، أن رجلا آخر يفكر فى زوجته فان ذلك من الأمور الحسنة · فالشر الكامن بداخله سوف ينمحى » ·

واذا رأى أحدهم فى أحلامه أنه يعبر معبد احدى الربات ، فان ذلك لأمر سيىء ·

واذا رأى أحدهم فى أحلامه أن فراشه سوف يحترق · فان ذلك لأمر سيىء ، ويعنى فقد زوجته ·

واذا رأى أحدهم فى أحلامه بأنه يضع أريكة فى مركبه ، فان ذلك شؤم ويعنى : انفصاله عن زوجته ·

واذا نظر أحدهم لوجهه فى مرآة ، خلال أحلامه فهذا شؤم ! ويعنى أن امرأة أخرى (سوف تجىء) ·

الخليلة :

ان ذكرى ما حدث لاحدى جداتها التى كانت تعيش بمصر الوسطى كان يزعجها دائما لأن سيدتنا هذه ، كانت تحب زوجها لدرجة العبادة ، ولم تكن تريد أن تشاركها فيه احدى المحظيات ، اذ كانت غيرتها عليه تفوق غيرة أى سيدة أخرى فى المحيط الذى تقطن به · وقد حدث ذلك فى عصر الملك « أمنمحات الثالث » وخليفته الملك « سنوسرت الثانى » : فى الفترة ما بين ١٩١٢ ، ١٨٩٣ قبل الميلاد · وكانت البعيدة لصديقتنا هذه تدعى خيتى « Khety » وكانت هى الزوجة المهمة لأحد حكام بنى حسن النبلاء ويدعى « خنوم حتب الثانى » ، والذى كان يحكم كافة أنحاء الاقليم الغنى · وكانت قد أنجبت من « خنوم حتب الثانى » سبعة أبناء ، ولكن على مقربة منها كانت تعيش أمينة خزائن زوجها ، التى يبدو انها قد تفوقت ونجحت فى ادارة كافة الضياع التى عهد بها اليها ونجحت أيضا فى امتلاك قلب سيدها ، واصبحت خليلته ،

وكانت تدعى « تشات » ابنة « تترو » ، وطبيعى أن « خيتى » قد صورت فوق جدران المقبرة العائلية ، وقد أحاط بها أبنائها السبعة ، فهى سيدة البيت ، ومع ذلك ، يبدو انها قد قبلت أن يصور أبناء « تشات » الثلاثة بجوار امهم · وبما أن « تشات » هذه كانت زوجة ثانوية للزوج ، فى حين كانت زوجته الفعلية على قيد الحياة ، لذا فلم تكن «تشات» تسمى الا بلقبها فقط : أمينة للخزائن ، وفى كل مكان فوق جدران المقصورة الحجرية ، حيث كانت « خيتى » تتبوأ عرشها بجوار زوجها ، كانت « تشات » تبدو جالسة فى مؤخرة المنظر ، وأقل حجما ····· ، ولكنها كانت موجودة ، ولم يكن أحد يستطيع أن يقول شيئا حيال وجودها · وبعد فترة وجيزة ، توفى ابنها الأكبر « نحرى Nèhri » وتم دفنه بمقبرة متواضعة ·

الابن الذى لم يعلن عن أبيه :

كان الأمر يستلزم اذن ، انتظار وفاة « خيتى » لكى تصبح « تشات » زوجة ثانية لـ « خنوم حتب Khnom hotep » الثانى · وحينئذ ، استطاعت أن تظهر بجوار الحاكم بصفتها ربة بيته ، كما خصصت لأولاده الآخرين مقابر لائقة وجديرة بمركزهم وبمركز أبيهم · بل ان اصغرهم قد عمل على أن يبنى من أجله قبرا فى الهضبة الشرقية ، قريبا من قبر أبيه ، ودون اسمه فى هذه المقبرة تحت عبارة « النبيل الأمير الوارث » (٤) ·

ومن خلال هذه القصة ، يتبين لنا أن حقوق الزوجة الشرعية كانت تصان من كل شىء ، وأن أولاد الزوجات الثانويات لم يكونوا ليستفيدوا بأى قانون يسمح لهم بالمطالبة بالاعتراف بأبوة أبيهم لهم · وقد يبدو لنا هذا الوضع مجحفا فى الوقت الحالى ، ولكن ، علينا أن نرجع الى الطريقة ، التى كانت متبعة منذ خمسين عاما فى معاملة «أبناء السفاح» فى بلادنا الأوربية التى يقال عنها انها متحضرة ! وفى مصر القديمة لا شك أن مثل هذا التنظيم كان يبدو بمثابة الوسيلة الأكثر فعالية لتفادى مثل هذا النوع من المشاكل ، والحد من عدد العلاقات الجانبية التى كانت المعاشرة غير الشرعية تساعد عليها ، وكان هناك أيضا أمر مقرر : كانت بعض النساء فى نطاق الطبقة العليا ، يعشن حياة منطلقة للغاية ، بل ويقدمن فى بعض الأحيان على بعض المناورات والمحاولات العاطفية · فمثلا ، نجد أن « قصة الأخوين » تعرض لنا كيف قامت زوجة أحد ملاك الأراضى ، بدون أية مواربة ، باثارة واغراء شقيق زوجها الشاب · ويبدو ذلك اكثر وضوحا فى القصة المعنونة « بالصدق

والكذب » ، حيث نجـــد أن سيدة من كبيرات الأميرات قد علمت من وصيفتها ، بوجود رجل يدعى « الصدق » كان أخوه المدعو « الكذب » قد تسبب لتـــوه فى فقده البصر ، وجعله يقف كحـــارس على باب بيته ، فأمرت السيدة النبيلة باستدعائه : « عندما رأته السيدة ، رغبت فيه رغبة شديدة ، فقد لاحظت أن جسده كله جميل للغاية ، ونام معها خلال الليل ، واتصل بها كما يتصل الرجل بامرأة . وحملت منه فى نفس هذه الليلة فى طفل صغير » . والبقية تعتبر حاسمة بالنسبة لهـذه العاشقة والأم غير الجـديرة ، التى أهملت على الفور موضوع رغبتها العابرة فعلا ، ولم تقدر العواقب التى كانت ستنجم من وراء ذلـك ، بالنسبة للولد الصغير الذى كان « جميلا كاله شاب » .

وألحق بالمدرسة ، وتعلم اجادة الكتابة ومارس كافة الرياضات الخاصة بالرجال ، لدرجة أنه قد تفوق فيها على أقرانه (الأكبر) منه سنا ، الذين كانوا معه بالمدرسة .

وفى ذات يوم ، قال له أقرانه : « ابن من أنت ؟ ليس لك أب » . وأخذوا (يسبونه) و (يؤلمونه) وهم يرددون : « فى الواقع ، ليس لك أب » . وهنا قال الولد لأمه : « ما هو اسم أبى حتى أخبر به زملائى ، فهم فى الحقيقة يقولون لى ، بكل سوء نيـة : «أين هـو أبوك ؟ » فهذا ما قالوه لى ، وما آلمونى به » .

وهنا ، أجابته الأم قائلة : « هل ترى هذا الرجل الكفيف الجالس بجوار الباب ؟ انه أبوك ! » فهذا ما قالته له . وعندئذ قال لها : « هذا الأمر يستدعى أن يجمع أفراد عائلتك ، وأن يستدعى التمساح ! » .

وتوجه الصبى لاحضار أبيه ، وأجلسه على مقعد ، ووضـع منضدة صغيرة عند قدميه ، ووضع أمامه بعض الخبز ، وجعله يأكل ويشرب . وبعد ذلك قال الولد لأبيه : « من الذى تسبب فى أن تكون كفيفا لكى أثأر لك منه ؟ » .

مسئوليات ربـــة البيت :

اذن ، فباحتفاظها بكل هذه الأمثلة فى مخيلتها ، كانت ربـه البيت الجميلة هذه تبقى متنبهة وحذرة للغاية ، وبدأت صحتهـا تتحســن باضطراد . ولذا ، قررت أن تقوم بادارة الممتلكات ، التى كانت تملكها هى وزوجها معا ، وأن تستغنى عن .... أية أمينة خزانة . وكـانت تشرف على حسن ادارة الأعمال .

وأحيانا ، كانت لا تشارك زوجها فى وجهـات نظره وقراراته ، ولكن بواسطة ما جبل عليه جنسها من حيل ودهاء ، كانت تعرف كيف تقنعه برأيها . وكـــان زوجها يولى آراءهـ عظيم تقديره واهتمـامه ، ويتصرف كما تصرف بعد ذلك (حوالى العام ١٠٠٠ قبل الميلاد) الضابط الكاتب بالجيش ، المدعو « شدسوخنسو » الذى كان بالاضافة لذلك مالكا لبعض العقارات ، وكان قد فسخ لتوه عقـدا ايجاريا مع وكيـل مزارعه النوبى ، واضطر أن يكتب له رسالة تتضمن هذه العبارات : « اننى احيطك علما باننى عدت الى المدينة (طيبة) . وقد قلت لك من قبل بأننى لن اجعلك تستثمر الأرض . ولكن ، ها هى زوجتى ، ربة بيتى ، قد قالت لى : « لاتسحب الأرض من « شدسوخنسو » ، أجرها له ثانيا ، واجعله يستمر فى زراعتها . وعندما تصلك رسالتى خذ الحقل ولا تهمله ابدا » (٦) .

وكانت تحاول أن تنوب عن زوجها فى كل مناسبة ممكنة ، بـل وكانت تنجح فى أن تكون مطاعة أكثر من زوجة رئيس خزانة الدولة التى كلفت بجبى الدخل وتحصيل الأموال ، خلال فترة غياب زوجهـا والتى كنا قد ذكرناها ، قبل ذلك ، كمثال . وعندما كان زوجها يمر بظروف صعبة ، فقد كانت تعيشها معه ، محاولة أن تخفف عنه عبئها . ولو فرض أنه كان فى حاجة لمن يدافع عنه ، فانها كانت له بمثابة أفضل مدافع . ولم تكن هذه الحال وليدة وقتها ، ولكن من المعـرف أنه بعـد ذلك ، خلال تقدم السودانيين الى مصر ، ابان الأسرة الثالثة والعشرين ، خلال حكم «تف ـ نخت » استطاعت احدى الزوجات ببلاغتها وفصاحتها أن تنقذ حياة زوجها . وقد حدث ذلك عندما حوصرت مدينة هيرموبوليس (الأشمونين) حوالى عام ٧٣٠ قبل الميلاد . وكان « نمرود » قد أحس بأنه لم يعد يستطيع المقاومة ، وعندما وجد نفسه مضطرا للاستسلام ، أرسل ببعض المبعوثين الى « بيعنخى » من أجل التفاوض رسميا فى شان استسلام المدينة . وفى نفس الوقت كان قد كلف زوجته « نستنت » بمهمة دبلوماسية فعليـة لدى زوجـات « بيعنخى » السودانى من أجـل انقـاذ حياته ، وكانت مهارة « نستنت » ، والحجج والبراهين التى قدمتهـا مقنعة للدرجة التى استطاعت بها الحصول على العفو عن « نمرود » .

وكـان التجـار « الشـوتيو Shoutyou » يحضرون ليقدموا الى ربة البيت المنتجات التى يجلبونها من التبادل بين القوافل ، والتى كانت تتم عدة مرات كل عام ، وأخيرا ، كانت خادماتها ينبهنها الى قدوم السفن التى تحضر الى طيبة منتجات الجزر ، « ودرجات المشرق » . وللحصول على المشتريات ، كانت تتم مبـادلة فى البضـائع ، أو يدفـع ثمـن المشـتريات بالـدبن Dèbène أو الكيتى Kitè

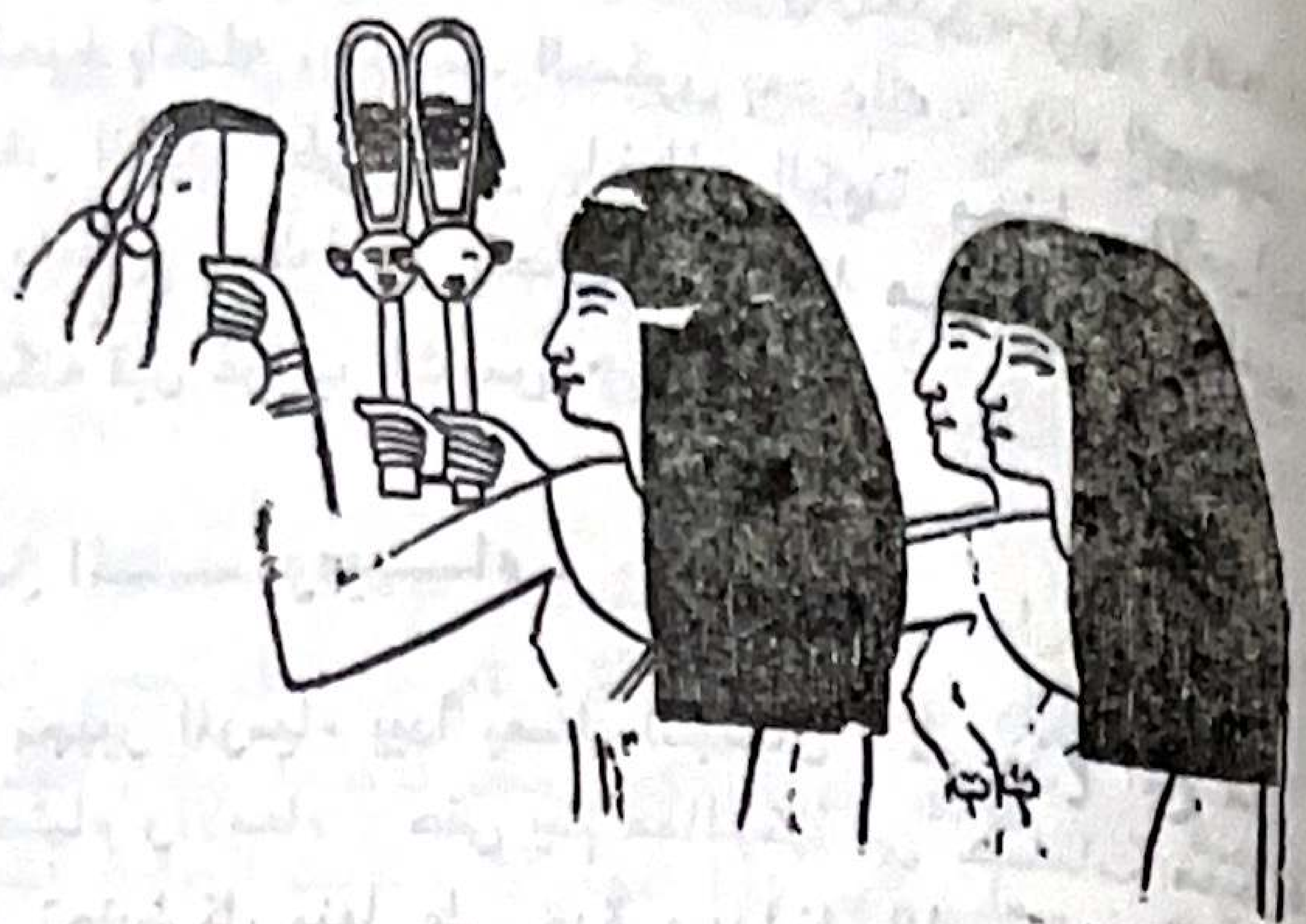
الفضة والنحاسية وكان الكيتى يعادل ١/٢٠ الدبن ، والشناتى Shenati يعادل ١/١٢ منه · أما مكاييل الحبوب ، فكانت الخار Khar (٧٦ر٨٨ لترا) حتى أصغر تقسيماته وهو القن Ken (٤٨ر٠ لتر) .

وكانت أكثر المناظر ابهارا بالنسبة للأطفال ، هو منظر تجار الشام ، فى ملابسهم الوطنية ، ذات الألوان الصارخة وقد وضعوا على رءوسهم شعورا مستعارة تختلف كثيرا عن الشعور المستعارة لدى المصريين ، وهم ينزلون من السفن ومعهم بعض الجاموس الأسود الجلد ، والذى يبدو بحدبة فوق فقار ظهره ! وكانت توجد دائما أداة موسيقية حديثة ، برع الآسيويون فى صناعتها ، أو بعض الدهانات النادرة ، يمكن الحصول عليها ، كما أن السيدة كانت قد أمرت بأن يشترى لها « الشفاطات » التى كان زوجها يتمكن بواسطتها ، وفقا للأسلوب الشامى الحديث ، أن يغترف ويشرب الجعة مباشرة من الجرة الضخمة حيث تتخمر .



شكل (٣٨) عمليات المقايضة فى السوق

ومثلها كمثل الكثيرات من السيدات بطيبة ، كانت تنتمى الى جماعة مغنيات آمون ، بالطبقة العليا منها ، وبطبيعة الحال وبيديها الرشيقتين الرقيقة ذواتى الأظافر التى كانت تلون أحيانا بالحناء ، كانت تتقن العزف على آلات المزهر (الصلاصل Sistres) وتلعب بيديها بقلادة المنات menat ذات الحبات المميزة (تصدر شخشلة رقيقة عند تحريكها) · ولا شك أن صوتها البديع قد شد انتباه الكاهن الكبير. ولذا ، فهى التى كان يسمع غناؤها الذى كان يتصاعد من قلب « الكورس » فى أنغام « صولو » عذب ساحر (صوت مفرد) يتسم بالتعبد والورع .



شكل (٣٩) مغنيات آمون

حداد فى العائلة

الظروف :

خلال احدى تنقلات السيد النبيل ، وبصحبته مجموعة سكرتاريته وهو منهمك للغاية فى تفقد أملاكه المترامية الأطراف ، حدثت وفاة أبيه المباغتة · ولقد تبين الطبيب الذى استحضر الى مخدعه ، بأنه أصيب بسكتة قلبية قاتلة · وهذه الحالة ، كانت تتكرر دائما خلال الأيام الخمسة الشؤم ، التى سقط الشيخ صريعا خلالها · وكانت الأيام التى تسبق وصول الفيضان من الأيام التى يخشى بأسها ، وكان يخشى كثيرا من « رسل الالهة سخمت » بداية من اضطرابات الدورة ، وأيضا من الطاعون والملاريا ، التى أطلق عليها الممارسون المصريون ، منذ ذاك الحين ، اسم « الهواء الردىء » · وكان المصريون يعتبرون أن هذه الأيام الخمسة ، هى أيام « زائدة » (على العام المكون من اثنى عشر شهرا ، وكل شهر يتكون من ثلاثين يوما) · أما الاغريق فقد أطلقوا عليها « أيام النسىء الخمسة Epagomenes » ومن الغريب فعلا فى التقويم الثورى الذى وضعه « فابر دى اجلانتين Fabre d'Eglantine » أن هذه الأيام الخمسة قد عولجت أيضا على حدة وسميت بـ « المكشوفة » ·

أخذت جميع نساء البيت المجتمعات معا ، يطلقن وعويلهن الصاخب ، وكانت الصرخات الحادة تسمع من كل الجهات · وعندما أخطرت سيدتنا النبيلة أسرعت على الفور الى بيت حميها ، خاصة

انها كانت متزوجة بالابن الأكبر للعائلة ، وأردفت صوتها بالنحيب الذى كان يملأ المحيط بأكمله ، ثم ساد السكون بعد ذلك ، وثقل الصمت ، حينئذ سارع أصغر الأبناء على الفور باخطار الكهنة محنطى الأموات ، فقد كان الأمر يستلزم ـ كما هو الحال فى أيامنا هـذه ـ أن يغادر جسد المتوفى مسكنه قبل غروب الشمس ٠

تجهيـز المـومياء :

كان تجهيز المومياء يبدأ بغسل الجثمان ، ثم ينزع المخ من مكانه ، وكذلك الأحشاء والأمعاء ، حتى يتم معالجتها فى حمامات معطرة ، ثم توضع بعد تحنيط كل منها على حدة ، بداخل الأوعية الأربعة الكانوبية التى يبدو تجويفها فى هيئة بطن الأنثى وغطاؤها فى هيئة ذكرية . وكان القلب والكليتان يعادان الى مكانهما ثانيا بعد أن يخلصا تماما من انسجتهما الدهنية ، وكان هذا أمرا ضروريا جدا « لأن الاله يسبر غور القلب والكليتين » (٧) ٠ ولا شك أن منزلة المتوفى الرفيعة كانت تستحق العناية الخاصة بموميائه ٠ ولذا ، فقد كانت التجهيزات والتحضيرات تستمر عدة أسابيع ٠ ولا شك أن الابن الأكبر للعائلة سيعود قبل اتمامها ٠ وكانت زوجته قد بعثت اليه على وجه السرعة احد كتبته ، الذى سافر نحو الشمال على واحدة من أفضل سفنهم ، والذى وصلت الى منف فى أسرع وقت ممكن ، لا سيما أن مياه الفيضان العارمة الآتية فى قوة هادرة كانت تجذبها بعنف وشدة ٠ وفى مثل هذه الأحوال كان الصعود ضد التيار للوصول الى طيبة لا يتناسب أبدا بدون شك ، وبذا انطلق السيد على الفور الى الجنوب قائدا بنفسه عربته الخفيفة التى يجرها جوادان سريعان ٠ ومنذ أن أعلن الخبر فقد أطلق لحيته كعلامة شعائرية عن الحداد ، كما غطى نفسه بالتراب ، وبوجه لا يكاد أن يتعرف على ملامحه ، وصل الى بيت أمه ، ثم توجه بعد ذلك الى المكان الخـاص بالمحنطين حيث وجد أخـوته ، وابنه الأكبر ٠ ولقد أراد أن توضع أرق وأرقى أنواع الكتان فى الصناديق التى أعدت من أجل « الأثاث الجنائزى » ولما كانت زوجته من قريبات الأسرة المالكة ، فقد أمر الملك عندما علم بالخبر ، بارسال الشرائط والضمادات التى نسجت فى حريمه الكبير من أجل لف جسم المتوفى بها حالما يخرج من الحمامات التى كانت تخلصه من كافة المواد العفنة والنتنة ٠

وأمر الفرعون أيضا بأن يقوم كتبته فى « بيت الحياة » باعـداد ما يعرف باسم « الخروج بالنهار » والذى نطلق عليه حاليا : « كتاب الموتى » ٠ وكان هذا المخطوط يتضمن مجموعة كبيرة من الفصول ـ

معظم الـ ١٩٢ فصلا تكون المخطوط بأكمله ـ والزخـارف التى كانت تزينه ، كانت تمثل منظر المنمنمات ذات الألوان الزاهية ٠ وكان المخطوط النادر النفيس المصنوع من البردى يوضع بين ساقى المتوفى ، متضمنا كافة الصيغ والعبارات التى تسمح له بأن يعبر طـريق « تطهره » ، وقبل أن يصل الى الذات الكلية العليا المتألقة ٠

وكانت المجوهرات والتمائم والتعاويذ توضع بالأماكن الشعائرية فوق الجثمان فى أثناء عملية اللف التى تتم من أجل تجهيز المومياء ، وبصفة خاصة كان هناك جعران كبير معد لوضعه مكان القلب ، أو ليعلق فى رقبته ٠ وعلى ظهر هذا الجعران ، كتبت العبارة الشـهيرة التالية : « حتى لا يتمرد قلب الانسان عليه فى مملكة الموتى » :

« انت يا قلبى المستمد من أمى ، انت يا قلبى المستمد من أمى ،
يا حشى قلبى ومراحل عمرى المختلفة
لا تقف ضدى ، أثناء الشهادة
ولا تعارضنى فى المحكمة
ولا تعـادنى
أمام الحافظ على الميزان
انت « الكا » الخاصة بى فى جسدى ،
« خنوم » (الخلاق) الذى أمد أعضائى بالازدهار
فلتصعد الى المكان المهيأ لنا هناك
ولا تجعل اسمى كريها
أمام القضاة الذين يضعون البشر
فى أماكنهم (الحقيقية) !
لأن ذلك سـيكون حسنا ٠
وسيكون حسنا بالنسبة للقـاضى
وسيكون ذلك أمرا مرضيا لمن يقـوم بالمحاكمة ٠
فلا تختلق اكاذيب ضدى
أمام الاله الأعظم سيد الغرب !

انتبه ! فانك عندما تبين عن عدالتك ، تدل على نبلك » (٨) .

ولقـد تم جمع وتوفيق أروع التجهيـزات الجنـائزية ، وتم مـلء الصناديق الصغيرة ، بالشوابتى ، وهى تماثيل صغيرة باسم المتوفى يذكر عليها قائمة الأعمال الجمـاعية التى يجب اداؤهـا فى العـالم الخفى . ووضعت الدهانات المعطرة فى أوعية من المرمر من أجل انعاش اللحم والعضلات ، وكانت المراكب التقليدية التى تمثـل احياء العريق فى القدم والمصنوع من البردى من أجل عبور النيـل الزورق بالحمولة ليتمسحبها ، ولكن يبدو أن هذا العبور كان ينذر بأنه غير عادى ، فان موسم الفيضان لم يكن قد انتهى ، عندما يبدأ المركب فى مغادرة الضفة ، حيث يسمح منظر المحاكمة أمام هيئة المحكمـة الالهية المومياء ، بعبور النهر » . وفى طيبة ، بدأ الفيضان « حابى » ، وكأنه بحر مغلى ، وتدنو السفن مباشرة من موقع مدينة الأموات بالقرنة ، أما المنطقة المزروعة بالضفة اليسرى ، فقد كانت مغطاة بالمياه .

الدفـــن :

وتوجـه الموكب الجنائزى ، عندئذ نحو مدخـل المقـبرة . وكانت النواويس الجنائزية الكبيرة ، المصنوعة من الخشب المسود ، والمزينـة بالأشكال الصغيرة ، وشرائط من الكتابات المذهبة ، ذات القاعدة التى تشبه الزلاجة ، ويجرها بعض الأبقار ذات الجـلد المرقط ، واللاتى كانت تساهم هى أيضا فى الأنين والنواح :

« نحو الغرب ، نحو الغرب !

أيا سيدنا ، نحو الغرب !

هو الذى كان يعطينا العلف ، كما يطيب لقلبه ،

هو الذى كان لا يلتفت الى أخطائنا ! » .

أما الندابات اللاتى تستخدمهن ربة البيت واللاتى شوهدن فـوق بعض المراكب ، وهن منحنيات فوق غطاء النعش المقوس ، فقد باشرن عملهن طوال مرحلة العبور بأكملها :

« فى سلام ، فى سلام نحو الغرب ، أيها المحبوب المبجل !
(.....)

حزن ! وأسى !
فلتنتحبن بدون توقف !
آه ، يالها من خسارة !
لقد مضى الراعى الطيب نحو مقر الأبدية .
انت يا من كنت محاطا بالعديد من الناس ،
هأنت تجـد نفسك فى بلد يحب الوحدة .
هذا الذى كان يحب تحريك قدميه للسير ،
ها هو مضمدا ، وقعيدا ،
الذى كان يرفل فى الأقمشة ويحب ارتداء الملابس .
يرقد وهو مرتد ثوب السـهر(٩) » .



شكل (٤٠) زوجة تبكى زوجها أمام المقبرة

كانت الندابات فى ذلك الوقت يسرن أمام الموكب . وبدأن ثانيـا فى نواحهن وكن يتوقفن بشكل منتظم ليهلن بعض التراب على رؤوسـهن ،

وكمثل الرجال كن يضعن قبضة اليد اليمنى فى راحة اليد اليسرى كعلامة على الحداد . وكانت نساء الأسرة متجمعات بجوار مجموعتهن ، أما جميع الرجال ومنهم الأهل والأصدقاء ومعاونو المتوفى ومساعدوه فكانوا يكونون معا موكبا ضخما ، يحمل كل واحد من أفراده ، فوق رأسه أو كتفيه ، بعض قطع الأثاث الجنائزى . وكان الموكب يبدو وكانه من أجل زواج فعلى بالالهة « حتحور » ، فقد كان يحتوى على : السرير بحاشيته السميكة ، والوسائد والمخدات ، والصناديق والجرار والصناديق الصغيرة المزخرفة من أجل الحلى ، والمقعد الفاخر والعلب المحتوية على المرايات ، وأوعية الدهانات المعطرة ، والنعال المصنوعة من الجلد الأبيض .

وأمام مدخل المقصورة ، التى يعتليها هرم صغير ، وضعت المومياء ، المغطاة بالتابوت البشرى الداخلى ذى الألوان الصارخة وصورة المتوفى ، حيث قامت الأرملة بعناقها لآخر مرة ، والتى كانت بناتها يصاحبنها وينوحن فى هذه العبارات :

« التفت ، قم ، استيقظ ،

افتح عينيك واسمع صوتى !

(.......)

أريد أن ارقد هنا !

أريد أن اكون المحفة التى حملتك

(.......)

اننى زوجتك ،

فيا زوجى ، لا تتركنى وتهجـرنى .

فى نفس الوقت الذى كنت فيه على خير حال ،

يا والدى ، أمن العـدل أن ابعـد عنك ؟

لماذا تركت عالمنا هذا ؟

اننى أسير وحيدة خلفك ، بدلا من أن اكون جوارك .

وأنت الذى كنت تحب أن تتسلى فى صحبة الناس ،

تمكث بدون نطق ، ولا تتكلم ابدا (١٠) » .

وعندئذ ، حلق الابن الأكبر ذقنه ، وظهر فى ثوب شعائرى ، حيث ارتدى جلد الفهد الخاص بالكاهن ، ستم « Stem » وأخذ يستعد لتنفيذ « اللمسـات السـحرية » لفتح فم وعينى المومياء لاسـتعادتها لحواسها ، بواسطة العديد من الآت الصغيرة ، وبعض العناصر المختلفة الموضوعة على مقعد خشبى صغير بجواره

وبعد تحطيم الأمانى الحمراء ، وفقا للشعائر كان جثمان السلف يدخل الى القبو الجنائزى فى أعماق البئر التى تم حفـرها فى الصخور الجيرية عند أرض المقصورة مباشرة ، وكان الجثمان قد وضع بداخل توابيته المشكلة على الهيئة الانسانية والموضوعة الواحد داخل الآخر ، والمزينة والمرسومة بصورته ، ووضعت نفس هذه التوابيت المدمجة فى بعضها بداخل الحوض الخشبى الذى كان قد فكك لكى يمكن انزاله عن طريق البئر ثم أعيد تركيبه بعد ذلك . وكان الأثاث باكمله يحيط بالمتوفى ، وتكمله أوانيه الكانوبية المحتوية على أمعائه واحشائه . وعلى مقربة تماما من كل ذلك حرص أصدقاء المتوفى على أن يتركوا عصاهم الكبيرة كرسالة من أجل الميت ، لحماية مصيره ، وفوق أحدى العصى نقشت هذه الأمنية :

« الى ، يا عصاى !

لاتوكأ عليـك ،

عندما يتوجه قلبى الى مكان الحقيقة ،

حيث بلغت من العمر أرذله » .

المأدبـة الجنائـزية :

جاء الآن موعد اقامة المأدبة الجنائزية ، وتبين المشاهد والزخارف على جدران المقصورة كل ما كان يتم خلالها ، وكان على الأحياء أن يشتركوا فى هذه المآدب مع الجزء الذى لا يمس الخاص بالميت : وكانت الموسيقا والرقص المناسبان يصاحبان هذا « الاتصال الجماعى » وكان دورهما أن يدفعا المتوفى بواسـطة السكرة الشـعائرية بالخمور المسكرة لكى يتوجه نحو ذراعى « حتحور » المرحبة ، الخفية ، التى تستقبـل احضانه لكى تجعله يولد فى حياته الجديدة .

أما الأرملة التى كانت تعتبر بمثابة انعكاس لحتحور ، فقد حرصت على أن تضع ضمن مجموعة الأشياء الثمينة والأثاث والمجوهـرات المحيطة بزوجها ، تمثالا صغيرا من الطين المحروق المطلى الخشن الصنع

الشعائرى ، والممثل للمظهر « المنزلى » لالهة الموت والحب · وفى هذه الحقبة كانت تبدو فى هيئة امرأة عارية ذات شعر كثيف طويل ، محددة فوق مخدع ، وبجوارها شكل وليد صغير فوق الفراش ، ممثلا لظهور الميت وقد نقل الى عالمه الجديد بفضل أعماله الشخصية ، وبفضل رضاء الآلهة عنه · (وفى العصور السابقة لهذه الحقبة ، وفى القبور الأقل ترفا وفخامة ، كان يكتفى بوضع تمثال صغير لامرأة عارية ، غالبا مكسورة الساقين وفقا للشعائر ، أو حتى يكتفى بمجرد مثلث مصنع من الطين المحروق ، موحيا الى « العنصر الانثوى ») ·

ولذا ، فلكى تتم عملية « التحويل » بمصاحبة هذه الأفعال كان على الأرملة أن توجه العبارات التالية للمتوفى :

« خذ لتشرب ،

حتى تمضى يوما سعيدا

فى بيتك الأبدى ،

من يد زوجتك (······)

فى صحتك ، أنت المكرم المبجل ،

(ها هو) رداء أبيض ،

ومرهم معطر من أجل كتفيك ،

واكاليل من الزهور لعنقك ،

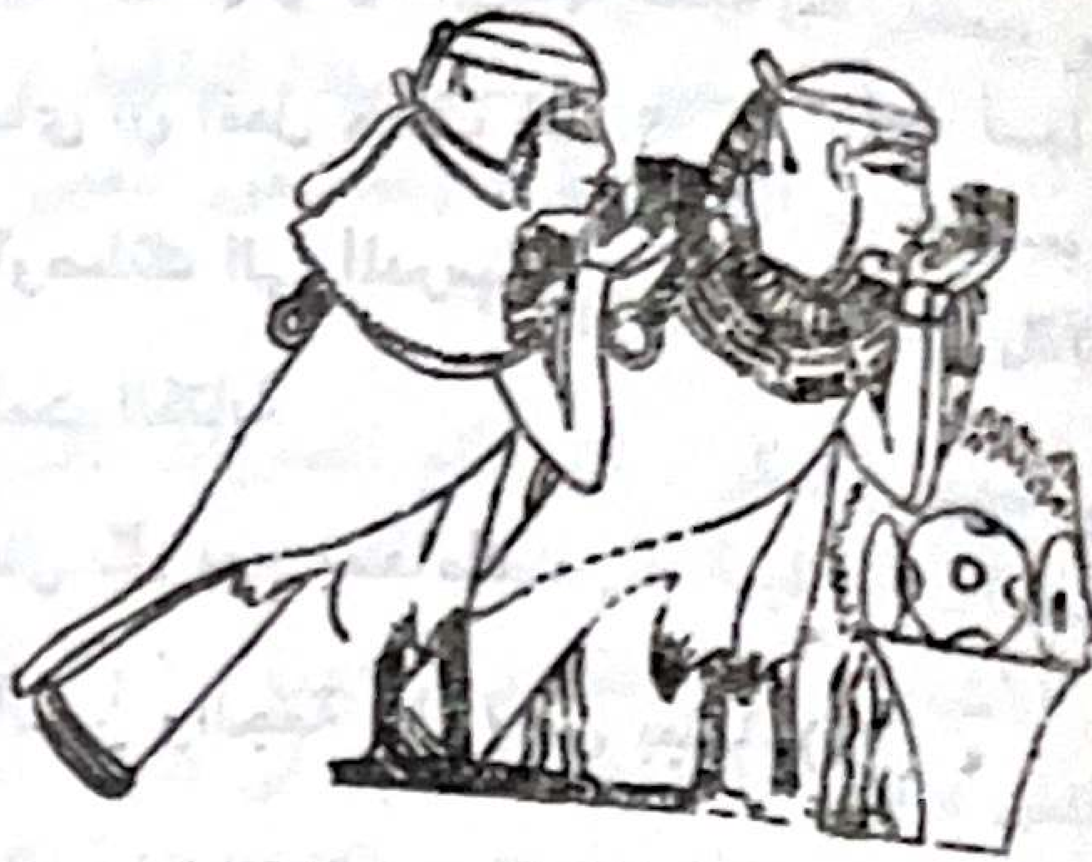
(املأ انفك) بالصحة والسعادة ·

(وفوق رأسك) ضع العطور

الآتية من (آمون رع)

فى بيتك الأبدى ·

وبعد انتهاء الوجبة الجنائزية ، التى كان الرجال والنساء على ما يبدو يمثلون خلالها كل على حدة ، وكانت الكؤوس الحمراء التى استعملت لاحيائها ، تكسر وفقا للطقوس ، ويتم جمع عقود الورد الطبيعى التى كان يلبسها المشاركون المتجمعون ، ويدفن كل ذلك بأحد المخابىء ، بجوار المقبرة · وكانت الأرملة تعرف أنها فى ذات يوم سوف تلحق بزوجها فى هذا « المسكن الأبدى » الذى عملا معا ، خلال حياتهما على اعداده بكل عناية واهتمام ·



شكل (٤١) طائرا « البا » اللذان يرمزان الى أرواح الموتى ·

الأم الأرملـــة الوارثـــة

اصبحت سيدتنا النبيلة ذات لقبين بعد وفاة زوجها وهى حماة (شمت Shemet باللغة المصرية القديمة) فى ذات الوقت ، محل كل الاهتمام العائلى : فقد كانت أما ، وبالاضافة لذلك ، قد فقدت لتوها زوجها ورفيقها · ومع ذلك فقد كان لها مطلق الحرية فى ادارة أملاكها الخاصة ، وبذا ، كان يمكنها تماما أن تكمل حياتها فى بيتها الفسيح الأرجاء الفخم حيث تربطها العديد من الذكريات ، بجوار منازل أولادها الآخرين المتزوجين جميعا · ومع ذلك فان ابنها الأكبر قد أصر على أن تحضر الى بيته لتمضية بعض الوقت مع أفراد أسرته · وكان هذا التصرف من جانبه يعد أولا بمثابة تعبير عن حبه الفعلى لأن « الابن البار هدية من الاله » ، وثانيا ، فان ذلك يعتبر تطبيقا للتعاليم التى ذكرها الكاتب « آنى » باعتبارها الواجب الأول الذى يجب أن يؤدى لمن ولدته :

« رد الى أمك ضعف الخبز الذى أعطته لك

واحملها ، كما حملتك ·

لقد كنت بالنسبة لها عبئا مرهقا وثقيلا

وهى لم تسأم أو تضجر عندما أزف موعد مولدك

وحملتك رقبتها ،

ومكث ثدياها فى فمك ، طوال ثلاث سنوات ·

ولم تتقزز أو تأنف من قاذوراتك ،

ولم تثبط همتها وتوهن عزيمتها قائلة :

ماذا عساى أن أفعل خلاف ذلك ؟

وعندما أوصلتك الى المدرسة ،

حيث تعلمت الكتابة

كانت تعنى كل يوم بطعامك ،

وتحمل الخبز والجعة (١١) من بيتها (١٢) » ٠

ولا شك أن هذا الاهتمام والاعتناء الودود كان يتضمن فى طياته قلقا فعليا بخصوص صحة الأم ، التى كانت تشعر حتى قبل وفاة زوجها بنوع من التقلصات التى تتصاعد الى رقبتها وتمسك بها وكأنها بداخل مقشطة ٠ وازدادت حالتهـا سوءا ، وأضيف الى ذلك بعض الاضطرابات فى الرؤية ٠ وباستقرارها فى جو هادىء بجوار زوجة ابنها المجاملة الودود ، التى تمكنت بمهارتها ودرايتها أن تبعد عنها الخادمة النوبية العجوز بدون أية معارضة عنيفة، والتى كانت تصف العلاجات غير المجدية التى ترجع الى قريتها الأصلية ، وهنا استطاعت الأرملة المسنة رفيعة الشأن فى النهاية أن تصف المرض الذى الم بها بطريقة افضل ، وكانت قد تبينت نوعا من الاعياء والتعب العام حتى قبل الصدمة المهولة التى كانت قد أصابتها منذ حين ، بالاضافة الى هذا النوع من التعتيم الذى كان يغيم الرؤية أمام ناظريها ٠ وفى نهاية الأمر ، قامت السيدة باستدعاء واحد من أشهر أطباء أمراض النساء من منف ، وكان تلميذا للعالم العظيم « ايمحتب » (الذى أدمجه الاغريق بعد ذلك باسم « اسكليبيوس » اله الطب عندهم) ، وكان على دراية فائقة بالطب الخاص بالنساء والذى مارسه كثيرا أطباء الدولة الوسطى ٠ ووصل هذا الطبيب المارس الى الضيعة ، وبصحبته حامل الصندوق أو « باستت » ، المحتوى على أدواته الطبية والجراحية ، والنباتات الطبية النادرة للغاية ٠ وعلى الفور بدأ بكل دقة بالتحليل التشخيصى لما ذكرته المريضة فضلا عن المساعدة المنجدة التى قدمتها زوجة ابنها ٠ ولقد تبين ان هذه الأعراض تتطابق تماما مع ما كان مدونا فى مذكرته ٠ التى عثر على نسخة منها بالفيوم (١٣) :

« تعليمات يجب أن تتبع عندما تعانى المرأة من مرض العيون ، لدرجة انها لا تستطيع الرؤية ، وعندما تشعر (ايضا) بآلام فى منطقة خلف الرقبة : وفى هذه الحال عليك أن تقول : « ان هذه هى (افرازات) الرحم تبدو فى عينيها » ٠ « واليك ما سوف تفعله لعلاج ذلك : أجر

لها عملية تبخير ببعض من راتنج البطم ، مع بعض الزيت النقى الرفيع النوع ، وأجر لها عملية تبخير مهبلى بهذا الخليط ٠ (وخلاف ذلك بخر عينيها ، بسيقان ــ الصفارية » (عصفور ذهبى الريش) ٠ بعد ذلك ، اجعلها تأكل كبدة حمار نيئة » ٠

ومما هو جدير بالذكر ، أن عالم المصريات الفرنسى « جوستاف ليففر » ذا الأبحاث العظيمة عن الطب المصرى ، أحاط نفسه بمساعدة ومؤازرة بعض الأطباء ، مثل الدكتور « درون » ، والدكتور « بورج » ، والدكتور « دلفس » كانوا أنفسهم متعمقين فى علم المصريات ٠ ولقد استطاع بمعاونة الدكتور « دلفس » أن يستكشف هوية المرض الذى ذكرناه آنفا ، باعتباره مرض : التهاب فى الرحم » والذى يصيب النساء خاصة فى مرحلة وجود الحيض الشهرى ٠ وكانت الحالة تتطابق قطعا مع حالة السيدة المشار اليها ، فبالرغم من أنها أرملة رزينة الا أنها لم تكن قد تعدت الأربعين من عمرها ٠

أى كان ما يزال أمامها طريق طويل سوف تقطعه ، وما زال الأمل يداعبها فى أن ترى فى أسرتها مولد العديد من الأجيال ، خاصة اذا كانت فضائلها تضمن لها بركة الاله ، وتسمح لها بأن يمتد عمرها الى المائة وعشرة أعوام ، هذا العمر الذى وعد به كل عاقل معتدل ٠

- ٦ -

الترمل ، زوجة الأب ، تعليم الابن

وبنــات الهــوى

وبالرغم من أن التعاليم كانت تتطلب أن يسود التبصر والهدوء ، حتى يتم الحصول على أفضل نتائج للسلوك الانسانى ، فمع ذلك كانت ثرثرة النساء ـ خاصة اذا كانت تبنى على أساس ـ قد تعدت محيط البيت ، وكانت الخادمات يتحدثن لكل من كان يريد سماعهن عن المعجزة التى تمت بفضل زيارة الطبيب « سـينو sinou » العظيم الذى جاء من مصر السفلى · ولقد كان لهؤلاء الأطباء المصريين شهرة عالمية ، وشوهدت عائلات بأكملها من السوريين ، تنتقـل من موطنهـا لكى تستشيرهم فى مصر ، بل ان الملوك الأجانب كانوا يلتمسون من الفرعون نفسه ، فى أغلب الأحيان لكى يحضر اخصائيون لعـلاج أفراد العائلات من الأمراء · ولكن عندما كان الأطبـاء يجدون أنفسـهم عاجزين أمام ما قد يصيب الفرعون من أمراض ، فانه كان يلجأ لمرجع أخير ، الى أحد الملوك المجاورين لمصر ، لكى يبعث اليه بالتمثال الشافى الخاص بالالهة « عشتار » مثلما حدث بالنسبة للملك « أمنحتب الثالث » ·

الأرمـــــــلة

حمايـــة الأرامـــــل :

لقد أسرت سيدتنا النبيلة بنفسها الى صديقاتها ، بالعلاج الرائع الذى وصف لحماتها ، والذى شفاها من مرضها ، ولقد بقى الطبيب الممارس بضعة أيام فى الضيعة الخاصة بالحاكم ، وبذا ، انهالت عليه طلبات الاستشارة ، من كافة الأرامل اللاتى كن هدفا لأعظم آيات الرعاية والاهتمام من المصريين · وبعض هؤلاء الأرامل كن معـدمات فقيـرات للغاية · ومع ذلك ، وحتى اذا كن قد اقترفن بعض السرقات البسيطة من أحد الحقول لطعامهن ، فقد كان يوصى كثيرا بعـدم مقاضاتهن على ذلك · وكافة النصوص التى تنادى بالحكمة والتحلى بالأخلاقيات ، تدعو بتعهـد المواطنين لهن (١) :

« كن عادلا مادمت فوق الأرض ، وواسى كل مكروب محزون ،
ولا تظلم او تضطهد الأرملة » .

وفى نطاق الطبقات المتوسطة ، يبدو أن الأرامل كن أحيانا يضررن لأن يعشن حياة منعزلة للغاية ، ولكن من المعروف أنه بمناسبة الأعياد الخاصة بتتويج الملك ، كانت الأرامل « يفتحن بيوتهن للمسافرين » (٢) .

كما أن أغلبية اللوحات الجنائزية التى دون عليها المتوفون « جوازات مرورهم الى الأبدية » ، تبين الأعمال الطيبة الأساسية التى كان يجب أن ينتهجوها فى حياتهم :

« كنت أسقى من كان ظمآن ،

وكنت أطعم من كان جائع ،

وكنت أحمى الأرملة

وكنت أكسو اليتيم ،

وساعدت على عبور النيل

من كان لا يملك مركبا

وبعبارة أخرى ، ففى احدى القصص ، عندما وجه الفلاح كلامه الى المسئول الكبير ، الذى احتجزه سجينا لبعض الوقت ، لكى يستمع جيدا الى شكواه ، فان الفلاح لم ينس ـ لكى يلين المسئول ـ أن يلجأ الى أفضل البراهين والحجج والاستدلالات :

« وأنت (مع ذلك) أب لليتيم

وزوج للأرملة ، وأخ للمرأة المطلقة .

والرداء لكل من فقد أمه » .

وفى نفس تلك الحقبة ، كان أحد حكام « بنى حسن » ، ويدعى « امنمحات » يفتخر بنفسه فى العبارات المنقوشة على جدران مقبرته ، بانه « لم تقص ابنة أى مواطن من الطبقة الوسطى ، ولم يقهر أية أرملة » .. « وعندما جاءت سنوات القحط والمجاعة ، كان يعطى للأرملة مثلما كان يعطيه للمرأة المتزوجة !! » .

وفى الواقع ، انه اذا كان المتوفى يندمج بأوزير ، فان ارملته تصبح بمثابة ايزيس فوق الأرض ، وتستحق مساعدة ومساندة الجميع .

وكذلك فان حورس الطفل كان يسمى « بابن الأرملة » . ولذا فان الطبيب قبل ان يغادر طيبة ، قد جعل من واجبه أن يفحص عن طيب خاطر ، أكثر الأرامل املاقا وفقرا من اللاتى فقدن رب عائلتهن ويتألمن من بعض المتاعب الجسدية . ومن أجل الاستشارات الطبية ، وضعت ربة البيت ، تحت تصرفه الأماكن الخاصة والمسماة « خرريت Khéréryt » حيث كانت نساء الأسرة يعتزلن ، خلال فترة دورتهن الشهرية . ولقد تبين بالفعل ، وكما لاحظ الطبيب أن أغلب المتاعب التى كانت المريضات تعانين منها ترجع الى تعدد مرات حملهن ، والى عدم وجود العناية الواجبة بعد الوضع فى الأوساط الريفية . وبذا ، فقد وصف فى كل مرة العلاج المناسب للفلاحات اللاتى كن يشكون من الآلام ، التى يحددن موضعها ، وفقا لطلبه : « تعليمات تتبع ، عندما تشكو المرأة من أوجاع فى الشرج ، وفى أسفل البطن ، وفى أعلى الفخذين » .

فى هذه الحال عليك أن تقول : « هذه هى افرازات الرحم » . وهذا هو ما ستفعله فى هذه الحال : مقدار من الخروب الجاف ١/٦٤ ، ومقدار من ثمار « شاشا shasha » ١/٦٤ ، ومقدار من لبن البقر « حنو henou » واحد (نصف لتر) ، يغلى هذا الخليط حتى يركز ويختلط ببعضه تماما ، ويشرب منه كل صباح طوال أربعة أيام متتالية (٣) » .

وقد اشتكت كذلك غيرهن من التعب الذى يشعرن به فى سيقانهن عند التحرك ـ حين يدسن على الأرض ـ فى حين أنهن فى الماضى لم يكن هناك ما يعوقهن للتوجه الى السوق ، حيث كان من الممكن المقايضة والمبادلة بالعديد من المنتجات فى مقابل الخبز والجعة التى كن يقمن بصناعتها ، أو الأوانى والأدوات التى كان أبناؤهن يصنعونها ، والذين كانوا يعملون فى صناعة الخزف أو النجارة . وكان من السهل تحديد العلاج : « تعليمات يجب اتباعها عندما تشعر المرأة بآلام فى قدميها وساقيها بعد السير » .

« انها افرازات الرحم . وهذا هو ما ستفعله لذلك : تدهن قدميها وساقيها بالطين ، حتى يتم شفاؤها » (٤) .

حقوق الأرملة :

طبيعى جدا الا تكون جميع هؤلاء الأرامل معدمات فقيرات ، بل ان الكثيرات منهن كن يملكن الوسائل التى تسمح لهن بمجابهة متطلباتهن . وكانت صغيرات السن منهن ، يأملن فى الزواج مرة أخرى بفضل مساعدة وعون الالهة الرحيمة « حتحور » التى كانت تستطيع « أن تعطى للعذراء أسرة ، وتعطى ايضا للأرملة زوجا جديدا » .

وكربات بيت ، كن يعرفن فى أغلب الأحيان ، كيف يوفرن بانفسهن الاحترام الواجب لحقوقهن فى الميراث المباشر المقتطع من ممتلكات ازواجهن ، بل ويطلبن للحضور أمام محكمة القضاء العليا ، أى من اعضاء عائلاتهن البعيدين ، للمعارضة فى شرعية وراثة تتضمن اية ملكية ريفية ٠٠٠٠ منحها احد الأسلاف (كمثل قضية « مس Més » الشهيرة ، التى استمرت من نزاع الى نزاع طوال ما يزيد عن مائتى عام !) .

تبنى الورثــــة :

فى بعض الأحيان ، كانت بعض الأرامل الرفيعات الشأن ، المتقدمات فى السن يصبحن بدون ورثة مباشرين . عندئذ ، لم يكن هناك ما يمنعهن أبدا من تبنى بعض الأبناء ، فهناك مثلا ، قصة احدى السيدات، التى قامت خلال شيخوختها باعتاق ثلاثة من خدمها وتبنتهم ، ووهبتم جزءا مهما من ممتلكاتها . وفى الواقع انها كانت عند وفاة زوجها تتمتع بشخصية قانونية ولا تخضع لأية وصاية . وبذا ، فان تلك المرأة المصرية المشار اليها ، قد قامت بتلك الخطوات الثلاث : الاعتاق ، والتبنى ، واعلان الوراثة بدون اللجوء لأى اجراء قانونى ، ولكن بمجرد شهودها فقط (ومثل هذه الأهلية ، لم تكن تتمتع بها النساء فى مجتمعات العراق القديم ، أو الاغريق ، او روما) .

ولقد أشرنا قبل ذلك الى تمتع الأرملة بالأهلية لكى تورث من تريد . حتى وهى فى نفس قريتها ، « وبواسطة قرار عام » (٥) كانت المرأة تستطيع أن تمثل أمام المحكمة وتعبر « شفاهة » عن آخر امنياتها . وكانت تستطيع أن تضمن وصيتها حقوق بعض الأبناء ، وتلغى منها البعض الآخر : « وهنانلاحظ ارادتها الشخصية فى أن تضع بنفسها كيفية ونمط الوراثة ، كما أن أهليتها كان معترفا بها اعترافا كاملا » ، وهذا يعتبر بمثابة دليل جديد على الفردية الفائقة الوضوح .

نداء الى الزوج المتوفى :

فى بعض الأحيان ، وأمام بعض المشاكل العائلية ، لم يكن أمام الأرملة حل أفضل وأمثل ، مع الدعوى التى كان يمكنها أن تقيمها لتحمى حقوق ورثتها ، سوى أن ترجع الى زوجها المتوفى ، بواسطة التماس موجه اليه كتابة ، على مقطع من الطين النضج متضمنا قربانا ويوضع بجوار مقصورته الجنائزية . ومثل هذه الوثائق التى تعتبر على

درجة قصوى من الأهمية من أجل دراسة العادات والتقاليد بمصر القديمة (٦) ، اطلق عليها اسم « خطابات الى الموتى » ، (وأوائل هذه الخطابات يرجع الى الدولة القديمة) . وهناك رسالة متضمنة بمجموعة ما نشر من تلك الخطابات ، تتعلق ببعض المشاكل التى واجهتها أرملة من الأوساط الثرية ، تتوجه فيها نحو زوجها المتوفى لتطلب منه أن يحمى ابنه الذى يطمع فيه بعض أقاربه ، المفتقرون لأى ضمير أو ذمة . كتبت له قائلة : « هل تنظر الى ذلك بكل برود (وهو يحدث) ؟ » ، وقد بينت انها فى هذه الحالة تفضل أن ترى ابنها ميتا . ومع ذلك ، وبما ان قرار المحكمة النهائى ، لم يكن قد صدر بعد ، فان المرأة صممت على الكفاح حتى النهاية ، وتتضرع الى زوجها ، الذى انتقل الى عالم أوزير بان يجهز على خصومها :

« ثر عليهم ومعك آباؤك ، واخوتك ، واصدقاؤك الموتى (٠٠٠٠٠)

وتذكر انك تطالب ابنك بأن يحافظ على بيت أبيه قائلا :

« ان بيت الابن (هو) بيت الأب ٠٠٠٠ » .

(فليتمكن) ابنك من الاحتفاظ ببيتك (أو ادامته) ، كما حافظت

و (أدمت) منزل أبيك » .

ولا شك أن هذه الأرملة كانت تعنى بذلك أن الضرورة تستلزم أن يؤمن لابنها ميراثه ، بحيث يستطيع أن ينتفع بالوسائل التى تتيح له التمتع بممتلكات أبيه ، وأن تتم المحافظة على توارث الأملاك العائلية (يبدو أن الابن كان من أفراد الطبقة البرجوازية العليا) .

الأرمــــــل

وخلاف ذلك ، يبدو أن الأرمل كان يتمتع بقدر أقل بكثير من الرعاية وحسن الالتفات ، ٠٠٠٠ وانه بدون مساعدة المجتمع له ، كان عليه أن يكافح منفردا فى مجال ما يتعلق بالأحوال الناجمة من وضعه كأرمل. ولن نتحدث هنا عن الأرمل الذى يتزوج مرة اخرى ، فسوف نتناوله بالذكر عندما يتزوج ثانيا بامرأة تصبح « زوجة أب » للأبناء الذين أنجبهم من زواجه الأول . ولنكتف فقط أن نعتبر أن الرجل المصرى كان فى أغلب الأحيان رجلا طيبا ، صالحا ، سليما ، وفيا لذكرى زوجته ، التى لم تكن بدون شك مفتقرة الى الجمال والفتنة الجسدية ، ولكنها عرفت ، كما هو واضح ، كيف تتمتع بحقوقها وتستغلها ، بل وتتجاوز الحد فى ذلك . ومن اللازم أيضا ، أن نعكف على تلك الخطابات الشهيرة النادرة جدا المعروفة باسم « خطابات الى الموتى » ، التى يجد المرء

نفسه بفضلها قد انتقل أمام مشكلة انسانية ابوية ، مثارة بشكل معاصر تبين الى اى مدى تبـدو الطبيعة ثابتـة ، مهمـا اختلفت الحقب او القارات .

اضطهـاد الأرمـل :

انها قصة احد كبار الضباط ، ترمل منذ سنوات ، ويبدو تماما ان روح زوجته المتوفاة كانت تتعقبه وتطارده ، وينتابه الهم والغم ، وشعر بتعذيب وازعاج بسبب روح زوجته المتوفاة النهمـة الشرهة . وبـذا ، عمل أن يوجه اليها قرار اتهام مطولا فى هيئة خطاب Post mortem . (٧) :

« الى الروح السعيدة « عنخى رع » : ما هو الضرر الذى فعلته لكى أصبح فى هذه الحالة البائسة التى أعيشها ؟ ما الذى اقترفته ضدك ؟ ان يدك لثقيلة الوطأ على ، فى حين أننى لم ألحق بك أى أذى منذ أن أصبحت زوجك ، وحتى هذا اليوم ! ما الذى فعلته ضدك يحتم على أن اتوارى واختبىء ؟ ماذا فعلت لك ؟ سوف أجهر بالشكوى ! ما الذى اقترفته (ضدك) ؟ سوف أرفع شكواى شفاهة من فمى أمام « تاسوع الغرب » وسوف نحاكم أنت وأنا على أساس ما جاء بهذا المكتوب .

« ما الذى اقترفته فى حقك ؟ لقد اتخذتك زوجة لى عندما كنت شابا يافعا (فى سن التجنيد العسكرى) . وكنت معى عندما قمت بكل وظائفى . لقد مكثت معى ولم انبذك ولم أقترف (مطلقا) ما قد يحزن قلبك . هذا هو ما فعلته حينما كنت زوجا شابا . وعندما شغلت كافة انواع المناصـب العليـا بجـوار الفرعون (فليحى ، وليوفق ، ويمتع بالصحة) ، ولم اهملك (أبدا) او أتركك ، وكنت أقـول لنفسى : «يجب ان تكونى دائما بجوارى » .

« ان جميع من كانوا يحضرون الى ، أمامك ، لم أكن أستقبلهم أبدا ، لو عارضت أنت فى ذلك ، قائلا : « ليتم الأمر وفقا لرغبتك » !

« والآن ، انظرى ، انك لا تتركين قلبى فى سـلام ـ (لذا) سوف أرفع عليك دعوى ، حتى يميز الطيب من السى .

« لاحظى ، عندما كنت أشغل وظيفة مدرس ضباط صف بفرقـة المشاة بجيش الفرعون (فليحى ، ويوفق ، ويمتع بالقـوة !) وبفـرقة مركباته ، كنت أستدعيهم وأجعلهم يرتمون على الأرض امامك ، وكانوا يحضرون اليك كافة انواع الأشياء الطيبة .

« لم أخف عنك شيئا مطلقا خلال فترة حياتك ، ولم اتركك أبدا كما يفعل أى سيد، تفتقرين الى اى شىء ، او تقـاسين باى شـكل من

الاشكال ولم تجدى أبدا اننى أغظتك كما يفعل أى فـلاح بدخولى بيت آخـر (لكى أخـونك) .

« ولم أعرض نفسى أبدا للوم بحرمانك مما يجب على نحوك ... وعندما الحقت بالوظيفة التى أشغلها حاليا ، لم اكن أستطيع الابتعاد وفقا لما تعودته هنا تصرفت كما يتصرف أى رجل فى حالتى عندمـا يحتجز فى مكان وظيفته : ان عطرى وزيتى وحاجياتى وأقمشتى جميعها قد أحضرت اليـك . ولم آمر بارسالها الى مكان آخر حيث كانت توجـد امرأة أخرى . فاننى لم أخنك أبدا !

« ولكنك لا تعترفين بالخير الذى فعلته لك . ولذا ، فاننى أوجه اليك هذا المكتوب ، لكى تعرفى كيف تتصرفين . ومع ذلك ، فعندمـا مرضت بهذا المرض الذى تعانين منه (بعثت اليك) بأحد كبار الأطباء . فقام بمعالجتك ، وفعل كل ما طالبتيه بأن يفعله .

« وبعد ذلك ، عندما سافرت فى اثر الفرعون (فليحى ، ويوفق ، ويمتع بالقوة !) نحو الجنوب ، وكنت أنت فى نفس حالتك حاليا (أى كانت قد توفيت) ، مكثت ثمانية أشهر ويوما واحدا بدون أن أشرب أو آكل (أى صائم) ، كما (يفعل) الجميع . وعندما رجعت الى منف ، التمست اذنا من الفرعون (فليتمتع بالحياة ، وبالصحة ! والعافية !) ، لكى يسمح لى بأن أذهب الى جوارك . وبكيت طويلا مع أفراد الحى الذى أعيش فيه .

« ولقد قدمت قماشا من الكتـان من مصر العليا ، من أجل أربطتك (للتحنيط) ، وأمرت بنسج مقدار كبير من القماش ، فلم أكن لأهمل أى شىء طيب من أجلك .

«والآن ، ومنذ ثلاث سنوات ، أعيش وحيدا ، ولم أدخل أى بيت (بقيت على وفائى لك) بالرغم من أن التصرف بهذه الكيفية لا يسعد أى رجل فى مثل حالتى .

« ومع ذلك ، فقد كنت أفعل ذلك لحبى لك ، ولكنك عاجزة عـن التمييز بين الطيب والردىء ! » .

« اذن ، لتتم محاكمة بينك وبينى . ومع ذلك فاننى لم أتزوج بأية امرأة من البيت ! » .

ونحن نرى ، انه فى نطاق هذا النظام المتحرر الذى يكون المجتمع المصرى ، فان الترقى الاجتماعى كان فى متناول كل من يستحقونه ، بفضل مزاياهم وخصالهم . وهكذا كان حال هذا الرجل العسكرى ،

الأرمل الحزين الذى بين ـ والحالة هكذا طوال حياة زوجته وحتى بعد مماتها ـ عن اغضاء وتسامح وصبر نحو امرأة جاءت من وسط متواضع ، وعجزت عن توفيق تصرفها مع مستوى ترقيات زوجها . وكانسانة وصولية استغلت الاعتبارات التى كانت تتمتع بها بفضل مركز زوجها بل وتمادت فى ذلك ، فى أغلب الأحيان الى درجة وضعه فى مواقف حرجة ، ويبدو أن الأرمل البائس قد تكيف لدرجة أنه لم يجرؤ حتى على الزواج مرة أخرى ، وعزا الى التأثير الشؤم الذى كانت تمارسه عليه زوجته « عنخى رع » طوال حياتها كل الألم والقلق والهم والغم والمضايقات ، التى هاجمته فوق الأرض خلال السنوات الثلاث الأخيرة .

الزوجـــة المستقلة :

من المحتمل جدا أن الحكيم « بتاح حتب » قد كتب هذه الحكمة اشارة الى مثل هذا النوع من النساء ، الذى كان يجب معاملته بحزم ، حتى لا يقابل المرء نفس الأحداث المزعجة التى قابلها أرملنا المذكور .

وهذه الحكمة التى تحمل رقم (٢١) ـ هى الوحيدة التى تعتبر بمثابة النغمة النشاز فى مجموعة المزايا والصفات الطيبة التى اقر بها للمرأة المصرية والتى تتحدث عن المرأة باقتدار واحترام . ولقد أوضح الكاتب هنا بعض الانتقادات الخطيرة بخصوص هـؤلاء الزوجـات المسيطرات :

« اذا كنت رجلا صالحا يريد الحفاظ على أسرته ، أحبب زوجتك فى بيتك ، كما يجب » .

« واملأ بطنها ، واكس ظهرها ، فالزيوت (العطـرية) تعتبر أيضا ترياقا لجسـدها . واجعلها سعيدة ، مادمت حيا » .

« انها حقل خصب بالنسبة لصاحبه ، ولا تحاكمها ولكن لا ترفعها أبدا الى مرتبة الرئاسة والقيادة ... فان عينها هى رياح عاصفـة عندما تنظر ... » .

« واجعل قلبها يلين بما جرى لك من (أمور سعيدة) . وبذا ، ستستطيعان أن تكملا حياتكما معا . ولو أنت نبذتها فلن يكون هناك سوى الدموع » .

لقد كانت « عنخى رع » فعلا هذا النمط من النساء الذى يستحق مثل هذه المعاملة . ولنتخذهـا كاستثناء يعمـل على تأكيد وتثبيت القاعدة » !

ومع ذلك ، كان الكثير من المصريين ، عند وفاة زوجاتهم قبل الأوان ، يتخذ زوجة ثانية . ولذا ، فهذا هو السبب فى أن اللوحات الجنائزية قد كرست بواسطة الرجل للزوجات اللاتى عاش معهن على التوالى . وعلى ما يبدو ، ففى أغلب الأحيان كان السلام يسود البيت الذى وجد ثانيا بعد الوفاة ، ربة للبيت . وفى أغلب الأحيان كان رب البيت يتزوج بامرأة كانت تعمل بالمنزل (وكمثال على ذلك) السيدة « تشات » الزوجة الثانية لأحد حكام « بنى حسن » . والأطفال الذين ينجبون من مثل هذه العلاقة كانوا يصبحون أبنـاء شرعيين لـه ، ويستطيعون فى النهاية أن يطالبوا بحمل اسم أبيهم بصفة رسمية .

زوجـة الأب والخـــلافات :

ومع ذلك فقد كان يحدث الا يرحب أبنـاء الزوجة الأولى بزوجة الأب ترحيبا طيبا . والقصص الشعبية التى تعكس عامة روح المجتمع ، تضع على لسان « الأمير المدعو منذ الأزل » عبارات تشير الى هذا الخلاف : « اننى ابن أحد ضباط جيش مصر . ولقد توفيت والدتى واتخذ أبى زوجة أخرى أخذت تضمر لى الكراهية ، وذهبت هاربا منها » .

والحقيقة ان ذلك كان مجرد مبرر مختلق ومصطنع لتبرير ابتعاد الأمير ، هاربا من « قدره » ، ولكنـه كان قد اختار بدون شك موضوعا معروفا تماما يسـهل تصديقه .

ولا ريب أن النزاعات والخلافات ، كانت فى معظم الأحيان تظهر فجاة عند تداخل المصالح : وبذا ، كان من الممكن أن يحتج الأبناء على بعض التعهدات التى اتخذها أبوهم لصالح زوجته الثـانية . ولقد رأينا أنه فى خلال حكم الملك « سبك حتب الثـالث » بالأسرة الثـالثة عشرة ، أن أحد الرجال الذى كان قد تزوج للمرة الثانية قد ورث بوصية زوجته الثانية « سنب تيس » وأولاده ، أراضيه وخدمه وحاشيته . ولقـد احتجت على ذلك «تحنـوت» ابنته من زواجه الأول ، خاصة أن أباها قد تمادى لدرجة منح زوجته الثانية بعض الأملاك التى كانت ملكـا لصهره ، من الزواج الأول ، ومن المحتمل جدا ان الأمر لابد كان يتعلق بصداق الابنة عند زواجها .

ولدينا حاليا خطابان بعث بهما شخص يدعى « حقا نخت » وهو كاهن جنائزى تابع للوزير « ايبى » ، يعبران أبلغ تعبير عن هذا الموضوع

ويرجعان الى حقبة تبعد قليلا عن تلك الفترة ، أى فى فترة حكم الملك « منتوحتب » العظيم (أوئل حكم الأسرة الحادية عشرة) .

زوجـة الأب غير المرحب بهـا :

يبدو ان هذا الرجل الموسر ، قد اضطر خلال احدى الحقب التى مرت مصر خلالها ، بأحوال سيئة لنهر النيل ، وبالتالى قلت المحاصيل واضطر أن يقيم فى بعض الضياع بجنوب طيبة طوال ما يقرب من عام ، وبالتحديد فيما بين أواخر مايو ٢٠٠٢ قبل الميلاد ـ وهو وقت الحصاد ـ وبين موعد اقتراب الفيضان من العام التالى (أى فيما بين شهرى أبريل ويوليه من عام ٢٠٠١ قبل الميلاد) . وخلال هذه الفترة يبدو أنه كان قد أسند الى « مرى سو » ابنه ، مهمة ادارة املاكه بطيبـة والبيت العائلى . ولم تكن الأخبار التى تصل اليه من بيته مرضية بالمرة : وبذا ، فقد أرسل العديد من الخطابات لكي يصدر تعليمات صارمة ، والرسالتان الأكثر أهمية فيما يختص بموضوعنا هذا ، هما : أولا ، الرسالة التى بعث بها الى اكبر أبنائه « مرى سو » . ثم الرسالة الثانية الموجهة الى أمه « ايى » . وهنا يتبين أن قلق وضيق « حقا نخت » لم يكن يتعلق فقط بالطريقة السيئة التى تلاحظ وتراقب بها المحـاصيل أو حصد الحبوب ، والاهمال فى ادارتها ، ولكن تتعلق بالانسجام والتوافق الذى كان يجب أن يسود نطاق العائلة .

وكان الأبناء الخمسة « مرى سو » و « ساحتحور » و « سانب نوت » ، وأنوب ، وسنفرو ، والبنات الثـلاث « سا انوت » (؟) ، نفرت، وساتريت ، الذين على ما يبدو ، كانوا قد أنجبـوا من زواجه الأول يمارسون سلطة قاسية على زوجته « حقا نخت » الثانية ، « حبسوت ايوت ام حب » التى تزوجها بعد ترمله . وعبارة « حبسوت » التى كانت تفهم أحيانا بمعنى « رفيقة » ، لأن معناها هو : « المرتديـة ملابسها » ، يبدو أنه من الأوفق ترجمتها الى عبارة « زوجة الأب » التى يتزوجها الرجل بعد ترمله (٨) . والأسوأ من ذلك : أن خادمة « ايوت أم حب » المدعوة « سـمن Semen » قد انحازت الى جانب الأبناء والبنات ، وتصرفت بطريقة غير طيبة بالمرة مع سيدتها الجديدة. وعلى الأرجح ، كانت قد أعلمت « حقا نخت » بذلك . ولذا ، وجـه تهديده ووعيده الى كل أقربائه . أن الـ « حبسوت » التى كانت تستحق أن تعامل بصفتها زوجته (حمت) ، ويحق لها كل التقدير والاحترام ، فى حين أن أفراد العائلة ، كانوا على ما يبدو يعاملونهـا وكأنها مغتصبة . وكان من حقها أن تعامل ، بما يجب أن تعامل به حبسوت

اى رجل ، على حد ما كتبه فى رسالته (٩) . وبعد أن وجه اللوم الى ابنه الاكبر ، أعلنه قائلا : « أنت الذى تركت (الخـادمة سـمن) تسيء الى « حبسوت » . اذن ، انتبه الى العقاب القاسى الذى سأوقعه بك ، ما الذى اقترفته هى فى حقكم أنتم الأبناء الخمسة ؟ » (١٠) وأصدر اوامره قائلا : « الآن أطرد الخادمة سمن من بيتى ، وانتبـه جيدا لذلك حالما يصل اليك ساحتحور (حامل الرسالة) ! ولاحظ اذا أمضت (بعد ذلك) يوما واحد فى بيتى ... فانت الذى تركها تسيء الى الـ « حبسوت » .

ترى ، ماذا عساها كانت فاعلة « ايوت ام حب » هذه الشابة اليائسة أمام كل هذه العائلة المتعددة الأطراف ، التى انضمت اليهـا ايضا العمة « حتبت » التى كانت هى الأخرى فى نزاع مع اثنتين من « تابعاتها » الأولى خادمة والثانية مصففة الشعر ! ومن المحتمل جدا أن الخادمة سمن ، كانت محل ثقة ربة البيت السـابقة ، وأن مشـاعر الغيرة قد تضمنت ، بلا شك فى نطاق كل هذا النزاع .

وغدا « حقا نخت » أكثر حزما وشدة من ذى قبل : « ان من يقترف أمرا ، مهما كان فى حق حبسوت ، سأناصبه العداء ، وسأقف ضده . انتبه ! انها الـ « حبسوت » . ومن المعروف تماما ، ما يجب أن يؤدى لـ « حبسوت » أى رجل ! .... وحقيقة ، أن أحدا منكم لا يقبل ابدا أن تسب زوجته أمامه ، هل أستطيع أن أتذرع بالصبر أكثر من ذلك ؟ كيف عساى أستطيع أن أعيش معكم بعد ذلك بنفس البيت ، اذا كنتم لا تولون الاحترام الواجب لـ « حبسوت » اعتبارا وتقديرا لى ؟ » .

وأخيرا كتب « حقا نخت » خطابه الثانى الى أمه « ابى » ، لاجئا بذلك الى « السلطة العليا » فى محيط الأسرة ، بما أن خطابه الأول ، الذى أرسله مباشرة الى ابنه الأكبر لم يكن له ، على ما يبدو ، أية نتيجة . وكان الحل المتوقع الذى اقترحه فى خطابه هذا هو أكثر الحلول بساطة ، اذ كتب الى أمه قائلا : « اذا لم تكونى راغبة فى وجودهـا فابعثى الى ايوت ام حب هنا » .

اذن ، فهذا هو ما كان يمكن أن يحدث فى أجواء احدى الضياع بطيبة ، فى أوائل الدولة الوسطى ، فى منطقة « بنست » ، خلال فترة أدت المجاعة والقحط فيها الى حدوث الدمار والخراب . ولا شك أن الفترة المذكورة كانت لا تقارن فى شدة قسوتها عما كانت عليه الحقبة الذهبية خلال الدولة الحـديثة . كمـا أن ادخـال زوجـة أب فى محيط عائلة ما ـ خاصة اذا كان الأبناء والبنات قد وصلوا الى سن البلوغ ـ لم يكن دائما من عوامل السلام والوئام فى أجوائها .

وخـلاف ذلك فان الأم كانت دائمـا ذات آذان صاغية تستطيع ان تساعد على تهدئة حدة المعارضات والتمردات ، والبعد بالمواقف عن اية « ماساوية او خطـورة » ·

تعليم الابـــن وبنـــات الهوى :

لقد بلغ الأولاد أشدهم فى منزل سيدتنا النبيلة ، كما أن الملاحظة والمراقبة قد تراخت خلال فترة الحداد الذى حدث فجاة ، ثم خلال مرض الأرملة المسنة الوقورة · وجاء اليوم الذى تنبه فيه الوالدان أن الابن الأكبر قد تمادى فى تحرره فى مجال دراساته ، وكان يتردد على بعض الشوارع « الساخنة » بالعـاصمة ، وايضا على الحـانات بالضفـة اليسرى ، حيث تحتسى الخمر والجعة ، وحيث كان التجـار السوريون يعرفون كيف يجدون عملاء متاهبين ومستعدين تماما للحصول عـلى جواريهم الجميلات الآتيات من بلاد « أمورو » ·

ولذا لجات الأم الى المعلم ـ الكاتب لكى يوجه النصائح الأدبية لابنها نحو المواضيع الأكثر ردعا :

« لقد قيل لى انك أهملت المران على الكتابة ،
وانك تعكف على الملذات والمتع ·
وانك تتسكع من حانة الى اخرى ،
وأن الجعة تفقدك كل احترام ادبى ،
وهى تطيح بصوابك ·
انك أشبه بدفة المركب المحطمة ،
التى لا نفع لها ·
انك أشبه بمحراب يفتقر الى اله ،
وبيت بدون خبز ·
لقد قابلك البعض وانت تقفز من فوق احد الجدران ·
وكان الناس يهربون من ضرباتك الخطيرة ·
آه ! لو انك أردت أن تفهم
أن الخمر ما هى سوى شىء مقيت ودنس ·

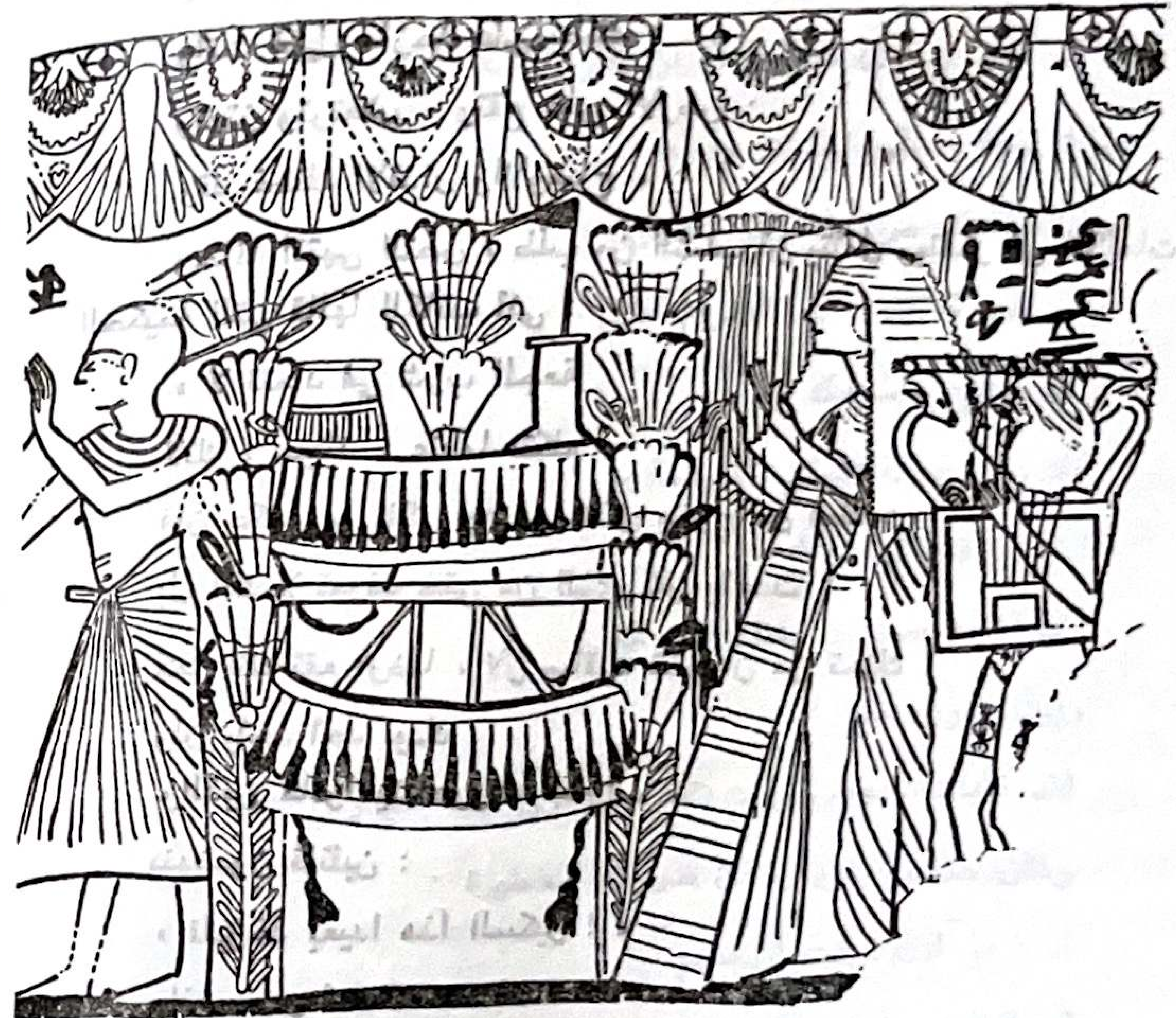
سوف تلعن الخمر العذبة ،
ولن تفكر ابدا فى الجعة
وستنسى تماما الخمور الواردة من الخارج ·
انهم يعلمونك الغناء على أنغام الناى
وانشاد القصائد على صوت المزمار المزدوج ،
والغناء بصوت « ثاقب » على انغام الجنك ،
والالقاء الملحن على انغام القيثارة !
وهانت جالسا فى الحـانة
تحيط بك بنات الهوى
وهانت ترغب فى الافصاح بما تريد
وتستجيب لمتعتك ···
وهانت امام احدى الفتيات ،
وقد ضمخت بالعطور ،
وقد أحاط عنقك أكليل من الورود
وانت تطيل مازحا على بطنك ·
وتهتز وترتعش ، وتقع على الأرض ·
وقد غطتك الأقذار والأوساخ » ·

وحالما انتهى النص ، طلب من الشاب أن يتأمل ويتفكر فى الكلمات الحكيمة التى قالها الكاتب آنى :

« لا تتماد فى شرب الجعة
لانك ، حينئذ ، عندما تتكلم
فان عكس ما تفكر فيه هو الذى يخرج من فمك ·
بل انك لا تعرف حتى من الذى كان يتحدث ·
كما انك تقع أرضا ، لأن ساقيك تخوران من تحتك !
ولن يأخذ أحد بيدك
والذين كانوا يشاطرونك الشراب
ينهضون قائلين :
« فليؤخذ بعيدا هذا السكير ! »
واذا حضر احد لاستدعائك ،
لطلب المشـــورة ،

ووجدك وانت ممد فوق الأرض
فانك تبدو كطفل بائس (١١) ·

ولا شك أن مثل هذه اللوحة ، كان لها عند الاقتضاء ، بعض الأثر على الطلبة الشباب الذين كانوا قد « بدءوا مرحلة شبابهم بالطيش » · وعلى العكس ، فان مثل هـذا الوصف ، وكذلك غيره من النصوص ، التى على غراره ، تدعو الى الروح لم تكن لتساعد بأى شكل من الأشكال ، على اغلاق « بيوت احتساء الجعة » التى كانت تعج بالفتيات الجميلات غير المتحفظات ، ولقد بينت لنا احدى البرديات (١٢) أن هذه البيوت كانت غالبا تعج « ببنات بابل » · عموما كانت الدعارة قائمة فى الدولة الحديثة ، فعبارة « خنمت » تستعمل للاشارة الى فتاة الهوى ، التى كانت تعمل غالبا كمغنية وراقصة ، والتى كانت أحيانا توشم فوق منطقة الحوض وعلى الفخذين · كما أن البرديات التى تعالج فيها مواضيع الغزل العشقى الماجن ، الموجودة بمتحف تورين قد تبين بفظاظة مراعاة أو مداراة أوجه النشاط التى كانت يمكن أن تتم فى بعض بيوت الدعارة ، التى جاء ذكرها فى بعض الأحيان بالنصوص والكتابات ·



شكل (٤٢) حفل موسيقى

ففى قصة « خع ام واس » التى ترجع الى العصر المتأخر ، اشارة الى « فتاة الطريق » (أى انسانة فاسدة دنيئة !) :

« اذا كنت ترغب فى الحصول على متعتك منى (كما تقول ابنة كاهن باستت الى خع ام واس) فعليك أن تحضر الى بوباستيس (تل بسطة) فى بيتى · وهناك ، سوف يكون كل شئ معدا ، وسوف تمارس متعتك معى ، دون أن يكشف ذلك أحد فى العالم كله ، ودون أن أسلك سلوك « فتاة الطريق » ·

وببيوت احتساء الجعة » هذه كانت منتشرة فى أنحاء منطقة الشرق الأدنى ، ففى قانون « حمورابى » (١٣) ذكر أن « دخول بيت من بيوت احتساء الجعة ينطوى على سلوك غير أخلاقى وخليع من جانب المرأة · ولا ندهش عندما نتبين من خلال قراءة قصة الأحداث العجيبة التى مر بها « ون آمون » ، والتى ترجع الى الأسرة الحادية والعشرين ، وجود مثل هذه المؤسسات فى جبيل · وعلى الأرجح ، أنها كانت امرأة من اللاتى ينتمين الى احدى هذه المؤسسات ، والتى عرضها أمير جبيل على « ون آمون » لكى يساعده على تمضية الوقت ، منتظرا لأن يتمكن بدون أية عقوبات من العودة ثانيا الى مصر · ومن الملاحظ ، انه كمثل ما كان يحدث بمصر ، كانت المرأة « السهلة المنال » فى جبيل يمكن أن تحضر من منطقة ضفاف النيل (١٤) ! « لقد بعث الى بسكرتيره الخاص ، الذى أحضر الى اناءين من الخمر وخروفا ، وأمر أيضا بأن تحضر الى « تنتماد » ، وهى مغنية مصرية ، كانت تعيش بجواره ، بهذه المهمة : « غنى من أجله ، وابعدى عنه الأفكار السوداء » · وأرسل الى بقوله : « كل ، واشرب ، وابعد الأفكار السوداء من مخيلتك » (١٥) ·

ولقد بلغ نشاط تلك « المواخير » اقصاه ، خلال حكم « رمسيس الثالث » ، ابان الأسرة العشرين · ومما يذكر ، أنه فى الوقت الذى أجرى فيه التحقيق مع مقترفى مؤامرة الحريم ، فقد اتهم أيضا اثنان من القضاة المكلفين بنظر القضية ، لأنهما كانا قد احتفلا احتفالا ماجنا صاخبا مع بعض النساء المتهمات ، « وبعض المجرمات الأخريات » فى بيت أحدهما ، الذى كان مرحبا للغاية كمثل احدى بيوت احتساء الجعة » ·

ولم يكن كافيا أن يحاول المعلم قيادة تلميذه بعيدا عن طريق الفسق والفجور ، بل كان الأمر يستلزم أيضا أن يوضع الشاب على طريق الفضيلة ويثبت عليه · ولذا ، كان الكاتب « آنى » يردد دائما (١٦) :

« خذ حذرك من المراة الأجنبية التى لا يعرفها احد فى المدينة ، لا تنظر وهى تسير خلف رفيقتها ، ولا ترتبط معهـا باية عـلاقة عشق أو شهوة : انها مياه عميقة الأغوار ، لا يسبر لها غور » . وقال ايضا : « وتقول لك المراة البعيدة عن زوجها : « اننى جميلة » عندما لا يكون هناك اية شهود ، انها تقف وترمى بشباكها . انها لجريمة تستحـق عليها الموت اذ لم تكن قد عرفت كيف تحتفظ بالسر » .

وحالما يصل الفتى الى بيته ، فسرعان ما كان أبوه يقوم كبديل للمعلم ، ويذكر التلميذ بالارشادات الشهيرة التى ذكرهـا الحـكيم « بتاح حتب » (١٧) :

« اذا رغبت فى الاحتفاظ بالصداقة
ببيت تتردد عليه ،
بصفتك سيدا مبجلا ، وأخا أو صديقا ،
بالمكان الذى تدخله ،
فاياك والاقتراب من النساء
فانه لن يحدث أى خير فى مكان يحدث فيه ذلك ،
فلا أحد ينتبه أبدا لذلك كما ينبغى
فهناك الآلاف من الرجال
قد ضلوا الطريق عما هو مفيد ونافع لهم ،
وتأخذكم نشوة الشهوة والغريزة ، التى تهلككم وتفنيكم ،
انها مجرد لحظة قصيرة ، وكأنها حلم ،
ومع ذلك ، يمكن ان يساق المرء الى الموت بسبب ذلك » .

خاتمـــة

ولا شك أن مثل هذه الارشادات والعظات ، ومثل هذه الأمثلة ، ومثل هذه النماذج المقنعة ، قد أدت فى نهاية الأمر الى دفع الابن البكر للأسرة لأن ينوى على الخاتمة الوحيدة الممكنة لمشكلته الشخصـية ، وأن يستمع الى الصوت الرنان فى قلب كل شاب مصرى ، ويقول له : « كزوج وأنت شاب ... » لماذا الانتظار ؟ ألم تلاحق أحلامه ابنة أكبر المعاونين قربا لأبيه ، منذ أن كانت تحضر وهى ما زالت طفلة ، للمشاركة فى ألعاب أخواته ؟ وفى اليوم الذى قدم فيه اليها ثمرة فاكهة ، فى نهاية وليمة عيد العام الجديد القريب ، فقد تقبلتها ككنز ثمين ، ومنذ هذه اللحظة كانت تشاهد غالبا وهى تحضر لتحية والدته . بل انها قد عرضت مساعدتها فى عملية قطف وجنى ثمار الجميز من الشجـرة الهرمة الواقعة فى أقصى الحديقة . ولقد ذهب صبينا هذا ، بموافقة أبويه، ليتحدث الى والد الفتـاة ، الموافقة مسبقا .

وعندئذ تكرر نفس ما كان قد حدث بالنسبة لخطوبة والديه ، وأقيم الاحتفال بالعرس من مظـاهر فرح وابتـهاج الجميع . أما ربـة البيت الجميلة ، التى بلغ تأثرها أشده بسبب زواج أول أبنائها ، فانها فى اليوم التالى لهذا اليوم المشهود ، كانت تستعيد فى مخيلتها كل اللحظات الماضية منذ ثمانية عشر عاما مضت بجوار زوجها ، الذى كان يظهـر لها ، فى كافة المناسبات الكثير من الحب . ولذا فقد توجه هما الاثنان لمقابلة مثال المعبد ليطلبا منه القيـام بنقش اللوحـة التى كانت السـيدة بنفسها قد كتبت نصها تعبيرا واقرارا عن المصير الحسـن الذى منحه لهما الاله ، والذى كانا يتمنيان دوامه ، ضمانا لحياة سعيدة ، يسودها التوافق والانسجام ، قبل أن يقتربا ،بعد فترة طويلة ، من « الضفـة الأخرى » :

« اننا نرغب فى الاستراحة معا ،
والاله لا يستطيع أن يفرقنا ·
وطوال حياتك ، لن أتخلى عنك أبدا
قبل أن تسامحنى ·
اننا لا نريد سوى أن نجلس كل يوم ، فى سلام
بدون أن يحدث أى سوء ·
سوف نذهب معا الى بلد الأبدية
لكى لا ينسى اسمانا ·
وكم ستكون جميلة اللحظة
التى سنشاهد فيها ضوء الشمس ،
الى الأبد ، كأرباب الجبانة ! » (١٨) ·

خلاصـــة

خلال تسلسل آلاف الأجيال من المصريين ، وفى كافة طبقـــات المجتمع ، نالت المرأة كما استطعنا أن نلاحظ ، امتيازات متساوية ، ان لم تكن متطابقة مع امتيازات الرجل ، شملت كل المجالات ·

ولم يكن الأمر يتعلق بحقوق بالمعنى القانونى البحت ، وان كان الأمر لا يبدو أنه قد ساد أو وجد مطلقا ، على ضفاف النيل ، أى تشريع قانونى فعلى أو شـــكلى · وفضلا عن ذلك ، هل كانت الضرورة تستدعى ذلـــك ؟

لو اننا تفحصنا مليا وجهة نظر المصريين ـ كان الأمر يكفى مجرد اتباع « طريق الاله » لكى يستحقوا التمتع بالأبدية ـ فاننا سنجد أن التذكير بالقانون الالهى ، كان بمثابة المرشد الأفضل للفوز بالنعيم · وكانت كتب الأخلاقيات أو الحكم تملى السلوك الذى يجب اتبـــاعه ، سواء فى نطاق الأسرة ، أو فى مجال أداء المرء لمهنته · أما القصص والحكايات الشعبية ـ المعظمة بكل ثان واسهاب للأعمال الخليقـــة بالثنـــاء المستحقة للمكافئة ، أو التهاون الجدير بالعقاب ـ فكانت غايتها تقـــوية الارادات الطيبة ، أو على العكس ردع من كـــان ، أو كانت تميـــل الى الزلل أو الاستسلام للغواية · وبالاضافة لذلك ، ومنذ الدولة الحـــديثة كانت « العقيدة السلبية » ، « بكتاب الموتى » تسرد قائمة مطولة ومثيرة للعجب من الخطايا التى لا يجب اقترافها ·

وفى الواقع ، أن كل شىء كان فى يد الاله ، الخـــالق الأســـمى ، فكيف اذن ، تنازعه مخلوقاته ؟ فالرجل والمرأة قد تمت صياغتهما وفقـــا لأمره ، بيد المثال الالهى نفسه ، وجنسهما ، قد ميز ايضا بينهما بواسطة قدرة الاله الأقوى ، مثلما أراد ان يفعل بالنسبة لأعضاء « المجتمع » الالهى · وكان على كل واحد ان يقبل مصيره وكان يرجع اليه تحسين مصيره · ولكن دون انتهاك مبادىء العدالة (الماعت) أى يحاول أن يعوق مجرى القوانين الكونى ، الذى ترمز اليه هذه الابنة العزيزة للاله « رع » ·

ورغم هذه المساواة الكاملة ، فنهاك احترام ملزم نحو التعـدد الذى حدث أثناء عملية الخلق · فلكل دوره ، ومكانه ، فى عدالة كاملة · وحقيقة أن مضمون هذا المجتمع يبدو على قدر من المثالية ، ولكنه مع ذلك ، لم ينتهك بالفعل طوال أكثر من ثلاثة آلاف عام ·

وبالرغم من أن فترات من الكوارث ، والغزوات ، والتعديـلات الصارمة العنيفة ، قد استطاعت أن تزعزع مؤقتا هـذه الحضـارة العـريقة ، ولكن ، حالما تحسنت الأيام نجد هـذه الحضـارة وفية ومخلصة للخط المرسوم · وفى الواقع ، انه قد تجلى تغير داخلـى عميق ، وفى خط متواز ، تدخلت بعض التأثيرات الأجنبية ، ولكن ظلت المبادىء الجوهرية على الدوام ·

ومن أكثر السمات المثيرة للدهشة خلال الدولة القديمة ــ والتى مازال يبهرنا تناسق أشكال ودقة نسب أهراماتهـا ــ تلك المكانة التى احتلتها المرأة ، منذ تلك الحقبة المتقدمة · واذا كانت لدينا معرفة بالسير الذاتية النسائية التى ترجع الى تلك الحقب ، فلا شـك أننـا سـنحيط بالعـديد من التفاصيل عن السـيدة « بسشت » أول امرأة طبيبة عرفتها الانسانية منذ الأسرة الرابعة ·

ولكن هل كان هناك نقص فى الامتيازات النسائية خلال الدولـة الوسطى كما اعتقد البعض أنهم تكشفوا ذلك ؟ وعموما ، فان مصادرنا ليست غزيرة أو متنوعة بما فيه الكفـاية لتأكيد ذلك · ولكن ، عند الاقتراب من الدولة الحديثة ، تساعدنا بعض المعلومات التى حفظت حفظا أفضل ، والأكثر غزارة ، على اكتشاف امرأة متمتعة بحركة متعمقة الجـذور ، ولا تعانى من الافتقار للعيش « حرة » ·

وعلينا ألا نـقع فى الخطأ ! فان المساواة التى لا نزاع فيهـا بين الجنسين بمصر ، لم تكن وليدة صراع خاضته ابنـة النيـل للحصـول على « ترقية ما » مشتهاة · لقد خلقها الاله امرأة ، ولم يكن الأمـر يتعلق بانكار هذه الحال أن تكون زوجة ، وأما ، وربة بيت بجوار كائن عزيز يعرف كيف يرد على المجهود المبذول ! هكذا كان المثل الأعلى · ولكن التثقيف والتعليم ، والتهذيب والتأديب بقيت من الأمور الأساسية بالنسبة لتكوين واعداد تلك التى ــ تبعا للقدر ــ كانت ستطالب بمجـابهة الكثير من المسئوليات · وعلى ما يبدو ، لم يكن يوجد فى الواقع ، أى حاجز أو عائق ، يعمل على مقاومة رفعتها فى كل طبقات المجتمع ·

ويمكننا أن نتوصل عن طريق تحليل معلوماتنا عن المرأة المصرية ، الى الاحاطة بشكل أكثر تحديدا وأكثر واقعية ، بعقلية وفن الحيـاة لدى سكان ضفاف النيل ·

ولم تكن مواجهة واجبات وأعباء ربة البيت بضمير وشـجاعة مجـرد حياة عاطلة ، كما أن مزاولة « مهنـة » عابدة الهيـة بجـوار كاهن طموح قوى من كهنة آمون ، لم تكن مجرد وظيفة عاطلة (براتب بلا عمل) · كما أن الزوجة الملكية المعظمة كانت تقلد بقدر من الالتزامات البلاطية والدينية ، بحيث لا يتبادر الى ذهنها البحث عن امتيازات أوسع مدى · كما أن أية ملكة أم تصبح وصية على العـرش فى وقت الأزمات ، وأية ملكة تتوج فرعونة ــ فى حالة افتقار العـرش الى سلطة الملك الذكر « البالغ » ــ وكلهن قد قمن بمهامهن بمقـدرة وفعـالية ، متساوية ، على الأقل مع الرجال ·

وخـلاف ذلك ، كان مسموحا للجـارية دائما بأن تبدى رأيها ، وفى أغلب الأحيان ، كان يسمح لها بتكوين أسرة مع أحد أقرباء ·· أسيادها السابقين !

وأخيرا ، ففى نطاق هذا المجتمع ، حيث الالتزام المعنوى يحـل محل القبول والرضى القانونى ، فان النظام الذى كان الزوجان يبرمان زواجهما بواسطته ، دون أن يعتقدا بأنهما ملزمان بالتماس تصديق أى قرار انسانى أو الهى ــ ادارى أو كهنوتى ــ يبين كل الوزن المعتـرف به للكلمة ، وللثقة الممنوحة لأفراد الجنسين ·

وتعتبر المكانة الخاصة بالمرأة ، فى نطاق المجتمع المصرى وقتئذ بمثابة أحد مظاهر هذه الحضارة التى عرفت كيف تجعل من الأم ومن الزوجة أو الابنة ، رمزا لأكمل مظاهر المساواة فى اطار أكثر الفروق منطقية واقناعا ، وهو حال كانت الأوربية فى أوائل القرن العشرين ــ من عدة نواح ــ بعيدة عنه كل البعد ·

جملة القول ، كانت المصرية فى عصر الفراعنة ، امرأة لها مكانتها · لم تكن نكرة أو مخلوقة مسترجلة ، ومن المؤكد أنها كانت سعيدة وراضية بتطابقها بهذا الموضوع ، محل الاعجـاب :

« فرحة القلب الكبرى »

« الفريدة ، المحبوبة ، التى لا نظير لها ،

اجمل جميلات العالم ،

انظر اليها ، كمثل النجمة المتالقة فى العام الجديد

على مشارف عام طيب ·

تلك التى تتالق ، والتى تبرق بشرتها بريقا رقيقا ·

ولها عينان ذواتا نظرة صافية

وشفتان ذواتا نطق رقيق ·

ولا تخرج من فمها أبدا أية كلمة تافهة ·

هى ، ذات العنق الطويل ، والصدر المتالق ،

شعرها لون اللازورد اللامع ·

ان ذراعيها تفوقان تالق الذهب ·

وأصابعها تشبهان كؤوس زهرة اللوتس

انها ذات خصر نحيل وردفين

وهى التى تشهد ساقاها بجمالها ،

ذات المشية المتسمة بالنبل

عندما تضع قدميها على الأرض ·

وبقبلتها تأخذ قلبى !

انها تعمل على أن تلتفت أعناق الرجال

وكل واحد (ممن) تحييهم يشعر بالسعادة ،

ويحس ، عندئذ ، أنه الأمل بين الشباب ·

وعندما تخرج من بيتها ،

يهيأ للناس ، عندئذ ، بأنهم يرون الفرية الفذة » ·



شكل (٤٤) شكل (٤٣)

هـــوامش

ــ ١ ــ

المرأة فى العالم الالهى

الالهة المرأة

(١) انظر نصوص الأهرامات فقرة ١٤٦٦ ب ·

(٢) انظر أسطورة « هلاك البشرية » ·

(٣) « الثامون » هو اجتماع ثمانية عناصر فى كيان واحد ·

(٤) هناك رواية مختلفة أحلت البيضة الكونية محل زهرة اللوتس ، فخرج منها « الناطق » الشمسى الكبير الذى أزال الصمت ·

(٥) بالرغم من اعتراض خالق العالم وبمساعدة « تحوت » ·

(٦) اننا نقترب هنا من موضوع يعد كاجابة على رأى ديودور الصقلى (١ ، ٢٧ ، ١ ، ٢) · ففى الواقع كان ديودور الصقلى يعتقد أنه تخليد لذكرى ايزيس ، التى قامت بنشاط حاسم بعد موت أوزيريس ، وقد عرفت المرأة المصرية الحرية التى تميزت بها · والأجدر بنا أن نصوب رأى تيودور ، الذى يتساءل ، عما اذا كان قد وجد ، فى واقع الأمر ، تاثيرا للنظم البشرية على عالم الارباب · وهو يشير ، هنا قبل كل شئ الى النظم الملكية · ولدينا الدليل على ذلك عندما نحاول التمعن فى وضع المرأة · وبالفعل ، اذا كانت المصرية ، فى كافة العصور قد منحت حقوقا قانونية متطابقة مع حقوق الرجال ــ التى يعبر عنها فى عالم الآلهة عن طريق اليسر الكامل الذى تتصرف به الربات فى كافة المناسبات ــ فان قانون زواج المحارم فيما بين الأخ والاخت ، أو بين الأب وبعض بناته ، الذى يتاكد كحقيقة أساسية فى عالم الارباب ، لا يقوم بدوره فوق الأرض ، الا فى نطاق الفراعنة · عموما ، كان ذلك بمثابة سابقة أعدت بذكاء تام . قام ملوك مصر باسناد تصرفهم عليها ، حتى يزيدوا من تأكيد انتساب العرش الى المجتمع الالهى ·

(٧) مقتطفات من النص الموجود بمقبرة الملك سيتى الأول ·

(٨) *Rè*، الشمس ، الصورة الظاهرة لأتوم ·

(٩) نصوص الأهرام ، تعويذة رقم ٧٨٥ ·

(١٠) وكذلك تحتل صورة الالهة « نوت » ربة السماء سقف المعابد فى العصور المتأخرة ، أو داخل بعض التوابيت الحجرية ، خاصة منذ بداية الدولة الحديثة ·

(١١) سوف نرجع الى تناول المظاهر المختلفة للالهة حتحور ، عندما نتناول موضوع المرأة المدنية ·

(١٢) باللغة المصرية : اين حرت In-Heret ·

(١٣) اعادة التشكيل هذه أصبحت ممكنة ، خاصة بفضل الايماءات التى اكتشفت باحدى البرديات الديموطيقية ، وبالنص الخاص بالمعابد البطلمية والرومانية بمصر ·

(١٤) يبين لنا معبد الدكة بالنوبة ، الالهة ممثلة فى هيئة لبؤة ــ أم ، وقد تدلت فروعها ·

(١٥) سوف نقدم حورس الشاب من خلال مفاخر ايزيس ، وهذه الولادة الجديدة كانت شبيهة ، بتأكيد ، بحكم الفرعون ، عند أول كل عام جديد ، فى ١٧ يوليـة من التقويم الجولياني .

(١٦) الصلاصل والمنات ، كانت أدوات رمزية سوف نتناول دورها الرئيسى وهى فى أيدى العازفات ، فى مجال لاحق ، فى تفصيل خاص بعمل المصرية فى نطاق الطقوس الجنازية .

(١٧) أراد البعض أن يفسروا خطأ البا « Ba » حسب المفهوم الغربى للروح .

(١٨) بدأت تظهر تيجان الأعمدة هذه فى نطاق الهندسة المعمارية منذ بداية الدولة الوسطى .

(١٩) من المؤكد منذ العصر الصاوى .

(٢٠) عند رجوعها ، أحضرت معها الاله الصغير المشوه Bes .

(٢١) وبذا ، فان حتحور ـ سخمت توحى بالموت ، الذى تتبعه فى الحياة الآخرة .

(٢٢) المقصورة الرئيسية للالهة باستيت تقع فى مصر الوسطى .

(٢٣) أدمجت واجيت بأم الاله الجديد فى الدلتا .

(٢٤) أحسن وأحدث ما نشر من هذه الاناشيد ما ترجمه عالم المصريات الفرنسى فرانسوا دوما .

(٢٥) انها التى أخذت من ممرات الأهرام ، والتى كانت قد ظهرت فقط منذ أواخر الأسرة الخامسة .

(٢٦) تتكون هذه الدلائل أساسا من تراتيل الدولة الوسطى والحديثة ، ومنها احدى البرديات المحفوظة فى برلين Berlin واسترشادا بكتابات هيرودوت ، وديودور ، وبلوتارخ بصفة خاصة .

(٢٧) وضحت احدى الموضوعات فى فيلة ما نراه فى أحد النقوش البارزة بمعبد سيتى الأول Sethi فى أبيدوس عن اجتماع جنائزى للاله مع أخته . وبفضل قصة شعبية ترجع الى عصر الرعامسة ، نجد أنفسنا فى اطار المجال الالهى لنعيش كافة العناصر المأخوذة من عالم البشر الناقص خلال الفترة التى كانت الالهـة ايزيس تكافح فيها من أجل انتقال ميراث زوجها المقتول الى أبيها ، وفى اطار المناظر ، نرى هذه الربة اما جالسة أحيانا بين الآلهة ، واما واقفة .

(٢٨) وجد هذا الوضع ، سواء فى النقوش البارزة ، أو فى هيئة تماثيل صـغيرة من البرونز . ولكن ، لاعادة تكوينها ، فنحن نجد لدينا العديد من الاشارات عنها فى نصوص الأهرام ، التى سوف نستعين بها كما سبق أن ذكرنا ، بمزجها مع بعض المصادر الأخرى ، التى يكملها ما قاله الكتاب الكلاسيكيون ، وبصفة خاصة بلوتارخ .

(٢٩) أخذت هذه العبارة من نصوص « التوابيت » المجلد الثانى ـ فقـرة ٩ .

(٣٠) هناك رواية أكثر قدما جعلت منه محاربا مقداما .

(٣١) انظر بلوتارخ ، فقرات ١٤ ، ٣٨ ، ٥٩ .

(٣٢) أخذ هذا النص من بردية برلين رقم ٣٠٠٨ .

(٣٣) ارجع الى الأثرى الألمانى شوت : برديات متحف المتروبوليتان بنيويورك .

(٣٤) أخذ هذا الاستشهاد من أسطورة « هلاك البشرية » .

(٣٥) لعلنا لا ننسى أن هذه الرواية ترجع الى عصر الرعامسة والخاصة بصراعات حورس وست .

(٣٦) أخذت هذه الفقـرات من الأنشـودة الكبرى لايزيس المكتوبة على برديات Oxyshinches ، رقم ١٣٨٠ ، ٢١٦ ـ ١٢١٤ ، من القرن الثانى قبل ميلاد المسيح .

ـ ٢ ـ

المرأة فى اطار الملكيـة

(١)

(١) جمعت هذه المقابر فى أبيدوس .

(٢) انها ، ضمن غيرها ، مقابر « منيت حتب ، ومريت نيت » .

(٣) ربما كانت زوجته ، أميرة من أقربائه البعيدات للأسرة الملكية وان كان ذلك غير مؤكد .

(٤) عثر على هذه الآثار الضئيلة بالخبيئة الملكية « بالدير البحرى » .

(٥) يمكن مقارنة « الجعارين التاريخية » بالميداليات التذكارية حاليا .

(٦) استطاع البعض أن يشيروا الى علاقات مماثلة نسبت الى الملك سنفرو .

(٧) عثر على مقبرتها بالفيوم عام ١٩٥٦ .

(٨) يتعلق الأمر بمريت آمون ـ الصغيرة ، والتى ربما تزوجت بعد ذلك من سمنخ كارع الأمير المعترض عليه .

(٩) عرفت باسم « عنخ اس ان باآتون » الصغيرة .

(١٠) اتخذت عند زواجها اسم « عنخ اس ان آمون » .

(١١) أنجبت هؤلاء الزوجات الملكات المعظمات على التوالى ، كل من الأميرة « بنت عنات » والأميرة « مريت آمون » .

(١٢) اعتبرت « حنوت مى رع » لفترة طويلة كأخت له .

(١٣) نقدم هنا الترجمة الممتازة للأثرى الفرنسى ليفير .

(١٤) سوف نعود الى هذا الموضوع ، عند دراسة أماكن الحريم .

(١٥) ميتانيا أو نهارينا .

(١٦) بالرغم من أن البعض اعتقدوا ذلك ، فليس هنـاك أى دليل يسمح لنـا بأن نستنبط بأن هذه الأميرة الميتانية قد أصبحت الملكة « موت ام ويا » ، امنحتب الثـالث .

(١٧) يعترض الكثير من الكتاب على ذلك الأمر ، الذى لا يمكننا التأكد منه بواسطة النصوص .

(١٨) ذكرت بعض الكتابات فى سيناء من العـام الرابع لحكم بيبى الأول ، اسـمه بجوار اسم أمه .

(١٩) هناك من يشك فى ذلك مثل كلود فاندرسلين أحد المتخصصين المعاصرين .

(٢٠) وفقـا لقول كلود فاندرسلين .

(٢١) لا يجب الخلط بين هذه الملكة الأم الباسلة اع حتب وبين ملكة أخرى تدعى الح حتب من المحتمل أنها كانت زوجة لكاموس ، والتى عثر ماريبت باشا على حليها

الجنائزية الغربية من نوعها ، مدفونة بجوار بعض آثار موميائها ، عند سفح هضبة طيبة : وكانت جميعها ذات نمط رجالى · ولقد عثر على تابوت أعح حتب العظيمة زوجة سقننرع الثانى بالخبيئة الملكية بالدير البحرى · ومع ذلك ، فربما انه قد تم فى لحظة اعادة دفن زوجة كاموس ، اضافة الجوهرات التى أمكن انقاذها من عمليات السلب والنهب فى « الأثاث الجنائزى » الخاص باعح حتب العظيمة ، والدة الملك أحمس الى بعض المجوهرات الخاصة بزوجها المتوفى كاموس ، والتى كانت تصاحب مومياءه · ومعظم هذه الأشياء ، لوحظ أنها باسم « المحرر » أى أحمس ·

(٢٢) أحمس Amosis أو Ahmès ·

(٢٣) يبعد تماما هذا التقليد عن مفهوم نظام الأمومة المصرى ·

(٢٤) كان ونلوك هو المعارض لهذا الرأى ·

(٢٥) لا يتعلق الأمر هنا بتحديد تأثير « تى » باعتبارها زوجة ملكية عظمى بجوار أمنحتب الثالث · وهو ما سوف نشير اليه بعد ذلك ·

(٢٦) لو لم يكن هناك دور فعال قامت به الملكة « تى » فى اطار الثورة الدينية التى قام بها ابنها ، فهناك ، على الأقل نوع من التأبين والاشتراك من جانبها ·

(٢٧) حجز هذا المكان من أجلها على معظم الآثار التى قدمها لها ابنهـا ·

(٢٩) فى منظر المولد الالهى هذا ــ الذى صور على جدران المعبد الذى كرسه رمسيس لأمه ، بالرمسيوم ــ تبدل الاله ، وفقـا للأسطورة فى هيئة الملك خلال اتمام اللقاء بين الملك والملكة ·

(٢)

(١) احتفظ بهذه المجموعة بمتحف بوسطن ·

(٢) نقشت صورة الملكة أحمس نفرتارى ، بجوار الملك على احدى مسلات أبيدوس ، المحفوظة حاليا بمتحف القاهرة ·

(٣) يتعلق الأمر بدراسات جتون ·

(٤) يبين هيز ، الذى نقب فى هذا الموقع ، أنه يوجد فى الأطلال التى ترجع الى أواخر الحكم (بدون شك حتى العام ٢٩) اشارات عديدة عن « سات آمون Sat-Amon فى مقابل اشارة واحدة عن أمها ، بالنسبة لنفس الحقبة ونفس المكان ·

(٥) نقشت هذه اللوحة الفائقة الأهمية على جدران مقبرة خرونف ؟

(٦) يبدو على نفس الجدار الملك فى الشرفة ، فى هيئة طبيعية تكاد تكون زائدة عن الحد ، وقد اصطحبته لأول مرة مليكته نفرتيتى ·

(٧) هذا التمثال النصفى محفوظ بمتحف برلين الغربية مع بعض أعمال أخرى للتمثال تحتمس ·

(٨) يلاحظ ذلك ، بكل وضوح ، فى مجموعة التماثيل الضخمة المحفوظة بمتحف القاهرة ·

(٩) كان توت عنخ آمون ، بدون شك ينتمى الى الأسرة الملكة ، وكان على ما يبدو ــ أحد أبناء الملكة « تى » الصغار ، قريبا من باكت آتون أخته الصغرى · والأمر الأقل تأكيدا ، أنه قد يكون ابن « كيا » ، احدى الزوجات الملكيات لاخناتون ·

(١٠) بعد موت الملكة نفرتارى بفترة قصيرة ، تلك المفضلة الكبرى ، يلاحظ من جديد ظهور هذه الزوجة الأولى ايزيس نفرت ، فوق عدد من اللوحات عند النيل فى جبن السلسلة على سبيل المثـال ، ممثلة بجـوار ابنتهـا « خع أم واس » ، كبير كهنة بتاح ·

(١١) تمثال صغير للسيدة « ايمرت ـ نبس » محفوظ بمتحف ليدن ·

(١٢) عندما أفصح عن دور الآلهة « يوسعاس » ·

(١٣) لم تتلق الملكة الأم اعح حتب لقب « زوجة الاله » الا فى الكتابات اللاحقة لعصرها ، أى بعد وفاتها ·

(١٤) هذا الريش العالى ذو السطح المخطط خطوطا خفيفة منتظمة ، يختلف تماما عن الريش ذى « المحفوظات » السبعة الذى يعلو تاج آمون ·

(١٥) لكن نزيد من الوضوح فى نطاق توارث مهام زوجة الاله ، يمكننا أن نحدد أولا ، أنه من الناحية النظرية يعتبر انتقال الوظيفة من واحدة الى أخرى ، انتقالا من أم الى ابنة ، وثانيا ، أن اللقب لا يتصل بالعرش ولا يعطى لحاملته الحق فى ارتقائه · ولذلك فبعد الملكة تويى ، والدة رمسيس الثانى ، لم يعهد الى أى من الزوجات العظمات بلقب « زوجة الاله » (ومن هنا نستطيع أن نخمن أنه لم تكن أية واحدة من هؤلاء الزوجات ابنة لتويى · ومع ذلك ، فمن الناحية العملية ، كانت زوجات الاله مرتبطات تماما بالعائلة الملكية ·

(١٦) آخت أتون تعنى : « أفق القرص » ·

(١٧) وبدون أن نتقبل كافة الافتراضات ، فاننا نميل الى عدم طرح هذا الاقتراح جانبا تماما ·

(١٨) مدينة بوهن ، خلال العصور القديمة ·

(١٩) من عصر رمسيس ، كانت هاتان الربوتان تكونان المكانين المعروفين باسم ابشك ومحا ·

(٢٠) هنا ، نجد مرة أخرى السيدتين اللتين كانتا تجاوران الملك امنحتب الثـالث عقب عيده اليوبيلى ، وبعد ذلك بفترة ما ، بجوار رمسيس الأول فى عيده بأبيدوس ·

(٣)

(١) وفقا لترجمة لفيبر لهذا النص ·

(٢) نهارينا Naharina ، أو ميتانى Meitanni ·

(٣) الفيوم : مى ـ أور Mee-our ، أو مر ـ أور Mer-our اعطت اسمها لبحيرة موريس Moeris ، المسماة حاليا ببحيرة قارون ·

(٤) يعرف حاليا ، باسم بحر يوسف ·

(٥) رأس للملكة تى ، محفوظة بمتحف برلين الغربية ·

(٦) باللغة المصرية : خكروت ـ نسوت Khékérout-nesout ·

(٧) هذه الغزلان الصغيرة أصلها من سوريا ، وتعرف باسم « gazella dorcas » لها قرون مستقيمة تماما ، منحنية عند الحافة المدببة ·

(٨) باللغة المصرية حنوت ـ بر ـ رينبرع ·

(٩) هذه العبارة تتطابق مع العبارة المصرية : ست عات مجت Set-aât-Medjet.

(١٠) ينطق هذا العنوان بالمصرية : خرد ان كب Khéred-en-kep .

(١١) كانت تقع عنيبة أمام قلعة قصر ابريم المهيبة ، التى اندثرت تماما ، فى عصرنا الحالى ، تحت بحيرة ناصر (يبعد فقط ، من فوق سطح المياه ، قمة صخور قصر ايبريم) .

(١٢) الالكتروم هو مزيج يحصل عليه بانصهار معدن يحتوى على ٧٥٪ من الذهب ، و ٢٢٪ من الفضة ، و ٣٪ من النحاس .

(١٣) الـ Cercopithèque (قرود الذيال) هى قرود صغيرة ذات ذيول طويلة موطنها افريقيا .

(١٤) نقلت الكتابات المنقوشة على الحجر الى متحف القاهرة .

(١٥) « اوجى سنوهى » ، بطل هذه القصة ، ليكاوالتارى Mika Waltari بقصته الخيالية .

(١٦) التى قام بتاليفها منذ عدة سنوات قام ليفيبر بترجمة هذا النص .

(١٧) اعلمتنا برديات لى - رولين Lee-Rollin ، التى يوجد جزء منها بلندن والجزء الآخر بباريس ، بأغلبية التفاصيل التى تتعلق بهذه القضية التاريخية .

(١٨) تبعا لاعادة التكوين الذى قام به دى باك ، وتشرنى .

(١٩) هذا هو ما اقترحه دى باك وتشرنى بعد دراسة دقيقة لكافة الدلائل المتبقية .

(٢٠) حريم القصر ، أو « بيت الرينيرت » .

(٢١) حاجب الملك ، أو بالأحرى ساقى الملك ، فهذا ما كان يقوم به يوسف ببلاط الفرعون .

(٢٢) لا يعرف بالضبط اية عقوبة أنزلت بهم : قطع الرأس أم الحرق ؟

(٢٣) اسم عربى يعنى ، « تل اليهود » .

(٤)

(١) منذ أوائل الملوك الذين حملوا اسم سنوسرت وحتى آخر ملك حمل اسم امنمحات فى « ايت تاوس » كان كل من (امنمحات الأول وسنوسرت الأول) ، وفى دهشور كان كل من (امنمحات الثانى وامنمحات الثالث) ، وفى اللاهون كان كل من سنوسرت الثانى والثالث) وفى هوارة كان (سنوسرت الثانى والهرم الثانى لامنمحات الثالث) .

(٢) عثر على هذه المجوهرات ، أصلا فى مقابر « ايتا » و « خنوميت » فى دهشور ، ومقابر سنبتيس فى اللاهون ومقبرة نفروبتاح فى هوارة .

(٣) هذا التاج معروض حاليا فى متحف القاهرة .

(٤) لا شك أن هذا المجمع كان يضم ، فى آن واحد معبد ومقبرة الملكة .

(٥) غزلان « الدركاس dorcas » السومرية الأصل .

(٦) ما يعرف عن كنز هؤلاء الأميرات السومريات ، محفوظ الجزء الأكبر منه فى متحف المتروبوليتان بنيويورك .

(٧) صدفة - أم اختيار متعمد ؟ فمن الملاحظ أن المجمع لم يكن يقل فخامة وهو يجاور مجمع أخت الملك رمسيس الثانى الكبرى وصهرة القبل . واطلق على الاثنين

اسم تيا Thya ، ومجمع مايا Maya وزير ماليته - الذى كان قد بدىء عمله خلال حكم الملك توت عنخ امون ، وكذلك الخاص بزوجته مريت .

(٨) كانت ترتبط اغلبية هؤلاء السيدات النبيلات عائليا بأوائل ملوك الأسرة التاسعة عشرة مباشرة وفى الأسرة العشرين ، دفنت به بعض الملكات زوجات رمسيس الثالث بجوار قبور أبناء الملك الذين ماتوا فى مقتبل العمر .

(٩) بعض النصوص تدفعنا لأن نرجع بالفعل هذه الطقوس الى حكم الملك امنحتب الأول .

(١٠) فصل « الشمو Shemou » يتطابق مع شهور الفيضان : من منتصف يولية حتى منتصف اكتوبر .

(١١) وصلت الينا اغلبية هذه الحوليات ، بفضل بردية تورين الملكية النادرة .

(١٢) هناك مرسوم صادر من « مرنرع » أخيه يتعلق ببعض الانشاءات التى قد يكون أمر باقامتها هناك ، ولقد اقترح عالم المصريات « نيوبرى » بأنها للملكة نيت زوجة مرنرع نفسه .

(١٣) هذه الملكة الأشبه « بالطيف » ، أطلق عليها لفترة طويلة فى كتب التاريخ اسم سبك نفرورع .

(١٤) ويقترح عالم المصريات كراوس R. Krauss من جانبه فى بحث القاه فى المؤتمر الدولى الأول للمصريات الذى عقد بالقاهرة فى الفترة من ٢ الى ١٠ اكتوبر سنة ١٩٧٦ :

Meritaten as Ruling Queen of Egypt and Successor of her father Nipkhururia-Akhenaton.

ان هذه الفرعونة هى مريت اتون الابنة البكرية لاخناتون ونفرتيتى .

(١٥) تبعا لرأى جاردنر ، لم يكن هناك ملكان يحملان اسم سيتاح ، كما كان يظن البعض ، ولكن ملك واحد فقط .

(١٦) حاليا فى المتحف المصرى .

(١٧) هذه الصفة تعنى هنا كاسم علم . انها تتطابق باللغة المصرية مع : ست رع واطلق كاسم عند مولدها على أول ملكة بالأسرة ، زوجة رمسيس الأول .

(١٨) يضع مانيتون فى نطاق تسلسل الفراعنة فى هذا المكان الذى كان يمكن أن تحتله ترهى ، ملكا يدعى توريس Thuoris ، قد يكون أمضى أواخر سبع سنوات فوق العرش .

(١٩) ما تبقى من هذه المجوهرات محفوظ حاليا بالمتحف المصرى .

(٥)

(١) المظهر العدوانى لتهجمى الذى حرهر به فى العمارنة .

(٢) الكرنك ، مكان معين ، يحد من الشمال ، بمجموعته الكبيرة من النصب الدينية للعاصمة القديمة طيبة . وتعد الأقصر بمثابة القسم الجنوبى منه .

(٣) هذه الأميرة زوجة أمون ، لا يجب الخلط بينها وبين الملكة التى تحمل نفس الاسم .

(٤) اسم بيعنخى كما كان ينطق منذ عدة سنوات ، صوب نطقه الى بيى Péyè .

(٥) هذه اللوحة الضخمة معروضة بالمتحف المصرى ·

(٦) فى هذا النقش البارز المعروض بمتحف اللوفر نرى جنيات الشمال والجنوب المتعلقة بالفيضان المسماة بـ Shapènipet ·

(٦)

(١) هذا التمثال الصغير ذو النمط القريب من نوعه ، محفوظ بمتحف التاريخ القومى بشيكاجو ·

(٧)

(١) هذا التمثال المعروف جيدا للملكة فى كامل عظمتها ، معروض فى متحف المتروبوليتان بنيويورك ، ومنذ فترة وجيزة تخلص من الترميمات الحديثة التى كانت تشوهه ·

(٢) هؤلاء الكريتيون من عصر حتشبسوت كانوا يعيشون منذ المينوس المتأخر .

(٣) أو : « حاسفون » Hasfoun أى « قرن أفريقيا » ·

(٤) كل هذه المناظر توجد فى الشرفة الثانية ، عند وصف الأعمدة الجنوبى .

(٥) شقيق سننموت يدعى سنمن Senmen يحمل اسم جزيرة بيجه ، فى مواجهة فيله ·

(٦) مقبرة أمنحتب بغرب طيبة ، تحمل رقم ٧٣ ·

(٧) كلمة حريم باللغة المصرية تنطق ايبت ipet ، ومنها جاء اسم عيد الحريم (لأمون) ، ipet . ·

(٨) ذكر عالم المصريات الأمريكى هيز سبعة منها ، ولكن هذا الرقم لا يمكن الوثوق منه ·

(٩) هذه الأسطوانة محفوظة بقسم الآثار الشرقية بمتحف اللوفر ·

(١٠) « اله الحكماء » هذا أبرزه بوضوح وأظهره عالم المصريات الفرنسى ايتين دريوتون ·

ـ ٣ ـ

المرأة المصرية

(١)

(١) انظر كتاب ليففر من القصص والروايات المصرية القديمة ، ص ٤٥ ، رقم ١٥ ·

(٢) الـ nomarque هو حاكم احدى المقاطعات او الأقاليم ·

(٣) لم يكتشف شىء ، حتى الأن يسمح لنا بأن نحدد بكل دقة عمر أغلبية النساء فى مصر القديمة ·

(٤) هذه القصة هى جزء من الحكايات الموجودة ببردية وستكار ، المحفوظة بمتحف برلين ·

(٥) فيما يختص بالزوج الذى يرتكب الخيانة الزوجية ، يرجع الى الفصل الخاص بـ : الخيانة الزوجية والطلاق ·

(٦) هذا التوضيح أبرزه جيدا سير آلن جاردنر ·

(٧) ضمن هؤلاء المؤرخين ، يجب ذكر جاك بيرن ·

(٨) اقتطف هذا النص من برديات متحف بروكلين ، تحت رقم ٣٥١٤٦ ·

(٩) يتعلق الأمر باللوحة رقم ٤٢٢٠٨ ·

(١٠) كان هذا الفلاح يعيش بقرية العمال الملكيين ، بدير المدينة ، خلال عصر الرعامسة ·

(١١) قانون « الأملاك غير القابلة للتصرف » يمكن مضاهاته بقانون الأوقاف بمصر الاسلامية ·

(١٢) يتعلق الأمر بالبرديات المحفوظة بمتحف بروكلين ، تحت رقم ٣٥١٤٦ والتى ترجع الى أواخر الدولة الوسطى ·

(١٣) هؤلاء الأسيرات كان يستعان بهن للعمل نساجات بحريم « ميأور » ·

(١٤) وفقا لما جاء ببردية القاهرة رقم ٦٥٧٣٩ ·

(١٥) انظر بردية اللوفر التى تحمل رقم ٣٢٢٨ (A) ·

(١٦) انظر بردية المتحف البريطانى المسجلة تحت رقم ١٠٠٥٢ (X) ·

(١٧) يتعلق الأمر بأول حكمة بالمجموعة ·

(١٨) فيما يختص « بأبناء الكاب « kep » ارجع الى فصل : « مدرسة الحريم » ·

(١٩) هذه المعلومات مستمدة من برديات ولبور ·

(٢)

(١) يرجع الفضل الى فيشر لاحصاء هذه العناوين خاصة فى الدولة القديمة .

(٢) هذه التفاصيل غير المتوقعة تقدمها لنا بردية بولونيا رقم ١٠٨٤ .

(٣) هذه المقتطفات الشعرية مستمدة من بردية شستر بيتى .

(٤) نص مستمد من المجموعة الشعرية التى جمعها عالم المصريات الالمانى شوت .

(٥) استشهاد مستمد من بردية ايبرس ، رقم ٤٦٨ .

(٦) بينت هذه الوصفة ببردية ايبرس رقم ٤٧٤ ، ٤٧٦ تبعا لليفقر .

(٧) اكتشف هذا النص ونشره دريوتون .

(٨) القطعة والنص الخاص بالسحر المنقوش على ورقة من الفضة المرصعة ، والآنية المصنوعة من الطين المحروق التى كانت تحتوى على كل ذلك ، توجد بمتحف اللوفر .

(٣)

(١) هذه النصوص كانت تكتب بالخط الهيراطيقى المخالف للمألوف ومنذ القرن السابع قبل الميلاد كانت تكتب بالخط الديموطيقى .

(٢) هذه المقتضيات عبر عنها بوضوح فى خع ام واست .

(٣) هذه الأوستراكا (كسرات من الحجر الجيرى أو قطع من الفخار كان من المعتاد أن يكتب عليها الرسائل أو النصوص التى لا يجب ادراجها فى المكتبات) محفوظة بمتحف براج .

(٤) ينتمى الى مجموعات متحف برلين .

(٥) العديد من « الأوستراكا » احتفظت لنا بنصوص تنوه عن هذا البند ، وبصفة خاصة أحدها المحفوظ بمتحف اللوفر .

(٦) اقترح ذلك واحد من اكثر مؤرخى القانون المصرى قدرا ومنزلة ، وهو بيرن ، مقتبسا آراء مرجريت مارى .

(٧) يعتقد عالم المصريات شفيق علام أنه عثر على مثالين فقط لتعدد الزوجات فى تاريخ مصر القديمة كله ، أما كيلى سمسون فقد ذكر ١٣ حالة منها عند تحليله للأدلة التى عرفت ، خاصة ، من خلال الدولة الوسطى .

(٨) لوحة رقم (٥١) .

(٩) لوحة رقم (٢) .

(١٠) حكم بتاح حتب برقم ١٩ .

(١١) التعبير المستعمل لوصف هذه المعاشرة بين الزوجين هو : « يعيش مع » .

(١٢) الكلمة المستعملة لاعطاء معنى « يطلق » هى « خاع Khaâ » بمعنى طرد أو ابعاد .

(١٣) الكلمة المستعملة للتعبير عن الطلاق ، فى اللغة المصرية القديمة ، كانت الفعل « شم Shem » التى كانت تعنى « الدعوة للرحيل » .

(١٤) ترجع الى حكم بتاح حتب ، وأصل النص الذى عثر على نسخ عديدة منه الى حكم الملك « اسيسى Isesi » ، من الأسرة الخامسة : وكان بتاح حتب وزيره ، والمخطوط الاكثر قدما المعروف حتى يومنا هذا يرجع الى الدولة الوسطى ، وهو محفوظ بالمكتبة الوطنية بباريس ، تحت اسم برديات ابريس ، وفقا لأول مالك لها فى العصر الحديث .

(١٥) يبدو أن النص الخاص بحكم أنى يرجع الى أوائل الدولة الحديثة ، وكان أنى كاتبا لدى الملكة أحمس نفرتارى ، زوجة الملك أحمس الأول ، وقد عرف العديد من نسخ هذا النص الذى يصعب ترجمته للغاية ، وأكثر النسخ اكتمالا هى اللوحة رقم ٨٩٣٤ المحفوظة بمتحف برلين .

(١٦) حكم أنى ٨ ، ١ ـ ٣ .

(١٧) هذا النص مأخوذ من برديات اينسجر من العصر المتأخر .

(١٨) حكم أنى ، ٣ ، ١٥ ـ ١٩ .

(١٩) للتعبير عن فعل الخيانة الزوجية ، يستعمل المصرى الفعل « عاشر » الذى يعنى : « جامع » .

(٢٠) انظر ديودور الصقلى ١ ، ٧٨ .

(٢١) هذا ما بينه عن حق ، اير C. J.Eyre ، الذى قام حديثا بدراسة هذا الموضوع .

(٢٢) عرف هذا المكتوب باسم بردية هاريس .

(٢٣) وفقا للين ، الذى قام بدراسة عادات وتقاليد الفلاحين المصريين ، خاصة خلال القرن التاسع عشر .

(٢٤) هذا الافتراض قدمه بيير مونتيه .

(٢٥) هذه التسمية ، « المرتدية ملابسها » ، خلعت أحيانا على الخليلة : وهذا غير مقنع تماما .

(٢٦) هل كان هذا الاحتياط يهدف الى التأكد من خصوبة الرفيقة المختارة ، أم أن الرجل كان يفتقر للمال للدرجة التى لا تجعله يرد مبلغ المال ، مرة واحدة ؟

(٢٧) يتعلق الأمر بقصة خع ام واس .

(٢٨) بكل تأكيد ، يجب تتبع ادجارتون فى ظنه بأن هذه الايماءات عن عيد الزواج تعتبر كاشارة لذكرى تقاليد أعرق قدما .

(٢٩) فى هذا الصدد ، من الممكن الرجوع الى مشهد المولد الالهى ، حيث صور ، من أجل استرجاع مشهد اللقاء الجسدى بين آمون ومن اصطفاها فوق الأرض ، فقط الزوجان وهما جالسان الواحد فى مواجهة الآخر ، وركبتاهما تكادان أن تتلامسا .

(٣٠) الجلجلية ذات الأجراس Crotales هى صناجات صغيرة مستديرة مصنوعة من النحاس .

(٣١) الذى يسأل نفسه هذا السؤال ، هو بستمان أحدث من قام بدراسة عقود الزواج فى مجموعتها .

(٤)

(١) حكم آنى ، ٦ ، من ١ الى ٦ ، ١٠ .

(٢) دور حارس الباب هذا يتطابق تماما مع دور « البواب » فى مصر الحديثة .

(٣) الكلمة المتطابقة تماما مع كلمة « جرد » هى « ايمت بر imet-per » أى « الموجود بالبيت » .

(٤) ذكر هذا النص عن عالم المصريات الألمانى شوت .

(٥) يوجد نفس هذا الجزء فى البيوت الحديثة بالقرية المصرية باسم « الملقف » .

(٦) ارجع الى ليففر ، « قصص وحكايات مصرية » .

(٧) ذكر هذا النص من مجموعة شوت : « أغنيات حب » .

(٨) عثر ايفرسن على هذا النص ، ثم قام بدراسته ، وتبعه فى ذلك ليففر .

(٩) استمد هذا النص من بردية برلين رقم ١٩٩ ، ظهر الصفحة ٢ ، ٢ ـ ٥ . وفى تلك الوصفة ، من المحتمل جدا ، أن الرمل كان يستعمل بمثابة قاعدة ودعامة لحبوب الشعير والقمح ، أما التمر فكان بمثابة السماد .

(١٠) استمد هذا النص من الكتابات بمعبد اسنا .

(١١) انظر ، بمكان سابق ، مولد الفرعون حتشبسوت .

(١٢) العبارات المذكورة أخذت من دراسة كل من جيون والعادلى .

(١٣) هذه الفقرة من بردية وستكار ذكرت وفقا لما نشره ليففر .

(١٤) أخذت هذه الوصفة من بردية ايبرس الطبية .

(١٥) هذه البرديات التى تتعلق بحماية الوليد حماية سحرية ، نشرها ، فى الماضى ارمان .

(١٦) يملك متحف اللوفر نسختين من هذا التمثال الصغير الذى لابد أنه كان شائع الاستعمال .

(٥)

(١) هذه البرديات الطبية الخاصة بمصر القديمة ، عرفت فى أيامنا هذه باسم ، بردية « كاهون » الطبية ، أو بردية ايبرس ، وهو اسم المشترى المعاصر لها ، كما عرفت أيضا باسم بردية برلين الخ ...

(٢) أخذ من بردية ايبرس ، تبعا لليففر : دراسة فى الطب .

(٣) « كتاب الأحلام » ، هو موضوع احدى برديات شستربيتى الذى قام بشرائها .

(٤) هذه المغامرة أعاد « فارد » تجميعها من جديد ، ويبدو انها تتطابق مع واقع الأحداث ، وتلك القصة لم تكن الوحيدة !

(٥) أخذ هذا النص من قصة « الصدق والكذب » ، وفقا لما نشره ليففر .

(٦) قدم شبيجلبرج ترجمة لهذا النص .

(٧) أخذت هذه الجملة من لوحة محفوظة « بمتحف جولبنكيان بلشبونة » .

(٨) مأخوذ من الفصل الثلاثين « بكتاب الموتى » الخاص بنص « جعران القلب » ، ترجمة بول بارجيه .

(٩) قام جاردنر بترجمة هذه النصوص التى قام شوت بجمعها .

(١٠) قدم شوت هذا النص وكذلك الاستشهادين التاليين .

(١١) يتعلق الأمر هنا ، بدون شك ، بالأجر اليومى الذى يقدم للمعلم (يرجع الى الفصل الخاص بتعلم الطفل) .

(١٢) هذا النص مستمد من « حكم آنى » ح ، ١٥ ـ ٨ ، ١ .

(١٣) يتعلق الأمر ببردية كاهون ، رقم ١ .

(٦)

(١) حكم أمنموبى رقم ٢٦ ، ١٠ .

(٢) قدمت هذه المعلومة من خلال أوستراكا محفوظة بمتحف تورين تحت رقم ٥٧٠٠١ .

(٣) هذه الوصفة من بردية كاهون رقم ٣ .

(٤) لا شك أن من كتبوا بردية كاهون رقم ٧ لم يكونوا يعلمون أن هذا العلاج استمر متبعا حتى القرن العشرين .

(٥) اقتبس هذا الاستشهاد من شفيق علام .

(٦) هذه الرسائل كانت تكتب ، فى أغلب الأحيان على الأوانى ، وقلما كانت تكتب على البردى . ولقد اكتشفها العالمان الشهيران جاردنر وزيته .

(٧) اكثر النصوص أهمية بهذه المجموعة ذكر فى بردية ليدن رقم ١ ، ٣٧١ .

(٨) هذه الافتراضات المقبولة جدا ، قدمها كل من علماء المصريات تشرنى ، وبيت Théodosidès .

(٩) الخطاب الثانى رقم ١ ـ ٤٢ .

(١٠) الخطاب الأول رقم ١٤ ـ ١٥ .

(١١) حكم آنى ، ١٤ ، ٦ ـ ١١ .

(١٢) يتعلق الأمر ببردية لانستيج رقم ٨ ، ٧ ـ ٤ .

(١٣) يتعلق الأمر بالفقرة رقم ١١٠ من قانون حمورابى .

(١٤) حكاية أون أمون ٢ ، ٦٨ ـ ٧٢ .

(١٥) قدم ليففر الترجمة فى « قصص وحكايات » .

(١٦) حكم آنى رقم ٨ ، ١٥ .

(١٧) حكم بتاح حتب رقم ١٨ .

(١٨) نص منقوش فوق تمثال القاهرة رقم ٤٢٢٠٦ .

خاتمة

(١) انظر الفصل رقم ٧٥ .

(٢) مقتطفات من قصائد الحب المتضمنة ببردية شستر بيتى رقم ١ ، ونشرها سير آلن جاردنر .

ببليوجرافيا

التقويم المصرى القديم

هذه التواريخ ليست محدودة ولكنها تقريبية . وفيما يلى العصور الرئيسية :

- العصر الحجرى الحديث

- حضارة البـــدارى ٦٠٠٠ تقريبا

- حضارة العـــمرى ٥٠٠٠ تقريبا

- حضـارة جـــرزة ٤٠٠٠ تقريبا

- بداية التاريخ ، وتوحيد مصر ، ظهور الكتابة ٣٥٠٠ تقريبا

- العصر الثينى : الأسرتان الأولى والثانية ٣١٠٠ تقريبا

- الدولة القديمة : الأسرات من الثالثة الى السادسة ٣١٠٠_٢٧٠٠ تقريبا

٢٧٠٠_٢٢٠٠ تقريبا

من الملك سنفرو الى بيبى الثانى (أطول حكم ملك فى التاريخ) ★ الأسرة الرابعة : عصر الأهرام الضخمة (خوفو ، خفرع ، منكاورع) .

الملكة نيتوكريس : حوالى عام ٢١٥٠ ؟

- عصر الانتقال الأول : من الأسرة السابعة الى العاشرة ٢٢٠٠_٢٠٦٠ تقريبا . مرحـــلة مضطربة ، ملوك عديديون، زيادة سلطة حكام الأقاليم . هركليـــوبوليس ضد طيبة التى انتصرت أخيرا .

- الدولة الوسطى الأسرة الحـــادية عشرة والثانية عشرة ٢٠٦٠_١٧٨٢ تقريبا . ملوك تســـموا باسم منتوحتب ، وامنمحات (من الأول الى الرابع) وسنوسرت (من الأول الى الثالث) .

- عصر الانتقال الثانى : الأسرات من الثالثة عشرة الى السابعة عشرة ١٧٨٥ _ ١٥٥٤ تقريبا فوضى ، وتفتت السلطة ثم حكم الهكسوس . أمراء طيبـــة سقننرع تاع _ كامس _ أحمس . تحـــرير البلاد من الهكســـوس وطردهم .

ـ الدولة الحديثة :   ١٠٨٠ـ١٥٥٤ تقريبا

★ من ١٥٥٤ ـ ١٣٠٥ تقريبا الأسرة الثامنة عشرة : حكم الملوك أمنحتب (من الأول الى الرابع) والتحامسة (من الأول الى الرابع) حوالى ١٥٠٤ـ١٤٨٢ : حتشبسوت : الوصاية ثم سلطة ملكية كاملة. ثورة امنحتب الرابع اخناتون (نفرتيتى ؟ ، وسمنخ كارع)، وتوت عنخ آمون ، وآى ، وحور محب .

★ من ١٣٠٥ ـ ١١٩٦ : الأسرة التاسعة عشرة : رمسيس الأول ، وسيتى الأول ، ورمسيس الثانى (١٢٩٠ـ١٢٢٤) ،ومرنبتاح وأمون مس ، وسيتى الثانى وسيبتاح والملكة تاوسرت(١٢٠٤ـ١١٩٦) .

★ من ١١٩٦ـ١٠٨٠ : الأسرة العشرون : ست نخت ، ورمسيس الثالث الى الحادى عشر .

ـ العصر المتأخر : من الأسرة الحادية والعشرين الى الثلاثين .
١٠٨٠ـ٣٣٢ تقريبا

★ ١٠٨٠ـ٩٤٦ : حكم متزامن لملوك تانيس (سمندس ، وبسوسنس ، وسيامون .. الخ) وكبار كهنة آمون (حريحور ـ وبيعنخى ـ وبينجم ـ الخ) فى طيبة مع العابدات الالهيات .

★ ٩٤٦ـ٦٦٤ : الأسرة السادسة والعشرون : عصر النهضة الصادى (بسماتيك ، ونخاو ، امازيس .. الخ) .

★ ٥٢٥ـ٣٣٢ : من الأسرة السابعة والعشرون الى الثلاثين . قمبيز يغزو مصر . فترتان أمازيس .. الخ) .

ـ السيطرة الفارسية من دارا الأول الى الثالث (اريانديس الحاكم الفارسى على مصر) .

آخر الفراعنة : نفريتيس، وخاكوريس (الأسرة التاسعة والعشرون) .

ونقتانبو الأول والثانى (الأسرة الثلاثون)

ـ معركة اسوس : الاسكندر يحتل مصر   ٣٣٣ ـ ٣٣٢

ـ ملوك مقدنيون (الاسكندر الأكبر ، وفيليب اريدايوس والاسكندر الرابع) .   ٣٣٢ ـ ٣٠٥

ـ الفراعنة البطالمة : من بطليموس الأول الى الثانى عشر ، ومن كليوباترة الأولى الى السابعة (كليوباترة السابعة هى التى حكمت فقط) .   ٣٠٥ـ٣٠

ـ مصر الرومانية   من ٣٠ قبل الميلاد الى ٦٤٠ ميلادية

المصـــادر الأصـــلية

لا ريب أن تناول تاريخ ودور المرأة فى مصر الفرعونية ، أى على مدى حقبة كاملة مداها حوالى ثلاثين قرنا ـ منذ فجر الدولة القديمة حتى آخر الأسرات ـ يعد عمـلا محفوفا بالمصاعب .

والحقيقة أن طبيعة هذا المجال والآثار المتبقية منه التى تبدو دائما فى صورة مجزءة بعيدة عن الاكتمال لا تسمحان لنا بأن نرسم صورة شاملة وكاملة له .

ويلاحظ أيضا أننا لا نمتلك حتى يومنا هذا النصوص الكاملة التى تتيح لنا التعرف على هذا المجتمع العتيق بصورة شاملة ، ورغم أن الكتابة ظهرت فى أوائل الألف الثالث قبل الميلاد .

وربما استطاعت الأبحاث والدراسات وأعمال التنقيب المقبلة أو الحالية أن تستكمل تدريجيا معارفنا فى هذا المجال وفى غيره .

ولا ريب أن المعرض الذى نظمه الأثرى الألمانى « د. فيلد لانج » بمدينة ميونخ ومنها الى العديد من العواصم الأوربية (ميونخ ، برلين ، بروكسل ، برشلونة ، مدريد ، جنيف) قد سعى الى اعطاء رؤية صائبة للمكانة التى احتلتها المرأة على ضفاف النيل الفرعونى عبر العصور .

وعندما يتصل الأمر بسجل أكثر شمولا ، وبتقديم دراسة تستند الى معلومات ضافية لنا أن نتساءل هل من الضرورى أن نقدمها فى صورة تاريخية متتابعة أى حقبة بعد أخرى ـ كما فعل فيركوتيه مثلا ـ أم ينظم البحث وفقا لمختلف الدلائل والمظاهر والمفاهيم المتصلة بالأنوثة ، وهو التزمنا به هنا ؟

ولا ريب أن تحليلا سريعا للمصادر التى أتيحت للدراسة سوف يبرر هذا الاتجاه الذى نحونا نحوه فى هذا الكتاب .

المعابد :

من المؤكد ، أن أى بلد آخر فى الأزمنة المعنة فى القدم ، لم يورثنا أكثر مما ورثتنا مصر الفرعونية من أدلة وبيانات عن حضارة مذهلة

وخارقة . ومع ذلك ، فمن ناحية ، يلاحظ أن أكثرها قدما قد أمحى تقريبا من الوجود ، وان اغلبية ما تبقى منها يتطابق مع عصر الدولة الحديثة والعصور الاغريقية ـ الرومانية ، وهذا يعمل ، وبالتالى ، على تحديد وتقييد مجال التقصى والبحث ، ومن ناحية أخرى ، وبصفة خاصة ، فان هذه المعلومات تعتبر من الناحية الفعلية ذات نزعة دينية وجنازية .

وفى هذه الحالة ، فانه من الطبيعى أن هذا الارث الذى ورثته لنا الازمنة المعنة فى القدم ، يسمح لنا ، بطبيعة الحال ، بذكر المدلول والمعنى المقدس للنظام الفرعونى ، والمجد الذى أضفى عليه ، والدور الفائق القوة الذى كان يقوم به رجال الدين . ومن حسن الحظ ان اكتشاف بعض الكتابات النادرة ، والبرديات التى كتب لها النجاة من تلاطم أمواج العصور ـ تاركة بعض الالماح والاشارة عن سياق الطقوس والاحتفال بالأعياد ـ يوفر لنا توضيحا عيما عن كثير من الموضوعات .

ولكن ، فوق جدران المعابد ، التى غطيت بأشكال الآلهة ، لا يوجد شىء محدد فعلا عن رعايا الملك ، ففى معظم الأحيان ، يشاهد ، وجها لوجه ، الملك واحد أشكال الآلهة ، تعبيرا عن التبادل الشعائرى ، للقرابين والعطايا . وبذا ، فماذا عسانا نستطيع أن نستمده من هذه النصب والسطوح ، لكى نعيد تكوين وتشكيل تاريخ المرأة فى مصر القديمة، هنا يجب أن يتم البحث والتحقيق بواسطة الاستنتاج والاستنباط ، مع الاعتماد ، فى بداية الأمر على ما نشاهده . وهناك ملحوظة تمهيدية يجب ذكرها : ان الأشكال الأنثوية للآلهة تظهر منذ العصور الأولى ، بمثابة جوهر وكيان حامى ومثبت للملكية . فأنثى النسر وأنثى الكوبرا «نخبيت Nekhebt » و « واجيت Ouodget » ، يجسدان المناطق التى يستطيع الملك أن يمد سيطرته عليها ، وفى نفس الوقت ، تسهران على رعاية هذه المناطق . بوساطة التلاعب اللفظى الرمزى السائد وقتئذ ، فقد مثلتا بالتاج الأبيض الخاص بمصر العليا (حجت hedget) ، والتاج الأحمر الخاص بمصر السفلى (دشر desheret) . وهذان التاجان كانا يكونان معا ما يعرف بالقوى (باسخنم Pasekenm) الخاص بالفرعون ، والذى أطلق عليه الاغريق اسم البسشنت Pschent .

وفى كل مكان على أجزاء الجدران المتبقية التى ترجع الى الدولة القديمة والوسطى يمكن ملاحظة وجود الربات ، اثباتا بان التعبير الالهى الأنثوى ليس مستبعدا أبدا وفقا لما اكدته ، بطبيعة الحال ، النصوص الدينية العتيقة ، والتى ظهرت لأول مرة على جدران سراديب الأهرام ، بداية من عصر الملك أوناس ، آخر ملوك الأسرة الخامسة ، بعد ذلك ، فان النصوص الخاصة بالتوابيت الحجرية ، فى الوقت الذى تكونت فيه الدولة

الوسطى ، قدمت عنهن نسخة جديدة تتماثل مع « التفسير » . (هذه النصوص حل محلها بعد ذلك ، فى المجال الجنازى منذ الدولة الحديثة ، كتاب « الخروج نهارا » الذى أطلق عليـه علمـاء المصريات (كتـاب الموتى) .

وماذا يمكن أن يقال عن المناظر والأشكال الواضحة للعيـان ، فى مقصورات الدولة الحديثة المجيدة ؟! فعلى غرار العصور الأولى ، كانت الربات يمثلن وهن بمفردهن ، وأحيانا وهن يتلقين التسابيح والولاء الملكى ، وأيضا وهن يواكبن الاله ويرافقنه : انها صورة المرأة الحرة ، وصورة للزوجين معا . وأيضا ، يظهر « الثالوث كاشـارة كاملة عن الأسرة التى يمثلها الرجـل والمرأة اللذان يخلدهما وريثهما . وبـهذه الطريقة تتكرر هذه المجموعات عبر العصور ، حتى تصل الى جدران المعابد فى عصور البطالمة والرومان اللذان رضـخا للتقاليد الفرعونية واتبعوها .

ولقد صورت الملكة أيضا على جدران المعابد بمصاحبة زوجها ، وقد أحاطت بها أسمى آيات الاحترام والتبجيل . ولكن ، لا شك أن ذلك قد تكرر كثيرا ، منذ اللحظة التى مر فيها التعبير الخاص بالورع والتدين المفرط والمفهوم الالهى ، بتغير وتحول عميق المدى ، خلال حكم امنحتب الثالث ، لدرجة « انفجاره » فى عصر أمنحتب الرابع العظيم ، الذى عرف باسم « أخناتون » . ومنذ ذاك الحين ، فان دور الملكة ، فى نطاق الدين ، وفى المجال التاريخى ، أخذ يبدو فى مظهر جديد ... أو على الأقـل سلطت عليه أضواء مختلفة . ومع ذلك ، فان بعض الأدلة التى تقدمها بعض التماثيل والمسلات ، تبين ، بخـلاف ذلك ، تلك المكـانة الرفيعـة التى احتلتها الملـكات الأول فى بـداية الأسرة . ولو فرض أن بعض الآثـار ذات الأهمية المماثلة ، والتى ترجع الى عصور سابقة ، قـد بقيت لـكى نراها ، فربما استطعنا تبين الجوهر والخلفية الأساسية ، من خلال تطور الشكل . ولكن فى الوقت الحـالى ، فان مثل هذا التسلسل يعتبر منعدما بالنسبة لنا ، وبذا ، فان دراسـة السياق التاريخى للبحث تبدو عويصة وشاقة .

وبالنسبة للدول الحديثة ، فان المعابد كان من السهل بلوغها ، الى حد ما ، ولكن ، وأيضا على جدرانها المتبقية تبدو ظاهرة اعلام تاريخى ، فتقوم الصورة بتفسيره وشرحه : حملات خـارج الحـدود ، وحـروب متواصلة من أجل الدفـاع عن الوطن ، واحيـاء الأعيـاد الكبـرى . وحقيقة أن الهدف يرمى الى غاية دينية ، ولكن الموضـوع نفسه ، يشـير الى حقيقة دنيوية . وبذا ، فمن الممكن أن نتابع حتى الآن ، فوق الجدران

التى عثر عليها بالدير البحرى ، ذكرى جزئية من الأحداث التى أرادت الملكة حتشبسوت أن تخلدها .

ولا ريب أن النظم قد تطورت عبر القرون ، وخلقت وظائف جديدة ، وفقا لمتطلبات العصر : وبدون المقصورات التى أقامتها « العـابدات الالهيات » ، فنحن لم نكن لنستطيع أن نعلم سوى القليل جدا من هؤلاء الملكات الكاهنات ، اللاتى عمل الكهنوت على أن تكرس من أجلهن المزايا التى أصبحت بمثابة نظاما ، من أجل حماية ملكية أيلة للسقوط ، بداية من العام الألف قبل الميلاد .

وعند الاقتراب من المعابد البطلمية ، فان أى قصـة تبتعـد عن الميثولوجيا البحتة ، قد أبعدت مرة أخرى ، من النقوش البارزة ، حيث انحصرت أغلبية المناظر على اللوحات التقليدية ، التى تمثل تقابل الأشكال الالهيـــة مـــع الملك لشـكل متـكرر الى مالا نهـاية ولكن الكتـابات الهيروغليفية ذات الأشكال الفنية المحيرة ، فقد كثرت وزادت ، ولعل الكتبة ، لكى يؤكدوا السمات والصفات الثابتة والمستقرة للحقائق التى عبر عنها فى الماضى ، عن قصد بأسلوب غامض مبهم ، قد سمحوا لنـا عندئذ بفك رموزها ، حيث فسرت ونوقشت ، بشكل واسع النطاق ، فى أواخر المغامرة الفرعونية الطويلة المدى .

التمـاثيل :

منذ عصر الأهرامات ، وضحت لنا التماثيل الملكية ، من وقت مبكر ، بواسطة مجموعات تماثيل الملك منـكاورع وزوجتـه ، أو بواسـطة مجموعات » الثالوث ، المثلة فى صورة الملك ، وقد نحتت فى نفس مقاييس تماثيل الربات اللاتى يحطن به ، وضحت لنا اهتماما من ناحيـة التساوى والتكافؤ الذى لا جدال فيه – ولا حتى نقاش – فيما بين الجنسين فى المناطق الالهية ، أو العالم الملكى .

أما عن التماثيل فى المجال المدنى ، فهى تسمح لنا ، فى هذا المجال ، أن نلاحظ بعض السمات المشابهة : لتساو فعـلى بين الزوجين ، وقـد مثلا غالبا فى الأعمال المجسمة . فها هنا فعلا تمجيد للحياة العـائلية ، فان مقياس ووضع أصحاب التماثيل ، لا يمكن قطعا ، أن ينم عن أى نقص أو ارتفاع ، فالرجل يبدو واقفا والمرأة جالسة أو بالعكس . ومن الممكن أن تكون أطوالهما متساوية ، أو تكون المرأة أيضا أقل طولا من زوجهـا ، ولكن فى أغلب الأحيان ، فهى تطوق زوجها من جذعه ، أو تضع يدها على كتفيه . وأحيانا أخرى يمثلان وهما واقفان ، وقد تشابكت أيديهما ، وهذا يوضح المساواة والتفاهم الكامل ، يضاف اليه فيما حولهمـا ، صورة الأبناء اللذين أنجبوهما .

المقـابر :

عندما تقدم المقبرة والمقصورة الجنـازية على جدرانهـا رسـالة منقوشة ومرسومة ، تبدو لنا عندئذ صـورا ونصوصا مخصصة للغاية ، لتحولات الملك ، وعموما ، فان هذا الموضوع يخرج من نطاق حديثنـا . ولكن هناك شرح تفسير للكتابات ، قد يتفاوت تشدده ، وفقـا للعصـور التى ترجع اليها هـذه الكتابات ، يبين عن نصوص دينية أصلية فريدة للغاية حيث يكشف لنا عالم الآلهة مرة أخـرى ، من المكانة الوظيفيـة القاصرتين على مختلف مظـاهر « مجتمع الربات » الأنثوى ورمـوزه الرئيسيـة .

أما عن المقاصير الدنيوية ، حيث كانت تقام الشعائر للموتى ، فقـد كانت تعتبر كهمزة وصل بين المتوفين وبين « من بقوا فوق الأرض » ، وكانت جدران أغلبيتهم ، فى كافة العصور ، وبالرغم من تعاقب القرون ، تزين بمناظر عن الحيـاة اليومية ، والمهنيـة والزراعية ، فى الحقبـات المعنية ، وبدون شك ، ففى هذا المجال أيضـا ، تطورت الأشكال ، وفرضت انماط نفسها ، كما طرأ على تصفيف الشعر والثياب بعض التغير . ولكن مما يثير العجب ، هذا الوفاء الواضح ازاء المواضيع التى اختـيرت وعولجت من قبل .

ولكن هذه المناظر كانت أيضا بمثابة صورة للحياة الفعلية ـ حتى اذا لم تكن تمثل الشكل الدقيق للحياة اليومية فى الحياة الدنيا لصـاحب المقبرة ، فقد كانت ، على سبيل المثال ، تفيد خلق الأجواء العامة لحياة أحد موظفى الدولة ، أو لأحد ملاك الأراضى ، مع بعض اللمسـات النادرة المحددة تماما والتى تتعلق بوظيفة الشخصية المشار اليها .

ومع ذلك ، فسواء كانت المقبرة قد كرست من أجل أحد كبـار الموظفين ، أو لمجرد فرد من الطبقة المتوسطة ، فان الزوجة تبدو فى الرسومات وهى مصـاحبة لزوجها ، متمتعة مثـله بالقـرابين الأسـاسية وباستعداداتها المتعددة . فالخبز الذى يقدم يعنى أنه بمثابة نتيجة لبذر الحب ، والحصاد ، الدرس البدائية ، التى تسبق عملية سحق الحب ، الذى يطحن دقيقه ، ويعد بأيدى النساء ، بكافة الأشكال التى يشـكل بها العجين من أجل الخبـز .

كما أن سيد البيت يقوم أيضا فى بعض الأحيان بمكافئة العـاملات اللاتى كن يجدن نسج أرق أنواع الكتـان : كما أن الراقصات والموسيقيات اللاتى يدخلن البهجة على الولائم الجنائزية التى يشارك فيها الرجـال والنساء ، يبدون هنا ، ليذكرننا باحـدى الأعمال المختارة لدى النساء .

ولكن ليس هناك شىء خاص فى كل هذه النقوش البارزة والرسوم ، يمكن أن يعلمنا بالحياة الخاصة والأحداث المتعلقة بحياة واحدة أو أخرى من النساء ، أو عن التطلعات الطموحات الخاصة بمجموعة ما بين السيدات أو المواطنات العـاديات ، وتكشف هذه الآثار عن تفريق واضح ما بين الخادمة وبين السيدة ، ولكن لم يحدث بعد أن استخرجت من القبور سيرة ذاتيـة لسـيدة ما حتى ولو مختصرة (ولكن ، وكما سنتبين بعد ذلك ، بواسطة النصوص القضائية التى عثر عليها ، يبدو أننا قد بدأنا نحيط احاطة جيدة بالقانون الخاص بالمرأة) .

اذن فالمعلومات تستنبط من التحقيقات والاستقصـاءات التى تتم باستمرار ، سواء باستجواب هذه الأثام التاريخية والجنائزية التى نين لها ليس بما تقدمه لنا من رؤية عامة فقط ، ولكن تستنبط بصـفة خاصة من التنقيبات التى تتم فى أرض نفس هذه التجمعات الأثرية الضخمة ، وفى اطلال التجمعات المدنية القليلة حيث أمكن اتمام الأبحاث : أشياء من الحياة العامة ، ومستندات مكتوبة حفظت بقاياها باعجوبة : محفوظات (أرشيف) القصور ، مراسلات دبلوماسـية ، أوراق ادارية ، قصص شعبية كتبت من أجل تعليم الآداب الكلاسيكية فى المدارس ، كتب فى الحكمة والأمثال ، وفى الطب والصيدلة ، وأشعـار ، وأحلام وبقايا من تقارير لدعاوى وقضايا ، وعقود قضـائية ، ومراسـلات فيما بين الأفراد الأحياء ، بل وايضا .. خطابات موجهة للأموات .. الخ .

ونادرا ما كانت هذه العناصر تصل لدينا وهى كـاملة ، ولـكن الاجزاء التى تمت مضاهاتها بالأدلة والبيانات الأثرية ، تسمح لنا بتنظيم العناصر المحيرة ، لموضوع محاولة اعادة تكوين الممارسـات والعادات التى تسوس وتحدد حياة النساء فى مصر القديمة ، وتسمح لنـا أيضا ، بأن تحدد بعض سمات صفاتهن ، على مدى مساحة زمنية تزيد عن ثلاثة الى أربعة آلاف عـام .



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب